

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

نافخ البؤبؤ

تأليف
توماس هاردي



ترجمة: محمد مفيد الشوباشي
مراجعة: علي أدهم

ناصح البون

- تأليف
توماس هاردي

مراجعة
عيسى أدهم

ترجمة
محمد مفيد الشوابشي

وزارة الثقافة والارشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للأدب والفنون والاطباء العرب

Trumpet Major

by

Thomas Hardy

مقدمة

ظهرت هذه القصة لأول مرة عام ١٨٨٠ ، ضمن السلسلة التي كانت تصدر باسم « كتب جيدة » ، ويرسم « جون كوليبار » لها الصور . وقد نشرها سميت الأكبر في نفس العام كذلك في ثلاثة أجزاء . وظهرت على غلاف الطبعة الأولى صورة بريشة هاردي نفسه . . .

وقد ظل هاردي مدة طويلة مهتماً شديداً بحروب نابليون ، وتوجد له مفكرة مكتوبة تتضمن مواد عن هذا الموضوع خاصة بأزمته مختلفة ، رجع إليها في كتابة « نافخ البوق » أو « جاويش البروجي » ، وقصة « الأمراء الحاكون » التي كتبها بعد ذلك بما يقرب من خمسة وعشرين عاماً وقد استمدوا من « جاويش البروجي » مسرحية درامية ، وقام بتمثيلها في دوشستر عام ١٩١٢ ممثلون محليون . وكان من المصادفات الالئمة أن ماتت زوجة مسر هاردي الأولى يوم مثلت تلك المسرحية لأول مرة .

وقد جرت أحداث القصة في أوفر كيب ، وفي الأماكن المجاورة لويماوث ، وجرت أحياناً في البلدة نفسها . وأطلق هاردي على كل أماكن القصة أسماء موطنه ويسكن الأصلية ، ولكن الكاتب أقدم ، فيما يختص ببلدة بودسماوث ، على تسميتها باسمها العادي ، وهو ويماوث ، عند تحدته عن «جيجي» الملك جورج الثالث إليها ، ومفادته لها .

التاريخ بعيد نفسه ، ولن يكون هناك شيء أدل معنى من قراءة قصة هاردي المسماة «جاويش البروجي» ، لمؤلاء الذين قضوا أشهر الصيف عام ١٩١٤ في قرية إنجليزية . فإن عبقرية هذا الكاتب تخلق الجو نفسه من جديد ... تسلل إحساس جديد بالتدرج إلى الريف الحقيقي المستسلم للنوم . . . وقيم متغيرة ، وأشخاص يخرجون من بؤرة تجمع النور ظاهرين هم وحياتهم العادية . . . وأشباح غريبة تربع حيث لم يكن أحد يتوقع إلا حلول غد عادي مريح ، ونظراً إلى أن قلبه قلب أستاذ في فن الكتابة فإن كل شخصية في قصته تصدق في تمثيل نموذجها .

القصة بسيطة، وأشخاصها ينتظمهم ترابط وثيق، فهناك ميلر لفدى (صاحب الطاحون) وولده جون، وهو جاويز البروجي، وأخوه بوب الملاح. وقام صاحب الطاحون بتأجير جانب منها إلى الأرملة جارلاند وابنتها آن، وقد ظلت عالقة بهما فحة عاطرة من رقى الحسب وورثتها من رسام المناظر الطبيعية، الفقيه جارلاند. وتدور القصة حول هؤلاء الأشخاص الخمسة.

وكان جون، وهو جندي نظامي في صفوف المتطوعين المختلفين الأزياء والألوان ينظر إلى غزو الفرنسيين المظنون على أنه مسألة تخص رؤسائه كلية، ودوره في ذلك إطاعة الأوامر بحسب. وفتوس دريمان المزارع الشاب المختال الفارع الطول، بحسبانه أحد الفرسان في فرقة الأشراف المتطوعين، يزداد اختيالا، على الأرجح، عن ذي قبل، في حين أنه لا يكاد يستطيع أن يصبح أفرغ رأساً. والأرملة وابنتها تلعبان نفس الأدوار التي لعبت في كثير من القرى منذ أقل من عشرين عاماً، كانتا تمتحان كل ما هو عسكري دون تمييز، آيات تقدير... مليء بالإعجاب، وتمتحن حنانهما العاطفي لدى كل بادرة توحى بالخطر، وكرمهما الحماسي لكل المحاربين المجاهدين سواء بسواء «والفارس المتطوع الشاب الهادي» الذي نوى أن يؤدي واجبه دون أن يكتر من الكلام، برغم علمه بأن آلافاً من الرجال الشجعان سيلقون حتفهم قبل تأدية ذلك الواجب.

ولعل هاردي كان يردد آراء «فارسه المتطوع» في قصيدته التي نشرت في صحيفة التايمز يوم ٩ سبتمبر من عام ١٩١٤ بعنوان «الرجال الذين يرحلون إلى الحرب»، وهي:

«إننا نرى جيداً ما نحن صانعون».

«وإن كان كثيرون غيرنا لا يرون».

«ونعتقد من سويداء قلوبنا».

«أن النصر يتوج الصادقين».

«ومن الإيمان والجرم الكافي فينا».

«خلق الرجال الذين يرحلون...».

يسأل الجاويش الذى يقوم بتدريب الجنود :

— ماذا يقول ذلك الرجل الواقف فى الصف الخلفى ؟

ويتجلى الحرص الوطنى على تنفيذ كل أمر عسكري فى الرد :

— عن لذنك ياسيدى ، أنا أنتونى كريبلسو الذى يريد أن يعرف كيف

يقضم طرف خرطوشه بينما لم تبق فى فكيه سن واحدة ؟

— عفواً يا جاويش ، ولكن ماذا ينبغى لنا أن نصنع ، نحن مشاة الفرقة

غير المدرية ، إذا جاء بونى (يقصد نابليون) قبل أن نحصل على بناقدنا ؟

— نخذ حربة كغيرك من العاجزين ؟ .

هذه هى أيضاً أحاديث القرية عام ١٩١٤ عن نفس الأمور المتوقعة ،

واللذاكرة المرتدة إلى الماضى تقارن بين كلمة العاجزين ، وكلمة « المستخف بهم ،

المشابهة لها نطقاً فى اللغة الإنجليزية . أما اليوم فهى كلمة تشريف فى عين كل أولئك

الذين يذكرون أصحابها عند العمل . ونحن نكاد نستطيع أن نتصور جندياً مستجداً

من فرقة ذلك الجاويش المكونة من العاجزين يرقب العدو من فوق الصخرة العالية

بوجهه المنفرد المصطنع ، ونكاد نرى أن الحوار يلائم الحالين القديمة والجديدة .

الكولونيل : — هل تعرف لم أنت هنا ؟

— لأصد العدو ياسيدى .

الكولونيل : — وهل تظن أنك تستطيع تحقيق ذلك وحدك ؟

— لست أدرى ياسيدى ، لكنى أدرى أنى سأحاول ذلك محاولة

جادة ملعونة .

أما عن فتيات القرية ، فبرغم أن فتيات عام ١٩١٤ كن أكثر تحفظاً ، فيما

يجاهرن به ، عن فتيات عام ١٨٠٤ ، فإن قلوبهن لا بد كانت تردد صدى قول آن

وهى فى بيتها الويسيكسى (١) : « وددت يا بوب لو أننا كنا تقطن فى شمال إنجلترا

لنكون على بعد شاسع من المكان الذى سينزل العدو فيه . »

(١) نسبة لى للفلم ويسيكس بجنوب إنجلترا .

وهذه القصة لم تحو إلا القليل من فلسفة هاردي الدنيوية التي تتناول الجانب الأشد ظلمة من طبيعة البشر ، والتي خيمت على حياة « تيسى » و « جود » ، وقصص كثيرة أخرى . وهنا نجد صورة بلغت حد السكال عن « دورستشير » . عندما كان الملك جورج الثالث يحضر إلى ويموث لقضاء عطلة ، مصطحباً زوجته الألمانية ، وذريته الكثيرة العدد ، بينما كانت أوربا كلها تنتفض خوفاً من « الغول الكورسيكي » ، من الرجل الصغير الهائل الذي كان « أقل من مخلوق بشري في شعوره ، وأكثر من مخلوق بشري في إرادته » . وبذلك بقيت الحراسة إلى جانب المنارات المنعزلة ، وجرى تدريب الرجال الدرد عسكرياً ، وتخزين الحراب في الكنائس ، وتهديد الأطفال الأشقياء ، فيما إذا لم يتوبوا ، بالمصير المفرع ، وهو أن « بوني » سيأخذهم .

وويموث ، المنزه البحرى الملسكى ، معروف لأناس كثيرين ، وقد شاهد بعضهم المسرحيات التي قام بتمثيلها على المسرح هناك خلفاء جاك بانيستر ، مع أنه لم تقطع مجرى تمثيلها أبناء مفاجئة كنتك التي باغتت الملك ، والتي باغتت جماعة لعدى مساء . ولكن روح هاردي أطالت المكك ، بحق أى حق ، في صميم الريف ، تحت شجرة الفراغ التي علق عليها الإعلان للمسكى مرة ، وهي الواقعة في أحد الحقول بين أوفر كيمب وضيعة دريمان ، حيث اعتاد المعجبون بأن أن يقطعوا عليها طريقها . . . أو أطالت المكك إلى جانب الميساء المصقولة الصفحة في حوض الطاحون حيث سقى فرسان الملك جورج خيولهم ، « فشربت الحيوانات الظائمة ، وضربت الأرض بأرجلها . وانتفضت ، وعادت إلى الشرب ثانية . . . بينما كان « ميلر لعدى يتطلع إليها من فوق سياج حديقته ، والفلاحون المعجبون بها يتجمعون حولها . » والنساء في بساتين الفاكهة أو أمام أبواب أكواخهن ، والرعيان في التلال النائية ، وعازقو اللفت في الأراضي المحيطة المنخفضة ، المائلة إلى الزرقة ، الواقعة على بعد أميال . . . وفي داخل حديقة الطاحون حيث كانت آن تقضى جانباً كبيراً من وقتها ، والعصافير اللطيفة تغرد لها ، والفراشات المبهجة تحط على قبعتها ، والنمل المفرع يجرى تحت جواربها صاعداً هابطاً . . . وكان القمر قد غاب ، وظلت نجوم الصيف وحدها تلتق أضواءها على الحديقة الكبيرة الرطبة ، حيث خيل إليها ، وهي تستاق مستيقظة على فراشها ، أنها تسمع أصواتاً .

وصاحب الطاحون لفدى شخصية لطيفة بحكمته النافذة، ونظرته واسعة الأفق،
وبجاملته الطبيعية البسيطة. وقليل من الناس، عدا الأرملة جارلاندر نفسها،
ينظرون إليه نظرة من هم أرقى اجتماعياً منه، فعقليته وأساليبه وحديثه،
بل وملبسه، بلغت جميعها الغاية في نوعها، فهي جديرة بالسلسلة الحافلة بأسماء
أجداده الطحانين الذين انتقلت إليه الطاحون عن طريقهم. وفلسفته اللطيفة
تفصح عن تربيته. «لا خير في أن يتودد المرء لقوم حتى إذا كانوا لا يحتملون
كل الاحتمال». وهو يتغلب على صعوبة إيواء الببغاوات التي جاء بها بوب،
والتي تقذف في سبابها، برأى أوحش به الطاحون نفسها: «لا خير في أن يسمع
الطحان سبابها، لأنه لن يتعلم منها سباباً أقدح مما يعرفه حالياً». وهو يجيب على
أحوال ماتيلدا المشوشة المتعالية عن وضعها الحقيقي في حياتها البيئية المستقلة:
«هذا حقيق إلى حد كبير، وستقولين ذلك عندما تعيشين هنا فترة وأنت سيدة
المزول، وتتجشمين مشقة تنظيف الرياش». وهناك كبرياء الرجل المتواضع في
تأكيد لفدى لابنه بوب أن هروب ماتيلدا الفجائي لم يكن بدافع سوء سلوكه:
«أحسب أنني لا أعلم ما قد أكون ارتكبت فصدمت شعورها، وعلى ذلك
سأتناول طعامي الدسم في غرفة الخيز، وأكتفي بكسرة وقطرة خمر أتناولها في
حضرتها بجمالة». وحتى بوب الذي كان يحطم القلب لفترة قصيرة، أقر بقوله:
«أنت لم تكن تستطيع أن تفعل أكثر من ذلك».

ولم تكن السيدة جارلاندر، التي تزوجته بعد ترملها، كفؤاً له قط، برغم
تمسكها بين الفلاحين والسادة بوضعها الطبقي على أساس إلامها بالقراءة،
واستطاعتها كتابة الرسائل، وتوضيحها لجيرانها أبناء الصحيفة، التي كانت تجدد
سبيلها عرضاً إلى القرية. وهي لم تكن قط على يقين مما تريد سواء فيما يتعلق
بمن يطلبون الزواج بابنتها، أو بالملابس التي يجدر أن ترتديها، ولكنها كانت
عنصرأ مرحباً في الحياة المنزلية بالطاحون. كانت متأهبة لتلقي أبناء العالم الخارجي
دون ما هياج لا مبرر له، ولأن تقول لدى رؤية الملك جورج وأسرته وهم في
طريقهم إلى ويموث: «شكر الله، فقد رأيت الملك». ولأن تقترح رفع
مضوية أسرتها في ليلة أحد، عندما لم يجد أفرادها أغنية يغنونها، بترتيل أناشيد

دينية على أساس أن اختيار اللحن المنتمش ، دون ما التفات إلى معاني كلماته ، لا يكاد يقل حسناً عن الأغنية الشعرية .

وقد ورثت آن عن أمها طبيعتها المتذبذبة . وإن سرعة تحولها من طالب زواج إلى آخر ، تحير بعض الشيء أحياناً . اجتذبتها جاويش البروجي ، رفيق صباها ، وهو خير نموذج لجندى بريطاني تنوق إليه الفتاة في قرية من القرى . ثم يأسر بوب خيالها بما يحيط به من سحر البحر ، ومن مهارته في التسلق إلى التوافذ للدخول والخروج منها ، وإعداد الموائد ، وخطب صفار البيض بدياضه . بل إن فستوس دريمان ، وهو جبان في زى فارس من الفرسان المتطوعين ، فاز إلى حين بحظوتها التي لا تبقى على حال . وذلك خلال فترة شكها في شعور الأخوين لفدى ، وشعورها هي . ودريمان الهرم ، عم فستوس ، ندله في صفاته الكريمة . فالجشع والوقاحة من ناحية أحدهما لا تضارعهما إلا الحسة اللثيمة من ناحية الآخر . ولكن أجمل شيء في القصة هو الحب المتبادل بين أفراد أسرة لفدى الثلاثة . فصاحب الطاحون يتلهف على مساعدة ولديه في السراء والضراء ، وفي الكباتر والصغار .

ويرغب كذلك في إقامة حفلة عرس لما تيلدا التي جبيء بها فجأة ، وانتظارها لتناول الإفطار مهما طال تأخرها ، واحتجابه بعد وقوفه من تلك السيدة على حقيقة أخلاقها التي أدت إلى هروبها على عجل ، واحتجابه في أشد مخايبه الطاحون امتلاء بالديق حيث اعتاد أن يلتجئ كلما أزعجه أمر ، وكان عطفه على بوب الحزين لا يحد . فقد تعجل الزواج بالسيدة مارتا جارلاندا حتى لا يضيع الجهد الذي بذلته تلك السيدة لحفلة عرس بوب هبام . فن تنظيف البيت تنظيفاً متقناً ، ومن إعداد كميات كبيرة من الفطائر والحلوى والحز ، ولكنه تلهف على حضور ابنه إلى تلك الحفلة حتى ينال نصيبه من المأكول والمشروب الوفيرين ، فلعله يجد في ذلك نوعاً من العزاء .

و سَأجد وسيلة لترتيب الأمر يا بوب لجعل حفلة العرس أكثر احتشاماً حتى تصبح مكفهرة إلى الحد الذي يمكن أن تتطلبه . . . وبجمل القول إنها ستصبح كالجنائز تماماً . . . سأفضل ذلك إذا وعدتني أن تبق وتحمضرها . .

وحب كل أخ من الأخوين للآخر كان من هذا النوع كذلك ، فإن كلا منهما كان راغباً بدوره في التنازل عن آن التي يشتهيها لنفسه .

قال بوب : « حاول أن تفوز أنت بها ، فأنا أستطيع أن أبحث في مكان آخر » . ولكن جون هو الذي بذل التضحية الأخيرة .

وراء القصة يقوم السند التاريخي الذي يضيف قيمة كبيرة إلى أهميتها ومقرها . فهي تعود بنا إلى عام ١٨٠٤ « عندما كان توقع الشر يغلي في كل مكان كالمرجل . وفي العام أو العامين الأخيرين من ذلك العهد لم يكن يفصل الوطن الإنجليزي الهادئ عن جيش العدو الذي يبلغ مائة وخمسين ألف مقاتل إلا مضيق ضحل عرضه خمسة وعشرون ميلاً . . وراقب الإنجليز بونا بارت . . وراقب بونا بارت الإنجليز ، وقد انتظمت القصة في دقة خطته الخيالية الساذجة لغزو إنجلترا ، وأشعرتنا في كل صفحة من صفحاتها اشتداد الروح العسكرية مختلطة بمخاوف الإنسان الطبيعية .

والنبا الذي أبلغ الملك جورج في مسرح ويموث كان نبأ إخفاق نابليون في خطته ، وانتصار سير روبرت كالدوار ، بالقرب من رأس فينيستر ، على أسطول الأدميرال فيلتوف العائد من رحلته التضليلية إلى جزائر الهند الغربية . وبعد تشتت السفن الفرنسية ، وارتدادها إلى ميناء فيرول ، ثم إلى قادس ، قضى على الأسطول الذي كان سيحمي السفن المسطحة القاع في اجتيازها للتخليج الإنجليزي مقلة للملاحين الغزاة .

وتظهر في القصة شخصيتان تاريخيتان أحدهما الملك جورج نفسه وهو يتجول ناحية البحر بالقرب من قصره في ويموث ، ويحيي آن الباكية بعبارة التاريخية : « ماذا ؟ ماذا ؟ » ، وثانيهما كابتن هاردى ، أحد أسلاف الكاتب ، وكان له « منزل صغير في بوسهام ، على بعد أميال قليلة من أوفر كيب ، حيث اعتاد أن يقضى فترات راحة بين رحلاته البحرية الحربية » . وهو الذي أتاح لبوب أن يعود إلى مهنته البحرية عودة مشرفة ، وأن يشغل إحدى الوظائف المرغوب فيها على ظهر السفينة « فيكتورى » . ونحن نسمع أنباء موقعة الطرف الأغر ، وموت تلمسون الفاجع ، إلى جانب وصف الفرحة التي غمرت جون لدى اطمئنانه إلى

سلامة أخيه ، واختياره « واحدًا من الثمانية والأربعين ملاحاً الذين ساروا أزواجاً أزواجاً في موكب الجنازة » .

وبرغم أن القصة لا تعد تاريخية بالمعنى الدقيق ، إلا أنها قصة تهي من جديد ، إلى حد بعيد ، جو جنوب إنجلترا وقتما كان نابليون يتمتع بأوج سطاته .

ولكن فتنة هذه القصة خاصة بما فيها ، وهي تطالعنا نضرة من سن قلم مبدعها ، متحلية بين سلسلة متسقة من أشجار الكراز ، وتحت أضواء الشمس الساطعة ، ومن خلال العواطف البشرية ، رقيقها وبسيطها ، وضعيها وكرهها . وهي تبلغ ذروة التضحية المكتملة في وصف خلق جاويش البروجي نفسه . وهاردي لا يخطيء بحزبة الحياة قط ، ولا يصطنع لقصصه خاتمة سعيدة تكفوا تيم قصص العهد الفسكوري . وبرغم أن صاحب الطاحون يفوق زوجته في الخلق والسلوك إلى حد كبير ، فهي التي تنازل في القصة لتتزوج به ، وابتها آن تحتار أسوأ الرجلين قطعاً . أما عن جون فهو يتصف كأبيه بإياه فطري لا يتخلى عنه أبداً . والحب الذي وهبه لأن كان أسمى هبة سنحت لها في حياتها ، وكرم الخلق الذي دارى به ذلك الحب كان فوق متناول إدراكها . بيد أن بوب ، الأشد إخلاصاً للحياة ، هو الأكثر ملاءمة لها . وهذا الملاح المرح ، الحاد المزاج ، الهوائي الشعور ، الذي أخلص لسكل من آن وما تيلدا ، راغباً فيمن تكون منهما أسهل منالا ، متعثراً دون تدمر بفعل الحظ السيء أو الحظ السعيد ، متمتعاً بالمهارة الكافية لتضليل عصابة اصطياد الملاحين ، ، هذا الملاح لا يرتفع مع ذلك إلى سمو الخلق الذي أبداه كل من أبيه وأخيه جون .

ولكن بوب هو أسعد الآخرين حظاً . فهو يعود إلى الحياة البحرية في اللحظة الحاسمة ، ويتخوض المعركة ويخرج منها سالماً ، ويفوز بأن حين يرغب فيها ، ويشيع هو وأن أخاه جون ونفيره بابتسامه وداع . . . ولن ترد نغبات ذلك النفير ثانية فوق تلال ويسكس محمية إنجلترا والملك جورج ، عندما ينتهي القتال الرهيب الدائر خلال غزوة « شبة الجزيرة » ،

سيرة توماس هاردى

من السهل ذكر الوقائع المتعلقة بحياة « توماس هاردى » ، ولكن لا بد للمرء من قراءة الصفحات التي كتبها أرملة هاردى ، « فلورنس إميل » ، عن سيرته ليرى نفس الرجل الذى :

« كانت حياته عملاً متصلاً ، ولغته » .

« تزخر بالأمثال القوية المنحوتة من صميم الحياة ... »

وتوماس هاردى يجيى ثانية هناك فى فصول من مذكراته ويوميته المكتوبة بقله ، مشتملة على تفصيل ما كان يقوم به من عمل « روتينى » فى لندن ، وفى القارة الأوربية ، وفى موطنه ، ويسكس ، على الأغلِب ببلدة « ماكس جيت » القرية من دوشستر .

وكان هاردى ثالث ثلاثة من أفراد أسرته توارثوا اسم « توماس هاردى » . وقد ورث كفاءته الموسيقية عن كل من أبيه وجدّه ، وكان يعزف على الكمان ويرقص وهو بعد طفل فى الرابعة من سنّه . وكان مولده يوم ٢ من يونيو عام ١٨٤٠ فى « هاير بوكهامبتون » بالقرب من دورشستر المسماة فى قصصه باسم « كاستربريدج » . وكان أرق بنية من أن يجتاز الحقل الشاسعة لتلقى العلم ، ولكن المعلم بمدرسة دورشستر قام بتلقينه قدرأ غير قليل من الدروس ، وظل يتردد على تلك المدرسة حتى سن السادسة عشرة . ومن ثم تركها ليتدرب على فن « المهار » بمكتب مستر جون هيكس فى دوشستر . ورحل بعد خمس سنوات من ذلك الحين إلى لندن حاملاً توصية إلى آرثر بلومفيلد الذى منح فيما بعد لقب « سير » . ولم يلبث هاردى أن أصبح مساعداً له . وقد تميز فى عمله ، وفاز بعدة جوائز من المعهد الملكى « للهاريين » البريطانيين . وقضى فى ويموث ردحا من الزمن يعمل مع أحد أصدقاء جون هيكس فى ترميم الكنائس ، وألف هناك منطقتة بودماوث على نحو ما وصفها فى قصة جاويش البروجى ، فن الجواجميل ، إلى نزهة المراكب فى الخليج ، إلى تخوم « شاطىء شيزيل » المشهور بجماله .

وفي عام ١٨٧٤ اقترن بزوجه الأولى « إلاما جيفورد » التي قابلها بأبرشية « سان جوليت » عند زوج أخته في « كورنوول » بالقرب من « بوسكاسل » ، حيث ذهب لينظر في أمر ترميم الكنيسة هناك . وقد كتب قبل زواجه ، قصصه الثلاث : « الملاح اليابس » ، و « تحت شجرة الغابة الخضراء » ، و « عينان زرقاوان » ولم تلاق هذه القصص إلا قبولا فاتراً . وكان قد نشرها باسم مستعار ، وكذلك فعل عند نشر قصته « بعيداً عن الزحام الذي يورث الجنون » ، وقابل الجمهور هذه القصة الأخيرة بحماسة ، وحوّلها « كومينزكار » إلى دراما مسرحية عام ١٨٨٢ ، وأخرجها هو نفسه لأول مرة في ليفربول ، ثم على مسرح « جلوب » في لندن .

كان هاردي كاتباً مجدداً في إنتاجه ، فقد صدرت له اثنتا عشرة قصة ، تلا بعضها بعضاً في فترات منتظمة ، وظهرت له مجموعة « أشعار ويسكس » عام ١٨٩٨ ، وقصة « الأمراء الحكام » ما بين عامي ١٩٠٤ و ١٩٠٦ . واعتاد أن يقضى جزءاً من كل عام في لندن بين أدباء العصر الفكتوري المشهورين الذين كان له بينهم أصدقاء عديدين ، ولكنه كان يقضى الجانب الأكبر من وقته في « ماكس جيت » ، وهو المنزل الذي شيده على جانب طريق ويرهام الممتد من دوشستر ، وهناك كان يتفق أيامه بين أهالي ويسكس الذين عرفهم تماماً ، وأحبههم كثيراً . وماتت زوجته الأولى عام ١٩١٢ ، فنزوح عام ١٩١٤ « ليللي دوجديل » التي كتبت سيرته المشار إليها . وفي عام ١٩١٣ نال « وسام الاستحقاق » ، ولم يمض على ذلك عامان حتى منحته الجمعية الأدبية الملكية نوطها الذهبي . وفي عام ١٩٢٠ منحته جامعة أوكسفورد لقب « دكتور في الآداب » ، وفي نفس الليلة التي فاز فيها بهذا اللقب قامت جمعية التمثيل في جامعة أوكسفورد بتمثيل مسرحية « الأمراء الحكام » ، في مدينة أوكسفورد .

وهكذا مرت السنون ، وبدا أنها لم تحدث إلا تغييراً ضئيلاً في القوة الفكرية التي كانت تؤثر في إنجلترا آنذاك . وكانت لهاردي قدرة كبيرة على استمالة جيل الشباب ، وقد تلقى في عيد ميلاده الواحد والثمانين رسالة تبجيل مذهلة بتوقيع مائة وستين كاتباً من كتاب الشباب . وظل محتفظاً بمادامه الدائبة . وكانت قامت القلملة الانحياز ، ووجه الصغير ذو العنقن العميقين المتأملتين ، كانا معروفين

لأصدقائه في كثير من غرف الاستقبال بلندن كما كانا معروفين في دروب ويسكس .
وفي يوم ٩ من سبتمبر عام ١٩٢٦ شاهد تمثيل قصته « عمدة كاستربريدج » ، على
مسرح واوت بعد أن صاغها « جون درينكوتر » ، من جديد للتمثيل المسرحي .

وكان قد وصف في قصة « جاويش البروجي » ، حضور الملك جورج الثالث
إلى هذا المسرح نفسه . ومشاهدته الممثل بانيستر في قيامة بتمبل إحدى
مسرحيات كولمان .

وتوالى اضمحلال قواه في هدوء ، وتوفي في بيته ذاته يوم ١١ من يناير
سنة ١٩٢٨ وقد بلغ السابعة والثمانين من عمره .

وتم واجب تكريمه بإقامة مأتم عام في كنيسة « وستمنستر أبي » ، حيث دفن
رفاته ، ولكن قلبه نقل إلى كنيسة أبرشيته في بلدة « ستينفورد » ، تلك الكنيسة
التي عرفت في كتبه باسم « ماستوك » .

وقد جادت عليه الآلهة بهمة جزيلة فرد لجيله هذه الهبة إرثاً كبير القيمة .
يبد أن قلة من الناس تستطيع أن تزعم أنها فهمته فهما تاما . ولعلنا نستطيع أن
نكون أدنى قريباً من طبيعته الحزينة الغريبة إذا قرأنا شعره الذي أودع به أمن
قيم كتاباته .

ومن أواخر الأسطر التي كتبها قوله : « إن الذي تعلته لن يعرفه مخلوق » .
ولكننا لا نجعل أنه ملا لنا ويسكس بأناس خلقهم خلقاً جديداً ، وأولئك
الذين يقفون في كنيسة « ملستوك » ، الحافظة الضوء ، حيث يستريح الآن قلبه ،
يكادون يلحون طلعة جاويش البروجي تقف كالشبح إلى جانبه ساهرة عليه ،
وتكاد آذانهم تلتقط أصداً فغيره تعرف لحن انصراف الجند لآخر مرة
في نبرات الأشباح ؟

الأخ الأكبر نافخ البوق^(١)

« كانت تراه العين من النافذة »
« المظلة على المرج »

في الأيام التي كانت النساء ترتدى خلالها الزناثير العالية ، والقمصان الشفافة . أيام كان التجنيد يجري في البلاد على نطاق واسع ، ويسبب الرعدة للجنس اللطيف . في تلك الأيام عاشت في قرية قريبة من ويسكس سيدتان سيرتهما حسنة ، وإن كانت مواردهما لسوء الحظ محدودة . كبراهما كانت السيدة « مارثا جارلاندر » ، وهي أرملة مصور للناظر الطبيعية . والأخرى ابنتها الوحيدة « آن » .

كانت آن جميلة . . . كانت جميلة جداً من حيث المفهوم الشعري ، ولكن كان لها من حيث البشرة ذلك اللون الخاص الحائر بين لون الشقراء والسمرات ، ذلك اللون الذي تركه الناس على نحو غير ملائم دون اسم . . . كانت عيناها صادقتين مستقيمتين ، وفيها منحوتات نحنا نظيفا ، وبرغم ذلك لم يكن كلاسيكيا . وموضع الوسط من شفها العليا قلنا ينحدر إلى الحد الذي كان من الحق أن ينحدر إليه ، حتى أن أجزاء من اثنتين أو ثلاث من أسنانها البيض تظل مكشوفة للعيان لأقل خاطر سار يخطر للفتاة ، ناهيك عن أية ابتسامة ، سواء أرضيت عن ذلك أم لا . . . وبعض الناس قالوا عن ذلك إنه جذاب جداً . . . كانت رشيقة هيفاء . وبرغم أن طولها لم يزد عن خمس أقدام إلا قليلا ، فقد كانت تستطيع أن تنصب قامتها لتبدو طويلة . وكانت في سلوكها ، وفي جياتها وروحاتها . وفي قولها « سأفعل هذا » ، أو « سأفعل ذلك » ، كانت تجمع في هذا كله بين الوفاق والعدوية على نحو لم تستطعه فتاة أخرى قط . وأي جماعة من الشبان الغريباء المرهقي الحس

(١) رئيس « جوقة » غازفي البروجي (شرح الأصل) . وقد سمى في هذه القصة جاوئش البروجي كما يسمى عندنا في الجيش .

الذين يرون بها كانوا يتلفون على أحاديث تنساقط منها ، ويرون في الوقت نفسه أنهم لن يفوزوا بها . ويجمل القول أنه كان يكن وراء كل ما هو جذاب وبسيط في هذه الفتاة ، حزم حقيقي ، لا يلحظ لأول وهلة ، فهو كشاشة اللون تسكن غير ملحوظة في قلب أشد زهر المقدونس شحوبا .

كانت تليس مندبلا أبيض تسر به جيدها الأبيض كذلك ، وتضع على رأسها قبعة ملفوفة بشريط وردى معقود على نحو مائل من أمام ، وكانت لديها أنواع منوعة من تلك القبعات الملفوفة بالأشرطة ، إذ كان الشبان المغمون يارسالها إليها على سبيل الهدية يواصلون ذلك حتى يقع الواحد منهم نهائياً في حباتل حبيبة معينة في ناحية أخرى ، وعندئذ يقلع عن القيام بذلك : وعلى الحد الذي تلتقي فيه قبعتها بجبينها تدلى صف من الجداول الكستنائية الملفوفة الشبية بأعشاش الطير تحت رفارف الأسطح .

كانت تعيش مع أمها الأرملة في جزء من بناء قديم كان فيما مضى قصرأ منيفاً ولكنه يشتمل الآن على طاحون ، ولما كان البناء أكبر بكثير مما تحتاج إليه الطاحون ، فقد رأى صاحبه أن من الأنسب تقسيمه ، وتخصيص جزء منه لهاتين الساكتين المتمتعين باحترام كبير ، وكانت أذناكل من السيدة جارلاند وأن تمنعان في هذا المسكن صباحا وظهرا ومساء بوقع موسيقى الطاحون ، فقد كانت عجلات الطاحون ودواليها المصنوعة من خشب تحدث أنغاماً قد تستحدث في ذهنهما شها بعيدا بالأنغام الخشبية الناتجة عن فساد ميزان النغم في الأرغن . وعندما يعمد صاحب الطاحون إلى غربة القمح (١) تضاف إلى تلك الأنغام المتواصلة قرصة القادوس المهجبة التي لم تكن تحرمهما الراحة إلا عندما يظل القادوس دائراً طوال الليل . وكانتا تمنعان فوق ذلك كله بتمعة عليهما بأن غبارا طفيفا من الدقيق الشديد التعمرة يتسرب إلى مسكهما من غرفة الطحن نافذا من خلال كل شق وباب ونافذة مهما أحكم إغلاقها . . . كان غباراً لا يرى قط ، ولكن وجوده يدرك على مر الزمن بما كان يخلعه على أبهى أثاث من منظرشاحب طيني . وغالبا ما كان صاحب الطاحون يعتذر لساكتي بنائه عن تطفل ذلك الضباب الجاف الحديث ..

(١) تمرير القمح فوق غربال دائم الاهتزاز . (شرح الأصل)

ولكن الأرملة كانت ذات طبيعة ودود شكور ، وقد قالت إنها لا تهتم به أبداً نظراً إلى أنه ليس بالشئ القدر القبيح ، ولكنه عماد الحياة المبارك .

كانت السيدة جارلانده تظهر بهذا المزاج الرضى ، وبوسائل أخرى ، صداقتها لجارها الذى ارتبطت به هى وأن ارتباطا بلغ حد لم تتوقعه قط من قبل فى بدء انتقالها إلى هناك من منزل أكبر فى الناحية الأخرى من القرية ، وقد أغراها بذلك انخفاض قيمة الإيجار بعد موت زوجها . . . والذين عاشوا فى أما كن نائمة يدركون التقارب التاريخى هناك بين أقدار الناس ، ذلك التقارب الذى حدث فى هذه الحالة بتضحية نبل الحسب من جانب أسرة من الأسر . وكانت الأرملة تتكدر فى بعض الأحيان إذ تجد لدى ابنتها سرعة استعداد فى التقاط بعض كلمات من لغة صاحب الطاحون وأصدقائه ، أو من لهجتهم . ولكن هذا الأخير كان رجلاً طيباً صادق الشعور جداً ، وكانت هى على قدر كبير من سماحة التفكير ، ومن القناعة ، إلى حد أنها لم تكن لتجعل حياتها حياة عزلة لمجرد أسباب تقوم على التعنت . وكانت تجد ، فوق كل شئ ، أساساً قوياً لظنها أن صاحب الطاحون يعجب بها سرّاً ، وقد أضاف هذا طعماً حريفاً للوقف .

وفى صباح صينى جميل ، بينما كانت أوراق الشجر دافئة تحت أشعة الشمس ، والنحل الأكثر جدّاً فى العمل يغطس عارج خليته فى كل كوب أزرق وأحمر يمكن أن يعد زهرة . كانت آن تجلس فى النافذة الخلفية الواقعة فى ذلك الجزء من البناء الخاص بأهملها ، وتقيس أطوال خيطان الصوف لنسج البساط الذى تقوم بصنعه . وكان ملقاً بالقرب منها ، وقد تم صنع ثلاثة أرباعه . وبرغم أن صنعه كان باهراً من حيث اللون فقد كان مضنياً . إن بساط المسكن شئ لا يمكن للمرء أن يعكف على نسجه من الصباح حتى المساء . كان يلتقط ثم يوضع ثانية . ويجده ملقاً على المقعد أو على الأرض ، أو فوق الدرابزون ، .. أو تحت السرير . وقد يطوح به هنا ركلا أو هناك . ويوضع ملفوفاً فى الخزانة ، ويؤتى به ثانية . وعلى نحو قد يكون أكثر خضوعاً للزوجة من صنع أية أداة منزلية أخرى . وليس هناك من يتوقع إتمام نسج بساط فى مدة محددة ، فالصوف الذى تم نسجه فى بدء صنعه يصح باهتا قديماً قبل إتمامه . والشعور بهذه الطبيعة الأصلية فى

نسخ الأيسطة هو الذى حل آن ، أكثر مما حملها الكسل ، على أن تكرر النظر
نوعاً ما من النافذة المفتوحة .

وبدا أمامها مباشرة حوض الطاحون الكبير طاحفاً منفصلاً خلال السياج إلى
الشارع . كان الماء بما يحمل من أوراق الشجر وسقط المتاع يتسرب تسرب الزمن
مبتعداً تحت القنطرة المظلمة ليتعثر بالعجلة الكبيرة الدقيقة الدائرة داخلها . وكان
في الناحية الأخرى من حوض الطاحون مكان طلق يسمى « ذى كروس » ، لأنه
على شكل ثلاثة أرباع صليب ، يتقابل فيه دربان وطريق للماشية . . . كان مكانا
عاماً للتلاق المتواعدين ، وساحة يجتمع فيها أهل القرية المحيطة به . ومن وراء ذلك
ارتفع إلى السماء جرف شديد الانحدار ، ينتهى إلى صعيد طلق من الأرض ، وقد تناثر
فيه الآن عدد من الغنم جز شعره أخيراً . وهذا الصعيد يحمى بسموكة كلا من
الطاحون والقرية حماية تامة من ريح الشمال ، ويجعل من الربيع صيفاً ، ويجعل
الشتاء إلى مثل جو الحريف ، ويتيح للآس أن يزدهر في الهواء الطلق .

وجمعت الظهيرة بتقلها على المشهد ، وتوقفت الغنم بتأثيرها عن الاقتيات .
ولم يكن هناك أحد في « ذى كروس » ، إذ أن السكان القلائل كانوا وقتذاك
يتناولون غدامهم داخل دورهم . ولم يكن كذلك مخلوق في المرح ، ولا يبدو أن
هناك عينا كانت ترمقه ، أو اهتماماً تعلق به إلا عين آن واهتمامها . وظل النحل
يؤدى عمله ، ولم تهدأ الفراشات عن تجوالها . ويبدو أن صغر حجمها ظل يحميها
بما كان لركود هذه اللحظة — لحظة تحول اليوم — من أثر في المخلوقات الأكبر
حجماً . وكل شئ . عدا ذلك كان ساكناً .

نظرت الفتاة إلى المرح والغنم لغير ما سبب معين . وكان حد المرح المنحني ،
والاقحوان الممتد فوق الأسطح والمداخن ، وأشجار التفاح ، وقبة كنيسته
القرية البادية أمام الفتاة . كان هذا كله يبدو من حيث تنظر متاخماً للشهد .
ولابد أن تقع عينها على ناحية ما حين ترفعها بينما كانت تنهدك في نسجها ،
وتتوقف على نحو ما ذكرنا ؛ واسترعى انتباهها قيام الغنم الجائمة في المرح لجأة
وجريها بعيداً . وأعتبت ذلك أصوات وقع خطى ثقيلة على الأرض المعشوشبة
الصلدة التي جلست عنها الغنم . وصحب وقع تلك الخطى صليل معدنى . ودارت بعينها

إلى أبعد ، فرأت جنديين من الفرسان ، مدججين بالسلاح ، يصعدان في التل على صهوة جوادين أشهبين ضخمين ، يقصدان بقعة إلى اليسار انحدارها أسهل نسبياً . وكانت سلاسلهم المصقولة ، ودروعهم والواحهم الزخرفية ، تسطع كأنها مرايا صغيرة . ولم تهبت الألوان الزرق والحر والبيض بفعل الجلو ولم ترت .

كان الفرسان يركبان جواديهما في زهو ، وكان ذهنيهما الفاخرين لم يهتما بشيء أقل شأنًا من التيجان والإمبراطورية . ووصلا من التل إلى تلك الناحية المنبسطة أمام الفتاة مباشرة حيث رابطا هناك . وظهرت من وراءهما ، بعد دقيقة أخرى ، ثلاثة تبلغ زهاء ستة جنود من نفس الطراز . وأقبل هؤلاء ، وتوقفوا وترجلوا كما فعل زميلاهم .

ثم سار جنديان معاً إلى أمام ولم يلبث أحدهما أن توقف ، وتقدم الآخر إلى مسافة أبعد ، ومد بينهما شريطاً أبيض أخرجه من لفافة . وسار جنديان آخران إلى ناحية أخرى بعيدة حيث ميزا الأرض بعلامات . وعلى هذا النحو تجول الجند في الأرض وقاسوا المسافات طبقاً لخطة معينة مرسومة كما هو واضح .

وفي آخر مسرح هذه العمليات المنسقة بدأ فارس منعزل عن الباقين — هو الضابط المكلف بالعمل ، إذا كان الحكم على برته العسكرية لا يخطيء وهو على هذا البعد — وقد انطلق بجواده إلى أعلى التل ، وسار في الأرض المقيسة ، وخص بنظره ما قام الآخرون بعمله ، وظهر عليه أنه وجد ما رآه طيباً . ثم سمعت الفتاة أيضاً أصواتاً لوقع أقدام ، ولصلصلة أعلى مما سبق ، ورأت طابوراً كاملاً من الفرسان يصعد في نظام من حيث صعد الآخرون . وتساعدت على بعد وراء هؤلاء صحابة من الغبار تلف مزيداً بعد مزيد من فرسان تعكس أسلحتهم وأرديتهم أشعة الشمس خلال الضباب في ومضات خفيفة ، وشرار كالنجوم ، وخيوط من نور . واقترب الجيش كله في بطء من الهضبة الممتدة في أعلى التل .

وألقت آن بنسيجها . وقالت وقد تركزت بصرها عالقاً بمجموع الفرسان المقتربة ، وخيوط الصوف تتعقد كما شاءت أن تتعقد : « أماه ، أماه ! ، تعالي ! فهنا لى منظر بديع ! ما معنى هذا ؟ ماذا يمكن أن يصنعوه فوق التل هناك ؟ » .

وصعدت الأم ركضاً إلى الدور العلوى عندما سمعت هذا التضرع ، وتقدمت صوب النافذة . وهى امرأة حادة العين والشم ، غير متحمسة الطبع ، لطيفة السيام عموماً ، معتمة قليلا من حيث المظهر الخارجى . ولكنها لا تقبل كثيراً عن ابتها من حيث الشكل .

وكانت آراء الأرملة جارلاندى هى نفس آراء زمانها . وقالت وقد أعدت نفسها لحالة من أشد حالات الفزع :

— أيمكن أن يكونوا الفرنسيين ؟ أيمكن أن يكون هذا العدو الأكبر للإنسانية قد نزل أرضنا فى نهاية الأمر ؟

والذى لا بد من ذكره أنه كان هناك وقتذاك عدوان أكبران للإنسانية . . الشيطان كالعادة ، وبونابارت الذى قفز وخسف منافسه الذى يكبره سنا خسفا تاما . وكانت السيدة جارلاندى تشير بالطبع إلى السيد الأصغر سنا .

وقالت آن :

— لا يمكن أن يكون هو ذلك . آه ! إنه « سيمون بردن » الذى يرقب التل ، فهو سيعلم بما هناك .

ولوحت يدهما لهيكل رجل متقدم السن لا يختلف لونه عن لون الطريق ؛ وقد بدا فى التو من وراء حوض الطاحون . وكان برغم نشاطه متحنياً إلى درجة يتجمل معها الرجل الحساس الذى يراه من انتصاب قامته . وجعله حضور الجند يفتق من التليل من الخسر التى شربها فى « ديوك أوف يورك » . لقد اجتذبه حضورهم كما اجتذب آن . وعبر جسر الطاحون على إثر ندائها ؛ وأقبل صوب النافذة .

وسألته آن عما يعنى هذا كله . ولكن سيمون بردن واصل مشيه دون أن يجيب . . . واصله منفرج الشم . محملاً فى الفرسان ليشبع رغبته خاصة ؛ ومهتماً ذلك الاهتمام الذى يبديه الناس غالباً بشأن ظاهرة مؤقتة عندما يمكن لمثل تلك الأمور أن تؤثر فىهم مدة وجيزة ليس إلا . . .

وقالت آن لسيمون بردن :

— ستقع فى حوض الطاحون . . . ماذا يصنعون ؟ لقد كنت جندياً منذ

سنوات عديدة خلت ، وجدير بك أن تعلم .
وقال الحطام المتبقي من الجندية ، مستنداً جسده إلى الحائط عضواً بعد عضواً :
— لانسأليني يا آنسة أن . فأنا لم أكن إلا جندياً في سلاح المشاة كما تعلمين ،
فليس لي إلام واضح بشأن الخيول . نعم . وقد أصبحت شيخاً متقدماً في السن
ولا أستطيع الآن أن أحكم على الأمور .

وحمله مع ذلك شيء من دافع إضافي على زيادة البحث في مخزن أفكاره المتآكل .
ووجد أنه يعرف ما يحدث على نحو مهم لا يركن إليه . فلا بد أن الجنود قد
حضروا للرابطة هناك . وهؤلاء الرجال الذين ظهروا أولاً واضعوا العلامات .
وقد سبقوا غيرهم لقياس الأرض . والذي رافقهم هو أمين الميرة . . .
ثم أضاف قوله :

— وهكذا ترين أنهم آمنوا تخطيط الأرض وقتما حضرت السكتية . ثم إنهم
بعد ذلك سيقدمون على . . . حسن أيها العزيزة ! من ذا الذي كان يتوقع أن
« أوفر كومب (١) » ستشهد يوماً كهذا ؟
— وبعد ذلك سيقدمون على . . .

وقال سيمون :

— بعد ذلك . . . آه لقد عاودني النسيان . أوه ، وبعد ذلك سيقدمون
خيامهم كما تعلمين ، ويميدون خيولهم في المرباط (٢) . هذا هو الأمر . هكذا كان .
وفي هذه الأثناء كان طابور الجند قد صعد في التل وأصبح ظاهراً كل
الظهور . وشكل الفرسان منظرًا جميلًا وهم يخيون بجيادهم على طول الهضبة في سير
منتظم ، والسماء ذات الزرقة الشاحبة تسدهم من خلف ، والشمس الساطعة تضئهم
من الجنوب ، وكانت بزاتهم العسكرية مشرقة جذابة . . سراويل بيض من جلد الغزال
وأخذية ترتفع إلى ثلاثه أرباع الساق . . . وقلنسوات (٣) حمر المطرزة ، وشوارب

(١) قرية تقع في الشمال الشرقي من خيلج وبماوت (شرح الأصل) .

(٢) أوتاد تدق في الأرض لتفيد الميل يسمى الجند « بيكنس » (شرح الأصل)

(٣) تسمى القلنسوة من هذا النوع « شاكس » وهذا الاسم مستمد من كلمة لساكو
المغولية التي تطلق على القبة المخروطة الشكل ، القصيرة المزينة بريشة (شرح الأصل) .

مشممة إلى حد أن أصبحت أطرافها كالدبابيس . وفاقت ذلك كله تلك السترات الزرق الغالية الزينة ، المغطاة ، التاريخية (١) . وكانت جذابة في عين النساء ، وحلا تقبلا للابسيها .

وقال سيمون بردن الذي أشرق وجهه كبصيص الجرة الحامية حين يثار :
هؤلاء من فرقة « فرسان يورك ، وهم من الأجانب . كانوا ينخرطون في الجيش منذ عهدى بالجنديّة . ولكن يقول عنهم الناس إنهم زملاء طيبون مخلصون كثيرهم ممن تجدهم في خدمة جيش الملك .

وقالت السيدة جارلانده :

— هاهو عدد آخر منهم يختلف عن الباقين .

وكان هناك جنود آخرون يصعدون في التل خلال الدقائق الأخيرة ، قادمين من ناحية أبعد ، وقد أصبحوا الآن قريبين . كانوا يختلفون في وزنهم وبناء أجسامهم عن الآخرين ؛ فهم أخف وزنا ، ويرتدون خوذات مزينة بريش أبيض .

وقالت آن :

— لست أدري أي الفريقين يعجبني أكثر من الآخر . . . أظن هؤلاء على أية حال .

الآن قال سيمون الذي كان يحدق في الفريق الأخير: إنهم فرقة « الدراغون ، رقم . . وأضاف الرجل المسن .

— كلهم إنجليز . وكانوا في ثكنات بودماوث منذ بضع سنوات خلت .

قالت السيدة جارلانده .

— كانوا هناك فعلا . أنا أتذكر ذلك .

وقال سيمون :

— كثيرون من شبان هذه النواحي هنا انخرطوا وقتذاك في سلك الجنديّة ، وأستطيع أن أذكر أنه كان . . . آه ، لقد خاتمتي الذّاكرة ثانية . وعلى أية حال فإن ذلك كله أصبح الآن قابل الشّأن .

(١) هي أشبه بالعباءة ، وتسمى « بيليس » وهذا الاسم لا يني معناه الجلد لشاربه لله القرو الذي يحيط بأطرافها (شرح الأصل) .

ومر جنس الدراغون أمام هؤلاء النظارة كما فعل الأجرن . وإذا ريش
خوذاتهم الزاهي الذي كان مدلى في تكاسل أثناء صعودهم ، يترامى صوب الشمال
لدى ارتقايتهم إلى أعلى التل ، دالاً على أن نسيباً نقياً يجب على القمة .
وقالت آن :

— لكن انظر عبر التل .

وكانت قد جاءت إلى التل من ناحية أخرى عدة أورطات من المشاة يرتدى
أفرادها سراويل من الكشمير (١) ، وأغطية أحذية من القماش . وبدأ عليهم
التعب لمسيرهم مسافة طويلة . وقد أصبحت أحذيتهم وأغطيتها نلّسود ، بيشاً
رمادية بفعل التبار . ثم أقبلت في الحال عربات نقل الكتيبة ، وعربات بضائع
المقصف الخاص بالمعسكر ، تتبع آخر القافلة .

واحتل الآن بقعة الأرض الحالية أمام الطاحون سكان القرية جميعهم تقريباً ،
وكانوا قد أقبلوا مزيجين ، وبقوا رغبة في متعة المشاهدة ، والتمت عيونهم اهتماماً
بما شاهدوا . ذلك أن الزخارف ، والأردية العسكرية ، وخيول الحرب ورجالها
تكاد تكون هنا أبهة وعظمة ، وهى في المدن مجرد تسلية .

اصطف الفرسان صفوفاً ، وترجلوا ، وخلعوا عدتهم في سرعة ، ولفوا
لباس جلد الفم ، وربطوا خيلهم ، ونزعوا ألبحتها ، واستعدوا لإقامة خيامهم على
أثر المجيء بها إليهم من عربات النقل . وعندما تم ذلك ارتفع قماش الخيام من
الأرض المعشوشبة على لأثر إعطاء إشارة ، ومن ثم أصبح لكل رجل مكان
يستطيع أن يرقد فيه .

وبرع أنه كان يبدو أن أحداً لم يكن يشاهد ما يحدث غير القلة الواقعة وراء
النافذة وفي شارع القرية ، فقد كانت هناك عيون كثيرة في واقع الأمر عالقة
بإقبال أولئك الجنود وهم على ما هم عليه من مكانة سامية مرموقة ، هذا مع إغفال
النظرات التي كانت تصوبها إليهم الطيور والمخلوقات البرية الأخرى .

كان الرجال في الحدائق البعيدة ، والنساء في بساتين الفاكة وعلى أبواب

(١) نسيج من الصوف النقي ، ذو لون خاص ، خشن الصنع (نرح الأصل)

لا كواخ . والرعاة فوق التلال البعيدة ، والعازقون ، في حقول اللفت وهم
محاطون على بعد أميال بالزرقة المخضوضرة . وضباط السفن بنظاراتهم المقربة
في عرض البحر . .

كان هؤلاء يشاهدون المنظر باهتمام . لقد جاء أولئك الرجال الذين يبلغون
ثلاثة آلاف رجل أو أربعة آلاف ، ويتحركون معاً كحركة الآلة الواحدة .
وبعضهم من قارعى الدروع (١) بطبيعتهم ، والآخرون لهم ، ولا شك ،
الاستعداد المهادى لمهنة البيع في الدكاكين ، وقد ارتدوا البزة العسكرية على
غفلة منهم . . . لقد جاموا جميعاً من حيث لا يعلم أحد ، ولذلك كانوا موضع
فضول كبير . وقد بدوا للنظرة العابرة أنهم ينتمون إلى طراز من الخلوقات
يختلف عن أولئك الذين يقطنون الأودية الراقدة تحت التل . وكانوا يبدوون كذلك
غافلين غير عابئين بما يضطلع به العالم كله خارج هذا المكان بينما ظلوا منهمكين انهماكا
رائعاً في إقامة مأوى لهم على هذه البقعة من الأرض التي اختاروها .

كانت السيدة جارلاند ذات عقل يميل إلى الابتهاج والحيوية . . كانت امرأة
سرعان ماتور وسرعان ما تهدأ . وبجىء السكتيبة أثارها كل الإثارة . وقد ظنت
أن هناك سبباً يدعوها إلى ارتدائها أحسن قبعاتها ، ثم ظنت أنه ليس ثمة سبب من
هذا القبيل . . وأن عليها أن تسرع إلى تناول الغداء وتخرج بعد الظهر . . . ثم
ظنت أن عليها قبل كل شيء ألا تقدم على أى عمل غير عادى ، أو أن تظهر أى
انفعال سخيف مهما كان الأمر ، مادام ذلك لا يليق بأُم وأرملة . وبعد أن حددت
السيدة جارلاند مقاصدها إلى حد أن خضت حديثها وتحولت إلى إنسانة عادية
في سن الأربعين ، اصطحبت ابنتها إلى أسفل الدار لتناول الغداء قائلة :

— سندعو الطحان لقدى توأ ، ونسمع رأيه في هذا كله .

(١) قارعو الدروع هم الجنود الذين اعتادوا فرغ دروعهم لإحداث ضجة تخيف الأعداء
(شرح الأصل) .

شخص يترك الباب . .

ويدخل .

(٢)

كان الطحان « لعدى » يمثل أسرة عريقة من طاحنى القمح ضاع تاريخها بين ضيافات القدم وكانت سلسلة نسبه تعاصر أسلاف « دى روس » و « هوارد » ، « ودى لازوش » ولكن أسماء أفراد سلفه ، وزيجاتهم المتشابكة ، لم تسجل خلال القرون الوسطى نظراً إلى بعض عيب تافه كان يشوب ملكية دار « لعدى » . وعلى ذلك كان تاريخ حياتهم الخاصة فى أى قرن بعينه غير محقق . ولكن كان معلوماً أن الأسرة صاهرت عدداً من الفلاحين غير قليل كل القلة ، وفى إحدى المرات صاهرت دباغماً ينتمى إلى طبقة الأشراف ظل سنوات عديدة بعد موت أفرادها يشتري خيول أرقى أشراف المقاطعة . . . جيداً مطهمة كان ثمنها ، وهى فى ريعانها ، يقدر بمئات الجنيهات .

وكانوا يؤكدون أيضاً أن طبقة آباء جدوده بلغت ثمانية أعضاء ، وطبقة جدوده بلغت ستة عشر عضواً ، وأن كل واحد من هؤلاء عاش حتى سنوات نضج رنده . وكلما رجعنا إلى طبقة أعلى من طبقات جدوده وجدناه أفرادها يتضاعفون ويتضاعفون حتى يصبحوا لدى الطبقة العليا طائفة كبرى من السيدات والسادة القرويين (١) ذوى المكانة ، المعروفين باسم «سيوريل» (٢) وقد كانت لهم الأهمية الواسعة فى البلاد ، وتشعبوا فى ثنايا تاريخ إنجلترا غير المكتوب . وقد زاد أبوه المباشر من قيمة مسكنهم زيادة كبيرة ببناء مدخنة جديدة ، وإضافة حجرين من حجر الرخى إلى طاحونه .

(١) المقصود هنا القبائل الأولى التى غزت إنجلترا فى القرن الأول ، والقرنين الرابع والخامس (شرح الأصل)

(٢) هم أحطت كانت الناس من غير العبيد . ثم استعملت الكلمة بعد ذلك اسماً للأقنان . والمقصود السخرية . (شرح الأصل)

تعرض علينا طاحون أوفركومب من أحد طرفيها مظهر بيت تجارى، دائب العمل ، ينزلق إلى النهر ، ومن الطرف الآخر منزلا متكاسلا لطيفاً ، يكتسى نصفه في هذا الاوان من العام بالأشجار المتسلقة ، وليس له علاقة بالطحين . وله سقف مقوس بدلا من أن يكون هرمى الشكل ، وهذا يجعل له منظرأ مستدير الأطراف ، وله أربع مداخن لا يتساعد منها دخان ، وصدعان متعرجان في حائطه ، ونوافذ متعددة ، وبه في الداخل مرآة هنا ومرآة هناك تبدى ظهره المقوس للبارة . وبه كذلك ستائر من « البفته » الهندية في لون الثلج تتموج لدى هبات النسيم . وللطاحون بابان أحدهما فوق الآخر . والباب العلوى يمكن المرء من أن يخطو منه إلى فضاء يعا عن سطح الأرض بمقدار عشر أقدام . وهناك قنطرة فاغرة الفم ، تبقى ماء في الهر ، ورجل نحيل ، طويل الأنف ، يطل من مدخل باب الطاحون . هذا هو الطحان الأجير . وهو هناك دائماً إلا إذا احتل نفس المكان رجل منبج بز مائتين وعشرة أرتال إنجليزية ، وهو الطحان نفسه .

وظهرت وراء باب الطاحون أرقام مكتوبة بالطباشير بمجموعة ومطروحة ولا تبدو لمجرد عابر سبيل لم يزر الأسرة . وكثير منها محسوب في الأصل خطأ ، وقد مسحت أرقامه مسحا خفيفا وصححت وحولت أرقام الصفر إلى تسعة ، والواحد إلى اثنين ، هذه كانت حسابات صاحب الطاحون الخاصة . وفي نفس المكان كتبت بالطباشير أيضاً صفوف و صفوف من خطوط تشبه أوتاد السياج المكشوف ، وهى تمثل حسابات الطحان الذى لم يصل في تعليمه الرمزي أيام صباه إلى معرفة الأرقام التى يكتبها بالطريقة العربية .

وكان في الفناء الامامى حجرا رحى متآكلان . وقد أمكن جعل كل منهما ذا فائدة من جديد بوضعهما في مستوى الأرض ، فهنا كان الناس يتوقفون في الجو الموحل ، فيدخون ويتدبرون الأمور ، وكانت القطط ترقد فوق سطحهما النظيف عند اشتداد الحر . وفي ركن الحديقة أقيمت على جذع شجرة تفاح (١) ضخمة ، ركيزة من خشب التنوب اللاريسى اشتراها صاحب الطاحون مع أشياء أخرى من سوق بيع الأخشاب الصغيرة في « داميرز وود » خلال أحد أسابيع

(١) هى في الواقع نوع من التفاح . (شرح الأصل)

عيد الميلاد. وقد قامت على الأفرع العليا للشجرة دواراة ربح على شكل نوتى بمدود الذراعين ، وارتفعت قدر ارتفاع الشراع فى مركب صائد أسماك ، مركزة فى أعلاها . وإذا أضاءت الشمس وجه ذلك النوتى أمكن التحقق من أن ملاحظه قد ادمت ، وأن الطلاء قد زال عن جسمه إلى حدظهر معه أن ذلك النصب كان يمثل جندياً فى رداء أحمر قبل أن يصبح نوتياً فى رداء أزرق . وكانت صورته فى الواقع هى صورة جون ، أحد أشخاص القصة الذين سيأتى ذكرهم ، ثم تحولت إلى صورة روبرت ، وهو واحد منهم أيضاً . وإن هذه القطعة من النصب الدوار لا يمكن الاعتماد عليها فى الدلالة على اتجاه الريح نظراً إلى التل المجاور الذى يحدث تيارات مختلفة من الرياح .

وجناح الطاحون المنطى بالشجر ، الأكثر هدوءاً ، هو الجزء الذى تقطنه السيدة جارلاندى وابنتها اللتان تعاضان فى الصيف عن ضيق مسكنهما بالإسراع إلى الكراسى والمقاعد فى الحديقة ، وأرض ردهة المسكن ، أو غرفة الطعام المبنية من حجر . وهذه حقيقة حاولت الأرملة إخفاءها بأن سترتها بغطاءين حتى لا يتقصر قدرها وقدر ابنتها فى نظر الناس . وهنا استمر تناول الغداء وقت الظهر فى هواده ورشاقة ، كما يحدث عادة عندما لا يكون ثمة رجل جشع من آكلى اللحوم يستبقى أوان الطعام حوله . وإذ أوشك الغداء على الانتهاء دخل شخص الممر وسار فيه حتى صدع باب الغرفة ، وطرق الباب . . . وقد اختار هذا التصرف غالباً بقصد أن يتحاشى لإزعاج سوزان ، رفقاً بها . وهى ابنة الجيران الثقراء التى تساعد السيدة جارلاندى فى العمل صباحاً . ولكنها الآن مشغولة على الأخص بالوقوف على حافة ماء الحوض محلمقة فى الجنود وقد اتخذ فيها وضع المهور الأنفاس ، واستدارت حدقتهاها .

وحدث اضطراب فى غرفة الطعام الصغيرة . . . فشدت الحساسية عند من يعتادون العزلة تحدث لهم الخفقان لأسباب بسيطة غير مألوفة لهم ، وأخذت الأم وابنتها تحززان من يكون الزائر . لعله سيد من العسكريين قدم من المعسكر ؟ . لا ، هذا مستحيل . إنه القس ؟ لا فإنا كان القس ليحضر وقت الغداء . إنه الرجل الحثير بالأمور الذى يتجول بين البلاد متاجراً فى الأجواخ ، وفى أجمل أقراط برمنجهام ؟ . . . أبداً فيعاد حضوره لا يمين قبل الساعة الثالثة من يوم الخميس ،

وقبل أن يذهب بهما الفسك إلى أبعد من ذلك تقدم الرجل خطوة أخرى ، واستطاعت السيدتان أثناء الغداء أن تلمحاه من خلال نفس الصدع المعوان الذي مكنه هو أيضاً من مشاهدة مائدة الغداء بيت جارلاند .
— أوه ! إنه لعدى ، ليس إلا .

هذا التقدير الذى لا يساوى شيئاً ، كان لصاحب الطاحون المذكور آنفاً . وهو رجل قوى البنية ، يبلغ من العمر الخامسة والخسين أو الستين . . . قوى فى كل بضعة منه كما هو شأن كثيرين فى تلك الأيام . فهو ليس مجرد رجل بموه بحمرة اللون من أثر المأكولات والمشروبات ، ولو أنه لا يزدري هذه الأخيرة بحال . ووجهه الآن أقرب إلى الشحوب من المعتاد فعلاً ، لأنه كان قادماً على التو من الطاحون . إن هذا الوجه قادر على أن يحدث فى تعبيره تغييرات كبيرة ، وتحركة هولباب ذلك التغيير ، فإن طية واحدة من لحمه تحدث نصف قنطرة صغيرة على كل من جانبي أنفه ، وأخذوداً عميقاً يمتد بين شفته السفلى والركام الذى تمثله ذقنه . وهذه القنطرة من اللحم تتحرك فى خفية ، وكأنا تقوم بذلك من تلقاء نفسها كلما استثير خياله .

وعندما وقع بصره على غطاء المائدة والصحاف واللحوم وجد نفسه فى موقف يبتعث حرجاً محسوساً فى رجل متواضع يود دائماً ألا يحضر إلى فتاة ذات أساليب لطيفة مثل آن جارلاند إلا فى الأوقات الملائمة ، هذه الفتاة التى تستطيع أن تجعل التفاح يبدو كالخوخ ، وأن تخلع على « شلناتها » فتنة الجنينات عندما تدفع له ثمن الدقيق .

وقالت الأرملة عندما رأت حاله :

— انتهى الغداء يا جارنا لعدى ، تفضل بالدخول .

ونغمم صاحب الطاحون شيئاً عن اعترامه العودة بعد قليل . ولكن آن ألحت عليه فى البقاء مع حركة رقيقة من شفاتها وقفت على حافة ابتسامته متوجسة دون أن تنفجر عن ابتسامه كاملة . وكانت هذه عاداتها الطبيعية عندما تتكلم .

ورفع لعدى قبعته غير العالية وتقدم . ولم يكن قد أتى هذه المرة للتحدث عن الخنازير والدجاج :

— إنك كنت تنظرين ولا شك ياسيدة جارلاند ، نظرنا نحن جميعاً ، إلى

حشود (١) الجند الذين صعدوا في التل ؟ حسناً ، إن إحدى كتائب الفرسان هي كتيبة الدراغون رقم . . . لأنها كتيبة أبي جون كما تعلقين .

وبرغم أنهم اهتموا بهذا البيان إلا أنه لم يحدث التأثير الذي يبدو أن أبا جون توقعه . ولكن آن التي تحب أن تلاحظ في القول أجابت :

— كان الدراغون أبداع منظرأ من المشاة ، ومن الفرسان الالمان أيضاً .

وقال صاحب الطاحون في لهجة غير المهم :

— إنهم مجموعة حسنة الشكل من الرجال . حقاً لئن لم أعلم بمجيئهم ، ولو أن النبأ قد يكون مذكوراً في الجريدة طوال الوقت . بيد أن دريمان العجوز يحتفظ بالجرائد عنده مدة طويلة حتى أننا لا نعرف الأمور إلا إذا أصبحت ملء فم كل إنسان .

ودریمان هذا كان نصف نبيل يقطن في مكان غير بعيد . وهو يتميز ، على الأخص ، في هذا الوقت الذي يشبه أوقات الحرب ، بأن ابن أخيه فارس من الفرسان المتطوعين .

وقالت آن :

— أننا أن الفرسان المتطوعين ساروا أمس في طريق بوابة المكوس ، ويقال إن منظرهم كان بديعاً ، وعسكرياً تماماً .

وقال لفتى ، صاحب الطاحون ، متحاشياً النقد الأشد عنقاً على أساس أنه لاداعي له :

— أه حسناً إنهم غير نظاميين .

ولكنه وقد اشعل حماسة لحيه فرسان الدراغون ، وكان ذلك هو السبب المثير الذي دفعه إلى هذه الزيارة ، ولم ينصرف ذهنه إلى الفرسان المتطوعين . وقال مستطرداً :

— جون لم يحضر إلى بلده خلال هذه السنوات الخمس .

وقالت الأرملة :

— وما الرتبة التي هو فيها ان ؟

(١) هذه الكلمة مكتوبة في الأصل بلغة دورست الدارجة ومشروحة هناك .

— إنه جاويش البروجي ياسيدتى .. وهو موسيقى طيب .
وظفق صاحب الطاحون الذى كان أباً طيباً ، طفق يشرح كيف أن جون
اضطلع بخدمة عسكرية طويلة أيضاً ، فقد تطوع عندما رابطت الفرقة فى جوارهم
منذ أكثر من أحد عشر عاماً . وهذا أخرج أباه عن طوره لأنه ود لو أن ابنه
خلفه فى العمل بالطاحون . بيد أنه لما كان الفتى قد تطوع جندياً ، ولما كان قد قال
مراراً بأنه سيصبح جندياً ، فقد رأى صاحب الطاحون أن يدع جاك ينال حظه .
من المهنة التى اختارها لنفسه .

كان للفدى ولدان . وقد جاء ذكر ثانيهما الآن فى الحديث بعد ملحوظة أبدتها
« آن ، لأب عن عدم اهتمام كل من ولديه على ما يبدو ، بأمر مهنة الطحن .
وقال لفدى فى نبرة منتعشة :

— لا ، فلا بد لروبرت من الذهاب إلى عرض البحر كما ترين .
وقالت السيدة جارلاندى .

— ألا يصغر أخاه سنأ بقدر كبير ؟

وقال لها صاحب الطاحون إنه يصغره بنحو أربع سنوات . فابنه الجندى
يبلغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً بينما بوب فى الثامنة والعشرين . وعندما عاد
بوب من رحلته الحالية كان لابد من إقناعه بالبقاء ومعاونة أبيه بالعمل طحاناً ،
وعدم العودة إلى البحر بعد ذلك .

وقالت آن :

— نوتى طحان !!

وقال لفدى :

— أوه ، إنه يعرف عن شؤون الطاحون قدر ما أعرف . واعلمى أن نيته
كانت معقودة على توليها كما كان شأن جون .

ثم استطرد :

— ولكن ، يغفر الله لى ، فقد ابتعدت عن حكايتى . لى جئت لاسألك أنت
ياسيدتى ، وأنت يا آن يا عزيزتى ، هل يمكن أن تحضرا ، مع قليل من الأصدقاء ،
اجتماعاً صغيراً بسيطاً سأعقدّه لإرضاء الفتى الذى جاء الآن ؟ فلا أقل من أن

تكون لنا جلسة بها شيء من ضجة المرح (١) كما يقول المثل ، بمناسبة عودته سليماً معافى .

وأرادت السيدة جارلاندا أن تحتذب نظر ابنتها ، فقد اعتورها بعض الشك فيما يتعلق بردها . ولكن اجتذاب نظرها لم يكن ميسوراً لأنها كانت تكره التليحات ، ولإيماءات الرأس ، والتقدير فيا يتعاقب بأى نوع من الأمور التي ينبغي أن تسوى بالدافع العاطفي . وأجابت صاحبة البيت :

— إذا كان الأمر كذلك فمن المحتمل أن نحضر إليك . وستبتئنا باليوم المحدد للحفلة .

نعم ، سينبئهم بالطبع على أثر التقائه بجون .

— تعلين أن الحفلة ستكون أقرب إلى عدم الترتيب نظراً إلى افتقار بيتي للعنصر النسائي . والرجل الذي يعمل عندي ، الممدعو ديفيد ، أحمق متلاف فيما إذا قام بإعداد وليمة . مسكين هذا الفتى ! إنه كليل البصر ، هذه هي الحقيقة . بيد أنه يحسن إعداد الفراش ، ودهان الكراسي وغيرها من الرياش بالزيت ، وإلا لتخلصت منه منذ سنوات خلت .

وقالت الأرملة :

— ينبغي أن تكون لديك امرأة تتعهد بشؤون دارك بالفدى .

— نعم ينبغي ذلك ، ولكن . . حسناً . إنه يوم بديع يا جارتي . . أتصتا ! يخيل لي أني أسمع أصوات قدر وأوعية طبخ صادرة من المعسكر هناك ، أو لعل أذني تخدعاني . فتيان مساكين ، لا بد أن يكونوا جائعين ! طاب يومك ياسيدتي .

وانصرف صاحب الطاحون .

وظلت قرية أفركومب عصر ذلك اليوم بطوله في حالة غلبان من الاهتمام بمجيء الجند الذي أحدث من الانفعال ما يحدهه الفوز دون أن تكون هناك موقعة . وقد جرت مناقشات كبرى عن ميزات الجند وحسن مظهرهم . وكشف هذا الحدث للفتيات ما لا حصر له من إمكانيات فوزهن بعشق الجنود لهن وعشقهن للجنود . وللفتيان أسباب الشيق بتقمح الجند الذي يعادل الوقوع في الحب تماماً . وهناك ثلاثة عشر فتى من أولئك الفتيان أفروا في غير تعفف — في بحر ثلاثة أرباع

(١) مكتوبة في الأصل بلغة دورست الدارجة ومشروحة هناك .

الساعة — أن الانخراط في الجندنا لا يعدله شيء في الوجود . ولم يفصح النساء عن شيء إلا قليلا ، ولكن لعلن كن أكثر تفكيرا . . . برغم أنهن ، إحقاقاً للحق ، كن يصبون نظراتهن إلى المعسكر من خلال أركان عيونهن الزرق والرمادية بطريقة بلغت من التيبب والتواضع أقصى مبلغ يمكن أن يرجى .

وفي المساء نشطت القرية بمجيء زوجات الجنود ، ولا يمكن لشجرة ملاي بالزازير أن تنافس بضجيجها ما كان يدور من ثرثرة . . . كان أولئك السيدات باهرات الملابس ، ولكنهن اعتنين بالألوان أكثر من عنايتهن بنسيج لبسن . وكانت القبعات الأرجوانية والحر والزرق التي تسكوم فوقها ريش الديكة ، متوفرة العدد . وارتدت إحدى السيدات قبعة أركانية ، أي ذات بطانة حريرية (١) ، مقلوبة إلى أعلا من أمام لتظهر تلك البطانة من تحتها . وكانت ذات يوم مملوكة لزوجة ضابط . ولم تنسخ إلى حد كبير ، إلا إذا استثنينا ما سببه وابل الأمطار العرضية ، التي هي من مفاجآت الحياة العسكرية . . . من ذوبان لونها الأخضر الذي ثبتت آثار انحداره الغريبة على شكل جزر وشبه جزر . وكان لبعض أولئك الزوجات الشبهيات بالفراشات بمن فتن غيرهن جمالا . حظ كاف من الجمال مكهن من العثور على بيوت وأكواخ من خشب لإقامتهن ، واستطعن بذلك أن يوفرن على أنفسهن ضرورة الإقامة في أعشاش وخيام فوق التل . أما اللواتي لم يواتهن مثل هذا الحظ فلم يزدن نجاح أخواتهن في السلاح ، لطفاً ، وأخذن يوسعنن سباباً . وأدى ذلك إلى تبادل التهم والردود ، حتى بدا أنه لن يكون لهذه الاتهامات نهاية إلا بحلول نهاية اليوم .

وكانت إحدى أولئك القادامات الجديديات ، وهي ذات أنف وردي اللون ، وصوت غليظ التبرات قليلا ، وهذا أمر لا قبل لها بدفعه . . . هذه المسكينة ، على حد قول آن . . . كانت على ما يبدو قد رأت جانبا كبيرا من العالم ، ورافقت عددا كبيرا من الحملات إلى حد أن آن ودت لو استضافتها في بيتها لتحصل على بعض المعارف العملية عن تاريخ إنجلترا الذي تلم به هذه السيدة ، والنبي يتعذر الحصول عليه من الكتب . ولكن ضيق الغرف بمنزل السيدة جارلاندر حال دون

(١) مشروحة مكنا في الأصل .

تحقيق ذلك كلية . واضلر هذا الكنز من التجارب ، المفتقر إلى بيت ، اضطر إلى البحث عن مأوى في مكان آخر .

أوت آن تلك الليلة إلى فراشها مبكرة . فأحداث ذلك اليوم ، وهي على ما كانت عليه من إبهاج في ذاتها ، بلغت من الغرابة حداً سبب للفناة صداعاً خفيفاً . وقد توجهت إلى النافذة قبل الرقاد ، ورفعت الستار الأبيض الذي انسدل عليها . وكان القمر يسطح ، وبرغم أنه لم يصل بعد إلى الوادي ، إلا أنه قد بدأ يطل من فوق حافة التل حيث كان ضوءه يلبس خيام المعسكر البيض لمساً خفيفاً . وقد بدأ يظهر لها حرس مضارب الجيش وخيام الصف الأمامي ، في وضوح تام . وأما المعسكر في مجموعه ، وخيام الضباط ، والمطابخ والمقاصف ، والأبناع في المؤخرة ، فقد حجبتهم الأرض بسبب علوها عن مستوى نافذتها . كانت تستطيع أن تميز شكل واحد أو اثنين من الحراس الرائحين القادين عبر قرص القمر في فترات معينة . وكانت تستطيع أن تسمع جذب الخيل المربوطة في الأوتاد وشدها المتلاحقين ، وتلاعها المتوالى . ومن الناحية الأخرى ترمى صوت البحر الذي يمتد أميالاً وهو يهمس همساً يشتد في تلك النواحي ويعرقل صوت مد البحر وجزره المارين ببعض رءوس جبلية ناتئة ، وأكوام من الصخور . وعلى حين نجاة طغت أصوات أعلى من ذلك الهمس القريب من الصمت . وقد ترامت من معسكر كتيبة الدراغون أصوات تردد مثلها في معسكر الهنوفر بين المتعد إلى اليمن ، ثم في سلاح المشاة الأكثر بعداً .. كانت قرعاً ينيء بجول ميعاد نوم الجنود . وظلت آن تنصت مع ذلك مدة أطول ، إذ شعرت بعدم الرغبة في النوم ، ونظرت إلى الدب الأكبر برجف في السماء فوق قبة الكنيسة ، وإلى القمر يوالى صعوده إلى أعلى وأعلى ناحية صفوف الخيام الممتدة إلى اليمن حيث لم يكن هناك غير الشخير والأحلام ، بدلا من الاستعراضات والحركة الصاخبة . . شخير وأحلام الجنود المجتهدين الرابدين في هذه الأثناء تحت خيامهم التي تومض قبة كل خيمة منها ومض الشعاع .

وكفت آن آخر الأمر عن التفكير ، وانسجبت كالباقين . وخيم الليل ، ولم يسمع صوت من المعسكر أو من القرية تحته إلا إذا استثنينا نداء الحراس العرضى القتائل . « كل شيء على ما يرام » .

الطاحون يصبح

مركزاً هاماً للعمليات

(٣)

استيقظت الأنسة جارلاندر صباح اليوم التالي وهي تشعر بأن أمراً فوق المعتاد يجري الآن . ولم تكدر تعقل ما يحدث في وضوح حتى لاحظت أن الأعمال الجارية ، أيا كان نوعها ، لا تقع بعيداً عن نافذة نومها . وكانت الأصوات المتصاعدة على الأغلب أصوات المعاول والمجارف . ونهضت آن ، وأطلت من النافذة وقد رفعت طرف ستارها مقدار إصبعين على وجه التقريب .

كان عدد من الجنود يعملون منهمكين في شق طريق متعرج ينحدر عبر المنحني مبتدئاً من المعسكر ، وواصلوا إلى رأس النهر خلف المنزل . ولابد أنهم بدأوا العمل مبكرين استنتاجاً من مقدار العمل الذي آتموه إلى الآن . وكانت فرق من الرجال تعمل في جهات مجزأة من الممر المقترح ، وفي أثناء ارتداء آن لملابسها كان كل جزء من أطوال تلك الجهات قد اتصل بما قبله ، وما بعده ، حتى تكون طريق سهل متصل يبدأ من قمة التل ، وينتهي إلى قرار المنحدر .

كانت الهضبة تقوم على قاعدة من الحجر الجيري الصلب ، وارتسم على سطحها الذي قام فيه العاملون بشق الطريق ، شريط أبيض يلتوى كالأفعى من القمة إلى السفح .

ثم خفيت عن الأنظار نوبة الجنود العاملين الجديدة . ولم يطل الوقت حتى صعدت كتيبة راكبة من الدراغون إلى قمة الهضبة ، وقد خرجت لسق الجياد . ثم بدأت تنحدر متعرجة في الممر الجديد . وظل فرسانها يبهطون ويقترّبون حتى أصبحو آخر الأمر تحت نافذة الفتاة مباشرة ، وتجمعوا في الأرض الفضاء المجاورة لحوض الطاحون . وخاضت بعض الجياد في الناحية الضحلة الماء من الحوض ، وطفقت تشرب ، وتضدق رشاش الماء ، وتشب في الهواء . ولعل

ما يبلغ الثلاثين منها نزل إلى الماء دفعة واحدة ، ونصف هذا العدد كان يمتطيه
الفرسان . لقد شربت الحيوانات الظائمة ، وضربت الأرض بأرجلها ،
وانتفضت ثم شربت من جديد ، وتركت الماء الرائق الشيم يساقط في ترف من
أفواهها . وكان لفدى ينظر إليها من فوق سور حديقته . وتجمع عدد غفير من
الفلاحين المعجبين حول المكان .

ورأت آن ، إذ نظرت إلى أعلى ، كتائب أخرى تهبط من المعسكر في الطريق
الجديد . وأخذ أولئك الذين سبقوهم إلى الحوض يفسحون لهم في المكان ، مرتدين
إلى درب القرية ، وعائدين إلى قبة التل في طريق ملتو .

وصاح صاحب الطاحون فجأة ، وكأنما نال غاية ما توقع :

— آه ، جون ، يا ولدى ! صباح الخير .

وجاء رد التحية وصباح الخير يابئ . جاء من جندي بالقرب منه يحسن الركوب ،
ولم يكن هذا الجندي على أية حال واحداً من الجماعة التي تروى جيادها . ولم تستطع
آن أن ترى وجهه في وضوح تام ، ولكنها لم تشك في أنه جون لفدى .

كانت في صوته نبرات أذكرتها ما مضى من الزمن القديم ، أيام طفولتها
الأولى ، إذ كان جون لفدى أول التلاميذ في مدرسة القرية . وقد أراد أن يتعلم
الرسم من أبيها . ولما كانت مواضع العمق والضخالة من حوض الطاحون معروفة
له أكثر مما هي معروفة لأي شخص آخر في المعسكر . فقد حضر ، على ما يبدو ،
لهذا السبب ، وقام بتحذير بعض الراكبين أن يخوضوا في الماء بعيداً عن اتجاه
رأس الطاحون .

ولم تره آن منذ طفولتها ، ومنذ انخراطه في الجندية لإلامرة واحدة . ولكنها رأته
حينذاك عرضاً عندما عاد إلى القرية في عطلة قصيرة . ولم تتغير ملامح وجهه
كثيراً عما كانت عليه . ولكن الأنهر واليبالي العديدة التي مرت على ذلك اليوم ،
وطورتها من طفلة نسياً إلى امرأة ، قد جردته من بعض زوايا ملاحظه ،
وأكسبت بشرته حرمة ، وأمدته بنظرة غريبة . وكانت رؤية ما أحدثته الخدمة
والتدريب في هذا الرجل تستثير الاهتمام . وقليلون من فطنوا إلى أن ستره صاحب
الطاحون البيضاء ، وسترة الجندي الزرقاء تستران شكلي كل من الأب والابن .

وحى ميلر لقسدي فرسان الدراغون جملة قبل أن تتركب آخر كتيبة منهم وتصرف ، وكان يقف في الجانب الخارجى من حديقة ، وهى أرض مزروعة منبسطة تحت طرف الطاحون ، ويمتد حتى جانب الماء . وكان هذا الأوان هو على وجه التحديد أوان نضج الكرز ، وتدليه فى عناقيد تحت أوراقه الداكنة . وطفق صاحب الطاحون يقطف عناقيد الفاكهة بينما كان الجنود يتسكئون فوق جياهم ، ويحادثونه عبر الجدول ، وأخذ يد الفاكهة إليهم من فوق سور الحديقة ليتناولها من يريده . وخاض الجنود حينذاك فى الماء بجياهم متجهين إلى حيث أحدث تدفق الماء ثغوباً فى جسر الحديقة ، والتقطوا الكرز وهم يقودون جياهم إلى هناك ، ووضعوه فى أكياس العلف ، أو تناولوا عناقيده بعضهم ، مرددين تلك الضحكة الوقور التى تليق بالعسكريين عندما يتنازلون فيلبون لهُواً صينياً طفيفاً . . . وكانت نصف ساعة مهجة ، خالية من الوسواس ، غير مقصودة ، عاودت ذاكرة بعض من استمتعوا بها وكأنها عبر زهرة ، ولم تنقطع عنهم حتى فى الإمكنة الثانية ، وبعد سنوات مضت ، حيث رقدوا فى بلاد أجنبية ضعفاء أو متخنين بالجراح .

ثم أخذ الدراغون والحيول يلتون فى الطريق كما فعل الآخرون ، وانحدرت بعد ذلك حشود من جنوده الفليين الألمان ، (١) الذين دخلوا فى منظر استعراضى قطعة الأرض الفضاء الواقعة تحت بصر آن ، وكأنما أتوا بقصد إبهاج الفتاة . وهؤلاء كانوا يتميزون بشواربهم وضيقاتهم المستعارة المشدودة بأشرطة رمادية وثيقة الرابطة إلى مستوى ألواح أكتافهم العريضة . وقد فتنوا ، كما فتن الآخرون ، برأس الأنسة جارلاندى وجيدها وهى تطل من نافذتها المربعة على مسرح العمليات . . . وحبوها تحية أجنبية مهذبة مغلصة . وبلغت التحيات من الكثرة الغالبة حداً حمل الفتاة المتواضعة على التراجع لجأة إلى غرفتها ، واحمرت خجلاً وهى واقفة وحدها فيما بين خزانة الملابس والأدراج وحوض الاغتسال .

(١) فرقة من جنود هانوفر الألمان الذين استقدمهم الملك جورج الثانى ، وصمم لى الجيش الإنجليزى لتفويته وقت أن كان التزو يهدد بلاده ولم ينظر الإنجليز بين الرضاء إليهم .
(شرح الأصل)

وقالت لها أمها عند نزولها إلى أسفل الدار :

— كنت أفكر فيما سأرتديه للذهاب إلى ميلر لعدى الليلة :

فقالت آن :

— إلى ميلر لعدى ؟

— نعم فالحفلة ستقام الليلة . لقد جاء إلى هنا هذا الصباح ليخبرني أنه قابل

ابنه ، وحددا هذا المساء لإقامة الحفلة .

وقالت آن في بطء وهي تنظر إلى الملاح الدقيقة من أزهار النافذة :

— أتظنين يا أمي أنه يجدر بنا الذهاب ؟

وقالت السيدة جارلانند :

— ولم لا ؟

— سيكون لديه هناك رجال غيرنا ، أليس كذلك ؟ وهل تكون على صواب

إذا حضرنا وحدنا بينهم ؟

ولم تكن آن قد أفاقت بعد من النظرات الحارة التي وجهها إليها فرسان

« يورك هسارز » النبلاء الذين ما زالت أصواتهم تترامى إلى آذانها حتى لأن

تميزة عما عهدته عند لعدى :

وقالت الأرملة جارلانند :

— اسمعي يا آن ، لـ كم أنت متعالية !... لماذا ؟ أليس هو أقرب جار لنا ،

ومالك دارنا ؟ ثم ! ألا يجلب لنا حطبنا من الغابة دائماً ؟ ويمدنا دون انقطاع

بالخضروات التي تكاد أمانها تبلغ درجة العدم ؟

وقالت آن :

— هذا حقيقي .

— حسناً إننا لا نستطيع أن نتباعد عن الرجل . وإذا نزل الأعداء أرضنا

في الحريف القادم كما يقول جميع الناس ، فسنحتاج كل الحاجة إلى عربة صاحب

الطاحون وخيله . . إنه صديقنا الوحيد .

وقالت آن :

— نعم ، إنه كذلك ، والأفضل أن تذهبي يا أمي . وسأبقى أنا في الدار . . .

سيكون الحاضرون جميعهم من الرجال ، وأنا لا أميل إلى الذهاب .

وفكرت السيدة جارلاند وقالت :

— حسناً . إذا كنت لا ترغبين في الذهاب فلن أذهب أنا أيضاً . وأحسب أنه من الأفضل أن نبقى هذه المرة في بيتنا مادمت تكبرين سناً ، وكان أبوك رجل تربية وتعليم بالتأكييد .

وإذ تحدثت كأم ، تنهدت كأمرأة .

— لماذا تنهدين يا أمي ؟

— أنت شديدة التعنت والكلفة في كل الأمور .

— حسناً جداً ؟ . سنذهب

— أوه ، لا .. أنا لست واثقة من ذهابنا ، فأنا لم أعده بذلك ، ولن تكون هناك مضايقة في التباعد .

ولم تكن آن واثقة ، على ما يبدو ، من حقيقة رأيها ، وبدلاً من تأييد أمها أو معارضتها ، أرخت بصرها مفكرة ، وجمعت يديها على صدرها وهي شاردة حتى اتصلت أطراف أصابعها بعضها ببعض .

وأدرت الفتاة وأمها ، بينما النهار يتقدم ، أن استعدادات كبرى كانت تجري في جناح الدار الخاص بصاحب الطاحون . . والانقسام بين مسكني لفدى وجارلاند لم يكن تاماً ، وكان يقوم في نواح كثيرة على مجرد دق الأبواب في الحوايط الفاصلة بينهما بالمسامير . . . ولذلك كانت المرأتان تنسجبان إلى الجزء المنزول من بيتهما كلما قام صاحب الطاحون بإيجاز أية أعمال جديدة . وكانت رائحة غليون ميلر لفدى تصل في انتظام لا يختلف إلى مسكن السيدة جارلاند عن طريق المدخن . وفي كل مرة يحرك نار مدفأته كانتا تعلان من شدة التحريك أو ببطء حالته الفكرية على وجه التحديد . وإذا أدار مفتاح ساعته الكبيرة في ليالي الأحد ، أذكر الأزيز الأرملة أن تدير مفتاح ساعتها هي أيضاً . وانتقال الأصوات هذا يبلغ منتهاه حيث تنصل ردهة لفدى بمخزن مؤن السيدة جارلاند . واستمعت آن التي شغلت ببعض الأمور في هذه الشقة الأخيرة ، استمعت بميزات سماع الضجيج الصادر عن حضور الضيوف ، والتقاط أصداء كلمات شاردة لم تنظم في الجمل التي جعلتها مسلية ، ولكنها استطاعت الحكم عليها من الضحك الذي أثارته .

وقد اجتاز الحاضرون المنزل، وذهبوا إلى الحديقة حيث شربوا الشاي في صومعة صيفية واسعة . وكل ما أمكن أن تكشفه نافذة السيدة جارلانند من الخفل لمحات . من مبيض ساطع ينفذ من أوراق الشجر . وعندما أخذ النهار في الإظلام سمع صوت مجيئهم جميعاً إلى داخل المنزل لإتمام سهرتهم في الردهة .

ثم ظلت دلائل الابتهاج المذكورة آنفاً تتوالى تواليًا متزايداً ... أحاديث تقطعها صيحات ، وأصوات أقدام تدب في السلم صعوداً ونزولاً ، وانصفاق أبواب ، ورنين كاسات وأقداح ... حتى أن الجارة الملاصقة ، الشديدة الاعتزاز بالنفس ، التي يخلو جزء المنزل الذي تقطنه من الأصدقاء . . . قد تكون أغرتها الرغبة في دخول ذلك المنزل المبتهج ، ولو كان ذلك بقصد الوقوف على سبب هذا التماوج من المرح ، ولترى هل بلغ الزائرون ذلك العسد الكبير حقيقة ، وهل كانت التعليقات مهجة إلى الحد الكبير الذي بدت عليه .

وبدأ ركود الحياة في مسكن السيدة جارلانند الذي يفصله الحائط عن الخفل ، بدأ يحدث تأثيراً قاتماً جدياً بفعل التناقض ... وقالت آن عندما دوت ، زهاء الساعة التاسعة والنصف ، إحدى ضججات الطرب التي ظلت تتردد مدة أطول من العادة :

— أعتقد يا أمي أنك تودين لو ذهبت .

وقالت السيدة جارلانند في نبرة تلهف :

— أشعر أن ذهابنا إلى الحفلة كان سيبلغ غاية الإبهاج لو أننا حضرناها . وأغلب ظني أني تطلقت تطلقاً كبيراً إذ استمعت إلى كلامك ولم أذهب ، فالقس لا يزورنا أبداً إلا في حدود اختصاصه الروحي ، ودريمان الهرم يندر أن يكون لطيفاً ، وليس هناك من تبق ليحدثنا . إن على الناس الذين يعيشون في عزلة قبول الانضمام إلى أية صحبة يحذونها .

— أو يستغنون عنها كلية .

— هذا غير طبيعي يا آن . ويدهشني أن أسمع فتاة صغيرة مثلك ، تقول شيئاً كهذا . لا يمكن إخماد الطبيعة على هذا النحو ... (يسمع غناء مفرد ، وغناء قوى لمجموعة من الناس ينفذ من خلال الحائط الذي يقسم الدار) . . . أقول لك إن الغرفة الواقعة في الناحية الأخرى من الحائط تبدو جنة تماماً إذا قورنت برفقتنا هذه .

وقالت أن بلهجة فيها مسحة من التعالي :

— أمي ، إنك فتاة حقاً . لا بد أن تذهبي وتنضمي إليهم .

وقالت الام وهي تهر رأسها مستسلة لما وقع :

— أوه ، لا . ليس الآن . فالوقت متأخر جداً في هذه الساعة : كان ينبغي أن ننفع من الدعوة . إنهم سيحدجوني بنظراتهم كما لو كنت مخلوقة مسكينة ليس لها عمل جدي هناك . وسيقول لي صاحب الطاحون وعلى ثغره ابتسامته العريضة : « آه ، إنها لمتة منك أن تزوريني » .

وظلت السيدة جارلاند الأليفة القنوعة تواصل سهرتها موزعة على هذا النحو بين مكانين ، فجسدها في نفس بيتها ، وعقلها في بيت صاحب الطاحون ... وبينما هي كذلك طرق شخص الباب ، وسمح للسيد لقدى الكبير نفسه بدخول الغرفة على الأثر . وكان يرتدى حلة تتردد بين الفخامة والخفة ، وقد اعتاد لبسها في مثل المناسبة الحالية . . . وكانت سترته الزرقاء ، وصداره الأصفر والأحمر بأزراره الثلاثة الأخيرة المفكوكة ، يناسبانه ، في نظر السيدة مارتا جارلاند ، كل المناسبة . وقال صاحب الطاحون ، وقد اختار . من باب الاحتشام ، أن يلتزم حد الأدب العالي الذي يتطلبه رداؤه الراقى :

— خادمك ياسيدتي . . . والآن ، أنا لا أستطيع قبول هذا ، مع استماحتك عذراً . . . فن غير الطبيعي أن تظلا هنا ، أتيتا السيدتان ، بينما نحن نلهو بدونكما تحت سقف واحد . وزوجك المسكين الذي لا شك أنه كان يمكن أن يرسم صوراً بديعة ... إنه كان لا بد أن ينضم إلينا منذ زمن طويل لو أنه كان في مكانك . وأقسم بشرى أني لن أقبل رفضك بحال . فلا بد من حضورك أنت والآنسة آن ، حتى ولو كان ذلك لنصف ساعة فقط . وقد حصل جون وأصدقاؤه على إذن بالغياب عن المعسكر حتى منتصف هذه الليلة . وأقل الزوار الحاضرين أونباشي ألماني لطيف جداً ، باستثناء قلة من أهائي قريبتنا . وإذا ساورك أي شك من ناحية بواعث الاحترام ياسيدتي فسنحشر من لم يهذبوا التهذيب الكافي في المطبخ .

وتبادلت الأرملة جارلاند وأن نظرات الموافقة بعد هذه الدعوة . وقالت

كبراهما منبسمة :

... سنلتحق بك بعد دقائق معدودة .

وقامت هي وأن لتصعدا إلى الدور العلوى ، فقال صاحب الطاحون في إصرار :
— لا ، سأنتظركما ، إذ قد تغيران رأيكما ثانية .

وسمع وقع أقدام أخرى في الممر بينما كانت الأم وابنتها ترتديان ملبسهما في الدور العلوى ، وتقول كل منهما للأخرى ضاحكة : « حسناً ، لا بد من ذهابنا الآن » . وكأنتهما لم تكونا ترجوان الذهاب منذ أول المساء . وصاح صاحب الطاحون من الدور السفلى :

— أستمحك عنراً يا سيده جارلاند ، ولكن ابني جون قد جاء ليعاوتني على استصحابكما . فهل أستبقيه هنا حتى تستعدا !
وصاحت أم آن بصوت انحدر من سلم الدار :
— بالتأكيد ، وسأنزل إليكما بعد دقيقة واحدة .

وعندما نزلت بدا شكل جاويش البروجي في منتصف الممر . وقال صاحب الطاحون في بساطة :

— هذا جون ... أتستطيع أن تتذكر السيدة مارتا جارلاند جيداً يا جون؟
وقال جندي الدراغون وهو يتقدم قليلاً :
— أذكرها جيداً جداً بالتأكيد . وكان يجدر بي أن أزورها المرة الأخيرة ، ولكني لم أمكث في القرية إلا أسبوعاً واحداً ... كيف حال فتاتك الصغيرة يا سيدتي؟
وقالت السيدة جارلاند :

— إن آن بخير تماماً . لقد شبت عن الطوق الآن ، وستنزل بعد دقيقة .
وتصاعد غارج الترففة صوت غافت لوقع أحذية عسكرية ، وذهب جاويش البروجي وأطل برأسه من الباب وقال :

— حسناً ... سأحضر بعد دقيقة .
وأجابته عندئذ أصوات غارجة من الظلام :

— لا داعي للمجلة .
وقالت السيدة جارلاند :
— أمزيد من الأصدقاء ؟

وقال الجندى :

— أوه ، ليس هناك إلا بك ، وجوز ، الذين حضرا ليعودا بي .
أستطيع أن أدعوها لبقاء دقيقة يا سيدتى ؟

وقالت السيدة :

— أوه ، نعم .

وبدت الطلعان الشائقتان لسكل من بك البروجى ، وجوز ، الجاويش
البروجى ، وتقدما على نحو دى للغاية . وحينذاك سمع وقع أقدام أخرى
في الخارج ، وظهر أن الحائك الأول ، الجاويش بریت ، والبيطرى فوق العادة
جونسون ، أقبلا ليحضرا السيدين بك وجوز كما جاء هذان الأخيران ليحضرا
الجاويش البروجى .

وأخذت السيدة جارلاندا سماعها لصوت هبوط ابنتها في السلم إذ بدا من المحتمل
أن يكتظ مرها الضيق بالأشكال الآدمية التي لا تعرفها شخصياً .

وقالت :

— ها هي ذى فتاتي الصغيرة .

ونظر جاويش البروجى في نوع من الخشية إلى هذا الطيف المقبل الملتف
بالشفافية ، وتقدم ، ووقف أمام الفتاة أبكم تماماً . وعرفت فيه أن ذلك الحندى
الذى رأته من نافذتها ، وحيته في لطف . وكان هناك شيء في وجهه الصادق جعلها
تشعر على الفور بالألفة في حضوره .

واحر وجه لعدى لهذه السباحة في الخلق — وهو لم يكن يتبع نساء —
وعدل وقتته بعض التعديل ، وبدأ يقول عبارة لا خاتمة لها ، وأبدى ارتياها كما
صبياناً خالصاً . وإذ تاب إلى رشده مد إليها ذراعه في أدب ، فتعلقت أن بها
في رشاقة فائقة الجمال ، وقادها بين زملائه الذين التصقوا بالحائط منتصبى القامة
ليدعواها تمر ، ثم خرجا من الباب وتبعتهما أمها في محبة مالك الطاحون ، يساندها
الجنود الذين كانوا يسيرون في خطواتهم العسكرية المعتادة وكأنما أخذهم كانت
بالنسبة لهم طويلة جداً على الأغلب . واجتازوا على هذا النحو مدخل الطاحون ،
وعبروا المر الذي تحولت أرضه المرصوفة إلى حمة قدرة بسبب ما تحدهه أقدام
المارة من مد وحزر لم ينقطعاً منذ أيام تيودور ؟

من الذين كانوا حاضرين

في الحفلة الصغيرة التي أقامها صاحب الطاحون ؟

(٤)

عندما أصبح المدعوون في حضرة الصحبة التي قدمت ، طرأ على الأحاديث الجارية ركود بسبب رؤية الزائرتين الجديدتين ، وقتنة طلعة آن « بالطبع » . وظلت الحال كذلك حتى أدرك الرجال المتقدمون في السن ، من لهم بنات هم أنفسهم ، أن آن لم تبلغ إلا نصف مرحلة التكوين ، فاستأنفوا قصصهم ، وتمادوا في تبادل الانتخاب بقرع كؤوسهم (١) الواحدة بالأخرى غير عابئين .

وقد عقد ميلر لعدى أواصر الإخاء مع نصف جنود المعسكر منذ قدومهم ، وكان تأثير ذلك على مدعويه مدهشاً سواء من ناحية الألوان أو غيرها . وأول من اجتذب النظر من بين المدعوين كان « جاوشية » ، فرقة لعدى ود الباشجاوشية ، وهم رجال مهذبون صادقون ، جلسوا في مواجهة الشموع ، واستسلموا كل الاستسلام للراحة البدنية ، ثم كان هناك غير هؤلاء ضباط من تحت السلاح أحدهم ألماني ، واثنان مجريان ، وسويدي ، وهم من فرقة الموزار الأجنبية ... شبان في مستقبل العمر ترسم على وجوههم نظرة حزينة ، وكأنهم لا يميلون إلى الخدمة في مكان على مثل هذا البعد عن وطنهم . وكلهم يتكلمون الإنجليزية في طلاقة لا بأس بها . وكان يمثل السن المتقدمة سيمون بردن المتقاعد ، ويمثل سن الحسين السيئة السمعة ، الأنباشي توليدج ، صديقه وجاره ، وكان ثقيل السمع . وقد جلس واضعاً قبعته على مندبل أحمر من القطن ، ملفوف حول رأسه بضع لفات . وكان هذان الجنديان القديمان معينين رقبين في المنارة المجاورة التي شيدت أخيراً بأمر القائد لإشمال النيران حالما يحاول العدو نزول الشاطئ . وهما يقطنان في كوخ صغير فوق التل ، قريب من كومة الحطب . ولكنهما وجدا في تلك الليلة من ينوبون عنهما في الحراسة .

(١) قرع الكؤوس دليل الإفراط في الشراب . (شرح الأصل)

ويأتى بعد ذلك مستوى أدنى من الخبرة والصفات الممتازة ، الجار جيمز كومفورت وهو من فرقة المتطوعين ... وبعد جندياً من باب الجمالة ، وحداداً إحقاقاً للحق ... وكذلك « ولیم ترملت ، و « أتوتنى كريسترو ، وهما من القوة المحلية . وارتدى هذان الأخيران رداً من أردية الفلاحين ، وهما من رجال الحرب ، وتطلعا إلى الجنود النظاميين من موضع متواضع في مؤخرة الغرفة . وكان باقى الموجودين عبارة عن لبان أو اثنين ، وزوجتيهما اللتين دعاها صاحب الطاحون حتى لا تكون آن وأما المرأتين الوحيدتين هناك ، وقد سر أن ترى ذلك .

واعترفت لى الكبير ، هامساً فى أذن السيدة جاراندا ، عن وجود فلاحين من الطبقة الدنيا ، ولكنهم كانوا يتدربون ليصبحوا مدافعين شجعاناً عن دورهم وسيتمكنون من ذلك يا سيدتى على أثر إلتقان تدريبهم ، ولما كانوا قد قاموا على خدمتى دون انقطاع فى هذه السنوات الأخيرة ، فقد دعوتهم للحضور ، وحسبت أنك ستعذرينى .

وقالت الأرملة :

— بالتأكد يا ميل لىدى .

— كذلك الأمر بالنسبة لبردن الهرم ؛ وتوليدج ، فإن لهما فى سلاح المشاة خدمة طيبة طويلة ، وهما يتكبدان حتى الآن مشقة الجوالبتل عند كومة الحطب هناك . ولنى دعوتهما إلى الدخول لئسما العناء بعد أن قدمت لهما وجبة من الطعام فى المطبخ . وقد وعدانى وعداً صادقاً أنهما فى اللحظة التى ستظهر فيها السفن الحربية للبيان ، وعلى أثر إشعاها النار فى الحطب سيركضان إلى هنا أول ما يركضان فى حالة ما إذا كنا لم نزل اللهب المشتعل . وأنت ترين أن الإبقاء على صلتى الودية بهما يستحق العناء ، برغم أن خلقهما عجيب .

وقالت السيدة :

— تستحق العناء تماماً يا صاحب الطاحون .

وكانت آن أقرب إلى الارتباك فى حضرة الجنود النظاميين وهم فى مثل هذا البأس . وقد وقفت كلامها أول الأمر على زوجتى اللبانيين اللتين تعرفت بهما ،

وعلى الجنديين الهرمين التابعين لقوة الأبرشية .
وقال الأونباشي توليدج ، أحد هذين الرجلين ، وهو الرجل الكهل ، لابس
القبعة ، وذلك بينما كانت الفتاة تحادث سيمون بردن الهرم :

— لماذا لم تحدثيني من قبل يا فتاة ؟

ثم أضاف معاتباً :

— لقد التقيت بك في الطريق أمس ، ولكنك لم تلاحظني وجودي قط .

فقلت :

— أنا أسفة لذلك أسفاً شديداً .

ولكن وقع قولها من الأباشي كأن لانخفاضه ، هو وسكوتهما سواء ، إذ خشيت
أن تزعق في مثل هذا الحفل وهي تحادثه .

واستطرد الأباشي العنيد بنفس صوته العالي :

— كنت تقبلين ورأسك علوه ولا شك بالخواطر الكبرى وغيرها . آه ،
إن الفتيان المتأقنين هم الذين يستأثرون باهتياً مكن في أيامنا هذه ، أما المتقدمون
في السن فقد طواهم النسيان تماماً . وإني لأذكر جيداً كيف أن بوب الصغير
اعتاد أن يكذب لينتظر لقاءك .

واحمر وجه أن أحراراً شديداً . وأوقفت كلام الرجل الشاطح بعيداً
بالإسراع إلى قولها إنها تحترم دائماً من كانوا كبار السن مثله . وظن الأباشي
أنها تستفسر عن سبب وضعه القبعة على رأسه دائماً ، وأجاب بأن السبب يرجع
إلى أن رأسه أصيب عند « فالينسين (١) » ، في شهر يوليو من عام ١٧٩٣ . وكنا
نحاول قذف القلعة بالقنابل ، فأصابتي شظية ، وظللت في عداد الأموات مدة
يومين . ولو لم يحدث هذا ، ولولا ذراعي المسكور ، لعدت إلى بلدي وحالي
أقل سوءاً ، وذلك بسبب الخدمة العسكرية مدة خمسة وعشرين عاماً .

وقال أتوني كريسترو الذي أقرب منهم :

— إن في رأسك قطعة من الفضة بقيت هناك ، أليس كذلك يا أباشي ؟

(١) حاصر الإنجليز والنمسيون فالينسين واستولوا عليها : وكانت فرنسا قد أعلنت الحرب
على إنجلترا في الأول من فبراير سنة ١٧٩٣ (هذا التعليق في الأصل)

وقد سمعت أن الطريقة التي لحوا (١) بها حجمتك كانت عملاً فنيّاً رائعاً . ولعل السيدة الصغيرة السن تود أن ترى موضعها ؟ إن منظرها عجيب يا آنسة آن ، وأنت لا ترين مثل هذا الجرح كل يوم .

وقالت آن في سرعة وهي تخشى ، كسائر شباب أوفر كيب ، هتضر رأس الأونباشي عارياً :

— لا ، أشكرك .

والأونباشي لم يظهر بين الملأ ، منذ عودته عام ١٧٩٤ ، بدون قمعته ومنديله . وكما دارت حكايات غريبة عن بشاعة منظره عارى الرأس . وقد رآه غلام صغير مصادفة بينما كان يقصد فراشه وهو على تلك الحال ، ففرغ الفلام حتى أصيب بنوبات .

واستطرد كرييلسترو ، صادق الرغبة في إرضاء الفتاة :

— حسناً إذا لم ترغب السيدة الصغيرة أن ترى رأسك ، فقد تود أن تسمع عن ذراعك ؟

وقال الأونباشي :

— ماذا ؟

وصاحت آن :

— أتوملك ذراعك أيضاً ؟

وقال تليدج دون أى انفعال :

— أصيبت حتى صارت كحصيد التفاح (٢) في نفس الوقت الذي أصيب فيه رأسي .

وقال كرييلسترو :

— دع ذراعك تقعقع يا أونباشي وأرها .

وقال الأونباشي :

— نعم ، دون مرأه .

قال ذلك وهو يرفع ذراعه في بطء ، وكأنما روعة الاستعراض فقدت جدتها .

(١) المقصود هنا لحام الأخشاب بطريقة النجش في التجارة (شرح الأصل)

(٢) التفاح المهروس لاستخراج عصيره بالضغط أو بمصره . (شرح الأصل)

ومع ذلك أراد أن يرضى الفتاة . وأحدث وهو يلوى ذراعه اليسرى يمينه في كل اتجاه دون رحمة . . . أحدث في كل حركة من هذه الحركات قعقة بين العظام ، وبدا كأن كرييلسترو ينعم برضى كبير من هذا الصوت الكتيب .

وقالت آن وهي تتوق في ألم أن يكف عما يفعل :

— كم يبدو هذا شنيعاً !

وقال كرييلسترو :

— أوه ، إنها لا توله ، باركك الله ... أليس كذلك يا أنباشي ؟

وقال الأنباشي وهو لا يزال يحرك ذراعه في نشاط :

— إنها لا تولني بالمرة .

— ليس هناك أثر للحياة في العظام . . . أنا أقول لها يا أنباشي إن عظام

ذراعك مفقودة الحياة .

— ليس بها أثر للحياة .

وشرح كرييلسترو الأمر مستطرداً :

— إن العظام محلولة ككيس مملوء بأخشاب الاهداف الخاصة بلعبة رعى

الكرة الخشب . وتستطيعين أن تحسسيها في سهولة يا آنسة آن . ويمكن أن يرفع

عنها كه في لحظة ليرضيك ، فم إذا وددت ذلك ؟

وقالت المرأة الصغيرة :

— أوه لا ، لا ، أرجوك ألا تفعل ذلك . أنا قادمة تماماً .

وسأل الأنباشي ، وفي قوله معنى أنه يضع وقته هدرأ :

— أتريدن أن تسمعي وترى المزيد ، أم لا ؟ .

وأوضحت له آن أنها لا تريد ذلك بأية حال . . . وحاولت أن تهرب من

ذلك الركن ؟ .

الأغنية

والغريب

(٥)

أخذ جاويش البروجي يتحايل الآن ليجلس بالقرب من آن ، وقد بدا واضحاً أن حضورها كان مصدر إبتهاج شديد له منذ اللحظة التي رآها فيها باديء الأمر . وهي لم تكذب تشعربأى حرج وهي معه . وسألته هل يحسب أن نابليون سيأتي حقاً خلال أشهر الصيف ، كما سأله أسئلة أخرى لم يستطع جندي الدراغون المهذب أن يجيب عليها ، ولو أنه كان يجب مع ذلك أن توجه إليه الأسئلة . وأرشف ويليام ترملت أذنيه لدى سماعه الحديث عن هذا الموضوع ، وهو لم يتعم بليلة راحة كاملة منذ علم الناس بتهديد القنصل الأول (١) ، وسأل هل هناك أحد رأى السفن الرهيبة ، المسطحة القاع ، التي سيغيرها الأعداء الماء ؟ وقال جاويش البروجي :
— أخي روبرت رأى سفناً عديدة منها تحوم بالمجازيف حول الشاطئ في آخر مرة عبر فيها مضائق دوفر .

ثم أفرغ الحاضرين فوق ذلك بقوله لهم إن المعتقد أنه يوجد من هذه السفن أكثر من ألف وخمسمائة سفينة يمكن أن تأتي إلى أراضينا ، وذلك بمجرد أن تصبح خطط بوني (٢) ممكنة التنفيذ .

وقال ولیم ترملت :

— ليشملنا الله برحمته .

وقال تلدج الهرم بلهجة من لا بد أن تكون رقابته عند تل الخطب قد أكسبته ، طبيعة الأمور ، إدراكا لحقيقة الموقف :

— سيحاولون دائماً النزول خلال الليل ، إذا حاولوا ذلك ، وفي يقيني أن

الموضع الذي سيختارونه للنزول إلى الشاطئ سيكون هناك على وجه التحديد .

(١) يقصد نابليون بوناپرت .

(٢) يقصد بوناپرت كذلك .

وأشار بلامبالاة إلى جزء من الشاطئ شديد القرب من المنزل الذى يجتمعون فيه الآن ، وحاول إذ ذاك « المقاوم » (١) ترميت ، وكرييلسترو ، الجندى المتطوع فى الحرس الوطنى المؤقت ، ألا يظهر أية علامة من علامات الازعاج .

وقال المتطوع الحداد كغفرت :

— ومضى سيقع الغزو فى زعمك ؟

وقال الأنباشى :

— لا أستطيع الإجابة على سؤالك الروم ، ولكن بما لا شك فيه أن الغزو سيقع عند انحدام المد فى المضيق . وبدلاً من أن يجاهد العدو ضد المد ، سيدع سفنه تسبح معه ، وهذا سيقوده إلى خليج بدماروت رأساً . وستكون ثمة ضربة جميلة من ضربات الحرب ، وإذا كان الأمر كذلك فسيتم فى هدوء .

وقال كرييلسترو وهو يتحرك فى ثيابه :

— حملة جميلة ! ولكن كيف ذلك يا أنباشى مادمننا سنكون فى الفراش وقتذاك ؟ إنك لا تتوقع من الرجل أن يكون شجاعاً وهو فى لباس النوم ، لاسيما ونحن ، أعضاء القوة المحلية جميعاً ، لا نملك من الأسلحة النارية ما يبلغ حمل رجل واحد . وقاطعه بأشجائوش طويل بقوله :

— إن العدو لن يأتى فى الصيف . إنه لن يأتى أبداً .

وكان لعدى الجندى مشغولاً جداً عن الاشتراك فى هذه التخمينات بانصرافه إلى العناية بآن وأمها ، جاهداً فى أن يمد السيدتين بأحسن شراب تستطيع الدار تقديمه . وقد عبر هذا الشراب ، فى واقع الأمر ، مضيق المائس سراً على النحو الذى تمناه بونايرت لجيشه ، وأنزل إلى الأرض عبر الشاطئ الصخرى فى ليلة حالكة الظلام . وسأل الجندى آن بعد ذلك أن تغنى . ورغم أن لها صوتاً جميلاً يناسب حفلات الغناء الخاصة التى من هذا القبيل ، فقد أمتنعت عن أن تقوم له بهذا الصنيع . وغيرت الموضوع بسؤاله وهى تردده عن أخيه روبرت الذى ذكره قبل لحظة ، فقال :

(١) المقصود « بالمقاوم » المتطوع عند الاقتضاء فى الحرس الوطنى .
(٢) المقصود خليج بدماروت .

— شكرآ يا آنسة جارلانند . إن روبرت على خير حال ، وهو الآن ملازم
ثان في السفينة ديويوت ، ، وهو صغير السن نوعاً لتولى مثل هذه القيادة ،
ولكن صاحب السفينة يوليه ثقة كبيرة .

وأضاف جاويش البروجي وهو يغوص بأفكاره إلى رأى أعمق عن الشخص
الذى تجرى المناقشة بشأنه :

— بوب عاشق .

وبدا على آن الوعي ، وأنصت في انتباه ، ولكن لعدى لم يواصل قوله ...
فسألته :

— أهو شديد الهيام ؟

— لا أستطيع الإجابة بدقة . وأغرب جانب في الموضوع أنه لا يقول لنا
أبدأ من تكون هذه المرأة . ولا أحد يعرف ذلك على الإطلاق .

وقالت آن في نبرة غريبة بالنسبة لشخص لا صلة البتة بين جنسه ومثل هذه
الأمور :

— سيقول ذلك بالطبع .

وهز لعدى رأسه . وانهت هذه الخلوة مع الفتاة بنفجر غناء أطلقه أحد
الجاويشية ، ، وأعقبه آخرون ، بعد الانتهاء من غنائه ، إذ رتل كل منهم نشيداً
بدوره . وكان المعنى منهم يقف أمام المائدة ، ماداً ذقنه مسافة في الهواء ، وكأنه
يعمل بذلك على تطهير حلقه من كل جمدة يمكن أن تكون فيه ، ثم ينغمس بعد
ذلك في الغناء . وبعد انتهاء ذلك قام أحد الجنود الهوزار الأجانب — وهو
الآلماني اللطيف ، على حد نعت ميلر لعدى له — وكان يقول عن نفسه إنه
مجرى ، وهو في الواقع لا ينتسب إلى بلد معين ... قام بناء على رجاء جاويش
البروجي بسلسلة من الحركات الوحشية سماها رقصته الوطنية ، وذلك لتمسك
آن من أن ترى كيف تكون هذه الرقصة ... وكانت الآنسة جارلانند زهرة ذلك
الحفل بأسره . وبدأ أن الجنود من أولهم إلى آخرهم ، ومن الاجانب فيهم إلى
الإنجليز ، فتنوا بحضورها كل الفنتة ، كما كان لا بد من أن يحدث ذلك نظراً إلى
ندرة وجودهم في صحبة مثلها .

وفي نفس الوقت الذى كانت تفكر آن فيه وأما في العودة إلى مسكنهما بدأ

كان القادم الجديد أحمر الشعر ، متورد اللون ، وبدا مقتنعاً كل الاقتناع بأن الزروة التي حملته على الدخول لا بد سرت الحاضرين ، وهي سرتهم بالفعل في تلك اللحظة ... وقد قال :

— لا رسميات يا خيار الناس أجمعين ... كنت ماراً فالتقطت أذني الغناء ... إني أحب الغناء ... وكان غناؤكم مدفناً شائقاً ، ولن ينقص أحد قدره . وأريد أن أسمع من يقول غير ذلك .

وقال صاحب الطاحون وهو يملأ كأساً ويناولها الفارس المتطوع :

— مرحباً بك أيها السيد دريمان ... هل جئت إذن من معسكرك رأساً ؟ إني لم أعرفك إلا بصعوبة وأنت في ثيابك العسكرية . إنك يا سيدي لتبدو طبيعياً أكثر من الآن ويدك ممسكة بفأس . وإني ما كنت لأعرفك أبداً لو لم أسمع أنك طلبت للخدمة العسكرية .

وقال المارد الصغير السن وقد اشتدت حمرة وجهه حتى أصبحت قرمزية :

— أبودو طبيعياً أكثر من الآن وفي يدي فأس ! حذار يا صاحب الطاحون . أنا لا أقصد الغضب . ولكنه شرف الجندي كما تعلم !

وضحك الجنود الجالسون في المؤخرة قليلاً ، وعندئذ لاحظ الفارس الموسر لأول مرة أن بين المجتمعين أكثر من جندي واحد من الجنود النظاميين . وبدت عليه الحيرة لحظة من اللحظات ، ولكنه امتلأ ثقة بنفسه من جديد . وقال صاحب الطاحون اللطيف :

— صحيح ، صحيح يا أيها السيد دريمان . لا إساءة مقصودة ، والمسألة ليست إلا مزاحاً . وكل فرد هذه الأيام جندي . اشرب قليلاً من هذا الشراب المنعمش ، ولا تائق بالا إلى الكلمات .

وشرب الفتى دون أدنى تبرم وقال :

— نعم يا صاحب الطاحون ، فقد دعيت للخدمة ، إنها أوقات مدهشة في هذه الأيام بالنسبة لنا نحن الجنود ، فنحن نحمل أرواحنا على أكفنا
علام يقطب أولئك الشباب الجالسون وراء المائدة ؟ . أقول إننا نجعلها على أكفنا .

— هل تمكث مع عمك يوماً أو يومين في المزرعة يا سيد دريماں ؟
— لا ، لا . فأنا نازل على بعد ستة أميال منه كما قلت لك ، فقد شددت الرحال
إلى كاستربريدج . ولكن علي أن أذهب وأرى السيد الهرم ، ال .. ال .
— المهذب ؟

— المهذب ! .. لا ، بل الأحمق . فهو يعيش على فئات دور المزرعة (١)
ها ، ها ! ..

وظهرت أسنان المتحدث البيض المنتظمة التي تشبه قطعاً من الثلج طي
كرتبة هولندية .

— حسناً ، حسناً . . . إن مهنة الجندية تجعل المرء ضد هذا كله . . وأنا
أخذ الأمور على علاتها .

— هذا صحيح تماماً يا سيد دريماں . هل من رشفة أخرى ؟
— لا ، لا . فأنا لا أتناول أكثر مما يفيدني . ولا ينبغي لأحد أن يفعل
غير ذلك . وعلى هذا لا تفرقني .

ثم رأى الفارس الموسر آن ، فاتجه إليها هي وسائر السيدات مدفوعاً بجاذبية
غير واعية ، موجهاً إلى جون لعدى الملاحظة الآتية وهو يمر به :
— آه ، يا لعدى ! لقد سمعت نبأ عودتك . ومختصر القول أتى جئت عمداً
لأراك . وقد سرتني أن أجذك تتمتع نفسك في دارك من جديد .
وأجابه جاويش البروجي في أدب ، برغم أنه لم يمتنع عن التقطيب ، لأنه على
ما يبدو لم يكن يستسيغ توجه دريماں صوب آن :

— ابنة الأرملة جارلاند ! نعم ، إنها هي بالتأكيد . هل تذكريني ؟ لقد
جئت إلى هنا من قبل . . . فستوس دريماں ، بفرقة فرسان « يومن » ،
وانجحت له آن انحناءة خفيفة :

— أنا أعرف أن اسمك فستوس . وهذا كل ما هناك .

— نعم . إنه اسم معروف . . . لاسيما في الأيام الأخيرة .

ثم خفض صوته إلى حد المسارة .

— أحسب أن مجيئي قد أزعج أصدقائك هنا ، إذ لا يبدو أنهم يفيضون

(١) مكتوبة في الأصل باللغة المحلية الدارجة ومشروحة هناك .

المهد والمهد الحاضر ، وأول الأشياء التي كانت تلجها عينه ، وأكثرها سناء ، تلك الشموع المضيئة التي انتشرت في الحفل ، بصرف النظر عما تتكلفه من نفقة ، والتي حافظ صاحب الطاحون على تقويم ذبالاتها ، فكان يدور في الغرفة مرة كل خمس دقائق ، ومقرض الذبالات في يده ، فيضغط بها الذبالات المتقوسة في دقة وإتقان كبيرين ، وعلى وجهه شيء أشبه بنظرة الجلاد المقطبة وهو يقبض بمقرض الذبالات على عنق الشمعة .

ثم تبدو وراء أضواء الشموع سترات الجنود ذات اللون الأحمر ، واللون الأزرق ، والأكام البيض - وهي تقرب في عددها من عشرين سترة ، عدا سترة دريمان الضخم البنيان - وكان رأس هذا الأخير ، ورموس جميع الواقفين دون مراه ، قريبة إلى حد كبير من ظلال السقف . ولم يكن بين الحاضرين أحد يجد أى معنى لكلمة « فيتوريا (١) » ، أو يستخلص من أى مقطع من مقاطع اسم « ووترلو » أقل فكرة عن أسباب مجد ولنجتون وموته . ثم تظهر آن المستقيمة البريئة التي لا يكاد يخطر ببالها ما يجتبه لها الزمن في بحر مدة لا تبعد عنها كثيراً . كانت تنظر إلى دريمان بإتسامة شبه قلقة وهو يضح هنا وهناك . وكانت ترجو ألا يخلو بها مرة أخرى ليتبادلا الحديث على انفراد . . . وقد خلاها مع ذلك فعلا إذ جذبته سهام ذات الثوب الحريري الأبيض على نحو لا يقاوم . وهي ، دون شك ، تحاول أن تبدو الآن من جديد لطيفة نوعا ، خشية أن ينقلب مزاجه من عاطفي إلى مثير للشجار . فالوافق مع الجندي الفارس ليس مستحيلا حسبما أدرك حسبها السريع .

ولفرحة آن قال أخيراً :

— حسناً ، حسناً . إن هذا التكاثر لا يوافقني يا قوم . ولم يكن يجدر بي أن أحضر حقاً . ولكني رأيتكم تروحون عن أنفسكم ، وحسبت أن ووقوني على ما تفعلون لن يضيع هدرا . . . وأمامي أميال عديدة لا بد من قطعها قبل أن آوي إلى فراشي . وتمنى الفارس الموسر للحاضرين ليلة طيبة عن بعد وهو يمد ذراعيه ويرفع

(١) بلد في إسبانيا هزم فيه ولنجتون الفرنسيين في يوم ٢١ من يونيو ١٨١٢ (تعليق الأصل) .

ذقته ، ويزر رأسه ليزيل ما يشوب شكله من أى تجعد أو تقوس . . وانصرف .
وقال جاويش البروجي فى جناء :
— لماذا لم تزده غيظا يا أبى ؟ إنك كنت تستطيع أن تحيله إلى مشاكس
كالدب . .

وقال صاحب الطاحون اللطيف دون أن يرفع بصره :
— أنا لم أرد أن أستير الشاب ، فذلك لا يستحق شيئا . ثم إن مجيئه كان
وديا بمقدار كاف .
وقال جون :
— لا أظن أن مجيئه كان وديا أكثر مما يجب .

وأجاب الأب اللطيف وهو يخلع سترته ليذهب ويحلب مقداراً آخر من
الجمعة . وكان خلع السترة الموسمى هذا ، والبقاء بالقميص ، أمر أيجته ضيق مخزن
الخنور ، وأثر تلويثه لأحسن الملابس ، ذلك الأثر الناتج من خيوط العنكبوت
المنتشرة فيه :

— إنه من الخير كذلك الإبقاء على حسن الجوار مع الناس إذا لم يكونوا غير
مطابقين لإطلاقا .

ثم تحدث بعض المدعويين عن « فس دريمان » على أنه ليس بالشاب السيء فيما
إذا عرفته على حقيقته ، وجاريته على هواه . وقال آخرون إنه ليس عدواً لأحد
غير نفسه . وقالت السيدات الأكبر سناً فى لهجة اهتمام إن أكبر الظن أنه سيرث
بعد موت عمه مبلغاً كبيراً من المال . أما الشخص الذى لم يقرضه فهو الذى كان
أصح معرفة به من غيره . هو الذى عرفه غلاماً منذ سنوات أيام كان يقطن فى
مكان أقرب إلى أوفر كيب من الآن . . . إن هذا الشخص الذى لم يقدره كان
جاويش البروجي .

الأرض المجاورة ، بشروط ميسورة على نحو استثنائي . ولكن ابنه مات بعد اقتضاء عامين على شرائه لذلك العقار، ومن ثم أصيبت حياة دريمان بالشلل . وقد قيل إنه تحامل على تملك المنزل والحقول منذ حدوث تلك الكارثة إلى إحدى النساء اللواتي يمتن إليه بصلة القرى من بعيد حتى يحول دون انتقالها إلى يد ابن أخيه المقيت . ولكن هذا النبأ لم يتحقق منه على وجه اليقين .

كان هذا المنزل يثير الاهتمام كغيره من المنازل التي تكون كذلك عادة في إقليم أدركه الاضمحلال ... والتاريخ الصحيح لذلك الإقليم يدل على ما تقدم . وهذا التاريخ يتضمنه ذلك الكتاب اللطيف المطبوع الذي يحوى لوحة مهداة إلى آخر فروع للبلاد الأصليين . وبدا من المرسوم في هذه اللوحة أنه في سنة ١٧٧٤ ، وهو تاريخ طبعها ، كانت نوافذ المنزل مشوية بخدوش صغيرة كأنها خطفات البرق السود . كانت هناك قرون من الدخان الجامد تتصاعد من كل مدخنة من المداخل العديدة . وبدت سيده وكلب صغير في المرح على هيئة من يمشى في جد . وتعلقت فوق الأشجار إلى الشمال الشرقى سحابة كثيفة ، وطيور لا يعرف نوعها .

كانت هذه الدار الشاردة المهمة تشتمل على جميع الميزات الرومانسية ، والعيوب العملية التي تتقاسمها الأباكن الغريبة المائلة لها مع الكهوف والجبال والمناهب والأودية الضيقة وغيرها من المنازل الشاعرية التي يتمنى ذوو الذوق أن يعيشوا ويلقوا منيهم فيها . وكان متاحاً لنبات الحردل والجرجرين أن يعلو فوق الجص الداخلي للحيطان الرطبة إلى أي ارتفاع لا يبعد عن الأرض بأكثر من ثلاث أقدام . وتما عش الغراب ذو الرقة البالغة ، والسيقان الدقيقة ، من خلال شقوق الحجر المرصوف في حائط مخزن الماء كولات . وفي خارج الدار عملت الطبيعة التي أتيح لها الوقت الممتد ، على مزج ما تنسقه وما تحموه ، بدلائل ما يكسوه الإنسان وما يلبه في الدار المذكورة التي يصعب أن يقال إلى أي الطرفين المذكورين — ولعله إلى كليهما — يرجع أصل أي نوع معين من أنواع المحو الذي اعتورها . لقد انطلقت الجلوة من زخارف الأبواب ، ولكن لم يبد هل كان فقدان جدتها يرجع إلى احتكاك أكتاف العدد العديد من الناس الذين مروا بها ، وإلى نقل الرياش الثقيلة عبرها ، أم يرجع إلى فضل الزمن على نحو أعم وأشد تجريداً . وقد كانت الركاز الحديدية لألواح النوافذ الزجاجية متآكلة من أسفل

حيث تنفذ في الحجر ، ويبلغ مقدار تأكلها سمك الأسلاك ، ويرجع ذلك إلى أنفاس الأجيال التي كونت بركا من الأنداء أصابتها بالصدأ . أما ألواح الزجاج نفسها فهي إما قد فقدت إشراقها كلية ، أو أصبحت قزحية الألوان كذليل الطلوس . وقامت في وسط السقيفة مزولة كانت عقرها تتمايل كلما هبت الريح ، وتلقى ظلها هنا وهناك ، وكأنما لسان حالها يقول : ها هي ذى مزولتكم الفوذجية البديعة . ها هي ذى في أى وقت ، ولأى كان . . . أنا مزولة جديدة . . . والتحول خير سياسة .

ومرت آن تحت سقيفة الباب المقوسة التي تحجب واجهة الدار الرئيسية ، والتي يقوم فوقها مسكن البواب ، والوسيلة إليه سلم حلزوني . وقد كانت هناك عبر طريق الباب حواجر خشبية مثبتة فتحت آن أحدها وأغلقته ورامها . وبدت ضرورة إقامتها عند انتقال آن إلى الداخل ، فالقناء ذو الزوايا الأربع البناء القديم كان عبارة عن أحواض مسورة بالطين والسهاد ، تعيش فيها العجول والأوز والبط وإناث الخنازير الكبيرة إلى حد مدهش ، وممها أولادها الصغيرة إلى حد مدهش أيضاً . وأخذت إناث العجول تلهو داخل الحظيرة بمسد أعناقها ولعن المنترجات في المقاطع النائية من الحجر . وتوجهت آن إلى باب آخر مفتوح حيث قام حاجزئان ليحول دون أى اختلاط بين الحيوانات الداجنة وسكان الدار . ولما لم تجد مطرقة معلقة بالباب طرفته بعضا قصيرة كانت موضوعة لإزاء المكان لهذا الغرض . ولكنها دخلت المر إذ لم يحضر أحد ، وحاولت دخول باب داخلي .

وسمع صوت خفيف في الداخل ، وفتح الباب بمقدار لإصبعين ، وظهر من الفتحة شق من وجه ذابل يتضمن لإحدى العينين . وجانباً من تجاعيد الجبهة . وقالت آن :

— أستميحك عذراً . لقد جئت في طلب الصحيفة .

وقال قاطن الدار بصوت كالنحيب وقد زاد من فتحته للباب .

— أوو ، أهو أنت يا آن العزيزة . لم أستطع المجيء إلى الباب لافتحه .

إلا بصعوبة ، فأنا ضعيف جداً .

وقال الرجل الهرم :

— ذلك أني متبيح جدا . ومن عادتي أن أرتجف من رأسي إلى قدمي عندما أفاجا بزيارة قريب محبوب .

وقال الفارس المويسر :

— آه ، هذا هو الأمر !

قال ذلك وهو يهوى بيده على ظهر مقعد عمه محدثا قرقة شديدة ففزع عمه بنجى على أثرها مبتعدا في عصابة مقدار بوصتين ، ثم سقط في مقعده ثانية . واستطرد الفارس :

— أسألك العفو لأنني أخفتك يا عمي . فهذا ما فعله في الجيش ، وقد نسيت أمر أعصابك . ولعلك لم تتكد تتوقع أن تراني ، ولكن هأنذا .

— أنا . . . أنا سعيد برؤيتك . . . ولعلك لن تمسك طوليا .

— الأمر على عكس ذلك تماما ، فسأقيم إقامة دائمة !

— أوو ، فهمت ! وأنا شديد السرور بافتوس . . . أقلت . . . إقامة دائمة !

وقال السيد الشاب وهو يجلس على حفاف المكتب المنحدر ويمد ساقيه كأنهما عمودان :

— نعم ، إقامة دائمة . وسأجعل هذا البيت بيتي كلما فرغت من واجباتي وسأبقى فيه مادمت خارج عملي . ثم أحضر هنا بعد ذلك ، أي عندما ينتهي هذا الحشد العسكري في الخريف ، وسأعيش معك كآتي ولدك ، وسأبذل العون في إدارة أمر أراضيك ومزرعتك كما تعلم ، وسأجعل منك رجلا هراما مستريحاً .

وقال الفلاح وهو يتسم ابتسامة فزع ؛ ويمسك بذراعي مقعده ليستند نفسه :

— آه ! كم أنت تهيجني !

— نعم . . . وقد كنت أنوى الحضور منذ زمن طويل لعلني أنك تود بقائي معك يا عمي بنجى . وقلبي لا يطاوعني على رفض ما تود .

— إنك كنت على الدوام رقيقاً من هذه الناحية .

— نعم . لقد كنت دائماً كذلك . ولكن يجب أن أبادر فأقول لك ، دون أن أقصد تخييب ظنك . . . إني لن أبقى هنا طوال الوقت . . . طوال اليوم . . . ويرجع ذلك إلى واجباتي العسكرية بحساباتي من فرقة الفرسان .

وصاح الفلاح وعينه تشرق فرحاً :

— أوو ، لن تبقى طوال الوقت ؟ هذا مؤسف !

— كنت أعلم أنك ستقول هذا . . . ولن أستطيع في بعض الأحيان أن أبيت هنا ، وذلك لنفس السبب .

وقال السيد الهرم وقد ازداد شعوراً بالفرح :

— لن تبيت لياليك هنا ؟ . . . ينبغي أن تبيت هنا . ينبغي هذا دون شك .

ومختصر القول إن هذا هو ما يجب ، ولكنك لا تستطيع !

— لن أستطيع ذلك ما بقيت في الخدمة العسكرية ، ولكنني بعد الانتهاء منها مباشرة . . . أى في اليوم التالي للاتهاء منها ، سأبقى هنا طوال الأيام ، وسأبيت جميع الليالي لأسرك ما دمت تطلب إلى ذلك بهذا العطف كله .

وقال العم بنجي :

— أ . . . أشكرك . سيكون هذا لطيفاً جداً .

— نعم ، كنت أعلم أن هذا سيفرج عنك .

وربت على رأس عمه في عطف بينما عبر الرجل المسن عن سروره بشاهد بحبة ابن أخيه . . . عبر عن ذلك بتقطيب كتقطيب رأس ميت .

ثم استطرده فستوس :

— وكان ينبغي أن أحضر الليلة الماضية لزيارتك عندما مررت من خلال هذه الناحية ، ولكن كان الوقت متأخراً جداً إلى حد أني لم أستطع أن أعرج عن طريق وأقطع كل هذه المسافة . وإنك لن تظن هذا التصرف جافاً .

— أبدأ ، أبدأ ما دمت لم تستطع الحضور ، ولن أظن مثل ذلك تصرفاً جافاً قط ما دمت لا تستطيع الحضور حقاً يا فتى .

ومرت فترة صمت . ولما لم يقل ابن الأخ شيئاً استأنف العم بنجي قوله :

— وددت لو كانت عندي هدية صغيرة أهدتها لك . ولكن شاء لنا سوء الحظ أن نفقد جزءاً كبيراً من حيواناتنا هذا العام ، وكان علي أن أفق المالك الكثير . — مسكين أيها العزيز الهرم . . . أنا أعلم ذلك . أأفرضك قطعة قهوة من

ذات السبع الثلثات يا عمي بنجي ؟

— ها ، ها . . . أنت لا تفوتك النكتة . . . حسنا ، سأفكر في ذلك . . .
أهكذا يتوقعون أن يختار بوتابارتى (١) هذه البقعة من الشاطئ . بالنات لزول
قواته ، هيه ؟ وأن « الفرسان المتطوعين » سيقفون في المقدمة على أنهم الفدائيون ؟
وقال ابن مارس (٢) المرعرع وقد فقد قليلا من تورده :

— من قال ذلك ؟

— بائع الصحف .

وقال فستوس في شجاعة :

— أوو ، لا خير في هذا . لقد ظنته الحكومة ممكنا وقتنا ما ، ولكنهم
لم يستقروا على رأى .

ودار فستوس بينا كان يتكلم ، وقال الآن على حين بفتة :

— آه ، من هذه ؟ عجبا ! إنها صغيرتنا آن !

إنه لم يلاحظ وجودها حتى هذه اللحظة ، فقد ظلت السيدة الصغيرة منذ
دخوله مكتبة على الصحيفة ، ثم ابتعدت إلى جانب العرفة الخلقى .

— وهل تنويان البقاء أنت وأمك هناك في دار الطاحون ، حيث ترقبان
السماك الصغير يا آنسة آن ؟

وأجابت بأنها غير متيقنة من الأمر ، ونمت لهجتها عن يقين لا يعتوره شك ،
ولم يكذب استحق السؤال . وكانت تنظر إليه مرغمة أثمانا كلامها . ولكن الاحرار
كان يصيغ ذراعتها ويديها مرة بعد مرة كما كان يصيغ وجهها . ولم يكن ذلك
يرجع إلى أن حذاه الكبير ، ومهمازيه الخفيفين ، وسائر المعدات الرهيبة التي
يتقلدها . . . قد غلبتها على أمرها كما تبادر إلى ذهنه . ولكن يرجع ببساطة إلى
أنها لم تكن معدة لمقابلته هناك .

وقال وقد ترك لحظه يترى فوق استدارة خدها :

— أرجو أن تظلا هناك من أجل مصلحتي بالتأكيد .

وازدادت آن توقرا بعض الشيء ، وبدا التحفظ في نظرتها . ولكن « فارس

(١) هكنا في الأسفل .

(٢) لله الحرب في الأساطير الإغريقية .

فرقة الفرسان المتطوعين ، طفق بحادثها ، بعد تبين ذلك ، بطريقة بلغت من التأدب مبلغاً أبهجها إبهاجاً لا يقاوم برغم محاولاتها لإخفاء كل شعور . وعلى أثر ملاحظة له ، أشد إشرافاً من العادة ، تحرك لها ، وتلاعبت شفها العليا فوق أسنانها البيض غير مستقرة على رأى . . . ستكف عن الحركة . . . لا . . . بل ستسحب قليلاً في ابتسامه ثم ترف وتهادأ من جديد . . . وهكذا ظلت تحوم كالفراشة تراودها رغبة لطيفة في أن تصبح راضية مبسمة ، وأن تغدو مع ذلك رزينة متالكة الجلأش أيضاً . وقد أرادت أن تظهر له أنها لا تريد ثناء ، وأنها ، برغم ذلك ، ليست باردة الشعور إلى حد تريد معه أن تصد أية عاطفة أصيلة قد يتوق إلى التعبير عنها .

وقالت مقاطعة الشاب وهو يبدى تعليقاته :

— أتريد أن أقرأ لك أيضاً ياسيد دريمان ؟ فإن كنت لاتريد ذلك ، فسأعود إلى البيت .

وقال فستوس لعمه :

— لا تدعني أعطلك أكثر من ذلك . . . سأنصرف بعد دقيقة أو دقيقتين حالما ينتهى رجلك من تنظيف حدائق .

— أنت لا تعطلنا يا ابن أخى . فهى ستأخذ الصحيفة لامراء ، فهذا هو اليوم الذى تأخذها فيه . وقد تقرأ لى أزيد قليلا بما قرأت إذ أنى لم أفد منها حتى الآن إلا أقل من القليل . حسنا ، لماذا لاتقولين شيئاً ؟ أستحدثين أم لا يا عزيزتى ؟
وقالت الفتاة :

— لن أحادث اثنين .

وقال فستوس ضاحكاً :

— هوه ، هوه ! يا للجنة ، أعتقد ألابد إذن من الذهاب .

وغادر الترفه عاجزاً عن اختلاس نظرة أخرى إلى الفتاة ، وقصع مرتداً إلى صحن الدار حيث رأى رجلا ، فصاح ماداً يده :

— أتتوني كربلسترو !

وأقدم إليه كربلسترو ركضاً . ورفع خصلة من شعره وسواها ، وقال :

— نعم ، يا سيدى دريمان .

وكان كربلسترو يد السيد دريمان الوحيدة فى رعاية حيوانات حجن الدار والحديقة . ولم يكن شديد الاعتداد بمجال الرجولة ، شأنه فى ذلك شأن مخدومه ، ومرجع ذلك إلى لين فى عموده الققرى ، وخصوصية فى فمه الذى لا يفتح إلا من ناحية واحدة فيجعل هذا ابتسامته مثائلة الأضلاع .

وقال فستوس بحماسة ذات تعال اجتماعى :

— حسنا ، يا كربلسترو ، كيف الحال اليوم ؟

— متوسطة فيما يتعلق بالسيد دريمان . وكيف حالك أنت ؟

— لا بأس . حسنا ، عليك الآن بتنظيف حدائق العسكرى هذا ، وسأضع قدمى فوق هذا المقعد . إن حظيرة مواشى عمى هذه غير جذيرة بجندى أن يدخلها .
— نعم ، ياسيدى دريمان ، سأنظف حذامك ... لا ، إنها غير جذيرة بذلك ، سيدى دريمان .

— أية حيوانات فقدتها عمى هذا العام يا كربلسترو ؟

— حسنا . دعنى أظنر فى هذا يا سيدى . . . أستطيع أن أذكر أننا فقدنا ثلاث دجاجات ، وذكراً من الحمام وخنزيراً كبيراً ، وآخر رضيعاً هزيلة ، وهو واحد من نتاج يبلغ عشرة خنازير . ولا أستطيع أن أذكر شيئاً عدا ذلك يا سيدى دريمان .

— هيه . . . هذا ليس بالعدد الكبير من الحيوانات . . . بالعجوز الماكر !

— لا ، هذا ليس بالقدر الكبير . العجوز ال . . . ؟ ماذا قلت يا سيدى ؟

— أوو ، لا شيء . . . إنه داخل الدار هناك .

ولوى فستوس رأسه فى اتجاه مباشر لداخل الدار ، واستطرد قائلاً !

— إنه لنهاب محترف .

وقال كربلسترو وهو يمز رأسه فى حركة توييح مغتبطة :

— هه ، هه . . . فه فه يا سيدى دريمان ! لا ينبغي للسادة أن يتحدثوا

على هذا النحو ، لاسيما الضابط ياسيد دريمان ! ومن واجب الفرسان السرافة ألا ينسوا أن أرومتهم مقدرة كل التقدير فى البلاد ، ولا يصح التحدث عنها بسوء .

— إنه ممسك اليد .

— حسنا ، ياسيدى . إنه لكذلك . . . أعترف أنه ممسك اليد قليلا . إن
من طبيعة بعض السادة المتقدمى السن أن يكونوا كذلك . وأرجو أن يحسن
تقدير نصيبك فى الثروة ياسيدى .
— أرجو ذلك .

ثم سأله الفارس وهو ينظف له حذاه :

— أيتحدث الناس عنى هنا ياكربلسترو ؟

— حسنا ، نعم ، ياسيدى . لإنهم يتحدثون عنك من أن لآخر كما تعلم .
ويقولون إنك بين الفرسان بضعة أصيلة لم ينشأ مثلها قط فى القلاية . وبجمل
القول لإنهم يقولون بأنك فتى رائع ياسيدى . وكان بودى ألا أخاف الفرنسيين
كما لا تخافهم أنت . ولكنى بحسبانى من جنود الحرس المحلى أحلم فى كل ليلة بأن
على الدفاع عن بلدى ، وأنا لا أميل إلى هذا الحلم أبدا .

— ينبغي ياكربلسترو أن تجاهب هذا الأمر بلا مبالاة . وستعود بذلك
ألا تهتم به قليلا . حسنا ، إن الفتى الرائع ليس كل شىء فى الحياة . وهناك فى
الجيش فتیان يماثلوتى فضلا ، بل قد يفضلوتى .

— ويقولون إنك ستموت ميتة الرجال عندما تسقط فى الميدان هذا الصيف .
— عندما أسقط فى الميدان ؟

— نعم ، بالتأكيد ياسيد دريمان . بالروحك المسكينه ! وأنا لن أنساك حين
ترقد ناخر العظم فى لحلك العسكرى .

وقال الجندى المحارب قلقا :

— هيه ؟ ماذا يحملهم على الظن بأنى سأسقط فى الميدان ؟

— حسنا ، ياسيدى . إن فرسان المتطوعين سيوضعون فى مقدمة الجبهة .

— مقدمة الجبهة ! هذا ما كان يقوله عمى .

— نعم ، وهذا صحيح على كل حال . ومن الطبيعى أنهم سيحصدون
ويتساقطون تساقط الحصاد . وستكون أنت من بينهم أيها الفارس الفتى الشجاع
المسكين !

— اسمع يا كربلسترو ، هذا القول محض سخيف . كيف يمكن أن يوضع فرسان المتطوعين في مقدمة القتال ؟ لن يوضع أحد في تلك المقدمة . وليس لنا ، نحن الفرسان المتطوعين ، أى شأن بغزوة بونابرت ، فسنكون بعيدين في مكان آمن حيث سنحمي المتسلكات والمجوهرات . والآن أترى يا كربلسترو ألا مجال لإرسال فرسان المتطوعين إلى المقدمة ؟ أظنهم يستطيعون حقا أن يقدموا على مثل هذا التصرف ؟

وقال كربلسترو المبهج :

— حسنا . ياسيدى ، أخشى أننى أظن ذلك . وأنا أعلم أن جنديا عظيما مثلك لا يمكن إلا أن يتهيج كل الإتهاج لهذه الفرصة المتاحة . وسيكون هذا شيئا عظيما ... الموت والمجد ! . وبجمل القول إنى أتمنى لك من صميم قلبي أن يتحقق لك . هذا . . . وأنا أردد ذلك للدلالة في كثير جدا من الأحيان ، وأصلى فعلا لك مساء لتحقيقه .

— أوو ؟ يا إمامة ! لا داعى لصلاتك من أجل هذا .

— لا ، ياسيدى دريمان ، لن أفعل هذا .

— سيقوم سيني بواجبه لامراء ، وهذا يكفي . والآن اغرب عنى .

وعاد فستوس متجها إلى غزفة عمه ، ووجد آن على أهبة الانصراف . وكان يرغب فى أن يتبعها على الفور ، ولكنه توجه إلى النافذة إذ لم تنح له آن فرصة لتحقيق رغبته ، وظل ينقر مصراعها بأصابعه . بينما كانت الفتاة تجتاز ساحة الدار .

وقال الفلاح وهو ينظر فى ريبة إلى فستوس من تحت جفن واحد :

— حسنا يا ابن أخى ، ألم ترحل بعد ! إنك ترى الحال التى أنا عليها . فهى لم تتحسن قط كما ترى . . . ولذلك لا أستطيع أن أرحب بك ترحيبا لاتصافا نحو ما أريد .

— أنت لا تستطيع يا عمى ، أنت لا تستطيع ، وأنا لا أظنك أسوأ حالا . فإن ظننت بك هذا فامسح وجهى . ولكن ستتاح لك فرص كثيرة للترحيب بى عندما تتحسن صحتك . وإذا كنت لم تعد نشيط الروح كعمدك السابق فلماذا لا تحاول تغيير الهواء . فهذا جحر سخيف رطب .

— إنه لكذلك يا فستوس ، وأنا أفكر في الانتقال منه .

وقال فستوس بين الدهشة والاهتمام :

— آه ، إلى أين ؟

— سأصعد إلى العلية في الزاوية الشمالية . وليس هناك موقد في تلك الغرفة ،

ولكني لن أحتاج إليه . يالئ من مسكين !

— هذا ليس بالانتقال البعيد .

— إنه ليس كذلك . ولكن ليست هناك روح تمت إلى بصلة في حدود

عشرة أميال وأنت تعلم حق العلم أنني لا أقدر على منزل أدفع له لإيجارا .

— أنا أعلم ذلك . . . أنا أعلم ذلك يا عمي بنجي ! حسنا ، لا تقلق بالك ،

سأحضر وأتولى شئونك على أثر الخلاص من محنة « بوني » تلك ، ولكن على

المرء أن يطيع فيما إذا دعاه داعي الوطن ، هذا إذا كان رجلا .

وقال العم بنجي ، وقد ارتسم إعجاب شديد على ظاهر وجهه :

— هذه روح عظيمة ! وأنا لم يكن لي مثلها ، فكيف سرت إلى الولد ؟

— لعلها سرت إلى من أخو لي .

وقال الفلاح ملوفا بيده في تأثر :

— لعل هذا صحيح . حسنا ، اعتن بنفسك . احتط للأمور ! فإن شجاعتك

في مثل هذه الأيام الشديدة بأيام الحرب جديرة أن تلقى بك بين أيدي أعدائك ،

وأنت آخر سلالة الأسرة ، وعليك أن تذكر ذلك فلا تجعل شجاعتك تطيح بك .

وقال فستوس وقد افترض رضاه عن نفسه قسرا عنه :

— لا تقلق يا عمي ، فسأتحكم في أعصابي ، أو على الأقل ، سأبذل في سبيل ذلك

مافي وسعي ، ولكن الطبيعة تنصدي في بعض الأحيان . . . حسنا . سأنصرف .

وبدأ يترجم بلحن « برايتون كامب » . وانصرف في اعتداد ، واعداد أن يعود

عما قريب . وكانت كل خطوة من خطوات رواحه تضيف إلى مظهر عمه

بهجة خاصة .

وعندما توارى الفتى وراء منزل البواب أظهر العم بنجي نشاطا غير طبيعي

بالنسبة لحالة مرضه ، فقد صعد إلى الدور العلوي في سرعة دون الاستعانة بعصا

عامداً في نفس الوقت إلى فتح فمه وإغلاقه في صمت تام كالضفدع الظالم . وكانت هذه هي طريقته في التعبير عن جذله . لقد صعد إلى أعلى في سرعة السنجاب العجوز ، واتجه إلى نافذة في إحدى غرف النوم تشرف على منظر السهول الممتدة وراء المنطقة ، وطريق المشاة الواصل بينهم وبين القرية .

وقال في صرخة مكتومة وهو يرقص قافراً :

— نعم ، نعم ، إنه يتبعها . لقد أصابت قلبه .

ذلك أن قوام آن جارلاند ظهر في المر ، وظهر وراها ، على مسافة قصيرة نوعاً ، قوام فستوس وهو يسرع مختالاً . وشعرت باقترابه فأسرعت في مشيتها . وسار هو في خطوات أسرع ، ولحق بها . ودارت إليه وكأنما هي تلي نداءه . ومشى إلى جانبها حتى توارى كلاهما عن العيان . وأخذ الرجل الهرم يعزف بيده على كان متخيل لمدة نصف دقيقة تقريباً ، وتوقف فجأة عن إبداء دلائل السرور هذه ، ونزل إلى سفلى الدار ؟

كيف تبادلوا الحديث

في المرعى

(٧)

قال فستوس لأن قبيل أن يلحق بها :

— أتأتين إلى هذه الناحية كثيراً ؟

وقالت وهي في حيرة تفكر في حضوره ، وهل كان عمداً أم مصادفة :

— حضرت بسبب الصحيفة وأشياء أخرى .

ومشياً في صمت وفستوس يضرب الحشائش بعصاه في براعة ثم سألها :

— أقلت لي شيئاً يا آنسة آن ؟

وقالت آن :

— لا .

— أستمحك ألف عذر ، فقد خيل لي أنك قلت شيئاً . والآن لا تدعيني

أنحرف بك عن الطريق ، فأنا أستطيع أن أمشي بين الحشائش النامية ، وزهر

شقيق النعمان دون أن تلوث جواربي بالاصفرار كما تشوب جواربك . . . حسناً ،

وما رأيك في مجيء عديد من الجنند على هذا النحو إلى المكان المجاور لكم ؟

وقالت في جد رصين :

— أظن ذلك منعشاً جداً ، وتبدلاً كبيراً .

— لعلك لا تميّز إلينا معشر الحارثيين ونحن جماعة .

وابتسمت آن دون أن تجيب .

وقال الفارس المتطوع وهو ينظر إليها متحريراً ، ومحتقن الوجه كقليل

من اللهب :

— ولكنك تضحكين ! أى شيء بدأ لك حلمك على الضحك ؟

وقالت آن وقد أزعجها غضبه المفاجيء .

— أنا ضحكت ؟

فقال كالطفل الغاضب :

— ولكن ، نعم . وأنت تعلين أنك ضحكت ، أنت المستهزئة الصغيرة .
أنت تسخرين مني ... هذا هو ما أضحكك ! وبودي أن أعلم ماذا كنت تصنعين
بدون رجل مثلي في حالة مجيء الفرنسيين إليك في أية ليلة ؟

وقالت له متعجبة :

— أستعين على قهرم وطردهم . . .

— أفي استطاعتك أن تسألني هذا السؤال : وفيم جئنا إلى هنا ؟ ولكنك
لا تقدرين الجنود أي تقدير .

وقالت له : أوو ... نعم ... إنها تميل إلى الجنود ، لا سيما يوم يعودون من
ميدان الحرب إلى أوطانهم مكلمين بالنصر . . . وبرغم ذلك فهي إذ تفكر في
الأعمال التي أكسبتهم هذا المجد لا تميل إليهم ذلك الميل الشديد . وقال الفارس
المطروح الذي هدأت ثأرته إنه يظنها تقصد حصد الرؤوس ، والإطاحة بالأدمغة
ومثل هذا النوع من الأمور ؛ ولأنه يرى أن من حق مخلوق رقيق القلب مثلها
أن يشعر بشيء من الهول . أما فيما يتعلق به فهو لا يهتم أن تدور موقعة أخرى
هذا الصيف كموقعة « بلهايم » التي خاضها الجيش منذ مائة عام ، أو منذ أي وقت
كان ، وليصب بسوء إن كان يهتم بهذا أدنى اهتمام .

— هوللو ! ها أنت ذى تضحكين ثانية . نعم ، نعم لقد رأيتك !

ودار فستوس الغضوب بعينه الزرقاوين ووجهه المحتمن إلى الفتاة ، وكأنما
سيستطيع قراءة ما بنفسها . ولكن عينها لم تستطعها مواجهته ، وتراختا . وأخذ يكرر :

— إنك ضحكت فعلا ! .

وغغغمت الفتاة :

— لم تكن إلا ضحكة صغيرة طفيفة .

وأرعد بقوله :

— آه . . . لقد علمت أنك ضحكت . والآن ، ماذا حملك على الضحك ؟

وغغغمت في مكر :

— لقد ظننت فقط . . . أنك في فرقة المتطوعين . . ليس إلا .

— وما المضحك في هذا ؟

— أن فرسان فرقة المتطوعين ليسوا على ما يبدو إلا فلاحين فقدوا أعصابهم .

— نعم ، نعم . لقد علمت أنك كنت تقصدن سخرية من هذا القبيل يا آنسة . ولكني أعتقد أن هذه هي طريقة النساء ، وأنا لن أغيرها التفاتا . وسأعترف بأن بعضنا ليسوا ذوى شأن كبير . . . ولكني أعرف كيف أجرد سيقن كذلك ؟ قولى لى لا أعرف كيف أجرده لتستثيرينى .

وقالت آن فى عذوبة :

— أنا واثقة من أنك تعرف ذلك . . . وإذا جاءك فرنسى ياسيد دريمان ،

أتصيه فى وركه أم فى غنذه ؟

وقال وقد انكشفت أسنانه البيض عن ابتسامة :

— أنت تعمدن الآن إلى الإطراء . . . حسنا . . . سأجرد سيقن بالطبع . .

لا ، أنا أقصد أن سيقن سيكون مجردا من قبل . . . وسأنخس بانهماز حصانى . . الذى يسمونه فى الجيش : « جواد » . . . وسأنجه بجوادى إليه وأقول . . لا ، لا ينبغى أن أقول شيئاً بالطبع . . . فالرجال لا يبددون الوقت بالتكلم أثناء القتال . سأنال منه بسلاحى الثالث ، وهو سلاح ضعيف ، ثم لى إذ أعود لى سلاحى الثانى . .

— ولكنك بذلك لا تصيه بل تحافظ على نفسك .

وقال وقد تحولت الأضواء المشعة من وجهه فى لحظة واحدة لى لون سحابة

معتمة :

— كيف يمكنك أن تقولى هذا ! كيف يمكنك أن تفهمى الاصطلاحات

العسكرية ، أنت التى لم تمسكى بالسيف مرة واحدة فى حياتك ؟ . .

واستطرد مسترسلا فى تبرمه الملح :

— ليس لى أن أقضى عليه بالسيف على الإطلاق ، بل على أن أجهز عليه

بفندارتى . . . على أن أنزع ، قفاز يمينى ، وألقى لى الوراء دنثار جلد الماعز ، وأفتح

خزانة البندقية ، وأجهزها ، وأطلق قذيفتها . . . لا . لى لى أن أفعل هذا ، فهو

خطأ . على أن أصحب العندارة من جانبى اليمين ، ولدى الاتهام من حشوها أمسك

بها من طرفها الغليظ ، وعلى عند الصباح بعبارة : « اضبط زناد الغدارة ، أن .. »
وقالت آن في برأة :

— هناك إذن متسع من الوقت في حومة القتال المحتم لإصدار مثل تلك
الأوامر ؟

وقال الفارس وقد اشتعل وجهه من جديد :

— لا ! ولكني لا أقول لك بالطبع ما يمكن أن تكون عليه عبارة الأمر
بالمهجوم .. إنك تضحكين ..

— أنا لم أضحك . أقسم لك أنني لم أضحك !

— لا ، لست أظن أنك ضحكت . كان هذا خطئي أنا .. حسناً ، ثم أصوب
غدارتي في كياسة مدققاً النظر الممتد في اتجاه ماسورة الغدارة .. في اتجاه ماسورة
الغدارة .. ثم أطلق النار .. وأنا بالطبع أعلم جيداً كيف أنازل الأعداء ..
ولكني أظن أن عمى الهرم يثيرك على .

وأجابت آن :

— إنه لم يقل عنك كلمة ولو أنني سمعت عنك بالطبع .

— ماذا سمعت عنى ؟ لا شك أنك لم تسمعي كلمة طيبة . هذا يجعل دمي يغلي
في عروقي .

وقالت تلمئته :

— لم أسمع قولاً سيئاً .. مجرد كلمة كل حين وحين .

— تعالی الآن وحديني .. هناك شخص تعزينه ، أليس كذلك ؟ .. أنا لا أحب

المعارضة . سيكون الأمر سراً مقدساً بيننا .. تعالی الآن !

وارتبتك آن ، ولم تعد ابتسامتها مطمئنة . وقالت في آخر الأمر :

— لن أبوح لك بشيء .

وقال الفارس مرتبياً في أحضان اليأس :

— هاهي ذى تغيظني من جديد ! سأبدأ عما قريب في الاعتقاد بأن اسمي

لا يساوي في هذه النواحي بضعة قروش !

وكررت آن قولها :

— قلت لك إن أحدا لم يتحدث عنك بسوء .

وقال فستوس بلهجة بدأت تلتطف :

— هذا يعني أن الحديث كان في صالحى . حسناً ، ولو أن لى ، إذا رجعت

إلى الحقيقة ، عيوباً ليست قط بالقليلة . وهناك على ما أعتقد بعض أناس

يقرطوننى . . . أكان ما سمعته تقريباً ؟

— كان تقريباً .

— حسناً . إنى لا أساوى كثيراً في فلاحه الأرض ، وفي عشرة الناس ،

وفي علم الحساب ، ولكنى أحسب أنه لا بد أن أقر . . مادام ذلك مفروضاً على .

بأنى أستطيع الظهور بمظهر الجندى الباهر ، كأى رجل من سلاح الفرسان ، في

موقعة الشاطئ المنتظرة .

وقالت آن :

— إنك تستطيع هذا .

ذلك أنها لم تستطع مقاومة تلك المتعة الخفيفة ، متعة دفعه إلى السلام ، برغم

أن جلدها كان يقشعر في خوف عميت من سورة غضبه :

— أنت حسن الوجه ، ويقول عنك الناس إنك . .

— ماذا ؟ شئ جميل إنهم يروننى حسن الوجه . ولكنى لم أصنع نفسى .

وعلى ذلك لا يكون هذا القول مديحاً . . هوللو ! ماذا يدعوك إلى النظر هناك ؟

وقالت آن .

— ليس هناك إلا عصفور رأبته يطير من تلك الشجرة .

وصعد زفرة في مثل صوت الرعد :

— ماذا ؟ . أتقولين ليس هناك سوى عصفور ؟ . أنا أرى كنتيك ترتجفان

ياسيدتى الصغيرة . والآن ، لا تستثيرينى بهذا الضحك ، والله إن هذا لا يجوز .

وقالت آن ، وقد تحولت لسوء سلوكة من حالة المرح إلى النغيظ :

— إذهب عنى إذن . أنا لا أريد البقاء في صحبتك أيها الشئ الضخم المتعرج !

إنك حاد الطبع جداً إلى درجة لا يمكن احتمالك معها ! اذهب عنى !

— لا ، لا يا آن . إنى لمخطئى في التحدث إليك على هذا النحو . وسأترك لك

الحرية التامة في توجيه أى كلام إلى . قولى عنى لانى مجرد من أية مسحة من العسكرية . أو قولى أى شىء ! أهينىى . . . أهينىى الآن . لانىك لفتاة عزيزة . أنا رغوة جوفاء . . . أنا هباء . . . أنا أقدر من مكنتة . . . نعم !

— ليس لى ما أقوله يا سيدى . لزم مكانك حيث أنت حتى أخرج من هذا الحقل .

— حسنا . إن فى نظراتك نوعاً من الأمر لىطواعنى قلبى على معارضته . هل ستأتين لى هذه الناحية غداً صباحاً فى مثل هذا الميعاد ؟ والآن ، لانىكونى خشنة . كانت أكرم بكثير من أن لاتفقرله ، ولكن الشفة الصغيرة القصيرة غمغمت قائلة لىها لا تظن المحبىء غداً لى هذه الناحية ممكنا بحال من الأحوال .

وقال :

— فلىكن يوم الأحد .

وقالت :

— ليس الأحد .

— الإثنين إذن . . . الثلاثاء . . . الأربعاء بالتأكىء ؟

وظل يسألها كذلك مجرباً حظه .

وأجابت بأنها ترجح أنها لن تستطىء رؤىته فى أحد هذه الأيام . ووضعت حدا للجدل بذهابها لى الحقل الآخر من خلال الباب المقوس السقف . وتوقف فستوس وهو يتبعها بنظره . وعندما لم يعد يستطىء أن يرى وجهها النحيل تخالص من تأملاته ، وأخذ يفنى ، ودار لى الاتجاه الآخر .

ان تدور دورة

حول المعسكر

(٨)

رأت آن وهي تجتاز الحقل الأخير ، امرأة عجوزا تقرب منها ، امرأة
مفضضة الوجنتين ، تشرف على الأرض وقطانها من خلال عوينات نحاسية الإطار .
وهزت لأن رأسها حتى تلالات عويناتها تلالو قرين صغيرين وقالت .

— آه ، آه . لقد رأيتك ، ولو كنت احتفظت بعويناتي القصيرة الكشف
التي أستعملها في قراءة الأدعية والإنجيل ، لما تمكنت من رؤيتك . ولكني قلت
لنفسى إنى خارجة ، وسأضع عويناتي البعيدة مرى النظر ، ولم أكد أفكر فيما
سأراه بهما . نعم ، إنى أستطيع تمييز الناس على أية مسافة بهذه العوينات . وهي
بدية عند استعمالها خارج الدار ، ولو أن عويناتي القصيرة الكشف تفضلها
لدى أداء الأعمال الدقيقة ، مثل رتق الفتوق ، وتصيد البراغيث .. هذا حقيق .
وقالت آن :

— وما الذى رأيت يا جدنى سيمور ؟

وقالت الجدة سيمور :

— فه . . . فه . . . يا آنسة نانسى . أنت أدرى . ولكنه فى لطيف ، صارم
كالسيف ، وستؤول إليه ثروة عمه كلها بعد موته .
ولم تجب آن على هذا بكلمة ، ومرت بالجدة سيمور ، وهي تنظر إلى أمام
مبتسمة .

وكان فستوس ، موضوع هذه الملاحظة ، فى نحو الثالثة والعشرين . كان فى
بأهرا من حيث أطوال جسمه ، وكانت ألوان بشرته وشعره قوية على نحو
لافت للنظر . وقد ظهرت أعراض لحيته وشاربيه فى وقت مبكر جدا ، ومرجع
ذلك إلى مئثرته على استعمال الموسيقى قبل أن تكون هناك أية ضرورة تدعو إلى
ذلك الاستعمال . كان الغلام الشجاع يعمد إلى كشط جلده فى خفية خارج الدار ،

وفي غزن المون ، وفي الكوخ الخشي ، والاصطبل ، والردهة المهجورة ، وحظيرة البقر ، وغزن الملق ، وحينئذ يستطيع أن يضع قطعة مرآة المثلثة الأعضاء دون أن يراه أحد ، أو يصطنع مرآة بالصاق قبعته وراء زجاج إحدى النوافذ ، وقد أصبحت نتيجة ذلك الآن أنه إذا أهمل استعمال أداته هذه التي كان يلهو بها فيما مضى ، انبثق في وجهه منذ اليوم الأول صدأ بديع ، وفي اليوم التالي حناء ذهبية ، وفي اليوم الثالث قش ملتهب إلى حد لا يسمح بأى تأخير جديد للحلاقة .

كان استعداده يتقسم بطبيعته إلى قسمين . . التفاخر .. والتشاحن ، وعندما لبس « الحلة الكبيرة » - على حد التعبير الكلاسيكي - أضله ، تلقائياً ، ماتحده هذه الحالة النفسية ، وهذا السلوك ، من أثر مسل في الناس ، ولكن عندما يكون مهياً للحسد والمشاحنة يصبح على الأغلب أفطن من العادة ، ويستطيع أن يندم مقطوعات بديعة من الشعر التهسكي . والفتيات اللواتي عرفنه كن يملن إليه ، ويستأن التصرف معه في نفس الوقت ، ورغم أن اهتماماته بهن كانت تهجن ، فإنهن لم يمتنعن قط عن السخرية به من وراء ظهره ، وأصبح في حالات السكر البين (وقد عرف الكأس والطأس ورغم أنه لم يتجاوز الثالثة والعشرين) كثير الصخب ، ثم ودودا للغاية ، ثم نكددا دون محيص . واستطاع أن يشهر نفسه ، أثناء طفولته بعادته اللطيفة ، عادة انقضاضه على الأطفال الذين هم أصغر منه ، وأقرب منه ، والإطاحة بعشاش العصافير من أيديهم ، وقلب عربات تفاحهم الصغيرة . أو صب الماء في ظهورهم . ولكن سلوكه كان ينقلب إلى تقيض العدوان وقتما كانت أمهات أولئك الأطفال يخرجن إليه ركضا ، وهن يهززن مكسناهن ومقلباتهن ومخضاتهن وأى شيء آخر تقع عليه أيديهن بما يمكن استعماله أسلحة ، فكان يهرب حينئذ ويختبئ وراء الأدغال ، وتحت أكوام الحطب ، وفي الحفر ويظل كذلك . ويسل إنه في ظرف من مثل تلك الظروف زحف إلى جحر عرير (١) وتوارى فيه عن الأعين ، وظل ملازما لذلك المسكن في ثبات وتصميم كبيرين مدة ساعتين أو ثلاث ساعات . وقد جلب لأهله المحترمين من صيحات الاستهجان البذيئة التي جرت على الألسنة ما لم يجلبه حينذاك غلام لأهله في أبرشيته

(١) حيوان بين الكلب والنور .

وإذا أخذ الصغار يقذفونه بالكرات الثلجية كان يجري إلى مكان يحتوى فيه ، ويضع نفسه كرات من الثلج يضع داخلها أحجاراً . وهكذا اعتاد أن يستعمل هذه القذائف الهائلة للرد على مداعبة أصدقائه . وفي بعض الأحيان كان غلمان في مثل سنه يضربونه ضرباً مبرحاً ، وإذا هو في هذه الحالة يجأر في قوة ، ولكنه يظل يعاركهم بين دموعه ودمائه وصياحه .

وقد ذاق الحب منذ عهد مبكر . وفي أيام هذه القصة كان قد كابد آلام العشق ثلاث عشرة مرة واضحة . وهو لم يكن يستطيع أن يعشق في جذل وغير مبالاة . كان عشقه جاداً ، غضوب السجية ، بل حتى وحشياً . كانت سخرية حبيبه بعواطفه تؤله ألماً حقيقياً ، وتماديها في مثل هذا السلوك يقوده إلى الخبال . كان سوط عذاب للذين يتصرفون معه في هدوء ، وشرسا للذين يتكرون علو كعبه ، وقتي ظريفاً جداً للذين يجرؤون على الاستبداد به .

ولم يلق هذا السيد المقدم وأن مرة أخرى في طريقهما المتقابلين لمدة أسبوع . ثم بدأت أمها تطلب الصحيفة كالعادة . وبرغم أن آن لم تمل إلى هذه المهمة فقد قبلت أن تذهب في طلب الصحيفة بناء على إلحاح السيدة جارلاند في تشوف غير عادى . وحارت الفتاة كل الحيرة في السبب الذى دعا أمها إلى أن تلج على هذا النحو في أمر تافه كل هذه التفاهة . ولكنها وضعت قبعتها على رأسها ، وبدأت تسلك طريقها . وظهر فستوس ، كاتوقعت ، عند مرقى سور كانت تجتازه اختصاراً للطريق . ودل مسلك الفتى على أنه كان ينتظرها . ولدى تبين ذلك واصلت سيرها قدماً كأنها لا تقصد السهل الرملى على الإطلاق .

— وقال فستوس :

— هل أنت متأكدة أن هذا طريقك ؟

وقالت :

— خطر لى أن أدور وأسألك الطريق الرئيسى .

— ولماذا ؟

وصحمت برهة وكأنها غير راغبة في الرد :

— أنا أسلك ذلك الطريق عندما تكون الحشائش مبتلة .

وعادت أدراجها في النهاية . وواصل إلحاحه :

— إنها غير مبتلة الآن . فقد ظلت الشمس مشرقة فوقها هذه الساعات التسع .
والواقع أن ناحية المر لم تكن مطروقة كالطريق الرئيسي ، وكان فستوس
يود أن يسير معها دون أن يعكر عليه خلوته أحد .

— ولكن ما تضمنينه لايهمني أبداً بالطبع .

واندفع بعيداً عن مرق السور ، ومشى في طريق الدار . وسلكت آن نفس
الطريق حاسبة أنه غير عابئ* بالأمر فعلاً . ومن ثم دار برأسه إليها ، ووقف
ينتظرها وعلى فغره ابتسامة تيه .

وقالت الفتاة في تصميم :

— أنا لا أستطيع الذهاب في صحبتك .

— هذا هراء ، أيتها الفتاة الحتقاء !! فلا بد من سيرى معك حتى زاوية المر .

— لا ، أرجوك يا سيد دريمان ، فقد يرانا أحد .

وقال لها مداعباً :

— وبعد ، وبعد ... هل هذا خفر !

— لا . أنت تعلم أني لا أسمح لك بهذا .

— ولكن ، لا بد لي من ذلك .

— ولكني لا أسمح به .

— سيان عندي أن تسمحى أو لا تسمحى ، فسأسير معك .

وقالت وقد اغرورقت عيناها بالدموع :

— أنت قاس إذن ، ولا بد لي من الإذعان .

وقال الفارس النادم :

— هو . . . هو . . . يا للخزى الذى وصفتى ! أقسم أنى لن أقدم على مثل
هذا ولو فى سبيل ملك العالم . هاو ، هاو . . . ولكنى ظننت قولك : « اذهب
عنى » يعنى « تعالى لى » كما هى حال كثيرات ممن ألتقى بهن ، لا سيما من يماثلنك
ترينا . ومن ذا الذى كان يظن أنك جادة على هذا النحو المحير ؟
ووقفت أن ساكنة إذ لم ينصرف عنها ، ولم تنبس بكلمة . وواصل قوله مؤكداً :

— أرى أنك من الحذر على قدر أكبر بما خطر ببال يوماً ، ومن الوداعة على قدر أقل .

وقالت في حزم :

— لا ، يا سيدى ، إن تصرفى ليس خطة مرسومة من قبل على الإطلاق . ولكنك سترى ، ولا شك عندى فى ذلك ، أنى لا أستطيع أن أذهب فى صحبتك إلى البيت دون أن أضع نفسى موضع الريبة .

— نعم ، هذا صحيح ، هذا صحيح ، فما أنا إلا فتى من فرسان اليومن المتطوعين ، ويمكن أن أقول لى جندى بسيط ، ونحن نعلم ما يراه النساء فى أمثالنا . . . لأنهن يروننا صفقة خاسرة . . . رجالا لا ينبغى تحدثن إليهم خشية ضياع أخلاقهن . . . فتيانا يتجنبنهن فى الطريق . . . فتيانا يدخلون البيوت كالثيران ، ويلوثون درج السلم بأحذيتهم ، ويلطخون الرياش بشرابهم ، ويفحشون فى القول للخدم ، وبعشون بكل ما هو مقدس ، وكل ما هو حق ، ولا شيء يتقدم من إطاحة الشيطان الأستطهم إلا الحاجة إليهم لصد « بونى » .

وقالت فى بساطة .

— حقاً وأنا لم أكن أعلم أنه يساء الظن بكم إلى هذا الحد .

— ماذا . . . ألا يشكون فى عمى إليك ؟ أنا أعلم أنك صفة هذا الشيخ الجميل اللطيف المتهالك على الدنيا .

— أبدأ .

— حسناً ، وما رأينا فى جاويز البروجى الجميل ؟ هيه ؟ وأطبقت آن شفتها فى شدة ، وأحكمت إطباقهما لتريه فى الواقع أن الرد على هذا السؤال لن يخرج من بينهما .

— أوو ، هيا الآن ، إن لعدى طيب حقاً ، وكذلك أبوه .

— لست أدرى .

— يالك من خبيثة صغيرة كتومة . . . لا يمكن استخلاص شيء منك . وفى يقينى أنك تجيبين على كل سؤال قتال بقولك . « لست أدرى » ، ذلك أنك على هذا القدر الكبير من الرصانة . وأقسم أن هناك بعض نساء يجبن على سؤال الرجل الواحدة منهن : « هل تزوجيني ؟ » بقولها : « لست أدرى » .

ودل لإشراق عيني آن ووجنتها أثناء هذه الملاحظة على أن وراء الرصانة التي يشكو منها قدراً كبيراً من الحيوية والدفء . . وازوى جانباً بعد أن قال ما قال ليكيها من المرور ، وانحنى انحناءة كبيرة . ومالت له برأسها طبقاً للتقليد المرعى ، ومضت إلى سبيلها .

وكانت تصل دائماً إلى حد الخنق عندما يكون حاضراً . وذلك لفكرة تطيف بها حصلها أنه لم يكن ليجرؤ على التحدث إليها دون كلفة كما يفعل لو كانت فتاة لها من الأقارب الذكور الأشداء من يذودون عنها المعجبين . ولكنها دهشت هذه المرة ، كما دهشت في المرة السابقة ، لما تملكه من قدرة على دفعه إلى الهياج أو الوداعة حسبما تشاء . وهذا الشعور بقدرتها على اللعب به كما تلعب على آلة ، أسلها إلى تأملات مبهجة ، ومكنا من الصبر حتى وهي تصده .

وعندما دخلت آن على الفلاح غرفته ألح عليها كعادته أن تقرأ له ما لم يستطع قراءته ، وظل يمسك الصحيفة بيده النحيلة في قوة حتى قبلت طلبه ، وأجاسها في مقعد يابس إلى حد أنها لو جلست فيه مدة شهر لما أباته بما يساوى فلساً . وأخذ يمدجها بزارية عينه القريبة منها بينما كانت مكبة على الصحيفة . ولعل نظرته كانت توحى بالشهد الذي رآه من نافذته عند زيارتها الأخيرة له ، ذلك أن نظرته هذه كانت تشتمل على شيء من قلة الاهتمام . وكان الرجل المتقدم السن يخشى ابن أخيه من الناحيتين المادية والمعنوية ، وبدأ ينظر إلى آن بحسبانها شريكه له في العذاب الواقع عليهما من نفس المستبد . وحول عينه عنها بعد أن صوب إليها تلك النظرة المسكيرة العجيبة حتى أنها عندما رفعت بصرها عرضاً إليه لم تر منه إلا وجهه المزبورق الحاد المخطوط على النحو الذي رآته من قبل .

وعندما قطعت في القراءة نصف الشوط فتح الباب القاتم خلفهما ، واجتازت مدخل الغرفة خطوات أقدام . وانكش الفلاح في مقعده على نحو واضح ، وبدا عليه الخوف ، ولكنه تظاهر باستغراق في الإنصات إلى القراءة ، وبعدم انتباهه قط إلى دخول متقمح . وشعرت أن بحضور فستوس المزهور بخنديته ، وتوقفت عن القراءة .

قال فستوس :

- أرجو أن تستمرى في القراءة يا آنسة آن ، فأنا لن أنطق بحرف .

وارتد إلى جانب المدفأة ، واستند إليه مستريحاً . وقال العم بنجى وهويتالك
جأشه بمجد جهيد حتى رده زلى نصف قدره الطبيعي .

— استمرى فى القراءة . أرجوك أن تستمرى يا آنسة آن .

وانخفض صوت آن عندئذ إلى أكثر من ذى قبل بكثير بعد أن صار لها
مستمعان ، وجففت تواضعاً ، بعض الشيء ، إذ عرضت على آذان فستوس
تموجات صوتها الممتازة التى يبددها اهتمامها الواعى بالموضوع المقروء حين
تقرأ دون أن يعكس صفوها معك . ولكنها والى مع ذلك القراءة خشية أن
يظنها قد ارتبكت ، برغم أن العشر الدقائق التى تلت ذلك كانت دقائق ازعاج ،
فهى لم يرغب عنها أن عينى الفارس المتطوع المضجر كاتتا تنظران من حيث يقف
وراءها ، وتحومان حول جسدها ، زاحفتين فوق كتفها ، ومتسلقتين إلى رأسها ،
وخلال ذراعها ويديها . وكان بنجى الهرم ، من ناحيته ، يعلم نفس الشيء . وبعد
محاولات منوعة بهذا ليتمكن من استراق النظر إلى ابن أخيه من ركن عينه ،
لم يعد يطبق الموقف أكثر من ذلك . فقال بصوت مرتعش :

— هل لديك ما تريد أن تفضى به إلى يا ابن أخى ؟

وقال فستوس فى حماسة :

— لا ، يا عمى ، شكراً . إنى أود أن أبقي وقتاً هنا ، مفكراً نيك ، وناظراً

إلى شعر رأسك من الخلف .

وتلوى الرجل الهرم ألماً وهوتحت تشريح تينك العينين ، وواصلت آن القراءة
إلى أن أنهك الشاب الكريم لهوه ، وأراحهما بخروجه من الغرفة . ولم تلبث آن
أن فرغت من الفقرة التى كانت تقرأها ، ونهضت لتنصرف ، مصممة على ألا تعود
إلى هذا المكان ثانية ما دام فستوس يحوم حول هذه التخوم . واشتدت حرارة
وجهها عندما خطر أنه يمكن لها أن يكن لها اليوم فى طريق أوبتها إلى دارها .

وعلى ذلك لم تسر فى الاتجاه المعتاد لدى مفادرتها المنزل ، وبدلاً من ذلك
فرت من حول الناحية الأبعد ، منطلقة بين الأدغال تحت السور القائم حول
بستان الخضر ، وخارجة من باب يؤدي إلى مر عربات مشقق كان أيام ازدهار
ذلك المنزل القديم الجميل طريقاً مرصوفاً لطيفاً للزهة فى العربات . وما تجاوزت
حرمى النظر من النوافذ حتى مرقت تجرى بكل ما وسعت من قوة إلى أن غادرت

المكان منتهجة طريقاً مضاداً على خط مستقيم للطريق المؤدى إلى بيتها وقد صعب عليها أن تقصر سبب مياها الشديد الجاد إلى الإقدام على هذا . ولكن الفريرة التي دفعتها إلى الجرى كانت لا تقاوم .

وأصبح حتماً عليها الآن أن تصعد في الهضبة الرملية إلى يسار المعسكر ، وأن تدور حوله دورة كاملة ، مارة بسلاح المشاة وسلاح الفرسان ، والبائعين المتجولين الذين يتبعون الجيش في انتقالاته ، وسائر ما يحوى المعسكر ، إلى أن تنزل لدارها من الناحية الأخرى . وقد قطعت هذا الشوط البعيد في سرعة شديدة ، دون أن تلتفت برأسها مرة واحدة ، متحاشية كل بر مطروق لتظل بعيدة عن زمر الجنود الذين خرجوا يتمشون ، ووقفت تلتقط أنفاسها عندما وصلت إلى الأرض المستوية ، وغمغمت تقول : ولماذا تكبذت كل تلك المشقة ؟ إنه ما كان ليؤذني على أية حال .

وعندما اقتربت من الطاحون نزلت أمامها من الهضبة قامة منتصبه ترتدى سترة زرقاء وسروالاً أبيض ، وكانت تسير في اتجاه القرية ، وقد مرت بالطاحون قاصدة إلى مرفق السور ورامها . وكانت آن تمر بذلك المرفق عادة عند عودتها إلى دارها . وهنا تريت صاحب هذه القامة . وتبينت الفتاة لدى اقترابها أنه لعدى ، جاويش البروجي ، ومرقت في سرعة لعدم رغبتها وقتئذ في مقابلة أحد ، ودخلت المنزل من باب الحديقة .

قالت أمها :

— لكم طالت غيبتك يا عريزي أن !

— نعم فقد درت من طريق آخر .

— لماذا أقدمت على ذلك ؟

وبدت آن مفكرة لائذة بالصمت لأن حجتها كادت تكون سخيفة جداً في مجال الاعتراف بها ... ثم قالت :

— حسناً ، لقد أردت أن أتخاشى شخصاً يحاول جاهداً أن يلتقاني . . .

هذا كل ما هنالك .

— وهذا هو ذلك الشخص على ما أظن .

ذلك بينما كان جون لندى يمر ببَيْتِهما في طريقه إلى باب أبيه ، بعد أن تعب من البحث عن آن عند مرقى السور . ولم يستطع إلا أن يتجه بعينيه صوب نافذتها ، وابتسم لها إذ رآهما .

وقد بلغ نفور آن من ذكر فستوس حداً جعلها تحجم عن تصحيح خطأ أمها .
وواصلت السيدة قولها :

— حسناً ، إنك على صواب كبير يا عزيزتى . كوفى على صلة ودية به ، ولكن لا تزيدى على ذلك في الوقت الحاضر . وقد علمت بمسألتك الأخرى ، وأظن اختيارك كان حكماً جيداً . ولاشك أنك تظفرين بخير تمنياتى . وكل ما أتمناه أن تصلى إلى نهاية موفقة .
وقالت آن في دهشة .

— ماذا تقولين ؟

— أنت والسيد دريمان يا عزيزتى . لاجاجة إلى أن تشغلى بالك بى ، فقد علمت بالأمر منذ أيام عديدة . فقد زارتى جرانى سيمور العجوز يوم السبت وأخبرتني أنها رآته في الأسبوع الماضى يرافقتك إلى هنا عبر تل وايت هورس ، وذلك يوم أن ذهبت في طلب الصحيفة . ولذلك خطر لى أن أرسلك اليوم ثانية لأنيج لك فرصة أخرى .

— أنت لم تكونى تريدان الصحيفة إذن ، ولم يكن غرضك إلا هذا !

— إنه فنى باهر في مستقبل العمر ، ويبدو أنه خير حام للمرأة .

وقالت آن :

— قد يبدو عليه ذلك .

— لقد ترك فلاحه المزرعة التى كان أبوه يملكها في بنستوك . وهو يعيش اليوم على دخلها متمتعاً باستقلاله . وعندما يموت المزارع دريمان سيرث كل ما يمتلك هذا الشيخ الحرم يقينا . وستبلغ ثروته عشرة آلاف جنيه كاملة تقداً ،

عدا ستة عشر حصانا ، وعربية ذات حصان يجرها ، وخمسين بقرة حلوبا ، وما لا يقل عن خمسمائة رأس من الغنم .

ودارت آن وابتعدت . وبدلا من أن تخبر أمها أنها كانت تعدو كالرثم هاربة من صاحب الإرث المظنون المشار إليه ، لم تنبئ إلا بقولها :

— أمي ، أنا لا أستحسن ذلك أبداً ؟

جاويش البروجي

يذهب متلطفاً في طلب أن

(٩)

لم تكن آن ، بعد ما حدث ، لتسير بحال من الأحوال في اتجاه أكسويل هول خشية أن تلتقي بديرمان الشاب . وفي خلال أيام قيل في القرية إن الفلاح الهرم قصد فعلاً إلى المنزلة البحرى الملكى ، (١) القريب ، ليقضى هناك عطلة مدتها أسبوع ، بناء على إلحاح ابن أخيه فستوس ، وذلك في سبيل تغيير الجو . وكان هذا الذى سمعه الناس عن العم بنجى بديعا فهو لم يقض ليلة خارج حيطان أكسويل هول في خلال سنوات عديدة خلت ، وقد تصورت أن الضغط الشديد غير العادى الذى لا بد أن يكون قد وقع على ذلك الشيخ ليحمله على اتخاذ مثل هذه الخطوة . ورسمت لهاخيلتها ما سيليق من شقاء في هذا المنزلة الصاخب ، وتمنت ألا يصيبه مكروه هناك .

وقضت جانباً كبيراً جداً من وقتها داخل البيت أو في الحديقة دون أن تسمع إلا قليلاً من أصوات حركة المعسكر مثل نغبات ال « تا ، تا ، تا ، تا » ، الدورية التى يعلن بها ناغزو النفير ندا آتهم المختلفة المبتكرة المعلننة عن مواعيد القيام بالحراسة والعناية بالإصطبلات ، والطعام وركوب الخيل والاستعراضات وما إلى ذلك ، وهذا ما دعاها إلى التفكير في مدى ما يتمتع به صديقها جاويش البروجي من مهارة مكنته من تلتين تلاميذه كيف يعرفون هذه الانعام الصغيرة الجميلة بهذا الإتقان .

وفي الصباح الثالث لرحيل العم بنجى أزعجها ، وهى ترتدى ملابسها كما جرت العادة ، صوت نزول الطوابير من الهضبة إلى حوض الطاحون ، وخلال ما تلا ذلك من الصهيل وصوت الرشاش المعتادين ، ترددت دقة خفيفة على زجاج النافذة قد تحدثت من ارتظام سوط أوعصا . وأنصتت آن على نحو أدق ، وتكررت النقرة .

(١) يقع هذا المنزلة في وعاوث ، أوفى يدماوث حسب تسمية هاردى . وقد اعتاد الملك جورج الثالث أن يصطاف في المنزلة المذكور .

ولما كان جون لعدى هو فارس الدراغون الوحيد الذى يحتمل أن يكون على علم بأنها تبيت فى هذا المكان خاصة ، فقد تصورت أنه هو صاحب هذه الإشارة، ولو أنها عجبت لإمكان إقدامه على مثل هذه النزوة الدالة على الألفة .

وذهبت إلى النافذة وهى تلف نفسها بدثار أحمر ، ورفعت جانبها من الستار فى رفق ، وخطفت النظر إلى الخارج كما فعلت مراراً من قبل ، ولم يكن أحد يستطيع أن يرى وجهها فى هذه الحالة إلا من كان شديد القرب من النافذة ، ولكن حدث أن أحداً كان شديد القرب من النافذة ، ولم يكن الجنود الذين سمعت أن ضجيج خيلهم من فرقة الدراغون التى ينتمى إليها لعدى ، ولكن من فرقة يورك هسارز التى لا تكترت لوجودها بحال ، وكان جنود تلك الفرقة قد خرجوا من حوض الماء وظهر بدلا منهم فستوس دريمان وحيدا منتمطيا ظهر جواده ، وكان فى كامل برته العسكرية ، وماء الحوض يصل إلى بطن حصانه ، وقد رفع رجله فوق السرج ليقبها فيض الغدير الذى كان يهدد الحصان وراكبه بدفعهما إلى الناحية الرئيسية العميقة من حوض الطاحون ، وهى تقع أسفله مباشرة ، وكان من الواضح أنه هو الذى دق زجاج النافذة ، لأنه نظر بعد هنيهة ، وتلاقت عيناها ، وحسك فستوس بصوت عال ، ودق نافذتها ثانية . وفى نفس تلك اللحظة بدأ فرسان الدراغون يهبطون الهضبة خبيبا فى نظام استعراضى ، ولم تستطع إلا أن تنتظر دقيقة أو دقيقتين لترام وهم يبرون ، واضطرت إلى التراجع بينما هم ترمقهم ، وأسدلت جانب الستار ، واحمرت فى العرفة وحدها خبيلا . فلم يكن فستوس دريمان هو الذى رآها دون غيره ، وأمكن رآها جون لعدى الذى كان يركب جواده ، ونفيره معلق فوق ظهره ، فقد نظر من فوق كتفه إلى الظاهرة لمائة أمام عينيه ، ظاهرة وقوف دريمان تحت نافذة العرفة التى تبيت فيها آن ، وبدا عليه أنه دهش أشد الدهشة لهذا المنظر .

واستولى عليها غيظ شديد لاقتران الأحداث . ولم تعد قط إلى نافذتها إلا بعد أن ابتعد فرسان الدراغون كل البعد ، وسمعت حصان فستوس يخوض فى الماء جاهدا للوصول إلى اليابسة . وعندما أطلت من النافذة لم تجد هناك أحدا غير الطحان لعدى الذى كان يقف فى حديقته عادة فى مثل هذا الوقت من كل صباح ليخاطب

الجنود بكلمة أو كلمتين ، وقد عرف الآن عددا عديدا منهم ، وهو بمن في سيل.
التعرف إلى ما يزيد بكثير عن هذا العدد متوسلا بوجوده في تقديم أقدم الخمر المنعشة
لهم كلما مرت جماعة منهم بتلك الناحية .

وفي عصر ذلك اليوم سارت آن على أقدامها لتحضر حفل ترميد أقيم في دار جار
تقع في أبرشية سيرينجهام المجاورة . وكانت تنوى العودة إلى دارها قبل حلول الظلام ،
ولكن هطل مطر خفيف قبيل المساء وألح عليها أهل الدار أن تقضى ليلتها هناك
وقبلت ضيافتهم مع شيء من التردد . ولكنهم في تمام الساعة العاشرة ، وقما كانوا
يفكرون في الإيواء إلى سرهم ، جفوا السماع نقرة سريعة على الباب ، ولما كان
مصراع الباب غير مقفل ، فقد ظهرت لهم قامة رجل بين الأشباح الحائمة في الخارج -
وسأل الزائر :

— هل الآنسة جارلاند موجودة هنا ؟

وتعلقت أنفاس آن وقتذاك . وقال مضيضا حذراً :

— نعم .

— أمها شديدة التشوف إلى معرفة ما حل بها لأنها وعدت أن تعود إلى

البيت .

ولفرحة آن الكبيرة كان ذلك صوت جون لعدى ، لا صوت فستوس

دريمان ، وقالت وهي تتقدم إليه :

— نعم ، أنا وعدت بذلك ، ولكن السماء أمطرت ، ودار في خلدي أن أرى

ستحزر أين أنا .

وقال لعدى في استحياء إن السماء لم تمطر على نحو يستحق الذكر في المعسكر ،

أو عند الطاحون ، ولذلك انزعجت أمها نوعا . وسألته آن :

— وهل طلبت إليك أن تحضر للسؤال عنى ؟

كان هذا سؤالاً خشيها جاويش البروجي طوال مسيره إلى هناك . وقال

متعثرا نوعا ، ولكن بطريقة تدل مع ذلك على أن السيدة جارلاند ألمعت على

نحو غير مباشر إلى أن هذه رغبتها :

— حسنا . . . إنها لم تطلب إلى ذلك على وجه التحديد .

والسيدة جارلاندا، في واقع الأمر، لم تخاطبه في هذا الشأن قط، وإنما خاطبت أباه حسب عندما وجدت أن ابنتها لم تعد، وطمانتها صاحب الطاحون على أن ابنتها الغالية في أمان دون أدنى شك. وسمع جون بسؤالها عن ابنتها، ولما كان قد حصل على إذن بالتغيب تلك الليلة عن المعسكر فقد اعترم أن يعمل، متحملاً المسؤولية، على إراحة بال السيدة جارلاندا. وكان قد ظل. يتقلب على شوك القلق منذ شاهد فسترس ذلك الصباح واقفاً تحت نافذة الفتاة، وأصبح أمله للمثير الآن أن تقبل العودة معه.

وأخذ يحرك قدمه في انفعال وهو يتقدم بطلبه الجريء. وشعرت آن على الفور بأن عليها أن تذهب. فليس ثمة إنسان في الدنيا أحرى من جاويز البروجي بأن تسارع إلى وضع نفسها تحت رعايته في مثل الطرف الحالى. فهو ابن أقرب جار إليهم. وقد أعجبت بنزاهته الصادقة منذ اللحظة التي عاد فيها إلى موطنه.

وعندما بدأ سيرهما قالت آن بطريقة عملية أرادت أن تظهر بها أن قبولها العودة في صحبته لم تتولد عن عاطفة ما.

— لعل أبى كانت شديدة القلق على؟

فقال:

— نعم.

ثم اضطره هاتف ضميره إلا أن يريء ذمته من الأمر:

— علمت أنها غير مرتاحة البال لأن أبى قال لى ذلك، ولكنى لم أرها

شخصياً. وفى الحق إنها لا تعلم بمجىء.

ووقفت آن عندئذ على جليسة الأمر، ولكنها لم تمتعض. وأية امرأة

تمتعض في مثل هذه الحالة؟ ومشيا صامتتين وجاويز البروجي يحرص على أن

يظل على بعد خطوة إلى يمينها، ويدقق في ذلك كأن هذه المسافة محددة بينهما.

وكانت تشعر بميل شديد إلى مجاملته تلك الليلة، وعادت تقول:

— كثيراً ما أسمع ناغى الأبواق التابعين لكم وهم يرسلون نداً آتهم. وأحسب

أنهم يؤدون ذلك بطريقة جميلة.

وقال على نحو ما يقول الرجل الكامل التهذيب الذى يأن أن يشيد بعمل

كانت له يد فيه:

- جميلة نوعا . وقد يستطيعون القيام بتغيير من ذلك .
— وأنت علمتهم كيف يقومون بذلك ؟ . .
— نعم ، علمتهم .

— لا بد أن الأمر تطلب تدريجا كبيرا للوصول بهم إلى الطريقة التي يبدأون بها العزف ويتقنون منه في نفس الوقت ، ولكن أن فأ واحداً ينفخ في الأبواق جميعاً . كيف وقع لك أن أصبحت ناخف نغير بأسيد لغدى ؟

وقال وقد وضحت خبيثة نفسه حالة من فيض الشعور نتجت من اهتماما المبهج به :
— حسنا ، اهتممت بذلك على نحو طبيعي يوم كنت غلاما صغيرا . واعتدت أن أصنع حينذاك أبواقا من الورق ، ومن أعواد البيلسان ، وجزءوع البرسيم ، والرجلة الوخازة ، كما تعلمين . ثم أقامني أبي على جرن شعيره الصغير لأبعد الطيور عنه ، وأعطاني بوقا قديما لإخافتها بصوته . وتعلمت كيف أنفخ حتى أنك كنت تسمعين نفخي على بعد أميال وأميال . ثم اشترى لي مزماراً ، وما عرفت كيف أعزف عليه حتى اقترضت مزمارا متلوى القصبه وتعلمت كيف ألحن به ألحانا جهورية لأبأس بها . وعلى ذلك اختاروني على الفور ، لدى انخراطي في الجيش ، للتدريب على النفخ في النغير .

— أنت جدير بذلك قطعاً .

— بيد أني أتمنى أحيانا لو أنني لم ألتحق بالجيش قط . فقد وفر لي أبي قدرا لا بأس به من التعليم ، وأرشدني أبوك إلى كيفية رسم الجياد . . . أقصد على الإردواز . نعم . كان ينبغي أن أقوم بعمل أفضل مما قمت به .

وسألته في اهتمام متجدد :

— ماذا ! هل كنت تعرف أبي ؟

— أو ، نعم . وطالت معرفتي به لمدة سنوات . وكنت أنت وقتذاك مثل قلامة ظفر . واعتدت أن تبكي عندما كنا نحن الغلمان الكبار نلتفت إليك ، وننظر شزرا ، وهذا ما كنا نفعله أحيانا . وكم من مرة بعد مرة وقتت إلى جانب أبيك وهو يقوم بعمله . آه ، إنك لا تذكرين الشيء الكثير عنه ، أما أنا فأذكر !

وظلت آن مستسلة للتفكير . ويزغ القمر من وراء السحاب ، مشرقاً فوق العشب المبتل ، فياضاً بنوره المتلألئ ، خالماً على أزرار جاويز البروجي ومهازيه شعاعاً ضئيلاً من لونه ... لقد وصلنا إلى قرية أكسويل فقال :

— أتودين أن نجتاز الدرب أم ندور حوله ؟

وقالت آن :

— يمكن مع ذلك أن نسلك الطريق الأقرب .

ومرنا من بوابة ، وسلوكاً طريقاً للعربات زال نصف معالته إلى أن وصلنا إلى مكان يكاد يقع مقابل الجهة الخلفية لأكسويل هول ، ودخلا عندئذ طريقاً للسير على الأقدام يمتد صوب الهضبة . وإذا هما يسمعان وقتذاك صيحة ، أو مجموعة من الهتافات صادرة ، على ما يبدو ، من جدران المنزل المظلم القريب منهم .

وقالت آن :

— ماذا كان هذا ؟

وقال رفيقها :

— لا أدري . سأذهب وأرى .

ومضى فدار حول بعض أبنية اعترضت سبيله ، ودخل مفازة موحشة كانت يوماً ما حديقة زينة ، واجتاز بستاناً فأكهة عتيق الأشجار ، وتقدم إلى حائط الدار . وكانت أصوات صاخبة تتردد داخل الجدران . وأحس ما يفريه بأن يدور حول الزاوية حيث النوافذ قليلة الارتفاع ، ويطل من خلال فتحة هناك إلى حيث يصدر الصوت .

كانت تلك هي الغرفة التي يتناول مالك الدار فيها طعامه - وكانت تسمى الردهة الكبرى ، وهو اسم متوارث - وقد جلس فيها زهاء اثني عشر شاباً من الفرسان المنتوعين ، أحدهم فستوس نفسه . وكانوا يشربون ويضحكون ويغنون ، ويضربون المائدة بقبضات أيديهم ، ويمتعون أنفسهم وسط اكتمال الفوضى التام . وكانت الشموع التي عثب بها النسيم في جانب الغرفة المفتوح النوافذ ، والتي سال ذوبها وصار في شكل مقابض التابوت والأكفان ، واختنقت بدبالاتها السود الطويلة المحتاجة إلى القص ... كانت ترسل نوراً أصفر مغبراً بالدخان ...

ويحتمل أن أحد أولئك الشباب كان يترنخ سكرًا ، لأنه كان يطوق عنق جاره بذراعه . وكان فتى آخر يلقي خطابًا مفكك العبارات لا يصنعى إليه أحد . وبدت وجوه بعضهم حمرا ، ووجوه الآخرين شاحبة . وداعب النعاس بعضهم بينما كان الآخرون شديدى اليقظة . أما الوحيد الذى كان يبدو بينهم فى حالة الطبيعية فهو فستوس الذى قام هيكله الضخم الصاحب عند صدر المائدة ، مبتهجا بالفرق بين حالته وحالة من يجاورونه ، وقد بدا ذلك على مجاه الجاد المنتصر . ونادى بعض هذه الجماعة امرأة فى مستقبل العمل بينما كان نافخ النفير الأول ينظر من الثقب . وكانت المرأة ابنة أختى أنتونى كريلسترو ، وهى إحدى خادمات العم بنجى . ووضعوا بين يديها كنانا فى شىء غير قليل من الغضب ، وحلواها على أن ترسل منها صرخات غير منتظمة .

كان غياب العم بنجى فى الواقع من تديرير دريمان الصغير بقصد تمسكه من أن يستعمل البيت لحسابه . وكان كريلسترو هو الذى نيط به أمر البيت ، ولم يجد فستوس صعوبة فى إرغام ذلك الخادم على تسليمه المفاتيح كلها أرادها . وتحول لعدى بطرفه من ذلك المشهد إلى المر المضاء بنور القمر حيث كانت آن تقف فى انتظاره . ثم نظر إلى الترفة ، ثم إلى آن ثانية . وكانت هذه فرصة سانحة لتحسين حاله معها بكشف حقيقة فستوس الذى بدأ يشعر حياله بمشاعر عدائية قوية ، وقال لنفسه :

— لا ، لا أستطيع الإقدام على ذلك . هذا أمر خاص غير علقى ، ولتأخذ الأمور نصيبها من الحطوط .

وابتعد ، ثم رأى أن آن قد اجتازت حديقة الفاكمة بعد أن أعيائها الانتظار ، وكادت تلتحق به ؛ . .

قالت له :

— فم كان الضجيج ؟

وقال لعدى .

— هناك قوم مجتمعون فى البيت .

وقالت آن :

— جماعة مجتمعون !! إن المزارع دريمان لا يقيم الآن في بيته .
وذهبت إلى نافذة تنفذ منها أشعة من نور بيننا وقف نافخ النفير الأول
حيث كان ، ورأى وجهها يدخل محيط ضوء الشموع . ويبقى هناك هنيهة ، ثم
ينسحب في سرعة . وكرت الفتاة راجمة في الحال إلى لعدى ، وقالت له :
— دعنا نواصل مسيرنا .

وخيل لى لعدى من اللهجة التي حدثته بها أنها تعلق ولا شك اهتماما بدريمان ،
وقال كاسف البال :

— أنت تؤنيني على التوجه إلى النافذة وحلك على اتباعي ؟
وقالت آن وقد انتهت إلى أنه أخطأ في إدراك الحالة التي كان عليها فؤادها ،
وصارت أقرب إلى السخط عليه بسبب ذلك .

— أبدا . وأحسب الأمر كان طبيعيا نظراً للضجيج .
وصمتا ثانية . ثم قال لعدى وهما يدوران لينصرفا :
— إن دريمان متزن أتران القاضى ، ولم يصخب إلا الآخرون .
وقالت آن :

— سواء أ كان متزناً أم لا ، فهذا أمر لا يهمنى البتة .
وقال نافخ النفير الأول في نبرات تم على شجته بسبب لهجتها الجفاقة نوعاً ، وبعض
الشك فيما أكدته .
— هذا ما رأيته .

وقبل أن يخرجوا من ظل البيت بدأ بعض الناس وهم يسرون في الطريق
إلى باب الحديقة . وكان من رأى لعدى أن يواصل السير برغم ذلك ، ولكن
آن قالت وهى تشعر بالحياء على أساس أنه من الأفضل ألا ترى سائرة على أفراد
مع رجل غريب لا تجتمع بها صلة الحب :

— لننتظر هنا دقيقة يا سيد لعدى حتى ينصرفوا .
وظهر أن أولئك الناس ، بعد أن أصبحوا أقرب إلى نظرهما ، لم يكونوا
إلا رجلاً يمتطى حصانا متعدد الألوان ، وآخر يسير إلى جانبه راجلاً . وما صاروا
تجاه المنزل حتى توقفا ، وترجل الراكب ، ونشبت بينهما مشاحنة على الأثر ،
ويبدو أنها كانت تتعلق بمسائل مالية .

قالت آن :

— إنه السيد دريماني المسن يعود إلى بيته ! وقد استأجر هذا الحصان من الحمام العمومي في المنزه ليعود به . . تصور ذلك فقط !
وقبل أن يقطعا خطوات عديدة قدما أنهى الفلاح ومرافقه مشاحتهما ، وامتنطى هذا الأخير الحصان وابتعد به بينما جاء العم بنجى إلى الدار في خطوات قصيرة . وما لاحظ وجود لعدى وأن حتى صارت خطواته أشد تباطؤاً . وعرف آن عندما أقبل عليه . وقالت الفتاة :

— أزعجت نفسك من منزله الملك جورج البحرى بهذه السرعة أيها المزارع دريمان ؟

وقال المزارع :

— نعم ، حقاً ! إنى لم أستطع احتمال هذا المكان المخرب . فإن يدك تندس في جيبيك هناك كل دقيقة من دقائق النهار . فهذا شلن لذلك ، وهذا نصف كرون لذلك . وإنك إن أكلت بيضة واحدة أو تفاحة ضئيلة من سقط الريح فلا بد أن تؤدى لها ثمناً . وحرمة القبل هناك بنصف نصف القرش ، وقدر صغير من عصير التفاح بنصف قرش أو ثلاث ملبات على أقل تقدير ... لاشيء بغير ثمن ! وأنا لم أستطع حتى أن أعود إلى دارى رأكباً هذا الحصان الهزيل دون أن يطالبني الرجل بشان كامل ثمناً لذلك في حين أن وزنى لم يؤثر في ذلك الحيوان بما يزيد عن نصف قرش . وقد أمكنتى ولاشك توفير ما يساوى نصف قرش من ثمن جلد نعلى ، ولكن السرج كان خشناً لكثرة ما به من رتق وكلفنى ذلك ما يساوى قرشاً من ثمن أسفل سراويلى . لقد خرب الملك جورج البلدة في سبيل أناس آخرين . يضاف إلى ذلك أن ابن أخى وعدنى أن يحضر غداً ليطل على هناك ، ولو أتى بقيت لكان حتماً على أن أستضيفه ... هيه ، ما هذا ؟

كانت صرخة تعالت من داخل حيطان المنزل ، وقال لعدى :

— ابن أخيك هنا . وعنده ضيوف .

وقال الشيخ محتبس الأنفاس :

— ابن أخى ، هنا ، هل تصحبانى إلى باب البيت أيها الإنسانان الطيبان ؟

(م ٧ — نافع البوق)

أنا لا أقصد... هيه... هيه... أنا لا أقصد دعوتكما ! يا إلهي ! كنت أظن بيتي هادئاً كالكنيسة !

وعادوا إلى النافذة ، ونظر المزارع منه إلى الداخل وفه يتدلى وينفرج من الجانبين انفراجاً أوسع من انفراج وسطه ، وأصابه تتخذ شكل أصابع مكهربة .
— إنهم يستعملون أحسن دوارق الفضية ... الدوارق التي لم أستعملها قط .
أوو ، وهذه جمعتي القوية ! .. وثماني شموع تدوب وتتلاشى بينما أنا لم استهلك إلا عشرين شمعة خلال النصف العام الأخير !

وقال لقدى :

— أنت لم تعلم إذن أنه هنا ؟

وقال المزارع وهو يهز رأسه نصف هزة :

— أوو ، لا ... لا علم لي بشيء أنا المسكين ! وما هي ذى أمن أقداحي الكبيرة يرونها في غير مبالاة كأنها أقداح من صفيح ، وماتتدق يحدشونها ، ومقاعدى يفككون أوصالها . انظرا كيف يميلونها على الرجلين الخلفيتين ... وهذا يتلف المقعد ! آه ! إنه لن يجد بعد فقري شيخاً هرمأ آخر يصنع له مثل هذا ، فيزوده بالمزئ في سطواته ، ويهيئ المسكان والشراب لثائه الوقحة المشاغبة .

قال فستوس للزارعين وفرسان التطوع المتحمسين الذين يتادهم :

— يا رفاقي وزملائي في السلاح ... بما أننا قد أقمنا على اقتحام المخاطر ومواطن الهلاك معاً ، فنحن كذلك نقسم مضجع السلام . وسوف تبيتون هنا الليلة لأن وقت الرواح بدأ يفوتكم ، وأن عمى القزم الأزرق العفن الشبيه بنجبال الظل يحرص على ألا يهبي سبلا كثيرة للراحة في المنزل ، ولكن يمكنكم أن تنكشوا فوق المقاعد إذا أعوزتكم السرر . أما عن نومي أنا فلن يكن إلا للمامأ ، لأنني حزين ! ويمكن أن أقول إن امرأة قد وضعت قلبي في جيبيها ، ووضعت أنا قلبها في جيبي . إنها ليست ذات قيمة كبيرة ... أقصد في نظر الآخرين ، ولكنها تتمتع بذلك في نظري . لقد عرض لي هذا المخلوق الصغير في طريق ، وغابني على أمرى . وإنني لأتصور هذه الفتاة الصغيرة التي قهرتني !! كان ينبغي أن أنظر إلى أعلى ... أنا أعلم ذلك ، وماذا في الأمر ؟ إنه قدر قد يقع لأعظم الرجال .

وقال أحد الجنود ، وكان رأسه يتساقط على كتفيه بين الحين والحين ،
وتخفص عيناه الإثنتان عرضاً بطريقة هي من خصائص الجندي المجهد (كان
في حقيقة أمره المزارع ستوب من ددل هول) :

— وما اسمها ؟

— اسمها ؟ حسناً . إنه يبدأ في الهجاء بحرف الالف ، ثم بحرف النون . . .
ولكني قسما بالله ، لن أذكر اسمها بينكم علناً . إنها لا تقطن في مكان صحيح البعد
من هنا ، وهي ترتدى أجل قبعات مزينة بالأشرطة وقمت عليها أعينكم . حسناً
حسناً . إنه الضعيف ! وهي لا تملك إلا القليل بيننا أملاك أنا الكبير . ولكني أعيده
هذه الفتاة بالرغم مني !

وقالت آن :

— دعنا نذهب .

وتوسل إليها العم بنجي :

— أرجوك أن تقني إلى جانب رجل نال منسه الكبير حتى يتمكن من
دخول بيته . وكل ما أطلبه منك أن تظلي علي بعد تسمعين معه نداثي . وسأبذل
وسع جهدي الضعيف لأتحاشى أية مضايقة .

وقال لفدى :

— سأقف لمساندتك مدة نصف ساعة يا سيدي ، فلا بد لي بعد ذلك من
الاحتباس في المعسكر .

وقال العم بنجي :

— حسناً جداً . قف إلى الراء تحت الشجرة ... أنا لا أريد إثارة حنقهم .

وقال نافخ النفير الأول لأن وقد تراجعا عن الرجل الهرم :

— أنتنظرين بضع دقائق حتى ترى هل يدخل بيته ؟

وقالت آن قلقة :

— أريد العودة إلى البيت .

وما تراجعا بمبيداً إلى ما خلف الشجر ، ووقف العم بنجي وحده ، حتى

وجدها . لشدة دهشتها ، يصيح صيحة عالية تفوق في شدتها ما يتصوره المرء
عن قوة حنجرته . لقد صاح مكرراً صيحته عدة مرات :

— رجل هلك !.. رجل هلك !..

وجرى واختبأ خلف ركن من أركان المنزل . ولم يلبث الباب أن فتح ،
وخرج فستوس وضيوفه يتعرون فوق الأرض الخضراء ... وقال فستوس :

— إن علينا غوث من يقعون في محنة . أين أنت أيها الرجل المالك ؟
وقال أحد أصدقائه :

— مصدر الصوت من هناك .

وقال آخر :

— لا ، بل من هنا .

وخرج العم بنجى في هذه الأثناء من مخبئه ، وركض في سرعة صبي إلى الباب
الذي غادروه ومرق منه ، وانصفق مصراعاً الباب في لحظة . وسمعت أن الشيخ
يناق الرتاج والمزلاج من الداخل . ومع هذا لم يلاحظ السكارى ذلك . وتقدموا
إلى حيث يقف جاويش البروجي وأن .

وقال فستوس :

— إنها نجدة أتيحت لكم يا صديقي . إننا جميعاً من جند الملك ، فلا تخشياً بأسنا .

وقال لعدى :

— شكراً لكم . ونحن كذلك من جند الملك .

وشرح لهم الأمر في كلمتين قائلًا إنه ليس ذلك المسافر المنكود الذي أطلق
الصيحات . ودار ليسلك سبيله :

وقال فستوس وقد تبين أن عندئذ لأول مرة .

— إنها هي والله ! . إنها هي ! . يا آن الجميلة إنى لن أتركك إلى أن أراك

تصلين سائلة إلى بابك العزيز .

وقال لعدى في أدب ، ولو أن قوله لم يخجل من حزم :

— إنها أمانة في يدي ، ولذلك لا حاجة للمعرضه ، شكراً .

— يارجل ، أهناك ما أملك غير سيفي . . .

وقال لقسدي :

— هيا ، أنا لا أرغب في عراك ، فلندع الأمر لها . وأينا مالت إليه أكثر
من الآخر كان هو مرافقها إلى دارها . . . أينا يامس آن ؟

وكانت آن أميل كثيراً إلى العودة لدارها بمفردها ، ولكنها رأته من
الأفضل أن تكفل لنفسها حاميا ما ، نظرا إلى أن بقية جماعة الفرسان المتطوعين
كانت تترنخ هناك . . . وكانت المشكلة هي كيف تختار أحد الرجلين دون أن
تجرح شعور الآخر ، ودون أن تثير عراكا . . . وقالت في توفيق :

— عليكما أتيا الاثنين أن ترافقاني إلى البيت ، فيسير أحديكما إلى جانب مني ،
ويسير الثاني إلى الجانب الآخر ، وإذا لم يحسن كل منكما معاملة زميله كل الإحسان
طوال الوقت ، فإني سأمتنع عن التحدث إلى كليكما ثانية .

واتفقا على الشروط ، وإذا أقبل فرسان المتطوعين الآخرون في ذلك الوقت
قالوا إنهم سيذهبون أيضاً بحسبانهم حرس المؤخرة .

وقالت آن :

— حسناً جداً ، اذهبوا الآن وأحضروا قبعاتكم ، ولا تطيلوا غيابكم .
وقال فرسان التطوع الذين أثرت حميا الكأس في رؤوسهم إلى حد نسوا
معه الآن أن رؤوسهم عارية .

— آه ، نعم ، قبعاتنا .

وقال فستوس في لهفة :

— سنتظراننا حتى نعود بها ، ولن نتغيب دقيقة .

وواقفته آن ولقسدي ، وعاد فستوس إلى المنزل ركضا ، وثلثه جميعها
في أثره .

وقالت آن بعد أن صاروا أبعد من منال السمع :

— دعنا الآن نجري وتركهم .

وقال نافخ النفير الأول في دهشة :

— ولكتنا وعدناهم أن ننتظر .

وقالت حاتمة :

— وعدناهم أن ننظر ! .. لسكاننا على المرء أن يني بمثل هذا الوعد لسكاري كهؤلاء .. إنك تستطيع أن تصنع ماتشاء ، أما أنا فسأذهب .

وقال لفدى تمتعنا وهو يرتد يبصره إليهم .

— يصعب أن يكون ترك أولئك الفتيان عملا حسناً .

ولكنها لم تعد تسمع ما يقول ، ولم تلبث أن غابت عن بصره وهي ترمق بعيداً تحت الأشجار .

ووصل فستوس وباقى الزمرة وقتذاك إلى باب العم بنجى الذى أخزاهم وأدهشهم أن يجدوه مغلقا . وبدأوا يطرقونه ، ثم يركلون الخشب المحترم إلى أن ظهر رأس الرجل من شبك أعلى ، مغطى بقلنسوة ذات زر ، وتبعث الرأس الكنفان اللتان بدتا كأنهما لا تكتسبا بغير قيص ، ولو أن غطاء من قماش أبيض كان فى الواقع ملقى فوق سرة الشيخ الذى قال وهو يتشاءب :

— تبا لكم على إثارة مثل هذا الضجيج أمام باب شيخ هرم مسكين ، أى شيطان تقمصكم لتوقفوا قوما شرفاء فى مثل هذه الساعة من الليل .

وقال فستوس :

— ويل لى !! ماذا ؟ إنه عمى بنجى ! .. هاو .. هاو .. هاو ! عجبا ، بحق الشيطان كيف حدث هذا ؟ إنه أنا .. فستوس .. أريد الدخول .

وقال العم بنجى فى لهجة حاذقة إلى حد لا يصدق :

— أوو لا ، لا ، لا ، يا أيها الرجل الماهر .. أيا كنت ! إن ابن أخى ، يا ولدى العزيز ، فى معسكره على بعد أميال ، وهو مستغرق الآن فى نوم عميق كما هو قمين بجندى طيب . إن هذه الحكاية لن تجوز على الليلة يارجلى . لن تجوز قط .

وقال فستوس :

— أقسم أنه أنا .

— ليس الليلة يارجلى .. ليس الليلة !

واستطرد المزارع قائلا وهو يدور إلى داخل الغرفة دون أن يكون بها أحد يوجه إليه الكلام :

— يا أنطوني ! أحضر لي غدارق .

وقال أحد الباقين :

— لنحطم مصاريع النوافذ .

وقال فستوس .

— قسما لنحطمها ! يالها من حيلة احتالها الشيخ الهرم .

وقال جنود التطوع متقبين تحت الحائط :

— أحضروا بعض الأحجار الكبيرة .

وقال فستوس وقد بدأ يخاف من روح الفتنة التي أيقظها :

— لا . . . كفوا عن ذلك ، كفوا عن ذلك . لقد نسيت ، فلئنا سنسبب

له نوبات تنتابه ، فهو عرضة لها ، ثم قد يترتب على ذلك إزهاق روحه . أيها

الرفاق ، لا بد من ذهابنا . . . بل لا فسنيت في الخزن . وسأنظر في هذا الأمر

ونفخوا بكلمتي في شأنه . إن شرفنا في الميزان . . ولتعد الآن أدراجنا لتوصل

الحسنة التي أوترها إلى منزلها

وقال أحد رفاقه الجنود . . ويطلق عليه بين أسرته اسم « جيكوب نوكيس »

وهو من ضيعة « نيدر مينتون (١) » .

— ليس أمامنا غير هذا . ولكن لا بد من ذهابي إليها ، وإخبارها بسبب

عدوي . فهي تجذبني إليها برغم كل شيء .

وقال جندي آخر من فرسان اليومن :

— لقد ذهبت . فأنا رأيتها تمرق بين عبر قرة التل بينما نظرق الباب .

وقال فستوس وهو يصرف بآنيابه ويتخذ شكلا صارما .

— ذهبت ! هذا فعل عدوي إذن . . . فهو الذي أغراها بالذهاب معي ! . .

ولكنني رجل ثري . . . وهو رجل فقير يركب جوادا من جواد الملك بينما أركب

أنا جوادى الذى أملك . . . ولو أنى استطعت أن أجد هذا الشخص ! هذا

العسكري النظامى ، هذا الرجل الدارج . . . لكنك . . .

(١) في أورموزين (تعليق الأصل)

وقال ناضح النفير الأول مقبلا من ورائه :

— نعم ؟

وقال فستوس ، وقد دار جافلا :

— لكنت أمسكت به من يده ، وقلت له ، حافظ عليها إن كنت صديقي !

حافظ عيها من كل سوء !

وقال لفتدى وقد صدر قوله من صميم قلبه :

— كلام طيب . . . وسأنجز ذلك أيضا .

وقال فستوس لرفقائه .

— ولنلتمس الآن المأوى .

ثم تركوا لفتدى بلا جمالة ، ودون أن يتمنوا له ليلة طيبة ، وانجهوا صرب

المخزن . واجتاز هو الحقل ، وصعد في التل إلى المعسكر وقد أحزنه أن يكون

قد أتاح لأن سيئا لشكوها ، وصور له خياله أنها تهون من شأنه بالقياس إلى

منافسه الثرى ؟

فصائل طلب الزواج

في الحديقة المشتركة

(١٠)

انزعجت آن كل الازعاج من جراء الأحداث العسكرية التي لم تنقطع عنها وهي في طريق عودتها لدارها إلى حد أنها كادت تخشى أن تنامر وحدها بالخروج من الدار التي تقيم فيها والبتها، يضاف ذلك أن الجنود الكثيرى العدد، النظاميين وغير النظاميين ممن تردوا على أفر كومب وما جاورها، أخذوا يوثقون علاقتهم بأهل القرية، وأسفر ذلك عن وقوفهم دائما أمام أبواب الحدائق، ومشبهم في البساتين، وجلوسهم يسرون على عتبات أبواب الأكواخ وينظفون « بيئاتهم (١) »، خارج الأبواب ليتحاشوا تلويث جو الدور بالدخان. ولما كانوا رجالا مهذبين ذوى طبيعة ودية وبجاملة إلى أقصى حد فقد درجوا بالطبيعة على أن يتلفتوا فيما إذا مرت بهم فتاة جميلة وأن يتسموا لها، وهذه غالبا ما كانت ترتبك فيما إذا لم تكن معتادة على عشرة الناس، ولم تلبث كل غادة جميلة في البلدة أن أصبح لها عاشق. وعندما قسمت الجميلات جميعهم على العاشقين جاء دور اللواتي لا يستأهفن صفة الجمال إلا قليلا. فهناك جنود كثيرون لا يدققون فيما إذا زاد حجم الأنف أو نقص إصبعها عن التقدر المعتاد في الجنس السكسوني، أو إذا شاب الأسنان عيب طفيف، أو زادت بقع الفم. وهكذا بدأت مزاوله الغزل على نطاق أوسع بين كل متحابين في أفر كومب، وترك الثبان الذين اغتصب حقمهم، وهم من مواليد ذلك المكان، يتجولون وحيدين. وبدلا من أن يفكروا في آيات الطبيعة أخذوا يفكرون فيما ارتكب أولئك الشجعان الذين تطفنوا كل التلطف بزيارة بلدتهم، من اعتداء على كرامتهم.

وكانت آن ترقب مجريات الأمور العاطفية هذه من نافذتها مهتمة بها اهتماما

(١) جمع بيه نوع معروف من الفليون.

كبيراً . وعندما رأت كيف أن الحسناوات من جيرانها كن يسرن غفورات
وهن يتأبطن الأذرعة الضخمة للبلاد من الأول توكلهمان ، وكورنت فليزهارت
والكاتن كلاسينكسن من فرقة يورك هسز المثيرة ، أولئك الذين أقسموا
أيمان الولاء بلغة أجنبية أنيقة ، وامتلكوا نوعا من العقار أو المزارع تسمى :
فاترلاند في بلادهم الواقعة وراء البحار . . . عندما رأت ذلك تملكها شعور
بالوحدة التي تسكبها ، وحملها على التفكير فيما حاولت نسيانه ، وفتح درج تشد
فيه شيئا لينا رمادى اللون يرقد ملفوفا هناك ومغلقا بالورق . ولم تعتد تحتمل
ذلك آخر الأمر ، ونزلت إلى أسفل الدار .

وقالت السيدة جار لاند :

— إلى أين ؟

— إلى حيث أرى الناس ، فأنا شديدة الاقتباس .

— إنك لن تخرجي الآن بالتأكيد يا آن ؟

وقالت آن وقد احمرت خجلا لشعورها على نحو مبهم بأنها شريرة إلى حد كبير .

— ولم لا يا أمي ؟

— لأنه لا ينبغي لك الخروج ، إنى اعتدت أن أطلب إليك مرارا ألا تخرجي
إلى الطريق في هذا الوقت من اليوم . لماذا لا تمشين في الصباح ، وهناك السيد
دريمان الذى يسره أن ..

— لا تذكرى اسمه يا أماء ، لا تذكريه !

— حسنا إذن يا عزيزتى ، تمشى في الحديقة .

وهكذا أخذت أن المسكينة التي لم تكن لها أذن رغبة في أن تسلم قلبها لجندى
وإنما أرادت استبدال خواطر جديدة بخواطرها القديمة لحسب ، هكذا أخذت
تخرج على الحديقة يوما بعد يوم ، وتمضى ساعات طوالا فيها بين الطيور المرحة
التي تغرد لها ، والفرشات المبهجة التي تحط على قبعتها ؛ والتل الشنيع الذى يجرى
فوق جواربها .

ولم تكن الحديقة مقسمة بين مسكنا ومسكن لندى ، بل كان جانبها فى الأصل
حديقة واحدة للنزل جميعه . كانت مكانا قديما عجبا محاطا بسور مزعج أصبح

مطموس الشكل سميكا من تأكله المستمر إلى حد أن غلام الطاحون يستطيع السير فوقه دون أن يسقط منه . وهو يقدم على هذا العمل الخطير كل يوم أثناء قيامه بأعماله اليومية . وتربة الحديقة سمرأ كثيفة سميئة من النوع الذى لا يتولد إلا بعد زرعه المتلاحق مدة عام كامل . وقد كست الحشائش ممراتها حتى صار الناس يرون عليها دون أن يسمع وقع أقدامهم . ونمت تلك الحشائش حتى كونت حوائل تحوى دون المرور، وعلى ذلك اعترم صاحب الطاحون أن يستبدل بمرات مرصوفة بالحصى بدل تلك الممرات المعشوشبة وقتما يتاح له فراغ من الوقت ولكنه ظل يعيد هذه القول مدة ثلاثين عاما دون أن يفعل شيئا حتى بدا أن تلك الحشائش ستظل على الأرجح باقية على ما هى عليه .

وتولى بستاني صاحب الطاحون رعاية جزء الحديقة الخاص بالسيدة جارلاند إلى جانب الجزء الأكبر الآخر ، فن عزيتى إلى غرس إلى استئصال الحشائش في الجزأين على السواء ، ذلك أن صاحب الطاحون لاحظ على حق أن جزء الحديقة الصغير المملوك للسيدة جارلاند لا يستحق أن تستأجر له تلك السيدة التي لا حول لها رجلا يريعه بينما يستطيع ذلك رجله الذى يعمل في الجزء المجاور دون أن يكلفه ذلك جهداً كبيراً : وكانت الأستران على ذلك أقرب ارتباطا في الحديقة منهما داخل دار الطاحون . ففي خارج الدار كادت تكونان أسرة واحدة ، وكانتا تتبادلان الحديث بين أمور وأمور تدبرانها في نشاط وحاسة لم تكن تستطيع السيدة جارلاند توقعها بحال في أول انتقالها إلى هناك بعد وفاة زوجها .

وجزاء الحديقة الأكثر انخفاضا ، والأقرب إلى الطريق كان أكثر أجزاء ذلك المكان الهادىء المسور هدوما وخفاء ، وكان سهل الرى بحسبانه أرض الصفة الراجعة ، كانت تجرى فيه ثلاث قنوات صغيرة عرض كل منها خطوة ، وتحدث خرير فى جريانها من جانب إلى جانب بين الأحواض . وتحترق الممرات تحت ألواح من الخشب قامت مقام الجسور وتنساب من الحديقة خلال فجوات تحت السور وقد كانت مظلة جداً بالحشائش وتناج الحديقة عند حفافها إلى حد أن قلة من الناس كانت تلاحظ وجودها هناك لولا إرغاؤها المستمر . وفى هذه البقعة آثرت أن أن تمكك مستأنية بعد أن صارت نزهاتها مقصورة على منزلها

وما حوله ، وفي بقعة أخرى من الحديقة غير بعيدة عن هذه كان جاويش البروجي يحب كذلك أن يطيل مكثه .

ولما كان من حسنات وظيفته في فرقته ألا يكون لديه واجب ثابت يؤديه فقد درج على النزول من المعسكر إلى الطاحون كل يوم تقريباً . وعندما رآته آن يسير في استقامة ، ويجلس في القسم الخاص بأبيه من الحديقة كلما جلست هي في القسم الآخر ، لم تتالك أن تبتم وتخطبه ، وهكذا كانت تظهر كثيراً في جانبين مختلفين من الحديقة ، وفي نفس الوقت شعارات كنفية العسكرية ، وسرته الزرقاء ، وقبعة آن الصفراء الأنيقة ، ولكنه لم يقتحم قط قسمها الخاص بها في ذلك المكان المكنون ، ولم تقتحم هي قسم لفدى .. كانت تتحاده دائماً عندما تراه هناك ، وكان يجيها في نبرات عميقة ثابتة عبر أدغال عنب الثعلب ، أو عبر صفوف عالية من أشجار البازلاء حسبما تكون الحال .. كان يحكي لها وهو على بعد خمس عشرة خطوة ما خبره في المعسكر ، وفي المخيمات ، وفي الفلانديز (١) وغير ذلك من الأمكنة ، وفي الفرق بين صف المشاة وطاقور الفرسان عند تحرك الجند واصطفافهم وما شابه ذلك . هذا إلى أماله في الترقية ، وأنصت آن بادية الأمر غير مبالية ، ولكنها ازدادت اهتماماً به كما لو كانت تهتم بأخ لها إذ لم تكن تعرف أحداً غيره يتمتع بمثل هذه العريكة اللينة والخبرة ، وأخذ شريطه الذهبي ، ومهمازه وأزراره تفقد غرابتها شيئاً فشيئاً ، وتصبح مألوفة لها كأثوابها .

ولاحظت السيدة جارلاند في نهاية الأمر هذه الصداقة النامية ، وبدأت تياس من خطة الام التي ترمى إلى ربط آن وفستوس الموسر برباط الزوجية ، وكان السبب الذي ثناها عن اتخاذ خطوات حاسمة لمنع كل تدخل في شأن خططها ، يرجع من ناحية إلى طبيعتها التي لا تحسن تدبير الأمور ، ويرجع من ناحية أخرى إلى ظروف عاطفية جديدة وجدت من الصعب أن تحسب حساب الأمور معها ، فالجيرة القريبة التي ولدت الصداقة بين آن وجون لفدى أخذت تنبت في بطء مودة أدفاً بين أمها وأبيه .

(١) إقليم في شمال غرب فرنسا .

على هذا النحو مر شهر يوليو . فطابور الخيل كان يندو في انتظام سير الساعة
لتشرب الجياد تحت نافذتها . وعند اشتداد حرارة الجو كانت تلك الجياد ترفس
بأرجلها ، وتهز رموسها من شدة لسع ذباب الخيل الذى يطيش له الصواب .
وأصبحت أشجار أوراق الخديقة الخضراء أشد دكنة ، ونضج عنب الثعلب ،
وانخفض مستوى الماء في القنوات الثلاث إلى نصف ما كان عليه في الشتاء .

وتمكن جاويش البروجي الجاد في النهاية من الحصول على رضاه السيدة
جارلاندى بأن يصحبها هي وابنتها إلى المسكر الذى لم تراه إلى الآن من موضع
أقرب من نوافذ دارهما . وعلى هذا ذهبوا في عصر أحد الأيام هناك وكان
صاحب الطاحون في صحبتهم . وكان أهالى القرية يمارسون في هذا الوقت تجارة
صاخبة مع الجنود الذين راحوا يشترون منهم كل نوع من نتاج المزارع من لبن
وزبد وبيض ، وذلك بأثمان متساع فيها . وأمكن مشاهدة وجوه أولئك البائعين
الريفيين وهم يصعدون زاحفين في المنحدر ، يحملين بيضاتهم كالنمل ، قاصدين إلى
مؤخرة المسكر حيث قام ما يشبه السوق في جناح شراء الخضروات .

واقترنت السيدة جارلاندى وابنتها وصاحب الطاحون من مكان إلى مكان ،
ثم إلى مخيمات تقطن فيها زوجات الجنود اللواتى لم يجدن أكواخا قريبة لسكناهن
وقد اختير لهن أوفر الامكنة حامية . وبنى أزواجهن لاستعمالهن أكواخا مكنونة
مبنية من المدرة والأشواك وأفرع الخيل الصغيرة ، أو أى شئ يصل إليه أيديهم
ومن ثم قاد نافع النفير الأول أصدقاه إلى الخزن الذى هيء ليكون مستشفى ؛
وإلى الكوخ ذى النوافذ المثبتة بالقرميد ، وهو الذى استعمل دكانا ، ثم تفقدوا
صفوف الجياد ذات اللون الأسود اللامع ، (وكان كل جواد منها يمثل اثنين
وعشرين جنيا من نقد المعاملة ؛ وهو مبلغ يعد مرتفعا وقتذاك) وكانت تنف
نافذة الصبر وهى مقيدة بالحبال الممدودة من مكان وتد إلى مكان وتد آخر ،
وهناك سد مقام أمامها لحمايتها أثناء الليل .

ثم انتقلوا إلى خيام الفيالق الألمانى . وهو مكون من مجموعة رجال فارعى
الأجسام ، أقرب إلى التأتق ، تنبتن من جوانب وجوههم نظرات شرعية يحملهم
يبدون شائقين في أعين الإناث . وقد تجمع منهم السكسونيون والهونفريون

والبروسيون والسويديون والمجريون وغيرهم من الجنود الأجانب في رتبهم المختلفة كانوا ينظفون أسلحتهم ويسندونها إلى حاجز بعد الإتهام من مهمتهم ... ومر الزوار بميس ، المعسكر في طريق عودتهم ، وهو بناء خشبي أقيم مؤقتاً ، وله مدفئة مبنية بالآجر . ولذ سارت آن ورقفاؤها بالقرب منه كانت زمرة من فرسان الهوزار تبلغ ثلاثة رجال أو أربعة طففوا يحاطبون فتي مقداماً كان يطنب في صفات جواد لرجل يرغب في شرائه . وعرفت آن فستوس دريمان في ذلك البائع . وكان كريبسترو ويخب بالجواد رائعاً غادياً . وما التقت عينها بعين فارس التطوع حتى أقبل يلاطف صاحب الطاحون بملاحظات ودية ، ثم دار إلى الأنسة جارلاند التي ظلت تشخص بعينها في المنظر الطبيعي البعيد دون تحول إلى أن بلغ اقترابه منها حداً استحاله معه بقاؤها على تلك الحال مدة أطول . وتنقل نظر فستوس من آن إلى نافع النفير الأول ، ثم من هذا إليها وعلى وجهه تعبير متجهم كما لو أنه ارتاب في أن يكون بينهما تفاهم عاطفي . وقال للفتاة في صوت منخفض يدل على استياء مكتوم :

— أنا أسأت إليك ؟

وقالت آن :

— لا .

— متى ستذهبن إلى أكسويل هول مرة ثانية ؟

— قد لا أذهب إلى هناك أبداً .

وقالت السيدة جالاند التي اقتربت وابتسمت لفستوس ابتسامة عذبة :

— هذا هراء يا آن ، فإنك تستطيعين الذهاب في أي وقت كالعادة .

— دعها تأت معي الآن يا سيده جارلاند ، فإنه ليسرني أن أتمشى معها .

ويستطيع رجلي أن يقود جوادى إلى الدار .

وقالت آن في جفاء :

— شكراً ، ولكنني لن أذهب معك .

وتطلعت الأرملة حزينة إلى وجه ابنتها وقد أشقاها ان تتوزع بين مناهي في

أن تشجع آن فستوس ، ورغبتها في عدم إغفال مشاعر ابنتها .

وقال فستوس وقد أظلت نظرته :

— دعيا وشأنها ، دعيا وشأنها . فبعد التفكير أراى الآن مسرورا لعدم
تمكثها من الذهاب معى ، لأنى مرتبط بموعد .
ودلف مبتعداً .

وسارت آن مع أمها يتبعهما لعدى الابن فى صمت ، وطفقوا ينزلون من الهضبة
وسألت السيدة جارلاندى .

— حسناً ، أين السيد لعدى ؟

وقال جون

— أبى خلفنا .

ونظرت السيدة جارلاندى إلى الوراى فى رعاىة . وأوما لها صاحب الطاحون
الذى كان ينتظر نهاية ما وقع .
وقالت للشابين الاثنىن .
— سألتق بكما بعد دقيقة .

وكرت راجعة ، وتورد لونها وهى تفعل ذلك لسبب ما يتعذر تعليله . ثم
أقبلت هى وصاحب الطاحون معا على مهل ، متحدثىن بصوت منخفض ، وتوقفا
دون حراك عندما وصلا إلى سفح التل . وانتظرهما لعدى وأن دون أن يتبادلا
من الكلام إلا قليلا نظرا إلى أن الالتقاء بفستوس قد أوهن معنوية كليهما .
وشارف حديث الأرملة الخاص مع ميلر لعدى آخر الأمر نهاىته ، وأسرعت مقبلة
بينما اتجه صاحب الطاحون اتجاهها آخر ليقابل رجلا فى عمل من الأعمال . وبدت
مشرقة كل الإشراق عندما وصلت إلى نافخ النفير الأول وأن ، بل كانت أميل
إلى الانفعال ، وظهر عليها الأسف عندما قال لعدى إنه مضطر إلى فراقهما
والعودة إلى المسكر واقترق الطرفان على طريقتهما الودية المعتادة ، وترك لعدى
آن وأمها تتقطعان وحدهما الخطوات القليلة الباقية .

وقالت السيدة جارلاندى .

— هأنذا حسمت الأمر . . . آن ! فىا تفكرىن ؟ لقد استقر فى ذهنى أن
الأمر على ما يرام .

وقالت آن .

— أى أمر هذا ؟

— ألا تعبرى دريمان اهتماما ، وأن تنوى تشجيع لعدى . فإذا بهم الناس من أمر الحياة مادعوا سعداء ! لا تعبرى ياطفتى ما قلته عن فستوس أى التفات ولا تلتقى به ثانية .

— أية متقلبة أنت يا أماء ! لماذا تقولين ماقلت فى هذا الوقت بالذات ؟

وقالت ربة البيت متخذة نظرة المرأة الطيبة .

— ليس من الصعب أن تسمينى متقلبة ، ولكنى عقلت وتمكنت فى النهاية بفضل الله ، من التغلب على طموحى . إن لعدى وابنه هما صديقانا المخلصان الوحيدان ، والسيد فستوس ، مع كل ما يملك من مال ، ليس بالذبة لنا شيئاً مذكوراً .

وقالت آن

— لكن ما الذى حملك على أن ترجعى فجأة عن كل ماقلته من قبل ؟

— شعورى وعقلى اللذان أنا مدينة لهما بالشكر .

وكانت آن تعلم أن عواطف أمها شديدة الثقل بطبيعتها إلى حد لا يمكن معه الاعتماد عليها لمدة يومين كاملين ، ولكن لم يخطر لها فى هذه المنهية أن حديثاً عاطفياً بين السيدة جارلاندى وصاحب الطاحون كان ذا أثر معين على قلبها فى الحالة الراهنة ، ولكن السيدة جارلاندى لم تستطع كتمان السر مدة طويلة . فقد كانت تثرثر مبهتجة أثناء سيرها ، وقالت قبل دخولها المنزل .

— أى قول تحسبن أن السيد لعدى قاله لى ياعزيتى آن ؟

ولم تعرف آن ما قاله قط .

— لم هذا ؟ لقد طلب لى أن أقبل الزواج به ؟

قومنا يتأثرون

بالحضرة الملكية

(١١)

كان يكفى الرجوع إلى تلك اللحظة التي تبادل فيها كل من آن وفستوس والسيدة جارلاند الحديث فوق التل لتفسير طلب الزواج المفاجيء الذي عرضه صاحب الطاحون . فقد ارتد جون لفدى وقتذاك إلى الخلف ليتحاشى التدخل في اجتماع وجوده فيه كعدمه دون ريب . وكان أبوه الذي حزر سره يرقب وجهه بينما هو واقف . لقد كان وجهه حزينا ، وتابعت عيناه طريقة السيدة جارلاند المشجعة لفستوس ... تابعت عيناه ذلك على نحو دل في وضوح على أن كل فرقة وتلاقق لشفتى السيدة كانت محنة له . وقد أحب صاحب الطاحون ولده حباً لا يختلف عما يستطيعه أى صاحب طاحون أو أى سيد عادى لولده ، وآلمه أن يرى تجمع جون لمثل هذا الطرف النافه . لذلك لم يعترض ما اعترمه لإلابد إلى جون يد العون على نحو أو آخر ، بالتعجيل في الأمر لو كان يخصه هو وحده لأرجاه إلى ما بعد ستة أشهر أخرى .

لقد طال ميله إلى صحبة السيدة جارلاند ، هذه الجارة الحساسة السهلة الانقياد ، وكان قد شغل بالها ، وحملها على التفكير فيما يتعلق بمسألة هل كان من الأفضل اشتراكهما في منزل واحد في سبيل سعادة كل منهما حتى ولو أنها كانت تفوقه قليلا في الحسب والمعرفة . كان يجيها في الواقع ، ولكن حبه لم يكن فاجعاً ، بل كان معقولا إلى حد كبير ، بالنسبة لسنة . وكان يلي حبه لولديه بوب وجون برغم أنه كان على بينة تامة من التجاعيد الظاهرة حول أركان عينيها اللتين كانتا جميلتين في وقت مضى . ومن أن ذلك الانخساف في خدهما الأيمن لم يكن تلك النقرة المترتبة التي يفترضها الخيال الشعارى ، ولكنه كان نتيجة خلع أسنان سفلى تحت خدها قام به « روتل » ، طبيب الاسنان الذي يكسب قوته بما يجريه من جراحات في رقوس كبار السن . ولكن أية أهمية لهذا حينها يكون قد فقدنا بين مقابل كل ناب مخلوع منها ، وحينها يكبرها بما يقارب ثمانى سنوات ! ومن

ثم أسرع في تنفيذ خطته ليؤدي خدمة إلى جون ، وعرض عليها السؤال بينما كانا يقفان على مرأى من الرفيقين الأصغرين .

كانت السيدة جارلاند تهتم بصاحب الطاحون منذ مدة طويلة ، وتفكر بين حين وحين ، لمدة قصيرة ، في ذلك السؤال داخل حدود مثل ذلك التساؤل : « لنفرض أنه سألتني . أو ، وإذا سألتني ، وهكذا ... وبرغم ذلك لم يذهب تفكيرها قط إلى أبعد من ذلك كثيراً . وقد أخذت بالفعل على غرة حينما عرض عليها السؤال . وقد أجابته دون تكلف بأنها ستفكر في العرض ، وعلى هذا افتراقاً .

وعدم استقرار الأم على رأى واحد حمل أن على التفكير . واستحوذ عليها اليقين فجأة بأنه ينبغي عليها في مثل هذا الحال أن يكون لها هي نفسها هدف ما . وقد دهشت في الحق للتلف الذي قابلت به السيدة جارلاند عرض صاحب الطاحون . وعندما رفعت أمها رأسها وأوصت خيراً بفتوس بدت لها الثورة على ذلك شيئاً شائئاً . ولكن عندما تحول ضغط أمها استحوذ على خاطرها شعور بمسئوليتها . وبما أنه لم يعد هناك عاقل أو طموح بالنسبة لها ، فينبغي أن تصبح هي ، دون مرأ ، عاقلة وطموحة بالنسبة لنفسها ، فتمترض على علاقة أمها ؛ وتشجع فتوس على تودده إليها في سبيل خيرها وخير أمها على السواء . وكان هناك عهد كان قبيحاً مثل لفدى يثير فيه قلبها ، ولكنه عهد مضى منذ زمن بعيد قبل أن تفكر في المراتب والفروق الطبقيّة . وإنه لشيء رهيب وجديد بالنسبة لها أن تفتح عينيها على نور مثل ذلك النهار البارد وقتما شطحت أمها إلى أرض العواطف الحاملة ، وسببت لها تلك الرهبة والجدّة ، وصار الحاضر كأنه مزيد من سنوات في حياتها لا تعيشها .

ولكن انصراف رأيها إلى أنه ينبغي عليها أن تزوج بفارس فرقة المتطوعين كان أسهل من اتخاذ الخطوات لتحقيق ذلك ... وظلت تحي كما كانت تحي من قبل تماماً إلا إذا أضفنا شيئاً قليلاً من التفكير زاد على عينيها .

وقال لها الجندي لفدى ، وقد نزلت ثانية إلى الحديقة بعد مرور يومين على زيارة المعسكر ، وكان منها على بعد خمسة صفوف من نبات البازلاء ومن حوض البقدونس :

— أجمعت النبا يا آنسة جارلانده ؟
وقالت آن دون أن ترفع بصرها عن الكتاب الذى كانت تقرأه :

— لا

— سيحضر الملك غداً .

ورفعت بصرها عندها :

— الملك ؟

— نعم ، سأتى إلى جلوسترلودج ، وسيمر من هنا ، ولن يستطيع الوصول إلا بعد مرور وقت طويل على منتصف الليل... هذا إذا كان ماقيل صحيحاً... ثم استطرده لئلا يفتقد اهتمام الفتاة بقوله على تخطى حوض البقدونس ، واختزاله للسافة التى تفصل بينهما :

— والوقت المحدد لتبديل خيله في نزل وويديس... الواقع بين وسط وسكس وجنوبها... هو منتصف الليل .

وجاء ميلر لئلا يفتقد من حول ركن المنزل ، وقال :

— أجمعت عن مجيء الملك يا آنسى آن ؟

وقالت آن إنها سمعت عنه في التو ، وأخذ نافخ النفير الأول الذى حياها أباه في صعوبة وهو في مثل هذه البرهة... أخذ يشرح ما يعرف عن هذه المسألة . وقال لئلا يفتقد الكبير .

— أظن أنك ستذهب مع كتيبتك للقائه ؟

وقال لئلا يفتقد الصغير إن الضيق الألماني هو المكلف بأداء هذا الواجب . وأضاف وهويدور ويصبح متجهاً نصف اتجاه إلى كل من أبيه وأن .. أضاف قائلاً في لهجة مغرية إنه يحسب نفسه قادراً على إذن بالغياب عن المعسكر الليلة فيما إذا رغب أحد في الذهاب معه إلى قمة ريجوى التى لا بد أن يمر الركب الملكى بها .

ولما كانت آن في هذا الوقت على بينة من الأمل الذى بدأ يثبت في ذهن فارس الدراغون الشهم ، فقد قالت رغبة منها في عدم تشجيعه .

— أنا لا أريد الذهاب .

وبدت خيبة الأمل على صاحب الطاحون كما بدت على جون .

— قد تود أمك الذهاب !

وقالت الفتاة :

— نعم ، سأدخل البيت وأسألها هل تود الذهاب .

ودخلت البيت ، وأنبأت أمها بالاقتراح في لهجة أقرب إلى البرود . وبرغم أن السيدة جارلاندر لم تكن تنوى أن تقول كلمتها الآن لصاحب الطاحون في شأن الزواج به ، فإنها كانت مستعدة كل الإستعداد للقيام بهذه الرحلة ولذلك هرعت في الحال إلى الحديقة رغم أنف أن لتسمع المزيد عن الأمر . . . وقالت إذ ارتدت إلى البيت ثانية :

— أنا يا آن لم أر الملك وخيوله في خلال السنوات العديدة الأخيرة ، ولذلك سأذهب .

وقالت آن في صوت الاكبر سنا :

— آه ، من الخير أن تكوني أنت التي ستذهب يا أمي .

وقالت السيدة جارلاندر وقد شعرت بالتفريع نوعا :

— أنت لا تريد الذهاب معنا إذن ؟

وقالت ابنتها في تأكيد مؤثر :

— لدى أشياء كثيرة أحتاج للتفكير فيها أكثر من ذهابي لأرى رؤى في ذلك الوقت المتأخر من الليل .

وأصفت السيدة جارلاندر ولكنها صممت على حضور الترتيبات . وأقبل الليل ولما ذاع أن الملك سيمر من طريق البلدة خرج كثيرون من الاهالي لمشاهدة المركب في مروره . ومن باب الحيط . أغلقت آن باب الدار بالمزلاج بعد ذهاب لعدى وابنه وأمها . وجلست تفكر من جديد في المسؤوليات الجسم الخاصة باختيار زوج لها ، إذ لم يعد يمكن الان الوثوق بالقيمة الطبيعية عليها .

وصدرت طريقة من ناحية الباب .

ولإذا غريزة آن توحى لها على الفور أن تصمت لعل الطارق يخال الأسرة أوت إلى فراشها .

ولم يكن الطارق ليقنع مع ذلك في سهولة ، فقد رأى بالفعل نورا ينبثق من شراع النافذة الزجاجي . ولما لم يتمكن من أن يتلقى جوابا توجه إلى باب الطاحون

التي كانت لا تزال تدور ، إذا أن صاحبها كان يديرها أحيانا طوال الليل عندما يزدحم عليه العمل . واصطحبه السنان إلى باب السيدة جارلاندا ثانية . وقال :

— إن الإبنة في البيت يا سيدي دون ريب ، وسأدور حوله إلى الناحية الأخرى لأرى هل هي هناك ياسيد دريمان .

وقال فستوس :

— أريد أن أخرج بها لترى الملك .

وجعلت آن لدى سماع صوته . فليس ثمة فرصة يمكن أن تكون أوفى من هذه لتحقيق معتقداتها الجديدة المتعلقة بقسوة أمر خطبتها . ولكنها نسيت مبادئها في غمرة كراهيتها المميتة لفستوس ، كما نسيت رأيها في أن تضع نفسها من حيث المكانة فوق أسرة لعدى ، وإذا ألقت قبعتها على رأسها ، وأطفأت الشموع ، انسلت من الباب الخلفي ، وأسرعت خلف أمها وسائر الجوع متخذة نفس الاتجاه الذي اتخذوه ، ولحقت بهم وقت أن بدأوا الصعود في التل .

وقالت الأرملة :

— ماذا ! أغيرت رأيك آخر الأمر ؟ كيف تأتي لك أن تقسدي على مثل هذا يا عزيزتي ؟

وقالت آن :

— خطر لي أنه يمكنني الحضور كذلك .

وقال صاحب الطاحون في إخلاص :

— لاشك في هذا . وحضورك أفضل بكثير من الاحتباس في المنزل هناك .

ولم ينطق جون بكلمة . بيد أنها كادت تستطيع أن تلمح من خلال الظلمة كم هو مبهج لتغييرها رأيها . وعندما وصلوا إلى القمة التي امتد فوقها الطريق العمومي وجدوا كثيرين من جيرانهم الذين سبقوهم يبددون وقتهم فوق حفا في الطريق المغطاة بالحشائش ، ويمتعون أنفسهم بنوع من الزهات الليلة الخلوية الطاعمة ، ولم يكن يصعب إقامتها ليلتشد لأن الهواء كان ساكنا تقيما . وكانت بعض العربات تحف كذلك على مقربة برغم أن أغلب الناس الذين يملكون عربات تجرى على

مجلتين أو أربع كانوا قد رحلوا إلى البلدة انتظاراً للملك هناك . ويمكن أن يتاح من هذا الارتفاع مشاهدة موضع « المنزّه البحرى » ، عن بعد إذا أضاء أهل البلدة الموالون للملك عدداً إضافياً من المصابيح والفوانيس والشموع تكربما للإقبال الملكي فيما إذا تم قبل الفجر .

ولست السيدة جارلاندر ذراع آن عدة مرات أثناء سيرهم . وأدركت الفتاة في النهاية أن هذا يعنى الإيماء لها أن تتأبط ذراع جاويش البروجى الذى لم يقدم لها ذراعه وإنما كان على الأغلب يوحى إليها أن تتأبطها . وعجبت آن أى تدله استحوذ على أمها . . . وأبت تتأبط ذراع الرجل ، وتحايات لتتقدم وتلتحق بصاحب الطاحون الذى كان يسير فى المقدمة غالباً ليرشد خطوات الباقيين . . . وترك نافخ النفير الأول للسيدة جارلاندر ، وأغراه ابتعاد آن عنهما بأن يقول بضع كلمات لتلك السيدة .

— هل أحدثك ياسيدتى ، بعد إذنك ، فى أمر يشغل بالى جداً بالفعل ؟

— بالتأكيد .

— أود أن يسمح لى بتقديم عروضى لى ابنتك .

وقالت السيدة جارلاندر فى بساطة :

— لقد خطر لى أنك قصدت هذا .

— وأنت لا تمنعين !

— سأترك الأمر لك . وأظنها لن توافق حتى ولو وافقت انا .

وتهد الجندى ، وبدأ عليه القنوط . وقال :

— حسناً . . . غير أنى أستطيع أن أسأله .

ويقع المسكان الذى اختاروه أخيراً ليبتظروا فيه قدوم الملك ، بالقرب من باب أحد الحقول حيث يمكن مشاهدة الطريق العام الجبرى اللون فى النهار حتى مسافة بعيدة من ناحية الشمال ، وحتى مسافة قليلة الآن وانتظروا ثم انتظروا ، ولكن لم يكن هناك ملك يقدم ويقلن سكون هذه اللية الصيفية الجميلة وبعد تعاقب نصف ساعة أثر نصف ساعة دون أن يحضر أحد بدأ الضجر يستولى على آن . . . وهى لم تجهل لماذا لم تقترح أمها العودة ، وأسفت على ذلك ، وكان يمكن أن

تفترح العودة هي نفسها ، ولكن بدا أن السيدة جارلاند كانت مهتجة جداً ،
وشديدة اليقظة كما لو كانت في منتصف النهار ، حتى أن إزعاجها كان يكون قاسياً .
وحزم جاويز البروجي أمره في النهاية ، وحاول أن يستدرج آن إلى خلوته
بيادها فيها الحديث على انفراد . إن ذلك الشعور الذي كان منذ أسبوع مطمحا
غامضاً جداً أصبح اليوم عنيفاً كل العنف إلى حد لا يستطيع معه تعقل هذا
الجندي الدافئ القلب أن يسيطر عليه . ولذلك حوص فيما اتواء على يفاجها
في خلوته ، وفاز بذلك في النهاية ، برغم تحايلها على تفويت ذلك عليه . وابتعد
عنها صاحب الطاحون والسيدة جارلاند مسافة خمسين خطوة ، وتركاه هو وآن
واقفين عند باب الحقل .

ولكن روح الموسيقى الشهم كانت تضطر بأشداً الاضطراب متأثرة باختلاجات
رقيقة ، ويشعوره بالاجراء حتى أنه لم يستطع بدء الحديث . ولعل لإقدامه على
طرق هذا الموضوع إطلاقاً كان يصبح موضع نظراً لولا أن ساعة كنيسته نائمة
عاوته لحسن الحظ بدقا ثلاث دقائق . وتنفس نافع التفير الأول الصعداء .
وقال :

— إن نغمة دقائق هذه الساعة هي نغمة دج ، الحادة .

وقالت آن متجملة :

— أهي نغمة دج ، الحادة بالتأكيد !

— نعم . وجرس هذه الساعة رخم الصوت . وقد اعتدت ملاحظة هذه

النغمة منذ كنت صلياً .

— هل اعتدت ذلك ؟ . . . ونفس النغمة ؟

— نعم . وكان بيني وبين رئيس فرقة ميلشيا نورث وسكس الموسيقية رهان

بشأن جرس تلك الساعة . فقال إن نغمته هي دج ، ، ونقيت أنا ذلك . وعندما
وجدناها دج ، الحادة لم نعرف كيف نسوى الأمر .

— إنها ليست نغمة عميقة بالنسبة لساعة كبيرة .

— أوو ، لا ! وأرخم أصوات الأجراس المرناة في هذه التواحي هو جرس

يترز بكبيريدج ، ونغمته دج ، الحافضة طم م . . . م . . . م . هاهي ذى النغمة . . .

طم م . . . م . . . م .

- وأطلق نافخ النفير الأول من أسفل حلقة تلك النعمة التي يعدها له ، الخافضة . ..
أطلقها متهدجاً يتحلى من اللذة ما لم يستطع الإضطراب الحالى إخمادها .
وقالت آن وهى أقل تأثراً بجمال تلك النعمة من نافخ النفير الأول نفسه :
— ألا نذهب إلى حيث تقف أمى ؟
— بعد دقيقة واحدة . .. بمناسبة الحديث عن الموسيقى أخشى ألا تظنى
مقام جاويش البروجى كبير القدر بالنسبة لمقامك ؟
— أنا أظن ذلك . بل أعتقد أن جاويش البروجى رجل محترم جداً .
— يسرق أن أسمحك تقولين ذلك . وقد صدر أمر ملكى بحسبان كل نافخ
نفير أول رجلاً محترماً .
— حقاً ! أنا إذن . .. بطريق المصادفة . .. أكثر ولاء لذلك بما كنت أظن !
— وأنا أحصل على علاوة سنوية تجعل مرتبى أكبر بكثير من مرتب نافخ
النفير العادى نظراً لمركزى .
— هذا لطيف جداً .
— وليس من المفروض قطعاً أن أشرب الخمر مع ناغى الابواق الذين يعملون
تحت إمرتى .
— هذا طبيعى .
— وجاء فى أوامر وزارة الحرب أن لى الحق فى أن أمارس (وهذه كلمة
الوزارة) مطلق سلطانى عليهم . وإذا سلك أحدهم معى سلوكاً ينطوى على أى
إخلال بالأدب ، أو إذا أهمل أوامرى ، يحبس ويبلغ عنه .
قالت وهى مع ذلك تتحفظ فى اهتمامها تحفظاً غير مشجع التشجيع كله .
-- إن وظيفتك محترمة حقاً .
وتعثر جندى الدراغون فى القول :
— ولا شك أنى سأصبح يوماً ما فى وظيفة أرقى من وظيفتى الحالية .
— يسعدنى أن أسمع ذلك يا سيد لى .
واستطرد جون لى فى شجاعة ، وفى استبسال اليأس :

لا ، لا .. لا تنصرفي ! ... فأنت لم تسمعي بعد قولي ... بأمل أن تجعليني أسمع الرجال ... ليس الآن ... ولكن عندما يعلن السلم ، ويصبح كل شيء هادئاً سهلاً من جديد ؟ أنا لا أستطيع التعبير عن الأمر بأحسن من هذا ، ولو أن هناك ما يزيد على قولي المتقدم مما يستحق الشرح .

وقالت آن في ألم غير خاف :

— هذا موقف حرج للغاية ... أنا لا أستطيع الموافقة بحال ... صدقتي يا سيد لفتى ... أنا لا أستطيع .

— لكن هناك أكثر من هذا ، فسيدهشك أن ترى أية مساكن هادئة مخصصة في الشكنات للزوجين من ناغلي الأبواق الأول والجاويشية .

— الشكنات ليست كل شيء ... فكر في المسكرات والحرب .

وصاح الجندي آملاً من جديد :

— هذا يصل بي إلى النقطة القوية في مسألتى ، فأني أحسن حالا من أغلب آباء ضباط الصف . وسيكون لك بيت مفتوح عنده دائماً في حالة الضرورة . وأستطيع أن أقول لك فيما بيننا إنه يملك من المال ما يكفي حاجتنا نحن الاثنين ، وإذا كنت غير ميالة إلى الشكنات فلا بأس ، إذ أني في حالة استتباب السلام ثانية سأعيش هنا في داري طحانا ومزارعا ... وجارا ملاصقا لأمك .

وقالت آن معذرة :

— لا شك أن أمي ستعترض على طلبك .

— لا ، فقد فوضت إليك البت فيه .

وقالت آن في دهشة :

— ماذا ! أسألها رأيا ؟

— نعم . فقد رأيت التصرف على أي نحو آخر يجاني الشرف .

وقالت آن وقد أدفا وجهها شعور كريمة باستقامته :

— هذا تصرف طيب جداً . ولكن أمي تجهل حياة الجنود جهلاً تاماً . وتجهل حياة زوجة الجندي ، فهي على بساطة كبيرة في مثل هذه الأمور جميعها إلى حد أني لا أستطيع ، بسبب ما قد تقوله ، أن أكون أكثر استعداداً للإصاات إليك .

وقال جاويش البروجي المسكين وهو يحفف وجهه ، ويعيد منديله في هيئة من قضي الأمر معه .

— لقد انتهى الأمر بالنسبة لي إذن ؟

وصحمت آن . وإن أية امرأة خبرت مثل ذلك ستدرك ، دون ما حاجة إلى تفسير ، أية مهمة كريمة تضطلع بها حين ترفض رجلا — حتى ولو لم تكن تحبه — رجلا يتحل بجميع الصفات الطبيعية والعقلية التي تمنناها ، ولا تفوته إلا الاجتماعية منها . والعشاق الذين يبدون حبه ، حتى لدى خير النساء ، ليسوا كثيرين إلى حد أن التضحية بأحدهم يمكن أن تعد شيئاً مختلف عن فقدان شيء نفيس في عالم تقل فيه الأشياء النفسية .

قال بعد أن وجدها تمسك عن الكلام :

— أنت لست غاضبة يا آنسة جارلاند ؟ ...

— أوو ، لا . لا تدعنا نذكر شيئاً آخر الآن عن هذا الأمر .

وسارت في طريقها .

ورأت عندما اقتربت من أمها وصاحب الطاحون أنهما منهما كان في حديث من ذلك النوع الذي يرداد على العموم أكتالا وإفصاحاً بسبب قلة كلماته المحددة . ومختصر القول أن الحطة أخذت تنجح هنا حيثما فشلت هناك معها وقد وضع وضوحاً لا بأس به من الدلائل والعلامات والشواهد والبرقيات والتمثيلات الصامتة التي دارت بين الأرملة والأرملة أن ميلر لفدى لا بد أعاد على مسامع السيدة جارلاند قولاً أشبه بما قاله لها من قبل ، ولم تعرف الفتاة الآن نتيجة قوله في هذه المرة .

وتوقفت آن بعض الوقت بعيدة عنهما تنظر إلى دقة الموقف . ولم يتقدم نافخ النفير الأول لأنه كان يجمل جهلاً تاماً كيف سيعرض لابس السترة البيضاء ، الواقف على بعد منه ، سأله ، (لأن أباه لم يظلمه بعد على الخطط التي رسمها لإقناع السيدة جارلاند) ولكنه وقف لا يتحرك إلى جانب باب الحقل وكأنه يقوم على خدمة أميرة ، منتظراً إلى أن ينادى عليه . هكذا وقفوا مترئين وقد أخذت بشارت النهار تبرغ . ولم تهتم السيدة جارلاند وصاحب الطاحون بالوقت وما يحدثه من أثر في الأرض والسماء ، وذلك لشدة اشتغالها بنفسهما ، ولكن

آن وهى واقفة فى مكانها ، وجاويش البروجى وهو فى مكانه ، وكل منهما مشغول بالحفاط الحاص به ، غير المشرق بحال ، كانا رقبان العظمة النامية بالتدرج فى الشرق ، من خلال جميع ألوانها وتغيراتها . ونشط عالم الطيور والحشرات ، وبدت سترة لعدى بألوانها الزرق والصفير والذهبية واضحة من جديد . وشقت الشمس طريقها إلى أعلى ، واشتعلت الحقول والأشجار والمناظر البادية على بعد ، وتوهج جاويش البروجى فى أشعة الشمس ، ووراءه ظله البنفسجى اللون الممتد امتداد البرج العالى ، وبدا كإله الحرب يحق .

بلغ الوقت منتصف الساعة الرابعة ، وبعد قليل ترامت إلى الآذان جلجلة الخيول وعجلات العربات منبعثة من الشكنات التى صوبوا النظر إليها . ومن ثم بدت كتلة متسكتة تتحرك فى الطريق الأبيض . ولم تلبث أن صعدت فى التل وأخذت تقرب .

ثم تعالى هتاف من المتفرجين المتجمعين هناك ، وصاح : « عاش الملك جورج طويلا » . ومر الموكب تجاهم ، وكان يتكون من ثلاث عربات سفر تحرسها فصيلة من الفيالق الألمانية . وطلب إلى آن أن تشاهد الملك والمملكة فى العربة الأولى ... وهى عربة بريد تجرها أربعة جياد ... ووجدت عرضاً عن الانتظار فى مشاهدة وجههما الجانبيين الذين أذكراها النقود المتداولة . ولكن نظراً إلى أن المركب ظل يسير طوال الليل ، وإلى أن المتجمعين كانوا قليلي العدد ، فإن أحداً من أفراد الأسرة المالكة لم يطل من نافذة العربة . وقد قيل أن الأميرتين الكبيرتين كانتا تستقلان نفس العربة ، ولكنهما ظلتا متواريتين . وكانت العربة الثانية ، وهى من نوع « الكوشة » تجرها أربعة جياد ... كانت تضم مزيداً من الأميرات ، والعربة الثالثة تحوى بعض أفراد الحاشية .

وقالت السيدة جارلاند بعد مرور الموكب جميعه :

— أحمد الله على أنى رأيت الملك !

ولم يعبر أحد غيرها عن أى حمد لأن أغلبهم كان يتوقع موكباً أكثر أبهة مما اهتم ذوق الملك الرينى أن يجوده به عليهم . وقال أحد الرجال المسنين مقطباً إن منظر هذه العربات المكشوفة المكسوة بالجلد القديم المغرب لا يستحق الانتظار لمشاهدته : وتلفتت آن هنا وهناك فى أضواء أشعة النهار ، واحتوت كل عين من

عينها على جزء من أشعة الشمس ، وأكسب ذلك نظراتها ناراً ذهبية من نوع خاص ، وأضاءت جداتها الرمادية الملقوفة فوق جبهتها فلالاتها تلالواً مصفراً . وجعلت خصلات شعرها المتناثرة التي كانت تتطاير ضالة في السماء . . . جعلتها تبدو كالأسلاك المطلية بالدهان الأبيض . وكانت حائرة تفكر هل كان فستوس موجوداً في مكان ما قريب منها ، ولكنها لم تستطع رؤيته .

وقبل مغادرة حافة التل وجهوا انتباههم إلى المنتزه الملكي البحرى الذى لم يبد من مكانهم إلا بحسبانة جزءاً من شاطئ البحر الذى كان غبش الليل ينحسر عنه متباطئاً . وكان البحر وراه لا يزال ملفوفاً في ضباب الفجر الصيفى الذى بدت السفن في مراسيها البعيدة عن الشاطئ . . . بدت من خلاله كأنها عنكبوت معلق في الهواء . وبينما كانوا يسرون وينظرون ، انبثقت قطعة سحب يذناء من بقعة أرض عرف صاحب الطاحون أنها أرض المدفعية المواجهة لقر الملك ، ثم صك آذانهم صدى طلقات المدافع ؛ وأجاب على هذا الإعلان لمقدم الملك كل من قلعة الجزيرة المجاورة ، والسفن الراسية في النواحي المجاورة . . . أجابت بتحية مدوية . وأخذت أجراس البلاد كلها تدق . . . لقد وصل الملك وأسرته ؟

كيف صعد كل فرد ...

صغيراً كان أو كبيراً

إلى أعلى التل

(١٢)

وصلت أصداء الحياة وضوضاؤها في البلدة إلى آذان القوم الهادئين في قرية
أفركب الشبية بالبحر ، بينا الأيام تمر ، وجعلت تستثير الأهالي غير المهمين ،
وتحركهم كما يحرك انتفاخ الأرض العشب في الكهف . وأخذت عربات السفر
من كل نوع ، وكل لون ، تصعد في التل وتهبط منه ، سالكة الطريق المتجه إلى
منطقة الشاطي . وبعض هذه العربات تحمل أفراد حاشية الملك الذين لم يتمكنوا
من ملاحظته في رحلته من وندسور . وبعضها الآخر عربات مكشوفة ، كبيرة
وصغيرة ، تحمل الأرسقراطيين الذين اجتذبهم حضور الملك إلى ذلك المكان لأجل
متعته الخاصة . وهكذا بدأ الطريق العمومي ، في نظر من يشاهدونه من التلال
في نواحي أفركب ، يخط مسير التل . . تعاقب مستمر لبقع سود ترحف على
طول سطح ذلك الطريق في سرعة كادت نسبتها تكون واحدة ... وتلك جميعها
اتجاهاً واحداً .

وكانت حركة المرور وانتقال الأخبار من المعسكر إلى البلدة تجري في الطريق
العالي بانتظام فوق رؤوس سكان القرية . ولما كان الوقت صيفاً فقد انهمك
صاحب الطاحون في العمل انهماكاً شديداً ، وشغل نافع التغير الأول شغلاً لا ينقطع
بالانتقال أياما بين المعسكر وجزر ستر لودج ، مع سائر جنود الدراغون
ليقتلوا إلى أصدقائهم أية أخبار ينسقطونها .

وبعث أخيراً برسالة مؤداها أن عرضاً على رأسه الملك سيجري على الهضبة ،
وقد حدد اليوم التالي للقيام به . ولم يلبث هذا الخبر أن ذاع في القرية وبلاد
الريف المحيطة بها . وفي الصباح التالي صعد جميع سكان أفركب . . باستثناء
محموزين أو ثلاث عجائز من النساء والرجال ، وبعض الأطفال ومربياتهم ،
وكسيح واحد ، والاباشي تليديج . . صعد في منحدر التل مع الجموع الآتية من
بعيد ، وانتظروا الأحداث المدخرة في هذا اليوم .

وارتدى صاحب الطاحون أحسن سترة يملكها ، وهذا يعني الشيء الكثير .
فالرجل في أفركب كان يملك في تلك الأيام أحسن سترة ، ويحتفظ بها مدة
نصف حياته بحسبانها كذلك . وقد شاهدت سترة صاحب الطاحون من شقوق
صندوق الملابس على الاخص خمسة وعشرين صيفا ولم ترث قط بعد ، ولو أنها
بدأت تصبح غريبة الشكل . بيد أن ذلك لم يكن يستطاع تجنبه ، فالسترات العادية
وأحسن السترات ، كانت أنواعا متميزة غير قابلة للتبديل ولما كان يقطن غير بعيد
عن مشهد العرض فقد سار صاعداً في التل وفي رفقته السيدة جارلاندا وآن
كالعادة .

كان اليوم صافى الأديم لا يتحرك فيه إلا نسيم خفيف . وكان المنظر الذى
يبدو من الهضبة من أكثر مناظر الإقليم اتساعا ، خالياً من السحب ، وكانت عين
أى مشاهد يهتم بمثل هذه الأمور ، تمتد إلى البلدة التى تغمرها الأمواج ، وإلى
الخليج الواقع خلفها ، والجزيرة ذات الشاطئ المكسو بالحصى ، الراقدة في البحر
إلى شمال تلك الاماكن كأنها وحش هائل جائم قيده البر الاصلى . وفي الأفق
البحرى الواقع إلى أقصى الشرق تضع « سان الدهلم هيد » (١) حداً للمنظر ، ويسطع
البحر إلى الجنوب كأنه مرآة واقعة تحت الشمس . وفي اليابسة أمكنت رؤية
« بدرى رنج » حيث أقيمت منارة حديثة . وبدت إلى مسافة أقرب « رينبرو ،
الواقعة بمرج « إجدون هيث » حيث تقوم منارة أخرى . وبدت « بابر » من
مسافة أبعد إلى اليسار حيث توجد كذلك منارة ثالثة . وعلى شوط غير
بعيد منها ظهرت « تلتكمب توث » ، وإلى الغرب « دجبرى هيل » ، وظهرت
« بلاك أون » بالقرب من صدر المنظر حيث بنيت المنارة القائمة عليها من خشب
شجر الشوك ، وصنع سقفها من القش . وقد قامت في نفس المكان الذى يرفع فيه
ذلك النصب رأسه الآن .

وسار الجنود في الساعة التاسعة إلى أرض العرض وقد جاء بعضهم من
المعسكرات المجاورة ، وبعضهم من التكنات القائمة في البلدان المحيطة بذلك المكان .
وسدت مداخل الهضبة عربات من جميع الألوان والاعمار والأوصاف ، وجوع

(١) سان ألبان هيد (تعليق الأسل) .

من الراجلين المنتسبين إلى كل طبقة . وقيل في الساعة العاشرة إن أعضاء الأسرة المالكة يقربون . وظهر الملك بعد ذلك بقليل ، يرافقه دوق كبريدج ، ودوق كبرلاند ، وجزالان ، وكان يمتطي صهوة جواد ، ويضع على رأسه قبعة مستديرة ، قلب طرف أحد جانبيها إلى أعلى ، وزينت بشارة ، وبريشة عسكرية . (حراسة بين الجماهير) ثم دخلت الملكة وثلاث أميرات ميدان العرض في عربة كبيرة مكشوفة تجرها ستة جياد جميلة لبنية اللون . وتبعها عربة أخرى ماثلة تجرها أربعة جياد . وكانت تقل الأميرتين الباقيتين . (صيحات مختلطة من النظارة المحيطين بالمسكان) : « ها هو ذا الملك جارج (١) ! ، ها هي ذى الملكة شارليت ! ، « الأميرة ليزابت ! ، « الأميرتان صوفيار وميلير ! ، إلخ .

وكان حظ آن وجماعتها حسناً إلى حد هيا لهم مكاناً في قبة إحدى الروابي القائمة هنا وهناك في الهضبة . وقد أنشأ صاحب الطاحون ، مدفوعاً بالشهامة ، مقعداً صغيراً من حجر الصوان هرمي الشكل ، وأجلس المرأتين عليه فتمكنتا بهذه الوسيلة من أن تريا من فوق الرؤوس مابداً تحتهما وحوطهما من خيول الجوع ومركباتهم المكشوفة . وعندما مر الجنود في العرض العسكري استكشفت عيني صاحب الطاحون التي كانت تهيم حول العرض باحثة عن غاية ما . . . استكشفت إليه يجتلم مكانه بيني ناغفي البوق الذين كانوا يسرون قدماً في صفين ، ويعزفون نغما يسير الجنود على وقعه .

وصاح قائلاً للأرملة :

— ها هو ذا جون ! . . . إن بوقه من لونين ، أترين ؟ . . . بينا أبواق

الآخرين لا لون لها .

والآن رآته السيدة جارلاند أيضاً . وأعجبت ، متحمسة ، رافعة يديها إلى أعلى ، وحدت آن حذوها في صمت . ولكن عيني الفتاة وقعتا على قائمة فارس فرقة المتطوعين فستوس ، قبل أن تتحولاً نهائياً عن ناغخ التنفير الأول ، وكان يسير مع فرقته ، ويحفظ بوجهه وسطاً بين التعالي والفروسية . ولا شك أنه كان يبدو عسكرياً كأي من أفراد وحدته ، ولكنه كان يشعر بأن عسكريته تبلغ

(١) كت الكلمة هكذا في الأصل كما ينطق بها في اللغة الدارجة .

في جبروتها عسكرية ستة فرسان ، ولم يكن أحد من مشاهديه يعجز عن رؤية ذلك . واستترت آن وراء صاحب الطاحون خشية أن يتبينها فستوس ، وأن يتهم عليها في فورة غضبه دون ما نظر إلى وجود مليكة ويقول : « لماذا بحق الشيطان هربت في تلك الليلة ؟ ... هيه ، يا سيدتى ؟ ، ولكننا عقدت العزم على أن تمتنع عن التفكير فيه هذه اللحظة ، وتظل وثيقة الصلة بلفدى الذى هو صديق أمها . وقد ساعدتها على ذلك الانعام المثيرة المنبثقة من بوق هذا الجندى ، ومن أبواق مرؤوسيه في نفس الوقت .

وقال صاحب الطاحون مفرح الصدر :

— لا يوجد في فرقة الجيش من يفوق نافع النفير أهمية لإقالة من الرجال ، ومع ذلك فهو القى الذى يقول للكافة ماذا يفعلون . أليس كذلك يا سيدة جارلاندا ؟ .
وقالت السيدة :

— إنه كذلك - صاحب الطاحون .

— لأنهم يعجزون عن التصرف دون جاك ورجاله كما يعجزون دون وجود الجنرالات .

وقالت السيدة جارلاندا في نعمة تم على اتفاقها اللطيف على ذلك مع كل فرد في بريطانيا العظمى وإرلندا .

وقد قيل إن طول صف العرض في ذلك اليوم بلغ ميلين أو ثلاثة أميال وكان يمتد من الأرض القائمة عن يمين المكان الذى يقف فيه الناس إلى طريق بوابة المكوس الواقع عن يساره .

وبعد انتهاء العرض اشتبك الجنود في معركة وهمية شاهدها المتفرجون خلال وقوعها في دائرة أوسع فوق الهضبة عما أمكن الأرملة جارلاندا من أن تفوز بلبحات أوضح من الملك ، ومن جواده الوسيم ، ومن رأس الملكة ، وأكتاف الأميرات ومرافقهن وهن في عرباتهن ، وأجزاء بسيطة من جسم الجنرال جارت ودوق كبرلند . وهذه اللحات بعثت في نفسها ابتهاجاً كبيراً . وكانت تجذب إليها في كل مناسبة وتصيح : « تستطيعين الآن أن ترى ريشة قبعتي ، هاهي ذى قبعتي ، هاهو ذا شال صاحبة الجلالة الحريرى الهندى ، وكان افتتاحها

وهي تصيح صياني الشكل مما جعل صاحب الطاحون يظنها أكثر شبها وانفعالا من ابنتها آن .

كان صاحب الطاحون في هذه المناورات العسكرية يتتبع مصير رجل واحد ، وأن جارلاند تتبع مصير رجلين . أما باقي النظارة المختلفين عن جماعتنا ، غير المهتمين اهتماما خاصاً بجندى من الجنود ، فلم يروا غير عسكر وكتائب معينة ، وخطوط صفر مستقيمة ، وخطوط زرق مثلها ، وخطوط بيض مكونة من سراويل الركوب الكثيرة العدد ، وخطوط سود مكونة من أكسيد السيقان العديدة كذلك . وكانت هذه الخطوط تروح وتجيء متغيرة كشاهد النظارة الملونة . . . من ذا الذى يفكر في كل نقطة سوداء من هذه الصفوف على أنها رجل منعزل ، وكل رجل يهتم بنفسه وحدها داخل صومعة عقله ؟ هناك شخص واحد رأى ذلك... هو فتى في ريعان الشباب يعد كثيرا عن الرابضة التي تقف عليها السيدة جارلاند وابتها وميلر لعدى . وكان تعبير وجهه الطبيعي مشوبا بعض الشيء بالأثر البرزى للجو الخشن ، ولكن خطوطه فه دلت على أن الخلدات العاطفية قوية فيه . . . ولعلها أقوى مما يستطيع التحكم فيها وضبطها كل الضبط . وكان يرتدى سترة زرقاء ذات أزرار صفر صغيرة ، وبدا واضحاً أنه جواب بحار .

وفي هذه الأثناء أخذ رجل أعمال عريض المنكبين ، ممتلىء الجسم ، يقطع طريقه قدما ، مجدفا يديه ، في جانب المسطح الذى تقوم عليه تلك الكومة التى شيدها صاحب الطاحون نفسه . ورأى التاجر السيد لعدى من أسفل الرابية ، وأشار ليافت الانتباه . ونزل إليه لعدى قاطعا نصف المسافة بينهما . وصعد الآخر مقرباً على قدر ما يستطيع . . . قال الرجل :

- يوجد ياميلر خطاب باسمك راقد في مكتب البريد منذ ثلاثة أيام ، ولو علمت أنى سأراك هنا لجئت لك به معى .

وشكره صاحب الطاحون على إفضائه إليه بالنبا ، وافترقا ، وعاد لعدى إلى قبة الرابية . وقال للسيدة جارلاند التى نظرت متسائلة إلى وجهه وقد بدا عليه الآن الجهد الشديد .

- ياله من أمر غريب ! فهذا هو رئيس مكتب البريد فى بدماوث ، وقد

قال لي إن هناك خطاباً باسمي . آه ؛ لقد ذكرت الآن أنه كان هناك خطاب وقع تحت نظري منذ ثلاثة أيام ؛ في تلك الليلة بالذات .. كان كبير الحجم ، أحمر اللون ، ولكنني لم أفكر فيه لحظي . ومن يمكن أن يكون مرسله ياترى ؟

وكان ورود خطاب في هذا العهد يعد حدثاً كبيراً لدى القرويين ، ولدى حتى ميلر ذي المسكاة المحترمة ، إلى حد أن لقدى انتابته آنذاك نوبة من شرود الذهن حالت دون مشاهدته لما استجد من المعركة الوهمية ، أو لجوع النلس ، أو للملك . وبددت السيدة جارلاند شيئاً من مشغولية باله إذ أشارت إلى أن الخطاب قد يكون وارداً من ابنه روبرت .

وقال ميلر لقدى :

— من الطبيعي أنه كان لا بد أن أظن ذلك ، ولكنه كتب إلى منذ شهرين فقط . وجاءت إلى جون أنباء عنه في بحر الأسابيع الأربعة الأخيرة وقتها كان يوشك أن يبدأ رحلة أخرى . . . وإذا أذنت لي يا سيدة جارلاند .. يا سيدتي ، فسأرى هل يذهب أحد إلى بدماوث اليوم ، وذلك لاستطيع تسلم الخطاب هذا المساء ، فأنا لا يمكنني الذهاب بنفسى .

وهكذا فارق السيد لقدى الأم وابنتها فترة من الزمن . ولما كان منزلها قريباً جداً فإن السيدة جارلاند لم تبق فوق الربوة انتظاراً لعودته ، ولكنها سارت مع آن وقتاً قصيراً إلى أن تهيأ لهما أن تخطوا منحدرتين من جانب الهضبة إلى باب دارهما نفسه . وأنصتنا إلى رجل كان يراهن بجنيه يعطيه نظير عشرة جنيهات يأخذها في حالة ما إذا قتل بونابرت في خلال ثلاثة أشهر . وكذلك أنصتنا إلى مسامرات أخرى من هذا القبيل ، وهي لم تكن نادرة في ذلك الوقت . وبينما كنا تتجولان وقعت عيننا الملاح المنوه عنه مرة على آن ، وانحرف بصره عنها وتجاوزها دون اكترات .

وكان لقدى الكبير خلال هذا الوقت يبحث في الطرف الآخر من الصف عن رسول يبعث به إلى البلدة ، وانتهى العرض في الساعة الثانية عشرة ، وغادر الملك وأفراد أسرته التل، وانجلي الجند عن الميدان يقبعم النظر ، وفي الساعة الواحدة عادت المروج مقفرة كما كانت .

هذه المروج لا تزال إلى اليوم تمد حشائش سطحها إلى الشمس كما فعلت ذلك خلال اليوم الجليل المذكور الذي لا يعد بعيدا جدا، فيما إذا تحدثنا تاريخياً . ولكن الملك ورجاله المسلحين الذين يبلغون خمسة عشر ألف جندي ، والجياد ، والفرق الموسيقية ، والأميرات ، والفرق ذات اللون اللبني... ونختصر فنقول كيف مضى واتقصى كل ما حوى مركز البقعة الضخم الذي لم تكن تلك المروج بالنسبة له إلا مجرد حاجز أو هامش، ؟ إنهم يرقدون مبعثين في أرجاء العالم بعثرة عجاج الحروب وغيره من الأثرية ، فبعضهم في طلييرة (١) ، وبعضهم في ألبيورا (٢) وفي شلنقة (٣) وفي تيوريا (٤) وطولوز (٥) ووترلو . ويرقد بعضهم في مقابر بلادهم ، وقلة قليلة منهم في الأقبية المملكية .

وفي عصر ذلك اليوم ظهر لعدى ، بعد أن تخلص من نغيره وزينته ، عند باب الدار القديمة للطاحون ، ورأى آن واقفة عند بابها .

وقال الجندي فرحا :

— لقد رأيتك يا آنسة جارلاندا .

وقالت مبتسمة :

— أين كنت واقفاً ؟

— فوق قمة الربوة الكبيرة . . . إلى يمين الملك .

وأردفت قائلة :

— وأنا رأيتك مرات عديدة .

وبدا أن ذلك سر لعدى :

— هل بذلت جهدك حقاً للعشور على ؟ كان هذا طيبا جدا منك .

وقالت السيدة جارلاندا مظة من نافذة علوية :

(١) موقعة تاريخها ٢٨ من يوليو سنة ١٨٠٩ (تعليق الأصل) .

(٢) تاريخها ١٦ من مايو سنة ١٨١١ (تعليق الأصل) .

(٣) تاريخها ٢٢ من يوليو سنة ١٨١٢ . (٤) تاريخها ٢١ يونيو سنة ١٨١٣ .

(٥) ١٠ من أبريل سنة ١٨١٤ . وهذه المواقع الحربية كلها من مواقع شبه الجزيرة .

(تعليق الأصل)

— كانت عيناها تتبعانك أينما ذهبت .

وقالت آن مرتبكة :

— كنت أظن دون شك إلى جنود الدراغون أكثر مما كنت أظنر إلى غيرهم .
وعندما تتبعتهم بنظري وقعت عيناى بالطبع على جنود البروجى . وقد اتجه
بصرى إلى جنود الدراغون على العموم ، وليس ثمة شيء أكثر من ذلك .

وهى لم تقصد أن تظهر لجاويش البروجى أى حنى ، ولكنه تصور عكس
قصدها ، ووقف مهموما . ولكن الموقف تفرج بمجىء صاحب الطاحون الذى
كان لا يزال يبدو جادا .

— أنا لم أزل مشغول البال جدا يا جون ، وذهاينى إلى العرض لم يتمخض
عن لا شيء ، فهناك خطاب ينتظرنى فى بدماوث ولا بد من حصولى عليه قبل
أوان نوسى ، وإلا فلن يغمض لى جفن غمضة واحدة .

وقال جون :

— سأذهب أنا بالطبع ، ولعل الآنسة جارلانند تود أن ترى ما يحدث هناك
اليوم ؟ لقد توجه الجميع ، أوهم بسيلهم إلى التوجه لهنالك . إن الطريق مثل المهرجان .
كان يتحدث متوسلا ، ولكنه لم يفز برضا آن .

وقال صاحب الطاحون :

— تستطيعون الذهاب بالعربة ذات العجلتين . فهذا يفيد بلبوسوم .
وأجاب جاويش البروجى غير راغب فى إكراه آن على ما لا تريد :

— دع ديفيد يذهب بأن فى العربة ، فأنا سأذهب سائرا على قدمى ، وسيان
عند الحالآن .

ورحبت آن بهذه التسوية معتبلة ، وتحدد وقت لبدء الرحيل .

الحديث

وسط الجماهير

(١٣)

ورحلوا بعد الظهر بينما لم يظهر لجون لفدى أى أثر فى أى مكان . وكانوا على طول الطريق يسبقون ، وتلحق بهم عربات من كل صنف تجرى فى نفس الاتجاه . ومن بينها تلك الآلة الضخمة التى ابتدعوها لتقل الجنود إلى أية بقعة ينزل فيها الاعداء على الشاطئ . وتتكون هذه الآلات من أربعة ألواح خشبية ممدودة على نوع من « التزوللى » ، وتقل كل منها ثلاثين رجلا من جماعات المتطوعين .

وكان « المنزّه الجورجى » على شاطئ البحر فى غمرة الفرح . فقد ازدحمت البلدة ازدحاماً كبيراً بمن وفدوا إليها من بلاد الريف المحيطة بها . وكان فى ذلك ابتهاج للبلدة وريح كبيران . وبلغ الخوف من الغزو حداً رابطت فى الطرق البحرية بسببه ست سفن حربية لضمان سلامة الأسرة المالكة . وفى كل يوم كان يجمه بفيلق قوامه ألف رجل من الجنود الفرسان والمشاة المنتميين إلى الفرق القيمة فى الشكنات أو المعسكرات المنتشرة فى التلال المجاورة . ويرابط هذا الفيلق للحراسة أمام قصر جلوسستر لودج حيث ينزل الملك . . وكانت الساعة قد بلغت السادسة عندما وصلت آن ومرافقها إلى ذلك المكان ، وقد جاء إليه مشياً على الأقدام بعد وضع الحصان فى اسطبل بضاحية المدينة ، وكان الملك وقتئذ فى « الميدان » ، والجنود يسرون تلك اللحظة فى طوابير لتولى الحراسة . واصطفت جماعتهم أمام الملك ، وحياه الضباط وهم يمرون أمامه .

ووجدت آن نفسها وقتئذ تلتصق بالأحداث وتنظر فى أعماق نهر التاريخ المسجل ، حيث تبدو صغائر الأمور بين شاطئيه كباراً ، وترضى هى والجنود الجامعة من الجنس البشرى الموجود خارج شاطئيه ، بأن يعيشوا كنافلة لا يلتفت إليها ، ولا تدخل فى حساب .

وعند عودتها من فرجة ذلك المنظر الهام وجدت جون لفدى يقف هناك .

وكانت تتوقع منه أن يحضر بهذه الطريقة الغامضة ، فن العجب العجائب أن يتمكن من الحضور بمثل هذه السرعة . ولكن ها هو ذا واقف . . لا ينظر إلى الملك ، أو إلى الجماهير ، ولكنه ينتظر لفترة من رأسها .

وقالت آن متظاهرة بالوقار :

— أنا لم أرك يا جاويش البروجي ، كيف لانسير كتيبتك أمام الملك ؟

وقال لعدى :

— نحن نقوم بذلك مناوبة ، ونوبتنا ليست اليوم .

وكانت تريد وتقتذ أن تعرف هل كانوا يخشون أن يختطف القنصل الأول (١) الملك . وأجاب لعدى بالإيجاب وقال إن جلالتة أميل إلى المغامرة . ففند يوم أو يومين أبحر بعيداً إلى حد أن إحدى طرادات العدو كادت تأسره ... ثم قال :

— إنه يتوق إلى منازلة بوني يدأ بيد .

وقالت آن :

— ياله من ملك طيب شجاع !

وبدا أن لعدى كان يتوق للانتقال إلى مسائل أخص ، وسألها :

— هل تدعيني أذهب بك إلى الجانب الآخر حيث تكونين أكثر تمكناً من الرقية ؟ إن الملكة والأميرات يطلن من النافذة الآن .

ووافقت آن موافقة جامدة ، وقالت :

— انتظرنى هنا يا ديفيد ، فسأعود ثانية بعد دقائق معدودة .

وسار بها جاويش البروجي جيئذ منتصراً ، ومررا بجانب الجموع ، ودارا حتى وصلا إلى الجانب القائم تجاه الرمل . وطقق يحدها عن كل ما أمكنه أن يفكر فيه من الناحيتين العسكرية والمدنية . وحدثته آن ، مقابل ذلك ، بمقاطع جميلة ، وكلمات اعتراضية . . . حدثته عن لون البحر ، والتفاف الزبد . . . طريقة في الحديث حركت قلب الجندي بمقدار يزيد حتى على ما قد تحدثه الخطب الطويلة المباشرة .

(١) عين بوناربت قنصلاً أول في ١١ من نوفمبر سنة ١٧٩٧ ، وأصبح دكتاتور فرنسا في واقع الأمر . وقد توج لبراطوراً باسم نابليون الأول في سنة ١٨٠٥ (تليق الأصل) .

وتجراً في النهاية وقال :

— وماذا عن المسألة الأخرى التي حدثتك فيها ؟

— لننتع عن الحديث في هذا .

— هل أنت لا تملين إلى ؟

وقالت وهي تنظر إلى معدات الاستحمام ، وآلات الحفر التي يلعب بها الأطفال ، وغير ذلك من الأشياء العامة المتعلقة بشاطئ البحر ، وكأن اهتمامها كان منصرفاً إليها أكثر من انصرافه إلى لفدى .

— أوو ، لا .

— ولكن هل أنا غير أهل لابنة رجل مهذب ذى حرفة ... هل هذا ما تقصدين ؟

وقالت وهي لا تزال منصرفة بذهنها إلى المناظر المحيطة بها دون أن تهتم به !

— هناك شيء فوق الاعتبار الشخصي تتطلبه مثل تلك المسائل كما تعلم ...

آه ، ها هي ذالملكة والأميرات في النافذة !

— شيء فوق الاعتبار الشخصي ؟

— حسناً . مادمت تشبكت بحملى الكلام ، فقصدى أن المرأة ينبغي أن تحب

الرجل الذي تختار .

وبدا أن اهتمام جاويش البروجى بهذا كان أقل من اهتمامه بتفوقها المرعوم . وسألها كما يسأل الرجل الذي يعرف أنه ملحاح ويعجز مع ذلك عن كسح جماحه :

— إذا كان الأمر مؤانيساً من هذه الناحية فهل كنت تهتمين بالناحية الأخرى ؟

— كيف أبدى رأياً بيننا أنا لا أعلم ؟ ... ما أبدع القبة الصغيرة التي ترتديها

الأميرة الأكبر سناً !

وامتد يأس مرافقها الشامل فغمره حتى كاد يمس شريطه وريشته :

— قالت أمك ، كما تملين يا آنسة آن ...

وقالت الفتاة :

— نعم ، هذا أسوأ ما في الأمر ... لنعد إلى ديفيد ، لقد رأيت كل ما أردت

أن أراه يا سيد لفدى .

ولاحظت جموع الناس وقتئذ كلا من الملكة والأميرات يطلن من النافذة ،

وأطلقوا هتافاً ردت عليه السيدات بمناديلهن المطرزة . وارتدت آن راجعة إلى

الطريق المرصوف مع الجاويش البروجي الذي حسدتها عليه الفتيات لأنه كان جنديا حسن المظهر جداً . ولم يقف الأمر عند هذا ، وإنما كان معلوما كذلك أنه لم يمتحق بالجندي بدافع الحاجة إلى الرزق ، ولكن بدافع الوطنية ، فقد عرض عليه أبوه مرارا أن يقيمه على عمل ... وأعجب الجميع بنوقه الجميل لإيناره صهوة الجواد والبزة العسكرية على طاخون دقيق قدرة شديدة الجليلة ... وكانت هي أيضاً حسنة المظهر جداً وهي تسير قدما في أبداع ثيابها ... القبعة الحريرية ، والشال من الخبز ، والقفاز المشدود على المعصمين وهو آخر طراز للقفازات في أفركب ، وكان في العام الماضي آخر طراز في البلدة المجاورة ، وكان كذلك في لندن منذ ثلاث سنوات أو أربع . وهي لم تستطع أن تعامل لفتى بخشونة ، وتصرفه بغلظة ، فإن اشتغاله بالموسيقى هذب حاشيته ، وعله ، وجعله شديد الشاعرية . وكان اليوم على الأخص حسن التهذيب رقيقاً ، ولذلك قالت له : لنعد إلى ديفيد ، بدلا من أن تقول : لا تخاطبني على هذا النحو مرة أخرى .

وكان ديفيد قد انصرف عندما وصلا إلى المكان الذي تركاه فيه . واغتاطظ أن عندئذ غيظاً شديداً ، وقالت :

— ماذا سأفعل ؟

وقال لفتى الذي كان قد منح ديفيد مالا في الخفاء لتمثيل هذه الفعلة :

— لأنه لم يذهب إلا لشرب كأس في نخب الملك ، وسيعود حالا ... اعتمدى على قولى هذا .

وقالت وقد أغمى الاحتشام نظراتها ونبرات صوتها :

— أسمح أن تذهب وتجده ؟

فقال لفتى في تبرم .

— سأفعل .

وانصرف . ووقفت آن ساكنة . وهي تستطيع أن تهرب الآن من صديقها الشهم ، فبرغم أن المسافة إلى دارها طويلة فقطعها مشيا على الأقدام ليس بمستحيل . ولكن لفتى — من ناحية أخرى — رفيق مخلص طيب تشعر له بما يكاد يكون شعوراً أخوياً . وقد انقبضت من فكرة مثل هذه الحيلة . ووقع بصرها على الأرض بينما كانت واقفة تتأمل ولا تولى اهتماما كبيراً بالموسيقى ، وبالجنود أثناء مديتهم

العسكرية ، وبالمك والدوقات والحاشية المتألقة ، والمرافقين ، وجماعات الجمهور السعيدة .

رأت زهرة ملقاة أمامها ... كانت قرنفة قرمزية بانعة لم يمسهها سوء . ودفعها رغبة غريزية في إنقاذها من التلف الذي قد تلحقه بها أقدام المارة ، ومالت فالتقطتها . ثم دارت يبصرها فيما حولها مدفوعة بوعى مفاجيء . وكانت تقف إلى جوار نزل ظهر فستوس دريمان مطلا من إحدى نوافذه العلوية هو واثنان أو ثلاثة من أقربائه قدوا على غراره ، وجاءوا على شاكلة ... وأوماً مثلها ، ودنا على أنه هو الذي ألقى الزهرة .

ماذا ينبغي أن تصنع ؟ إن لقاءها سيبدو مخيفاً ، واستبقاها سيبدو فعلة خرقاء . وأمسكت بها بين إصبعها وإبهامها وأدارتها حول نفسها ، ثم عادت وأدارتها إلى الخلف ، ناظرة إليها دون تمحيص . وفي هذه اللحظة رأت الرقيب البروجي يقبل عائداً إليها ... وقال دون أن يشعر قلبه بأسف على ما قال :

— لم أتمكن من العثور على ديفيد في أى مكان .

وكانت آن لازال تمسك بالقرنفة وكأنها توشك أن تسقطها . وبينما لم تدرک ماتصنع إلا قليلا ، نظراً لشعورها المشجن بأن عيوننا ترقبها ، أعطت لعدى الزهرة . وأشرق وجهه غبطة وهو يتناولها وقال :

— أشكرك شكراً جزيلاً .

وأدرکت آن وقتئذ أى خطأ مضلل ارتكبهت في حق لعدى وهى تلهو بفارس المتطوعين . ولعلها بذرت بذور عراك بينهما . وأسرت فقالت :

— إنها ليست قرنتلى . كانت ملقاة على الأرض ، وليس لى قصد فى إعطائك إياها .

وقال الجندى البريء وكأنه يعلم الكثير عن جنس النساء :

— ولكنى سأحتفظ بها على أية حال .

ووضع الزهرة بعناية داخل سترته بين صدره الأبيض وقلبه .

ولإذ رأى فستوس ذلك انتفش في غيظ ، واتقد وجهه ، وهب واقفاً على قدميه ،

وحقق فيهما وهو أشبه بمصباح فى لون اللفت .

وقالت آن فرعة :

— لثمض .

وقال لعدى :

— سأرافك حتى تصلى سالمة إلى باب دارك . اعتمدى علىّ ... ولكن ...
لقد كدت أنسى ... فهناك خطاب أبى الذى ينتظره فى لطفة شديدة ! هل تسمحين
بالذهاب معى إلى مكتب البريد ، ومن ثم أذهب بك إلى دارك رأساً .
وفرحت آن بالذهاب إلى أى مكان إذ كانت تتوقع أن يتقض فستوس منحدرًا
إليهما فى أية لحظة . وقيلت ذلك الاقتراح ، وساراً معاً لإزاء ساحة استعراض
الجيش .

واتخذ لعدى ما حدث دليلاً على إذعان آن . وبذلك دخل مكتب البريد
بروح مرحة ، ودفع الأجر المطلوب ، وتسلم الخطاب وقال :
— إنه من بوب ، مع ذلك . وقد سمح أبى أن أقرأه على الفور توقفاً لاشتياؤه
على أبناء سيئته ، فغفوا إذا ما أخرتكم دقيقة .
وفض الغلاف ، وقرأ الخطاب بينما آن واقفة إلى جانبه فى صمت . وقال
رقيب البروجى دون أن يرفع بصره :

— سيحضر لى بلده « ليتزوج » .

ولم تجب آن . وغمر الدم وجهها فى اندفاع لى سماع كلماته . ثم ارتد تاركًا
وجهها أميل إلى الشحوب مما كان قبلاً . وأخذت تدارى اضطرابها ، ثم تغلبت
عليه دون أن يلحظ لعدى شيئاً من ذلك المشهد العاطفى ... وقال :

— سيكون هنا يوم السبت ، على قدر على .

وقالت آن فى هدوء تام :

— حقاً .. ومن الفتاة التى سيتزوجها ؟

وقال جون وهو يقلب الخطاب :

— هى غريبة عن بلدنا .

وفى هذه اللحظة دخل صاحب الطاحون مكتب البريد مسرعاً وصاح :

— هيا يا جون ... لى انتظرت ذلك الخطاب ... وانتظرته ... إلى أن

كدت أقعد صواى .

وذكر له جون النبا في اختصار . وبعدهما أفاق الأب من دهشته ، وخلق
قبعته ، وجفف الخط الذي تلتقى عنده حافة جبهته وشعره على وجه التحديد ،
سار مع آن إلى الشارع تاركا جون ليعود وحده . وكان صاحب الطاحون
شديد الاستغراق في تصوره العقلي لزواج بوب إلى حد أنه لم ير شيئاً من الملاهي
التي مر بينها . ويظهر أن آن كذلك تأثرت بنفس النبا تأثراً شديداً إلى حد أنها
مرت بالنزل الذي يقيم فيه فستوس دون أن يسدو عليها أنها تذكرت
وجوده هناك ؟

في ساعة متأخرة

من مساء نفس اليوم

(١٤)

كانت الشمس تميل إلى الغروب عندما وصلا إلى البيت . وقد ذاع قبل وصولهما أن ميلر لعدى تلقى خطاباً وعندما التقطت الأذان الصوت الدال على أن عرشه ذات العجلتين آتية من الدرب انحدر قطان أفركب صوب الطاحون على أثر دخوله بيته ... ولع من النافذة وميض مفاجيء دل على أن صاحب الطاحون أضاء في وقت مبكر مثل ذلك النور الذي ما من شيء يمكن أن يحتاج إليه غير الخط المكتوب على التو . كانت الخطابات وقائع ذات أهمية عامة . ولم يكن في الأبرشية فرد لا يهتم بقراءة هذه المستندات النادرة . حتى أن صاحب الطاحون عندما وضع الشمعة ، ومال بجسمه ، ونادى السيدة جارلاندا لأخذ رأيها في معنى أية عبارة هيروغليفية قد تعترض قراءته للخطاب ... وجد أنه سيعان إعانة إضافية بأراء جيرانه الآخرين الذين ظهرت شخوصهم في مدخل الباب ، وقد حجب كل منهم جانب من الباقي كما تحجب رزمة من ورق اللعب بعضها عن بعضاً ، ومع ذلك كان كل منهم يبدى من نفسه جانباً كبيراً يكفي للدلالة عليه . واختار صاحب الطاحون طريقته المتبعة في ملء فترات الفراغ العرضية ليتيح للقوم أن يرتبوا أنفسهم ، وطريقته هذه هي تقريظ ذبالة الشمعة ... وقالوا له :

— سمعنا أنك تلقيت خطاباً يا سيد لعدى .

وقال لعدى :

— نعم : سوئمبتون في ١٢ من أغسطس ... أبي العزيز ... ،

وصمت الجميع كما يصمت أقرباء الميت عند قراءة الوصية . ودخلت آن مع أمها وجلست . وقد كان للخطاب جاذبية خاصة بالنسبة لها .

وذكر بوب على طريقته الخاصة ، أنه منذ نزوله إلى البر ، أدخل في حسابانه طلب أبيه إليه أن يبنذ حياة البحر ، ويصبح شريكاً له في الطاحون . وقد قرر

الموافقة على هذا الاقتراح . وهو سيعود إلى أفركب ، وقد وضع هذا الهدف نصب عينيه - خلال ثلاثة أيام من تاريخ كتابة هذا الخطاب .

ثم قال عرضاً إنه نزل منذ ارتحاله في مسكن بمدينة سوئبسن ، وتعرف في هذه الأثناء بفتاة جميلة فاضلة وجد فيها صفات تنطبق تماماً على الصفات الضرورية لسعادته . وإذ طالعت معرفته لهذه السيدة مدة أسبوعين كاملين فقد أتاحت له الفرص الكثيرة لدراسة خلقها . وقد صك ذاكرته خاطر هو أنه إذا كان هناك شيء ضروري أكثر من غيره لطاحون ليس له سيدة ، فيوجد شخص يستطيع القيام بهذا الدور في كياسة ووقار ، وطلب إلى الأنسة ماتيلدا جونسن أن تقبل زواجه بها ، ورضيت هي بذلك ، تلتفها منها ، برغم تضحياتها بعروض مأمولة تفضل عرضه بكثير... وهو لا يستطيع إلا أن يعد من حسن طالعه السعيد أن يجد في آخر لحظة مثل هذه السيدة لتزين منزله ، وهي ذات البراءة التي لا تقبل إدهاشاً عما تتحلى به من جمال . وقد اتفق كلاهما ، دون عناء ، على أن يتزوجا في الحال ، وأن يتم زواجهما في أفركب حتى لا يحرم والده حضور حفل الزفاف . وقد تطلعت فقبلت أن تلحق به عن طريق السفر برآ في خلال بضعة أيام ، وأن تقيم في بيتهم مدة أسبوع أو أشبهه قبل الزواج بحسبانها ضيفة .

وقالت السيدة كفرت من خلف الصفوف :

- هذا خطاب طيب لائق ، وإن أذني لم تسمعاً طوال حياتي برسالة حب صادقة كتبت على نحو أفضل من هذا . ويبدو أن كلا منهما شديد التعاق بالآخر .

وقال جوب ميتشل في استجابة :

- إنه لم يعرفها مدة كافية .

وقالت إستر بيتش :

- إن هذا لا قيمة له ، فالطبيعة ستعرف طريقها في سرعة عندما يحين الأوان . حسناً ، إنها أبناء طيبة بالنسبة لك يا صاحب الطاحون .

وقال لعدى دون أن يظهر مع ذلك أية عجلة للدفاع في ذلك النوع المتحمس من الفرح الأبوي الذي كان من الطبيعي أن يحدثه هذا النبأ ، وقد بدأ أميل إلى التجاوز عن عواطفه بامتحان كل جزء من ألياف ورق الرسالة .

— نعم ، بالتأكيد . أرجو أن تكون كذلك .

ولم يلبث أن لاحظ قائلا :

— إنى قضيت خمس سنوات في التردد على زوجتي قبل زواجها ، ولكن الناس كانوا في عهدنا أبطأ في الإقدام على أى شيء . حسنا ، فلا بد من الترحيب بها مادامت ستحضر . هل انتبه أحدكم إلى تاريخ اليوم الذى قصده ؟ إن عقلي كان يبعد عن المعنى هنا وهناك وأنا أحاول فهم ما هو مكتوب .

وقالت السيدة جارلاندا :

— لقد قال : بعد ثلاثة أيام ، وتاريخ رسالته يحدد يوم مجيئه .

واتضح من امتحان الرسالة أن اليوم المحدد لمجيئه هو اليوم الذى أوشك أن ينقضى الآن ، وعلى أثر ذلك قفز صاحب الطاحون إلى أعلى وقال :

— سيكون هنا إذن قبل ميعاد رقادنا ، وأنا لم أدرك حتى الآن أنه سيحضر قبل يوم السبت . . . كيف ! إنه قد يهبط علينا في هذه الدقيقة !

ولم يكذب يتم قوله حتى تردد صوت وقع أقدام تقبل من أمام ، وتقف على الترو عند الباب . ودفع لعدى جيرانه مارا بينهم ، وانطلق خارج الغرفة ، وإذ رأى في الممرقاة وارت الضوء المتقلص ، أمسك بها قائلا : « أوو ، يا عزيزى بوب ، لقد عدت إذن ! » .

وقال القادم الجديد وهو يحاول تخليص نفسه من ضمة لعدى العاطفية :

— ويل لك يا صاحب الطاحون ، لا تخلع كتنى المسكينة من مكانها ... مهما يكن الأمر الذى يدفعك إلى ذلك .

وكان القادم هو العم بنجى .

وتلجج صاحب الطاحون ، متهاويا إلى الخلف على أصابع أقدام جيرانه الذين تبعوه إلى مدخل الغرفة عن كتب .

— ظننتك ابني ! حسنا ، ادخل ياسيد دريمان ، واسترح كالو كنت في بيتك .
ما هذا ، ! لأنك لم تحضر إلى هنا منذ سنين ! فأى شيء حملك على المجيء في هذا الزمن من أزمان الوجود ؟

وممس المزارع مسترياً :

— أهو في الداخل معكم ؟

— من !

— ابن أخى ... ساعيا خلف تلك الغادة التي طعمته الطعنة النجلاء ؟

— أوو ، لا . إنه لا يطرق هذا المسكان أبدا .

وتنفس المزارع دريمان الصعداء ، وقال :

— حسنا ، لقد زرتك لآخبرك أن هناك أبناء أخرى عن الفرنسيين ، فإتنا

سنلقاهم هنا هذا الشهر ماني ذلك أدنى ريب . فالسفن المزودة بالمدافع مستعدة ،

ويوجد منها زهاء ألفين ، والجيش الفرنسي بأسره محتشد في بولوني . ثم إني أعلم

ياصاحب الطاحون أنك رجل شريف .

ولم ينف صاحب الطاحون قوله هذا .

وكرر مالك الأرض المسن ، المتوسط الحال :

— أيها الجمار لعدى ، أنا أعرفك رجلا شريفا . أستطيع أن أحادثك

على انفراد !

وأخذه لعدى إلى الحديقة نظرا إلى أن البيت كان مكتظا بالناس . وظل

طوال الوقت كأنه مشدود بخطاف . لآخوفا من أن يظهر بونبارت بينهما فجأة ...

أبدا ، ولكن خشية أن يحضر بوب دون أن يكون هناك في استقباله . وقال له

العم بنجى لعدى ووصلها إلى ركن من الحديقة .

— يا صاحب الطاحون أؤكد لك أن حياتي منذ الصباح حتى المساء ليست

إلا أرجوحة بين ما أكابده من الفرنسيين ، وما أكابده من ابن أخى فستوس ...

إنك رجل شريف يا ميلر لعدى .

وأوما لعدى :

— حسنا ، لقد جئت أطلب منك معروفاً ، جئت أسألك هل تقبل المحافظة

على حجج تمليكى ومستنداتى وما إلى ذلك أثناء غيابي عن منزلى في الأسبوع

القادم خوفاً من أن يحدث لى أمر فيسرقها بونى أو فستوس ، ولا يعود لى شيء

بعد ذلك في الدنيا العريضة . وأنا في مثل هذه الأوقات الرهيبية لا أستطيع أن آتمن

البنوك أو المحامين ... وقد جئت إليك .

ووافق لعدى ، بعد تردد ، على أن يحافظ له على أى شيء يأق له به .
وأجاب المزارع على ذلك بأنه سيأتى بالمستندات والأوراق المشار إليها خلال
أسبوع . ثم انصرف من باب الحديقة ، وامتطى مره الذى كان مربوطاً فى
الخارج ، وركبه مبتعداً إلى أن توارت قامته بين الظلال .

وانضم صاحب الطاحون إلى أصدقائه ، ووجد أن جون قد وصل أثناء
غيابه . وأخبر جون الجماعة أنه طاف بالميناء بعد مفارقتة لأبيه وأن ، ووجد
السفينة ، بيوت ، راسية على الرصيف . وقد علم بعد السؤال أنها وصلت فى
الساعة الحادية عشرة ، وأن بوب نزل إلى الشاطىء .

وقال صاحب الطاحون :

— سندهب وتقابله ، فالنور لا يزال منتشرًا خارج الدار .
وهكذا أخرج لعدى وأصدقائه وجيرانه بينما انبجس الندى من الغياض وكون
ندفاً من الضباب فى الحفر ، وترشوا عند أبواب السياجات التى تعرقل الممرات كل
مائة خطوة بين قرية أفركب والطريق العام . ولم يستطع جون لعدى أن يصحبه
نظراً لاضطراره إلى العودة للعسكر . ولكن الأرملة لعدى رأت من الآليت
أن تنضم إلى الموكب ، ونادت ابنتها بعد أن وضعت قبعتها على رأسها . وقالت
آن من الدور العلوى إنها ستحضر بعد دقيقة . وسارت أمها دون أن تنتظرها .
ما الذى كانت تصنعه آن ؟ .. إنها بعد أن أفلتت فى سرعة غطاء وعاء تحفظ فيه
المواد الصغيرة الحجم ، المتعلقة بميوها العاطفية ، تناولت ورقة صغيرة ملفوفة سبق
لنا أن علمنا بها ، وأمسكت بها بعد أن أشعلت ناراً بواسطة صندوق الصوفان الذى
تملكه ، ووضعها على نار الشمعة - التى أضاءتها - هى وخصلة من الشعر التى تشتعل
عليها حتى احترقتنا . ثم ارتدت قبعتها ، وتبعته أمها وسائر القوم بين الحقل
الرمادية المبتلة ، مردهة فى جذل ، أثناء مسيرها ، غناء منخفض الثبرات كما تؤكد
لنفسها عدم مبالاتها بالظروف الطارئة ؟

« الریان » بوب لفدى

من البحرية التجارية

(١٥)

في الوقت الذي كان لفدى وجيرانه يذرعون الأرض قدما ، والمفاجآت المتوقعة تستحوذ عليهم ، سمع بعضهم — ومن بينهم آن التي كانت في المؤخرة — سمعوا قعقة عجلات خفيفة فوق الدرب المقوس الذي كان المر له شديها بوتر . وقالت آن لنفسها على الفور ، لعله هو ، ونحن نفوته الآن . ولكن الاحداث التي وقعت أخيراً لم تكن من النوع الذي يحملها على الإفصاح عن شيء ، ولم يفكر باقي الجماعة في الصوت الذي سمعوه .

ولو أنهم عرجوا على الحاجز الذي يحجب الدرب ، ونظروا من خلاله لرأوا عربة خفيفة ذات عجلتين يقودها صبي يجلس إلى جواره رجل من جوانب البحار ، ويدو على هذا الرجل أن له مركزاً مرموقاً في البحرية التجارية ، وقد مد رجله فوق عريش العربة التي اجتازت الجسر الرئيسي الواقع في ذيل الطاحون ، ووقفت بالباب . ونزل ذلك الملاح الذي بدأ أنه فتى لطيف ، حسن الشكل ، نشط ، مشرق العينين ، صغير الأنف ، فاقع ألوان البشرة بسبب تعرضه للشموس المنضجة التي جعلت على الأغلب رابطة بينه وبين الاجنبي الذي دعى باسم « صورة الرجل المهذب ، وهذه الصورة من صور معرض « الأساتذة القداى » . ثم إنه برغم ما تقدم ... وبرغم أن بوب لفدى طاف أرجاء العالم من رأس الرجاء الصالح إلى بيكين ، ومن شاطئ المرجان الهندى إلى البحر الأبيض ، فإن أوضح الملاح التي عاد بها كانت يزيد من شبهه لأمه التي ظلت راقدة وقتاً طويلاً تحت الكنيسة في أفرمب . حاول الریان لفدى الدخول من باب البيت ، وعندما وجده مغلقاً توجه إلى باب الطاحون . وكان هذا مغلقاً أيضاً لأن الطاحون توقفت عن العمل تلك الليلة ... وقال للغلام :

— إنهم ليسوا في البيت ، ولكن لا بأس . فاعليك إلا أن تساعدنى على

(م ١٠ — نافخ البوق)

لإنزال متاعى من العربة ، فأنتدك عندئذ أجرك ، وتستطيع أن تعود أدراجك إلى دارك .

وأزّل الغلام المتاع من العربة ، وصرف الغلام وهو يلهج بشكر الملاح على الأجر الذى دفعه . وإذ وجد بوب لفقدي أنه لا يزال لديه مندوحة من وقت الفراغ ، أخذ ينظر متأملاً إلى الشرق والغرب والشمال والجنوب ، وإلى (نظير السميت) (١) . ثم نشط إلى حمل متاعه ، ودار به جزءاً جزءاً إلى الباب الخلفى بعيداً عن طريق العابر عرضاً . وبعد قيامه بذلك دار حول الطاحون على نحو أكثر انتباهاً ، وتطلع إلى معالمها المألوفة معلماً معلماً . فالألواح الزجاجية فى غرفة الطحن منبرة الآن — كما كانت منبرة من قبل — بالدقيق وذرات الصقيع الأبيض . والطحين يكن فى أركان قاعدات النوافذة ، وتتكون منه تربة تذبّت فيها حشائش لا تنمو أبداً ، فهى على عهدها منذ أشد أيام طفولته انغماساً فى غيابة الماضى . ونباتات الطحلب النابتة فوق سطح الجدار المقابل للنهر ، المتسلقة إلى الحد الذى تستطيعه جاذبية الحائط ، تبحث عن البلبل فى سليل الوصول إلى غذاءه . وماء حوض الطاحون الحبيس بلغ حد الفيضان والتدفق إلى الحديقة ... إن كل شىء بقى على ما هو عليه .

وبعد ما حقق لفقدي كفايته من هذا خطر له أنه قد يستطيع دخول الدار برغم الأبواب المغلقة . وبعد أن توجه إلى الحديقة ، وأتى بقائمة خشبية اقتطعها من غصن شجرة تفاح ، ووضعها على حافة نافذة خاصة بغرفة نوم فى هذه الناحية ، وتساقها كما لو كان قرداً مغربياً ، دخل من النافذة ، وخطأ إلى داخل الغرفة . وكان ثمة شىء من الغرابة فى وجوده بين الأثاث المألوف لديه قبل أن يرى أباه أولاً . ولم يكن هذا الأثاث الصامت الجامد مهماً . وكأنما أدرك الموت أقرباءه جميعاً ، وبقيت موادهم وخزاناتهم وأدراجهم وحدها لتحييه . وهبط إلى الدور الأرضى وجلس فى الردهة المظلمة . وإذ وجد ذلك المكان أميل إلى الوحشة أيضاً ، ودقات الساعة المتوارية أعلى من المعهود ، تقب عن علبة الصوفان وأوقد بها ناراً ، وعمل على جعل البيت حسن الإعداد لدى عودة أبيه ، وقد حزر أنه خرج لبقائه سالكا طريقاً خاطئاً .

(١) نقطة فى السماء تقابل نجم السميت مباشرة ، والاسم عربى الأصل (تليق الأصل)

وازداد اهتمام روبرت بهذا العمل بينما كان يزاوله . وانهمك في العمل هنا وهناك داخل المطبخ في حفة الفتاة . وكان ديفيد ، المختص بكل شؤون المنزل ، قد تاه بين التناهي والكثوس في بدماوث ، فلم يبق في الدار أحد ليعد العشاء ، وتولى بوب الأمر جميعه . واشتعلت النار في المدخنة بعد وقت قصير ، ووجد غطاء للبائنة ، وتعالق قمعقة الصحون ، ودار البحث عما يمكن أن يوفره البيت من مؤن ، وكان به . علاوة على لحوم مختلفة الأصناف ، بيض طازج من أنواع المستطيل الذي يفرخ لدى الفقس ، وقد احتفظوا به على حدة لوضعه تحت الدجاجة التي سترقد على البيض في المرة القادمة .

ولم تعرف أفرمب إهمالا أشد من هذا في كسر البيض الذي جرى الآن منذ الاحتفال بعيد الميلاد الكبير الأخير ، وإذ كسر لفدى بيضة من لإحدى جوانبها ، وأخرى من طرفها ، وثالثة بالطول ، ورابعة بالعرض ، واكتسب المهارة بالخبرة ، واستطاع في نهاية الأمر أن يسقط كل بيضة منها وقد شرطت قشرتها إلى نصف دائرة منتظمين حتى لكأنها فتحت بمفصلة . وانتقل لفدى من البيض إلى لحم الخنزير ، ومن لحم الخنزير إلى الكلى ، وأسفر ذلك عن ما كورل مشوى بأهر . وأفرغ الملاح العائد إلى بيته كل ذلك الطعام في وعاء حتى لا يفره فيما كل منه قبل عودة أبيه ، وغطى أعلاه بصحن ، ثم وضع سترته فوق ذلك الصحن ، وقبعته فوق سترته . وجلس ينتظر ما يحدث بعد أن كتم الرائحة المشبية فلم يعد لها أثر . وقد فرج عنه العناء الناشئ من فعلته سماعه أصوات في الخارج . ومرت دقيقة وإذا أبوه يدخل عليه .

وقال بوب :

— يسعدنى أن أرحب بك في بيتنا يا أبى ... والعشاء قد أعد على التو .

وقالت السيدة جارلانند :

— دهن الخنزير ، دهن الخنزير ... ماذا ! ... الربان بوب هنا ! .

وقال صاحب الطاحون وهو يدخل الغرفة ، يتبه ممثلو أسرة « كريلستراو » ، وأسرة « ميتشل » ، و « بيتش » ، و « سنوكس » ، ومعهم براعم ناشئة من خلف « فنسبيل تريمليت » ، و خلفهم ديفيد ، وفي النقطة الأخيرة التلاشية من الحشد ظهرت آن الجميلة :

— كنا قد خرجنا لنستقبلك .

وقال بوب :

— ركبت عربة ؛ ولذلك اضطرت إلى الهجيء من الطريق العام .

وقال أبوه .

— وقد ذهبنا عبر الحقول ظناً بأنك ستأتي ماشياً .

— كنت سأحضر لى هنا صباح اليوم ؛ ولكنى لم أجد حتى عربة يد صغيرة لنقل أمتعتى ، فقد ذهب الكل إلى الاستعراض ، وعلى ذلك ذهبت أنا أيضاً ظناً منى بأنى قد ألتفك هناك . ثم اضطرت حينذاك إلى العودة للبناء كما أحضر متاعى .

ثم كان الترحيب بالربان بوب ، فإذا هم يجذبونه من ذراعيه كما تجذب الأدرج وتقل ثانية ، ويدقون ظهره كأنه شرق بشىء فى حلقه ، ويمسكون به وأذرعهم ميسوطة كأنما هو أضخم شأننا من أن يتلمسوه عن قرب . واحتمل بوب هذا التعذيب بابتسامة عريضة لطيفة لم تلبث أن اهتزت وتناثرت إلى أجزاء مشوشة بين النظارة .

وقال صاحب الطاحون لديفيد الذى قابله فى الحقول ، ولم يجدوا شيئاً طراً عليه بسبب غيبته أسوأ من رنج خفيف شاب مشيته .

— أحضر مقعداً له !

وقال بوب :

— لا بأس . أنا غير تعب ... وكنت هنا منذ مدة طويلة ... وأنا ...

ولكن بوب سقط جالساً إذ وضع أحدهم كرسيّاً خلفه ، وغمز ركبتيه من الخلف بمد هذه القطعة من الأثاث غمزة موقفة تجعل الإنسان ينمطف ويجلس دون استرسال فى المجادلة . وسحب الآخرون مقاعد أخرى ووضعوها على بعد مناسب للمشاهدة السهلة التحليلية ، ولا تتخاذ أوضاع أحذق دلالة على الزمالة الطيبة . ومضى صاحب الطاحون يقول :

— يا ديفيد أحضر الأكواب التسعة ، وهى أحسن أكوابنا ، من ركن

الصوان ! .. ديفيد ... هات البريمة ! ... ديفيد ، انفض الأكواب من الداخل

بذيل سترتك قبل أن تصب فيها الخمر ، فإن سمك الغبار عليها بلغ حجم بوصة . . . ديفيد ، اخفض كلاب المدفأة عدة درجات حتى يمكن أن تلمس النار الكسكنكة ، وأضئ ثلاث شموع أخرى من أكبر شموعنا ! ... وإذا عجرت عن رفع سداة الدن يا ديفيد ، فألق برميل هولاند ، المدفون تحت كتل الخشب في مخزن الوقود ... أنت سامع ؟ ... البرميل الذى تركه دان براون هنا أمس نظير الخنزير الصغير المعلوف الذى أعطيته إياه .

وعندما نال كل من الموجودين مقدار أنملة من الخمر التى دارت عليهم ، وانصرف الجيران الذين لا ضرورة لوجودهم واحداً لآخر واحد ، بعد شيء من التردد ، واستقر رأى الجيران الأقربين على البقاء للعشاء الذى شرع ديفيد فى تقديمه لهم .

وقال صاحب الطاحون :

— لماذا تطوى مفرش المائدة من جديد يا ديفيد ؟

— لقد أخطأ سيدى يوب وفرش غطاء داخلياً ، وحسبت أنك لن ترضى عن ذلك يا سيدى لأن هناك سيدات حاضرات !

وقال روبرت :

— حقاً إنه كان أول شيء وصلت إليه يدي . وقد بدا لى مفرشاً للمائدة فعلاً .

وقال صاحب الطاحون :

— لا ضير . وما دام قد وضع أدوات المائدة فلا ترفعها عنها ثانية . دعها تستقر فى مكانها . ولكن أين الأرملة جارلاند ، والآنسة آن ؟

وقال ديفيد :

— كانتا هنا منذ دقيقة فقط . ثن أنهما انسجبتا بسبب حياتهما .

وذهب صاحب الطاحون إليهما على الفور ، وسألها أن يعودا معه ، ويتناولوا العشاء عنده . وفى أثناء غيبته أسر ديفيد لى يوب أنه هيا لأبيه مكاناً ممتازاً بالنسبة لرجل متقدم السن مثله :

— نعم ، أيها الربان يوب . . . حسبما ينبغى أن أدعوك على ما أعتقد . . .

لقد خدمت أباك مدة هذه الثمان والثلاثين سنة ، وظللتنا متفاهمين دائماً خلالها . فهو يأتتمنى على المفاتيح ، ويعيرنى صداره ذا السكين ، ويكل إلى البيت بما فيه . والسيدة جارلانـد ، الجارة الملاصقة لنا ، لا تختلف هى أيضاً عنه ، وتعاملنى كما لو كنت ولدها بحق .

— لا بد أنها تزوجت صغيرة جداً لتجعل منك ولدها يا ديفيد .

— نعم ، نعم . أنا أكبرهم بسنوات ، ولكنها طريقي المتبعة فى الكلام .

ولم تقبل السيدة جارلانـد أن تحضر العشاء ، وتناولـه الحاضرون بدونها . وأوصى بوب أباه بصنف الطعام الذى طهاه على نحو ما يعامل صاحب الدار غريباً حضر تـوا : وكان صاحب الطاحون يتوق إلى الوقوف على الخطط التى رسمها ابنه للمستقبل ، ولكنه لم يشأ أن يعوقه الآن عن الأكل ، وكان ينظر رافعاً بصره عن صحنه ، ليقدر الطريقة الأجنبية التى كان يوارى بها بوب المأكولات الإنجليزية ، وكأنه كان إذ ذاك ينظر إلى طاحون أنشئت على أسس تناولها التحسين .

ولم يكـد ديفيد يرفع عن مائدة الطعام ما عليها ، ويضع الصحون صفوفاً تحت مائدة المنجز لتاعمقها الققط حتى فتح الباب فى سرعة ودخلت السيدة جارلانـد وقد بدا عليها اشتغال البال :

— ظلت أنتظر حتى أسمع صوت رفع الصحون لأحضر وأخبركم كم نحن خائفون من صوت نسمعه عند الباب الخلقى . وهو يبدو كأن لصوصاً يلطمون ، ولكننا إذ ننظر لا نرى أحداً هناك !

وقال صاحب الطاحون وهو ينهض على الفور .

— هذه مسألة يجب تينها يا ديفيد ، أضىء المصباح المتوسط الحجم ، واذهب وفتش الحديقة .

وقال ابنه وهو يتناول هراوة :

— سأذهب أنا أيضاً ، ومن حسن الحظ أى حضرت فى الوقت المناسب تماماً ! وذهبوا يسترقون الخطى . وتبعتم الأرملة وآن التى خافت أن تبقى فى الدار وحدها فى مثل هذه الظروف . ولم يكادوا يتجاوزون الباب حتى وجدوا هناك

لنظا بالتأكد يكاد يكون في متناول سمعهم ، وقد صدر من سطح الأرض المنخفض
وكانه لفظ قوم يرقدون متخفين .

وقال بوب وهو يضرب رأسه بيده ، وكانه يضرب رأس عدو :

— لياركني الله . لماذا . إنها أمتعي ، وقد نسيتهما تماما !

وسأله أبوه :

— ماذا !

— أمتعي . . . ولولا السيدة جارلاندا لظلت هناك ، في الحديقة ، طوال
الليل . ولما ت هذه الخلوقات المسكينة جوعا . فهذه الأمتعة تشتمل على مختلف
الأنواع من السلع جثت بها إليك . فادخل الدار ، وسأتي بها إلى الداخل . وهذه
التي سمعتها تلفظ ياسيدة جارلاندا ، هي ببغاوات . ولم يعد هناك شيء يدعو
بعد إلى الخوف .

وقال صاحب الطاحون :

— ببغاوات ! حسنا . يسرني أن الأمر لم يكن أسوأ من ذلك ولكن كيف

يمكن أن يعتورك النسيان هكذا يا بوب ؟

وقام كل من ديفيد وبوب بنقل الأمتعة إلى الداخل ، وظهر أن أولها ، بعد
فك رباطه ، مكون من ثلاث قطع ملفوفة بأقشة ، وقد تكشفت بعد رفع الأقشة
عن ثلاثة أقفاص يحتوى كل منها على بيضاء فاخرة .

وقال بوب :

— هذه الببغاء لابي ، على أن يعلق قفصها بالباب لتسليتنا ، وهي تحسن

السلام ، ولكن النوم غلب عليها هذا المساء ، والأخري أتيت بها لأهدئها لأبي
جار يريد أن يأخذها . وهي طائر طيب ، وإن كانت ألوانها غير براقه إلى
حد كبير .

ثم قال وقد دار صوب أن التي أغرتها الطيور بالتقدم :

إذا أردت أن تأخذها فهي ترحب بك . . . لأنك لم تكادى تنسين إلى الآن
بكلمة يا أنسة آن ، ولكني أتذكرك جيدا . كم ازددت طولاً بالتأكيد .

وأعربت آن عن تقديرها الشديد بجملة ، وقالت إنها لا تدرى ماذا يمكن

أن تصنع بمثل هذه الهدية . وقبلتها السيدة جارلانند نيابة عنها . واستطرد الملاح يقول :

— والآن . أنا لأأ كاد أدرى ماذا أصنع بهذه، ولكن أجرؤ على القول إنها ستفجع على نحو أو آخر .
وقالت الأرملة .

— إنها أجمل بكثير من الأخرى . وأنا أوثر أن أخذها على أن آخذ الأخرى ... إذا كنت لا ترى في ذلك بأسا .
وقال بوب مرتبكا :

— الأمر وما فيه أن هذه البيغاء لا تكاد تصلح لك ياسيدتى . وأقول لك الحق إنها تفحش في السباب . وأخشى أن تكون متقدمة في السن جداً إلى حد يتعذر حملها على الإقلاع عن عاداتها .
وقالت السيدة جارلانند :

— ما أشنع هذا !

وقال صاحب الطاحون مقترحا :

— يمكن أن نحفظ بها داخل الطاحون . ولا يهم أن يسمعها السنان فهو لا يستطيع أن يتعلم سبابا أقبح مما يقذف به الناس الآن .
وقال بوب :

— سيأخذها السنان إذن . أما التي أعطيتك إياها يا سيدتى فلا تؤذى قط .
ويمكنك أن تأخذها معك إلى الكنيسة أيام الأحاد .
وفك البحار الآن رباط صندوق صغير من الخشب يبلغ حجمه مقدار قدم مربعة ، وبه ثقوب ... وقال مستطرداً :

— هما قشتان صغيرتان . ويتعذر عاينكم أن تروهما الليلة ، ولكنهما جميلتان ... من النوع الخصل .

وقال صاحب الطاحون :

— وما هي القشة هذه ؟

- هي نوع صغير الحجم من القردة . وهي تمض الغراب عصباً شديداً نوعاً .
ولكنكم لن تلبثوا أن تتأدوها .

وقالت السيدة جارلانده وهي تطل ببصرها من الحجرة :

- لا شك أنهما ملفوفتان بشيء ما .

وقال بوب ماتمساً عذراً :

- نعم ، هو قيصي من « الفئلة » . فهما تقاسيان من البرد كثيراً في هذا
الجزء ... مسكيتان ! ولم أجد عندى شيئاً أعطيها لهما خيراً منه ... حسناً ، والآن
توجد في الصندوق التالي أشياء مختلفة الأنواع .

وكان الصندوق الأخير صندوق بحار بحق . وقد أخرج منه أصداً مختلفة
الاحجام والألوان ، وتحفاً من العاج المنقوش ، وقبعات صغيرة عجيبية ، ورياشاً ،
وعدة مناديل حريرية . وقد نثرت هذه الأشياء فوق ما تيسر من المواد والمقاعد
إبرة ، حتى أخذ البيت يبدو كأنه حانوت لبيع السلع .

وصاحت الأرملة جارلانده وهي في حاسة اهتمامها تتعجل عرض الأشياء
لمنتظم بالنظر داخل الصندوق إلى الساعة حتى جاء دور إخراجها :

- ما أروع هذا الشال !

وقال الرفيق وهو يخرج شالين من أفنت ما تقع عليه عين :

- أوو ، نعم . سأعطي السيدة الصبية التي سأزوج بها عما قريب أحدهما .
ولعلك تعلين بزواجي ، ألم يخبرك أبي عنه ... ماتيلدا جونسون ، من سومبتون ،
هذا هو اسمها .

وقالت الأرملة :

- نعم ، نحن نعرف ذلك جميعاً .

- حسناً ، سأعطيها أحد هذين الشالين ، لأن ذلك واجب على بالطبع .

وقالت الأرملة :

- بالطبع .

- ولكن الشال الآخر لن ينفعني بحال . ثم ...

ودار بصره واستطرد :
— أقبليين أن تأخذه يا آنسة آن ؟ إني رفضت البيغاء فلا ينبغي أن ترفضى هذا .

وقالت آن في هدوء ، ولكن كذلك في ضيق شديد :
— أشكرك ، ولكنى لا أريده حقاً ، ولا أستطيع قبوله .
وقال بوب في لهجة جريئة :
— ولكن أرجو أن تقبله .
وظلت السيدة جارلاندر على مثل شوكة الغضى خشية أن تتشبث برفضها السخيف .

وقال بوب وقد أشرق وجهه بأطراف الذكريات :
— ماذا ! ... إن هناك سبباً آخر يضطرك إلى قبول الشال . . . فلم يخطر ببالى قط قبل هذه اللحظة أنى كنت حبيبك ... على نحو متواضع ... يوماً ما . حقاً لى كنت كذلك ، وكنا نتقابل أحياناً في بعض النواحي ، أليس كذلك ؟ ... أعنى يوم لم تكونى شديدة الاعتزاز بنفسك . وقد أعطيتك مرة . . . أو أعطيت فتاة غيرك ... خصلة من شعرى على سليل المراح .

وأسرعت آن تقول :
— كانت فتاة غيرى .
وقال بوب في برائة :

— آه ، ربما كان الأمر كذلك . ولكنك أنت التى كنت ألقاها ، أو كنت أحاول أن ألقاها ... ولست أشك في ذلك . حسناً ، أنا لم أفكر في هذا العهد الصياني قط ، طوال سنين عديدة ، إلا هذه اللحظة . ولست أشك يا عزيزتى أنه يجب عليك قبول هدية ما على سبيل الإشادة بهذه الأزمنة البعيدة !
وتراجعت آن وهزت رأسها قاصدة الرفض ، لأنها لم تكن تتن في ضبط صوتها .

وقان بوب وهو يدفع الشال إلى تلك المستعدة لتقبله .
— حسناً ، يا سيدة جارلاندر ، ستأخذينه أنت إذن . وإذا رفضته ، فأقسم

أنى سألقى به إلى أول سائل أراه . والآن ها هي ذى حزمة من أجود أشرطة
القبعات التى استطعت الحصول عليها ... خذها ... أرجوك يا آن !

وقالت السيدة جارلاند :

— نعم ، خذها .

واستطرد بوب :

— كنت قد وعدت ما تيلدا بها ، ولكنى واثق من أنها لا تريدنا نظراً
إلى أن لديها أشرطة أخرى تملكها . وإنى أود عن طيب خاطر أن أراها على
رأسك يا عزيزتى كما لو كنت أراها على رأسها .

وقالت السيدة جارلاند فى عذوبة :

— أظن أنه من الأجدر أن تحتفظ بها لزوجتك ما دمت قد وعدتها بها .

— إنه لم يكن وعداً بالمعنى الدقيق . فقد قلت لها فقط : « يا تيل ، هناك فى
صندوقى بعض أشرطة قبعات فيما إذا ما أردت أخذها . » ولكن كان لديها من
الأشياء الموفرة قبل ذلك قدرأ كافياً لأية عروس فى العالم . وأنت الآن ستأخذينها
يا آن ... ستأخذينها قسماً بحياتى ... وإلا سألقى بها فى الجانب الخلقى من الطاحون .

وكانت آن تقصد أن تنشبت تماماً برفض كل هدية لأسباب واضحة حتى لذلك
الشارد الذهن ، القليل المهارة إلى أقصى حد . ولكنها اضطرت كل الاضطراب
إلى التسليم عندما بلغ الأمر هذا الحد واحتضنت أشرطة القبعات متضررة ،
واحر وجها متلوناً ، وارتجفت شفتها فى حركة حاولت أن تظهرها على
أنها ابتسامة .

وقال صاحب الطاحون فى خبث :

— وماذا عسى « تيل » أن تقول لو علت بذلك !

وصاحت آن على الفور ودموعها تتحدروهاى تلقى رزمة الأشرطة على الأرض :

— نعم ، فعلاً ... وهذا خطأ منه ! .. أولى بك يا سيد لندى أن تهب
هداياك حينئذ وهبت ... أ ... أ ... قلبك . هذا هو قولى !

رأدارت آن له ظهرها وانصرفت .

وقالت السيدة جارلاند وهى تسرع فتلتقط رزمة الأشرطة :

— سأحلبها لها .

وقال بوب وهو ينظر في أثر آن متأسفاً :

— والآن هذا أمر مؤسف . فأنال لم أذكر قط أنها فتاة من النوع السريع
الغضب ، خبريها يا سيده جارلاندا أني أسألها المغفرة . ولكني لم أكن أعلم بالطبع
أنها شديدة الاعتزاز بنفسها إلى حد عدم قبول الهدية . . . وأنى لي أن أعلم
هذا؟ وأقسم أنه لو لم يكن ذلك متعلقاً بما تلبدا لكنت ... حسناً هذا لا يمكن
أن يكون بالطبع .

وقالت السيدة جارلاندا وقد لمست قدمها حزمة كبيرة وضعها بوب في
مكان متوار :

— ماهذا؟

وقال روبرت وديماً :

— هذا قدر قليل من التبغ جئت به لنفسي .

وانتهى لخص الهدايا في النهاية ، وافتقرت الأسرة للحلول الليل . وعندما اختل
كل فريق في بيته قالت السيدة جارلاندا لأن :

— يالك من فاة منطوية على نفسك ! . أنا لم أعلم بالتأكد أنك أنت
وبوب كنتما تمشيان معاً ! . لا بد أننا كنتما مجرد طفلين .
وقالت آن وقد استمادت جأشها الآن تماماً :

— أوو نعم ... لقد كنا كذلك . وحدث هذا أول ما جئنا إلى هنا بعد
مرور عام على وفاة أبي ، ولم نكن نخرج معاً بصفة منتظمة . وأنت تعلمين أني
لم أر أسرة لعدى قط في مستوى عال بالقدر الذي يرضيني . إن الأمر بيننا لم يكن
إلا ... لم يكن شيئاً قط . وكدت أن أنساه كلية .

وكان من المأمول في تلك الليلة أن تغتفر خطأيا شخص ما قبل أن تنام .
وقال صاحب الطاحون لبوب بعد أن تركا وحيدين :

— حسناً ، يا روبرت ، أما عن فتاتك هذه ... عن ماتيلدا . ما اسمها ؟

— نعم ، يا أبي . . . ماتيلدا جونسون كنت على وشك التحدث إليك
في شأنها .

وأوماً صاحب الطاحون ، ورشف من كأسه . واستطرد بوب :

— حسنا ، إنها بديعة شكلا . هذا ما يمكن قوله في صدق ... ساحرة حقا ، وأنت أدرى ... فتاة ظريفة طيبة مليحة ، وهي تمد معجزة فيما يتعاقب بتربيتها المهذبة وكل هذه الأمور كما تعلم ... وتستطيع أن تهذل شعرها في أجمل جدائل ملفوفة . ولديها قفازات باهرة وقبعات . ومختصر القول إنه يمكن تسميتها جنية بحر تعيش على الأرض . وستكون زوجة من الطراز الأول ليس لها نظير .

وقال صاحب الطاحون :

— لا شك أنها ستكون كذلك ، لأنني لم أرك قط ينتقص الإدراك بصفة عامة .

وأدار كأسه حول نفسها ، حتى دار قاعها دورة كاملة :

— أية مدة قلت في خطابك إنك عرفتها خلالها ؟

— أسبوعين .

— ليست هذه بالمدة الطويلة .

— في الحقيقة إنها لا تبدو كذلك ... وقد كانت في الحق أطول من ذلك ... كانت خمسة عشر يوما وربع يوم . ولكن دعك من هذا يا أني ، فأنا أستطيع أن أرى في ومضة عين هل الفتاة تصلح ... وإذا شاهدت امرأة عرفتها معرفة كافية . ولا بد لي من ذلك في الواقع ما دمت قد أوغلت الطواف حول العالم ... وإليك الآن مثلا ... هناك السيدة جارلانند وابنتها . فالبنت فتاة صغيرة لطيفة أما المرأة العجوز ... فلا ...

وهز بوب رأسه ، وقال الأب وهو يتقلقل في مقعده قليلا :

— ماذا عنها ؟

— حسنا ، إنها ... إنها ... أفصد أني ما كنت لأختارها كما تعلم . إنها ذات سجية لطيفة ، وهي صغيرة السن بالنسبة لأرملة رزقت ابنة في سن الشباب . ولكن إذا كان جميع الرجال مثلي فإنها ما كانت لتزوج أبداً . إنني أعجب بها من بعض النواحي ، ولكن جمالها من طراز لا أعني به أبداً .

وقال صاحب الطاحون شاعرا بفرج كبير :

— إذا كان ما تفكر فيه هو شكلها تحسب ، فلا محل بالطبع للكلام في هذا .

ثم أضاف على نحو يرم على أن روعه هدأ بسرعة كبيرة . وهناك مع ذلك
دوقات أردأ منها شكلاً .

— وإذا عمدنا إلى الجدول فهناك مع ذلك دوقات أردأ منها شكلاً كما يمكن
أن تتبين يا ولدي .

وكانت خواطر الفلاح آنذاك في مكان آخر .

— أما عن زواجي بما تيلدا ، فهذا في زعمي نوع من اللطف أنواع الزيجات .
وسأستطيع كذلك أن أزاول العمل في الحال . وعلى هذا اخترتها . إنها فتاة رائمة ،
ولن تجد مثلها أيان أردت أن تبحت .

وسأل أبوه :

— كم عدد الفتيات اللواتي عرفتهن واخترتها من بينهن ؟

— حسناً ... لقد حدث أنها كانت في الحق الفتاة الوحيدة التي عرفتها في سوثنين ،
ولكن ما أهمية هذا ؟ إن النتيجة ما كانت لتختلف لو أتى عرفت مائة فتاة .

— أحسب أن أباهما يضطلع بعمل غير بعيد عن أحواض السفن ؟

— حسناً ، لا . جملة القول أتى لم أر أباهما .

— وأمها ؟

— أمها ؟ . لا ، لم أرها كذلك . وأظن أنها متوفاة . ولكن للفتاة عمه
غنية جداً تعيش في ملشستر (١) . وأنا لم أر عمتها لأن الوقت لم يتسع للرحيل إليها .
ولكننا سنعرفها بالطبع عند زواجنا .

وقال صاحب الطاحون وهو يحاول أن يشعر بالإقنتاع التام :

— نعم ، نعم ، بالطبع . وستحضر إلى هنا قريباً ؟ . .

وقال بوب :

— نعم ، ستحضر قريباً . وقد ذهبت إلى تلك العمه في ملشستر لإعداد أمتعتها
وما إلى ذلك ، وإلا لحضرت معي . وسأذهب لالاقى عربة السفر في الساعة
الواحدة من يوم الأحد عند « كنجز آرمز » ، في « كستربريدج » . وكما أدلك
على أي نوع عظيم من الزوجات ستكون ، فأستطيع أن أقول لك إنها أرادت أن

(١) يقصد سليسرى (تعلق الأصل) .

تأتى بطريق عربات • مركورى ، لان أجرة السفر بها أقل قليلا من أجرة الأفرس . ولكنى قلت لما : • اجعلها رحلة طيبة لمرة واحدة فى حياتك وتعالى بطريق شركة (رويال ميل) وسأدفع أنا الأجرة أحسب أنى أستطيع أن أحصل على المهر والعربة الصغيرة لأذهب وأحضرها نظراً إلى أن المسافة أشد طولاً من أن أستطيع اجتيازها مشياً على الأقدام .

— تستطيع ذلك بالطبع يا بوب ، وتستطيع أى شىء غيره . وسأبذل قصارى جهدى لأقيم لك حفل زفاف طيب ؟

إنهم يعدون العدة

لاستقبال الغريبة الممتازة

(١٦)

إن الاستعدادات للترحيب بما تلدا ، وللوقائع التي ستعقب ذلك ، استأثرت على الفور باهتمام كل من في الطاحون . ولما لم يكن لصاحب الطاحون ورجله إلا أفكار غامضة عن شؤون التدبير المنزلي على نطاق واسع فقد قبلت السيدة جارلاند متعطفة أن تشرف على نظافة حفل الزواج العظيم ، بينما كان بوب في أغلب الأحيان يتغيب طوال النهار مع أخيه جاويش البروجي للقيام بمهام مختلفة . ومن هذه المهام شراء طلاب لدهان العربية ذات العجلتين التي سيحضرها ما تلدا فيها . فقد اعترم أن يزخر فيها بيديه لا يبدى غيره .

وفي تجاه النافذة تم تنظيف وتلميع التراكم القديم المألوف للأوساخ المضيفة المطبوعة على طول ظهر المقعد ، حيث كانت تظل منه رؤوس الحشرات المرحة الجالسة عليه وهي لا يحصيها عد . . . والحلقة المسودة حول المسمار ، وهي التي يعلن صاحب الطاحون عليها قبعته ، وقد تلوثت من اشتداد الجو الرطب ، أعيدت إلى الأبيضاض . . . والآثار المغبرة المدخنة الناتجة من احتكاك أكتاف العابرين ، بالممر أزيلت برغم ما اكتسبته من قيمة تاريخية مؤنسة . . . ووجه ساعة الحائط المسكنى بصدأ النحاس الذي أصبح في سمك طلاب الحص ، تم مسحه حتى برزت أرقامه في وضع النهار ، بينما خيسوط العنكبوت التي كونت أراجيح شبكية كالثلثات داخل صندوق تلك الساعة نفسها ، والتي كان رصاص الساعة يخوض فيها بصعوبة ، قد أزيلت بضربة واحدة .

واشتركت السيدة جارلاند في غزو خزائن الطعام التي نخرتها الديدان ، حيث تخلفت طبقات من الروائح القديمة طلى الهواء الرائد وأذكرت الأنف المتأمل أشياء كثيرة طيبة كانت تحفظ هناك . . . وقد غسلت غرف الدور العلوى بكية كبيرة من الماء إلى حد أن الحنافس الصغيرة ، وقل الحشب ، وديدان الدققتين ، تلك الحشرات التي طاب مقامها هناك ، غرقت جميعاً وتسرب الماء الممزوج برغوة

الصابون إلى الغرفة السفلى على نحو نشيط عجيب حتى لكانه يبتعث فكرة أن صاحب الطاحون يقطن في كهف تتساقط عليه رواسب كلسية .

ونقلوا ما لم ينقل من مكانه قبل ذلك قط ... نقلوا الخزانة المصنوعة من خشب القرو ، المحتوية على ملابس صاحب الطاحون ... وزنها هائل وهى على ما تحويه من أقفال ومفصلات ومسامير وغبار وإطار ، والصفوف المضغوطة للسرات القديمة ، والصدارات ، وكسوات الركب من أسفل . . . هذه الأشياء التى لم يزعجها أحد منذ أن توفيت زوجة صاحب الطاحون ، وقد هلباتها العث نصف هلبلة ، هذه العث الراقدة بين تلك الأكوام برؤوسها التى تفرطحت ، وقد بلغت الآلاف عددا .

وقال لعدى ، وهو يرفع تلك الخزانة من أحد أركانها إذعانا لتوجيهات السيدة جارلاندا ، بينما يساعده كل من السنان وديفيد على رفعها من أركانها الأخرى :

— إن هذا جعل ظهري يتفتح وينفلق تماما كلكم بدا واحدة . . .
نادوا عندما تبدأون الرفع . . . هيا الآن !

وجلئت أغلبية الأوعية ، وأدوات المطبخ حتى أصبحت في حالة تجعل الناظر لا يظن لإلها هى نفسها ، وإنما يظن لوجهه البادى عليها متمطيا في شكل مربع وأصلحت جبال الساعة ، ونظفت القدر ، وثبتت النباتات المتسلقة بالمسامير ، وركبت يد للبخرة . . . ونظف مصباح الدار الكبير بعد أن تراكت عليه الأوساخ مدة ثلاث سنوات دون أن يعوقها عائق .

وكانت عملية تنظيف الأشياء المتركة من مقارص الشموع وأعقابها ، وبقايا عيدان الكبريت ، وغبار المصايح ، وكميات الدهن الجيدة الكشيفة ... كانت لا تقدر بشئ . وهى في ذلك مثل دهان الأحذية الطويلة ذات الأربطة من أمام ، وتسمح عجلات العربات .

وقال كل واحد إن بيت صاحب الطاحون لم ينظف مثل هذا التنظيف الشامل منذ عشرين عاما . وبدا على صاحب الطاحون وديفيد نوع من حالات التيبب بسبب عرفانهم للجميل ، وتمت نظراتهما على التسليم الضمنى بأن ما هو حادث (م ١١ — نافخ البوق)

يتجاوز كل ما وصلت إليه خواطرهم . وقد أشرفت السيدة جارلاندا على كل شيء . في عطف منزه عن الغرض . وقد قالت لصاحب الطاحون إنه لم يكن يجوز أن ترى زوجة ابنه المقبلة منزله على حالته الأصلية ، فإن هذا كان سيحملها على عدم الميل إليه ، وعدم الميل إلى بوب كذلك .

وقال صاحب الطاحون بينما هي تلتفت حوله :

— لماذا لا تأتين وتقيمين هنا معي ، وعندذاك تستطيعين أن ترقبي البيت

باستمرار ؟

وأجابته على ذلك بأنها تنظر في الأمر ، وقد يحدث ذلك في الوقت المناسب . وكان قد سبق أن أخبرها أن خطته تتحصل في إحلال بوب وزوجته محلها في جانب المنزل الذي تقطن هي فيه على أثر رضاها بأن تقيم في داره ، وهذا يزيل عنها الخوف من أن يكون في وجود ما تيلدا حرج لها .

وكان إعداد الطعام لولائم الزفاف يسير على قدر نسي من الإتيان . فقد ذبحوا أربعة ديكية فائضة عن الحاجة ، وكانت قد بدأت تصيح . كذلك ذبحوا الخنزير الصغير الملقوف الذيل بعد أن فضلوه على الأنثى الكبيرة وبما أنه لم يمض على البدء في تسمينه أكثر من خمسة أسابيع فإن لحمه في هذه الحالة يكون صغيراً ممتازاً وجديراً أن يصبح أنسب لذوق سيده نشأت في المدينة من لحم الخنزيرة الكبيرة الأخرى التي ازداد وزنها إلى حد أن لحمها قد يكون أدم من أن يعد طعاماً مذبذباً . وقد أعدوا كذلك لحم خنزير مقدد ، ولحم عجول سمين ، وفطيرتين محشوتين بلحم الحمام . وكذلك ثلاثين حلقة من « السجق » المحشو بالدهن والدم ، واثنى عشرة صحيفة من الأرز المطبوخ باللبن والسكر ، وعشر صحف من جوارح الخنزير اللينة المغسولة جيداً ، المطهورة كما هي ، وذلك فيما إذا اشتبهت العروس بتغيير الطعام .

وبالإضافة إلى ما تقدم أعدوا على سبيل الاحتياط خبزاً محلى بالسكر ، وخمس صحف من الطحاح الذي أفرغ في ناحية واحدة على شكل اليقعة ، وأضيف إليه الصعتر وعشب السجبروش ، والبقدونس والتنعناع والبرغل والأرز واللبن والبيض المخفوق وغير ذلك من الأصناف . وهذه الأكلة ستحمر قبل تناولها على نار هادئة لتؤكل ساخنة .

وكانت عملية جمع هذه الأعشاب لإضافتها إلى مختلف أصناف الأطعمة شاقة للنساء . وكان ديفيد ، وصاحب الطاحون ، والطحان وابنه منمكنين كل في فرع العمل الذى يقوم به .

واضطلع بوب بدهان العربية ، ذات العجلتين ، وبإصلاح عدة حصان العربية ، ونادى لعدى على جندى من فرقة الدراغون التى ينتمى إليها جون ، وكان يمر بجوار الدار ، ولما كان رجلاً قوياً فقد قام عن طيب خاطر طوال عصر ذلك اليوم ، بتقطيع اللحوم نظير زجاجة من الخنز القوية المتقنة الصنع ، وما تيسر من مأكول سواها ، وقد خلع سترته وقفازه ، وشرعن ساعديه ، وفك رباط رقبته بطريقة وقورة ونشطة .

وأبعدت عن الفطائر التى كانت تحشى بالتفاح المطبوخ جميع الثمار الساقطة بفعل الرياح والمنخورة بالديدان . ولما لم يكن هناك صحن معروف يتسع بقدر كاف لهذه الحلوى فقد وضعوها في سطل ، اللبن ، وغاؤها في قدر نحاسية ، هائلة في الوزن ، عريقة في القدم ، ذات ثلاث سيقان ، لم يمر «سكرى» في بحر الثلاثين سنة السالفة إلا دقها بعصاه ، واشتبى أخذها ، وألح في طلبها ، وشعر غالباً بما يعر به بسرقتها .

وفما يختص بصنف المشروبات جاء لعدى بريميل كبير من جعة «كستر بريدج» القوية ، وهذا المشروب الشهير — وقد أصبح الآن ، كمشروب فلسطين ، من آثار الماضي — لم يحسب حسابه جيداً بمجرد اكتساب قلوب الجنود الذين جف عودهم ، وعلاهم الصدأ بسبب عيشهم في الخيام على قمة تل ، بل لا اكتساب قلب أى عابر سبيل في ذلك البلد أيضاً . كان لونها من أبداع الألوان التى يشتهى الفنان أن يراها في كوب جعة . وهى دسمة في مادتها ، وعنيفة مع ذلك كالبركان . وهى حادة ، مع أنها لا تهدر ، ومشرقة كشمس الخريف القارية ، وخالية بما يتفرز منه الذوق ، ولكنها ، في نهاية الأمر ، أقرب أن تكون قوية المفعول . والجماهير تعيدها ، والطبقة المهذبة الدنيا تؤثرها على النبيذ ، ولا تزديها أرقى أسر الإقليم . وكل إنسان يقبض عليه بهمة السكر والعريضة في الطريق العام في موطن تلك الجعة ، ليس عليه إلا أن يثبت أنه غريب عن المكان ونوع خمره ليطلق رجال الشرطة سراحه مع الإكرام والاحترام وكأنه تورط في خطأ لا يستطيع إنسان دخل البلدة فجأة أن يحمى نفسه منه .

وفتح لفدى ، بالإضافة إلى ما تقدم ، برميلا كبيراً من شراب و السايبر ، الممتاز كان قد تركه ينضج في الدار مدة أشهر عديدة ، وقد اشتراه من رجل شريف من قطان سهل الريف . وهو لم يجده مناسباً لأية فرصة مثل هذه ، وكانت تلك الخمر قد عصرت من فاكهة اختارتها يد هرمة مجربة بحكمة ... فتفاح و هورز ، و كليفز ، عصر للخمر ذاتها ، وعصرت بعض ثمار و توم بوتس ، لتكسب الخمر اللون ، وقليل من و أولاد فايف كورنرز ، ليكسبها اللعان ... وقد اختير هذا المزيج من الأصناف في الأصل لإرضاء ذوق سيد معروف من الأشراف متوسطي الحال ، مدمن على شرب و السايبر ، ، وقد عاش إلى سن الثامنة والتمانين .

وفي صباح يوم الأحد المحدد لحيثها . خرج الربان بوب لفدى لاستقبال عروسه . وقد ظل في الأسبوع بطوله منهمكا في دهان عريته ذات العجلتين . وكان أخوه يعينه في أوقات غير عادية . وبدأت العربية الآن في لون أصفر قافع مزخرف بخطوط زرق ، وفواصل في الأركان ، وطلبت العجلتان باللون الأحمر المزخرف بظلال أنعق . وربط بوب المهر في العربية حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف . وكانت آن ترقبه من وراء الباب وهو يضع نفسه في العربية وينطلق بها . ولعل هناك فتيات يرقبن فتياتاً عند انطلاقهم إلى زوجاتهم كما راقبت آن الربان لفدى ، ولا يبالين مع ذلك أبداً بمثل هذه الملابس . ولكن أمثالهن لا يصادفن كثيراً .

وكان هناك غبار كثيف يتعالى من الطريق العام بسبب حركة المرور المترتبة على وجود الأسرة المالكة وحاشيتها في البلدة الواقعة عن بعد . وهذا الحسك الذي يتدلى من السياج ، ويجود على وجه المتجول مخدشة ودية ، كان قدراً تحميوط العنكبوت في الكنائس ، وأكسبت الحشائش النابتة في الحفافي لون النشارة . وأمل أبوه أن يصطحب ابنه الخادم ديفيد خشية أن يصادفه أى مكروه نظراً إلى أنه لم يعتد قيادة العربات في الآونة الأخيرة . ولكن بوب ، وقد تصور سحق ركوب ثلاثة أشخاص في مثل هذه المناسبة ، أبى أن يعير هذا الرأي التفاتا . ولم يحدث من جراء قيادته للعربة حادث جدى اللهم إلا الخططين الحزوينين اللذين رسمتهما العجلتان على الطريق خلال ميل أو ميلين قبل أن تعتد يداه القيادة ، وإلا لجنول المهر لدى رؤية كل معلم في الطريق أو أى قطعة من الورق ، أو شريد ناتم في الطريق ، أو عربة يد ، وذلك ليغيد من فرصة عدم خبرة اليد التي تقوده .

ودخل بلدة كستر بريدج بين الساعة الثانية عشرة والواحدة ، وبعد أن نزل في فندق « أولد جبرهاوند » ، تمشى إلى الـ « بو » ، ووقف هناك ، وأطراف ملبسه مغبرة نوعا ، وانتظر حتى يخرج الناس المكسبون بأحسن حللهم الصيفية من الكنائس الثلاث المحيطة به . وعندما انصرف جميع أولئك القوم ، وتبددت ورائح المرق وبقايا الوقود التي انتشرت متصاعدة من الشارع الرئيسي القديم ، وروائح صحاف الفطائر المنبثثة من الخباز المتاخمة ، رأى عربة البريد تصعد إلى قوس « جري بريدج » ، الواقع على بعد نصف ميل ، وقد جثمت عليها عقد تتأرجح ، وظهر أن تلك العقد رهوس المسافرين الراكبين في جزئها المكشوف .

وقال روبرت لنفسه وقد تملكه إحساس شاعرى : « هذه هي الطريقة التي تقبل بها العروس لزوجها ! ، وما تعالى صوت النفير وجلبة الخيل وهي تصعد في الطريق حتى أتجه إلى الفندق ، وتجمعت جموع موظفي الفندق وخدمه ، وسجبت الجليد من العربة ، وطفق ركاب عربة كاستر بريدج ينزلون منها . وجال الربان بوب بنظره فيهم ، وتطلع إلى داخل العربة ، وعاد فنتطلع إلى خارجها ، ولحسية أملة لم تكن ماثيلا بين المسافرين ، ولم تكن حقايتها هناك أيضا ، ولم يظهر أثر لها . ولم يكن كل من سائق العربة وحارسها قد سمع شيئا عن شخص من هذا القبيل في ملشستر . وسار بوب مبتعداً على مهل . »

ولإذ أحزنته هواجسه إلى حد جرده من تلك شهيته ، جلس في ردهة « أولد جبرهاوند » ، على مسافة قصيرة من أسرة صاحب الفندق ، وقد اقترح هذا السيد الذي كان يتناول طعامه وهو لا يرتدى غير قيصره نظرا إلى أن ذلك الشهر كان شهرا أغسطس من ناحية ، وإلى شعوره من ناحية أخرى بأن هذا اللباس لن يكون لائقا في نظر الجمهور الذى سيأتى في الأيام التالية من الأسبوع . . . اقترح هذا السيد على بوب أن ينتظر إلى الساعة الثالثة أو الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم حتى تصل عربة البريد العادية ، فقد تكون السيدة المقفودة قد آثرت هذه الوسيلة من وسائل الانتقال . وعند ما ظهر أن هذا الاقتراح قد جرح شعور بوب نوعا ، أكدت له زوجة صاحب الفندق بوصفها امرأة تعرف أصول الحياة الكريمة ، أن كثيرين من القوم المهذبين يلجأون إلى وسيلة السفر تلك خلال هذه الآونة التي ارتفعت فيها أثمان الحاجيات . وقبل لفدى تأكيدها على الفور إذ هو لا يعرف

إلا القليل عن السفر برا ، وقرر أن ينتظر . وأخذ يضع الوقت هاتما فوق الرصيف ، رائحا غاديا ، أومتكتنا على حائط ساخن بين مكتب عربات السفر وناصية الشارع الأعلى . لقد كان عصر ذلك اليوم ساكنا شمسا ثقيلًا على النفس ، ولم تكند تبدو نسمة في طول الشارع وعرضه . ولم يكن المكتب بعيدا عن كنيسة وأول سينتس ، وإذا كانت نوافذها مفتوحة استطاع أن يسمع ، من حيث يقف متاكثا ، صلوات بعد الظهر واضحة كما لو كان يحضرها مع المحتشدن هناك . وهكذا سبح فكره خلال الأناشيد ، وخلال الدرسين الدينيين الأول والثاني ، وخلال انطلاق نغمات المكان والبراعة التي ساندت التسيحات ، كما اشترك في سماع الموعظة الدينية قبل أن يظهر أى أثر للعربة في طريق لندن .

وكانت مواظب بعد الظهر في تلك الكنيسة من النوع الجاف الميتافيزيقي الشائع في ذلك الأوان ، وبفعل عناية سماوية معينة وقع مكتب عربات السفر قريبا من ذلك البناء القديم ، وترتب على ذلك أنه كلما وصلت عربة الأحد متأخرة عن مواعدها ، وهذا يحدث في الجو الحار ، وفي الجو البارد ، والجو الممطر ، وكل جو من أنواع الأجواء الأخرى ... أغرقت الجلبة ونزول الناس والأيمان المظلمة ، أغرقت صوت القس إغرافا كاملا داخل الكنيسة ، وعطلت اهتمام المصلين الفاتر في الوقت المناسب تماما ... ولم يكند أطفال الصدقات ينحنون فوق مقاعدهم ، وغطيظ الكبار يصبح مسموعا ، حتى أقبلت عربة السفر .

وشعر الربان لقدى بنوع من هبوط عاطفته الشعرية بسبب احتمال مجيئها — وهي التي تم إعداد كل هذه الترتيبات لها — في تلك العربة البطيئة الغليظة التي كانت تفرقع في طريقها إليه . ولكنه لم يستسلم للحفاقة ... ولم يسر كذلك في الطريق لمقابلة العربة خشية ألا تكون فيها ، ووصلت العجلات العريضة في النهاية إلى حذاء حافة الرصيف . ونزل سائق العربة وهو يرتدى سترته البيضاء الطويلة الذيل ، ويمسك بسوطه الذي يبلغ في الطول غابة صيد السمك ... نزل من ظهر المهر الذي ظل يركبه طوال الرحلة . ورفعت أطواق الجياد الستة العريضة الصدور عن رقابها ، ونفضت أجسادها . وبعد دقيقة أخرى برز شيء ... وعرف بوب أن ماتيلدا كانت هناك .

وشعر بوب ، ، وهي تنزل من العربية ، بثلاثة هتافات (١) تتعالى في صدره . ولكن لسانه لم يرددها نظراً إلى أن اليوم يوم أحد . وفاق الآنسة جونسون ، وهي في زيتتها ، ما كان يتوقعه ... رداء من اللونين الأخضر والأبيض ، ذوكين محبوبين على ذراعها يصلان إلى المعصمين ، ومندبل حريري أخضر ملفوف حول جيدها ، ومصلوب الطرفين من أمام . ومظلة خضراء ، وقفاز أخضر . وكان غريباً إلى حد كاف أن يرى الإنسان هذا اليسوع الأخضر يخرج من عربة السفر ، وينفض عنه في رشاقة بقايا القش والزعغ التي يمكن أن تتجمع عادة فوق ثياب أعظم المسافرين في تلك العربية .

وقال بوب عندما قبلها ثلاث مرات في علانية صارخة ... وهذه هي الخطوة العملية التي اعترم أن يخطوها ، وقد ظهر أنه يرى ألا تظل هذه الأمور تقع في الأركان المتوارية :

— ولكن ، يا ماتيلدي العزيزة ... يا عزيزتي ماتيلدا ، لماذا لم تأت في العربية المقفلة ، ومعك أجزتها وكل ما يلزم ؟
وقالت ماتيلدا في اندفاع مبهج :

— هذا هو توفيري !! وأنا أعلم أنك لن تفتاظ عندما تعلم أنني أقدمت على ذلك لأوفر القرش الأبيض لليوم الأسود .

ولم يفتظ بوب بالطبع ، ولو أن نخامة الاستقبال قد تقصت . وحتى إذا كان الغضب ممكناً فإن الإفصاح عنه يكون في غير موضعه . ومع ذلك فإنه كان سيفاجأ مفاجأة صغيرة لو أنه عرف السبب الحقيقي لإقدام ماتيلدا على تغيير الخطة . فهذه الحورية ... بالاختصار ... قد أنفقت تقود بوب ، وتقودها هي نفسها ، في سبيل تزيين شخصها قبل السفر ، ووجدت بذلك أنها لا تملك القدر الكافي من التقود السفر في العربية المقفلة ، فوفرت ما وفرت بسبب محض الاضطرار .

وقال بوب :

— حسناً ، إن معي العربية ، الكارثة ، عند فندق « جزيهاوند » ، ولا أدري هل هي تتسع لأمتعتك ، ولكليتنا نحن الاثنين ؟ ولكنها تبدو أكثر احتشاماً

(١) من عادة الإنجليز ترديد الهتاف ثلاث مرات .

من العربة الكبيرة في يوم الأحد . وإذا لم يكن بها مكان لصناديقك فأنا أستطيع أن أسير إلى جانبها .

وقالت الآنسة جونسون في عذوبة :

— أظن أنه سيكون هناك مكان كاف .

ولم يلبث أن وضع كل الوضوح أنها صدقت فيما قالت ، فعندما وضع متاعها على الرصيف تبين أنه لا يزيد عن صندوق طوله ثمان عشرة بوصة تقريباً ... ولا شيء غير ذلك .

وقال الربان لعدى في دهشة :

— أوو... هل هذا كل ما هناك !

وقالت الفتاة تؤكد الأمر :

— هذا كل ما هناك ، فأنا لم أشأ أن أسبب لك أى إزعاج كما تعلم . وقد تركت عند خالتي الثرية باقى ما لدى من أمتعة .

وأجاب متقبلاً قولها :

— نعم ، بالطبع . وبما أنها ليست أكبر مما هي عليه ، فأنا أستطيع أن أحملها في يدي إلى الفندق . ومن ثم لا يكون هناك إزعاج البتة .

ورفع الصندوق الصغير ، وسارا جنباً إلى جنب حتى فندق « جريهاوند » ، وفي مدى عشر دقائق كان جواد العربة يركض بهما خبياً في شارع سوثرن .

ولم يستحث بوب الجواد إذ هناك أشياء كثيرة في حاجة إلى أن تقال وتسمع ، وهذا الطرف الحاضر مناسب لذلك أبداع مناسبة وكانت الشمس تسطع بين أوتة وأخرى على وجه ماتيلدا ، بينما العربة تسير بهما ، وأشعة الشمس تتعش أسارير وجه الفتاة ، وتخلع عليها لطفاً زائداً . وكان يمكن أن يقال عن عينيها لإنهما رماديتان . ولكنهما في لون ثعبان الماء حقاً ، كما هي حال غيرهما من العيون الرمادية اللطيفة . وهما حسنتا التكوين ، وأميل إلى الإشراق ، بيد أن إشراقهما أقرب إلى الامتداد منه إلى التلاؤ . وكان أنفها راسخاً ، مماثلت على قدر كاف ، وكانما يقول عن نفسه إنه لا بأس به على قدر حال الأنوف . وكانت لها طريقة بهيجة في إطباق شفها العليا على شفها السفلى ، ويفوق احمرارها تين

الشفنين مجرد تورد البشرة. وهي لا تنظر إلى الشمس المشرقة وراه التلال البعيدة . حتى ترسم هذه الشمس على جبينها ، دون أن تدرى ، ثلاثة خطوط عمودية قصيرة — لا تبدو في أوقات أخرى — هذه الخطوط تجعل نظرتها قاسية في هذه الحالة . . وإذا التفتت إلى زاوية بعيدة لتتطلع إلى شيء أو آخر أشار إليه بوب ، تحول لحم عنقها الملوى إلى عدد من الخطوط . ولكن بوب لم يعر هذه الأمور التفاتا ، فهي بالطبع ليست ذات أهمية . . . ألم تخبره ، عندما أخذنا يقارنان بين عمرهما ، أنها تجاوزت الثانية والعشرين بقليل ؟

ولما لم يكد الوعي في إبان القرن الماضى يدرك محاسن الطبيعة ، فإن ماتيلدا ، فتاة بوب ، لم تستطع أن تفيض في التحدث عن فتنه التلال ، أو عن ارتجاف ورق الشجر ، أو ضخامة المجد الذى يتحقق في البحار النائية . لم تستطع ذلك كما كانت تستطيع دون شك لو أنها عاشت في زمن لاحق . ولكنها بذلت جهدها لتشوق بوب وهو تسأله عن مسائل ذات أهمية اجتماعية خاصة بالأصقاع المجاورة التي هي أجنبية عنها تماماً .

وقد سألته وهما يصعدان في التل الذى انتظر فيه سكان أوفر كيب حضور الملك :

— هل منزركم البحرى مدينة كبيرة ؟

— بوركت يا عزيزتى . . لا . لأنها ما كانت لتصبح شيئاً مذكوراً لولا الأسرة الملكية ، واللوردات والسيدات زوجاتهم ، وكتائب الجنود ، والسفن الحربية ، ورسول الملك ، والممثلون والممثلات ، والألعاب التي تجرى هناك . وأرهفت الخلوقة الصغيرة البريئة أذنها لدى سماع الكلمتين « الممثلين والممثلات » :

— هل يدفع إليستون (١) أجوراً طيبة هذا الصيف كالتى كان يدفعها في . . ؟

— أوو ، أنت تلبين بهذا الأمر إذن ؟ لقد ظننت . . .

— أوو ، لا ، لا ! . . أنا سمعت عن بدماوث . . قرأت في الصحف ،

كما تعلم يا عزيزى روبرت ، عما يحدث هناك ، وعن الممثلين والممثلات كما تعلم .

(١) روبرت وليام إليستون . ولد عام ١٧٧٤ ، هجر الدراسة واحترف التمثيل وبرز فيه ، ثم أصبح مديراً لفترة تمثيلية وظل في الوقت نفسه يقوم بأدوار التمثيل الرئيسية (تعليق الأمل)

— نعم ، نعم ، فهمت . حسناً ، لقد تغيّبت عن إنجلترا زمناً طويلاً ولا أعرف الشيء الكثير عن المسرح في البلدة . ولكنني سأذهب بك إلى هناك يوماً ما ، فهل في ذلك نزهة لك ؟

وقالت الأنسة جونسون في حماسة قديمد الدقيق الملاحظة فيها صبغة من البشاعة :

— أوه .. نزهة مدهشة !

— لعلك لم تشهدي المسرح قط يا عزيزتي ؟

وقالت ماتيلدا دون تزويق :

— أبدا .. أبداً .. ما هذا الذي أراه هناك ؟ صفا من أشياء بيض

فوق التل ؟

— نعم ، هذا جزء من المخيم القائم على أوفر كيب . فهناك جنود كثيرون يعسكرون هناك . وهذه هي أعالي خيامهم البيض .

وأشار إلى جناح من المعسكر بدا الآن واضحاً . وكانت ماتيلدا شديدة الاهتمام بذلك وأضاف :

— سيهجننا ذلك بهجة كبيرة ، لا سيما وأن جون هناك .

وكان ذلك من رأيها هي أيضاً . وعلى هذا النحو واصلت الأثرثرة ؟

نوبتا إغماء

وحيرة

(١٧)

في هذه الأثناء كان ميلر لفدى ينتظر الزوجين في اهتمام . وحوالى الساعة الخامسة ، وبعد تكرار النظر ، رأى بقعتين كل منهما في حجم حبة الكراوية تبدو ان في حافة الخط الذى يلتقى فيه بياض الشارع الذى تضيئه الشمس بزرقة السماء . ثم أخذت سائر أجزاء بوب وزوجه تظهر له . ثم ظهرت العربة كلها وهى تتقدم . وسمع الضوضاء الجافة للعجلات الجارية على الطريق المرعب . وكانت خطة ميلر لفدى ، في نطاق ما إذا كان دبر خطة ما ، أن يقطن روبرت وزوجه في دار الطاحون معه حتى يستقر رأى السيدة جارلاند على أن تقطن هى معه هناك . وفي هذه الحالة يعطى منزلها الراهن لى الزوجين السابقين . وكان يريد ، على أية حال من الأحوال ، أن يرحب ترحيباً لائقاً بالمرأة التى وقع عليها اختيار ابنه . وتقدم إليهما في حزم بيتنا كأنا يتقدمان إلى الباب .

وقالت الآنسة جونسون عندما تسلمها صاحب الطاحون من الريان :

— أى مكان جميل هذا الذى تملكه هنا !! هذا جدول ماء حقيقى ، وهذه عجلة طاحون حقيقية ، وهذا دجاج حقيقى ... وكل شيء كذلك !

وقال لفدى وهو ينظر إلى النهر ، مزين العاطفة :

— نعم ... إنها حقيقية على قدر كاف . وستقولين هذا القول نفسه عندما تعيشين هنا مدة وأنت سيدة المنزل ، وتتجشمين مشقة تنظيم الرياش .

وعندذاك ظهر على الآنسة جونسون التواضع ، وظلت كذلك إلى أن جاءت آن من حول زاوية المنزل ، دون أن تعرف أنهم هناك ، وكان كتاب الصلوات في يدها ، فقد وصلت على التومن الكنيسة . ودار بوب وابتمس لها ابتسامة بدت الآنسة جونسون عابسة على أثرها . ولا يعلم أحدكم من الوقت كانت ستظل على تلك الحال ، إذ غشيت أذنيها في هذا الوقت بالذات نغمة عميقة جهرية ترامت

من الناحية الأخرى ، وجمالها تقفز من مكانها وصاحت وقد رأت بقرة
من بقر لندى تدعى « كرومير » ، تقف بالقرب منها ، وتكاد تلاصق كنفها .
— أوو ، لاه ! ما هذا الشيء الخيف ؟

وإذا كان وقت الحليب آن أواته ، فقد أقبلت البقرة تبحث عن ديفيد
لتنعجل القيام بالعملية :

وقالت ماتيلدا :

— أوو ، ياله من ثور فظيع ! . . . لقد أخافني إلى حد كبير . أرجو
ألا يغمى على .

واستعمل صاحب الطاحون على الفور تلك العبارة الاصطلاحية التي يردها
مالكو الدواب منذ أيام سيدنا إبراهيم :

— إنها لن تؤذيك . . . هوش يا كرومير ! . . . إنها ياسيدتى ، شديدة الخوف
مثل فأر البيوت .

وإذا أصرت البقرة على القيام يبحث مفرغ آخر عن ديفيد لم تتمالك ماتيلدا
أن تغلق عينها وتقول :

— أوو ، سننطحني حتى تقتلني .

وترأى رأسها على كتف بوب الذي كان واقفا ، بعون القدرة الإلهية — وهو يرى
الملابس الملحة ، ويعرف طبيعتها الرقيقة — في موضع يستطيع معه أن يتلقفها . . .
وشمرت آن جاراتند عند ذلك بتيقظ المشاركة العاطفية الأثوية فيها بينما كانت
تقف في ركن من المنزل دون أن تعرف أتعود أدراجها أم تتقدم إليهم . . .
ولكنها جرت وغمست مندبلها في طرف حوض الطاحون ، وبلكت به وجه ماتيلدا .
ولما بقيت عينا هذه الأخيرة مغمضتين ، أخذ بوب المندبل من آن ، بقصد
مضاعفة التأثير ، وأخذ يعصره على قصبه أنف ماتيلدا ، حيث فاض الماء على
سائر وجهها فيضانا .

وقالت آن :

— أوو ، يا كاتين لندى إن الماء يتدفق على مندبل جيدها الأخضر ، وعلى
حقيبة يدها المزركشة !

وصاحت ماتيلدا وهى تفتح عينيها ، وتنصب قامتها ، وتنتزع فى حزم ،
متديبل جيها ، وتمسح به قطرات الماء ، وشائبة طفيفة شابت لون بشرتها .
وساعدتها آن التى لم تستطع إلا أن تهتم بالأمر رغم ما يكن وراء ذلك من
عواطف متنازعة :

— هنالك !.. وكأنى لم أتوقع ذلك !

وقال صاحب الطاحون وقد انعمشت معنويته مع انتماش معنوية ماتيلدا :
-- هذا صحيح ! إن السيدة لم تألف حياة الريف ، أليس كذلك يا سيدتى ؟
وقالت ماتيلدا المتأللة :

— أنا لم آلفها . كل شىء حولى هنا غريب .

وانتشرت فى الجو على حين لجأة أصوات مترامية من ناحية التل :

ورا ، تا ، تا ! ... تا ، تا ، تا ، تا ، تا ! را ، تا ، تا ! ...

وتساءلت وقد جفلت مرة أخرى :

— أوو ، يا إلهى ! ... يا إلهى ! ... أظنها أصوات مفزعة أخرى من
أصوات الريف ؟

وقالت صاحب الطاحون مبهتاً :

— أو ، لا . إنهم جنود البروجى التابعون لابنى جون فى فرقة الدراغون
المرابطة فوقنا تماماً . وهم يعزفون لحناً من تلك الألحان التى يتخيلونها . وسوف
يسر جون أن يفسر لك معناها عندما ينزل إلينا . إنه جاوئش البروجى كما قد
تعلمين يا سيدتى .

— أوو ، نعم . أنت تقصد أغا الربان بوب . لقد حدثنى عزيزى بوب عنه .

وقال صاحب الطاحون :

— إذا جئت إلى جانب الدار الخاص بمسكن السيدة جارلاند استطعت أن
ترى المسكر .

وقالت السيدة جارلاند مدفوعة بماطفة إنسانية :

— لا تفصها . فهى متعبة بسبب رحلتها الطويلة .

وكانت هذه الأرملة قد جاءت تقصد بوجه عام أن ترى من وقع عليها اختيار

بوب . وكان الجميع يعاملون هذه الأخيرة في الواقع على أنها أجنبية رقيقة قد تؤذيها طباعهم الريفية غير المهذبة أذى جدياً .

وذهبت إلى المنزل تصحبها السيدة جارلاند وابنتها . غير أنها رتبت أمرها قبل انصرافها على أن تهمس في أذن بوب بقولها : « لا تخبرهم أني جئت مستقلة عربية السفر العادية ، هل تستجيب لذلك يا عزيزي ؟ ، ... وهو طلب لم تكن ثمة حاجة إليه لأن بوب اعترزم قبل ذاك بزمن أن يحتفظ بهذا السر في قبر ، ولا يرجع السبب في هذا إلى أن تلك العربية لم تكن وسيلة مألوفة للسفر ، ولكن مجرد أنها ليست وسيلة مألوفة لسفر سيدة عظيمة إلى عروسها .

ولإذ اعتور الرجاين شعور بأنه لا داعي لبقائهما حالياً داخل المنزل راح صاحب الطاحون يعاون ديفيد على سحب الحصان إلى « الإصطبل » ، وتبعه بوب تاركا ماتيلدا للرأتين . وفي داخل الدار أعجبت الآنسة جونسون بكل شيء ... بالببغاوات والقرودة الجديدة على الدار ، وبأعمدة السقف السود ، وخزانة الآنية ذات الأركان المزدوجة ، والمصراعين الزجاجيين اللذين يلمع من خلالها باقى أظغم من آنية صينية مختلفة اقتنتها أم بوب أثناء إدارتها لشؤون الدار ووعاء للسكر ذو مقبضين ، وأقداح للشاي بلا مقابض ، وإبريق للشاي يشبه الهيكل الهندي ، ووعاء للزبد على شكل بقرة مرقشة يبقع مختلفة الألوان وقابلت السيدة جارلاند وابنتها لطف معاملة ضيفتهما بثلاثها . وكانت عادة الآنسة جونسون اللطيفة ، وهى أن يموت بعضها لدى سماعها أى بناح أو جزوار غير عاديين ، قد أكسبها حرافة جديدة في أعينهما . ولكن من الطبيعي أن محادثة من هذا القبيل تكون في بادئ أمرها من نوع عصبي تجريبي يتبع المعنى فيه الحدس إلى حد بعيد ، كما هى الحال في منظومات بعض الشعراء المجهمي التعبير .

— إن نسيم البحر يصل إليكم هنا دون شك ؟

— أوو ، نعم يا عزيزتي ؛ عندما تهب الريح من هذه الناحية .

— هل تحبين الجو الشديد الريح ؟

— نعم ، ولو أني لا أحبه الآن ، لأن الريح تسقط ثمار التفاح الصغيرة .

— يبدو أن التفاح وفير عندكم . أأتم ياسكان الريف تسمون مولد « سان

سويثين » يوم التعميد فيها إذا أمطرت السماء .

- نعم ، يا عزيزتى... آه ؛ ويحى !... أنا لم أحضر حفلة ترميد إلا مرة واحدة خلال هذه السنوات العديدة... وأذكر أن اسم الطفل كان جورج... لقد سمى باسم الملك .

- باغنى أن الملك جورج لا يزال في البلدة هنا . أرجو أن يظل بها حتى آراه .
- سينتظر لى أن يتحول اخضرار القمح إلى اصفرار . فهو يفعل ذلك دائماً .
- كم انتشر اللون الأصفر ، الذى أصبح أحدث طراز ، بين القفازات في الوقت الحاضر بالذات !

- نعم . وقد سمعت أن بعض السيدات يلبسها طويلة حتى المرافق .
- هل يفعلن ذلك ؟ أنا لم أتنبه للأمر . لقد اصطدمت بمرفقى في باب بيت عمى صدمة قوية في الأسبوع الماضى إلى حد أنى لا أزال أشعر بالألم إلى الآن .
وقبل أن تغلب عليهن أهمية هذا الحديث تماماً دخل عليهن صاحب الطاحون وبوب . وفى الحق إن السيدة جارلاند وجدت المهمة التى أقامها صاحب الطاحون على القيام بها - وهى تعريف سيدة غريبة ببيت ليس بيئها - وجدت هذه المهمة سمجة نوعاً ، بيد أنها كادت تكون مع ذلك ضرورة . فلم تكن هناك امرأة تابعة للدار إلا تلك المرأة التى هى مختصر عجيب لمفهوم « المنفعة » ، تلك الخادمة غير المتفرغة التى استعارها لعدى - لداعى المظهر - من السيدة جارلاند ، بينما اعتادت السيدة جارلاند بدورها أن تستعيرها من أمها . أما بشأن ديفيد - الذى كان نصف خادم ونصف خادمة - فقد أنبىء خباز فرعون ، بأنه مجرد من وظيفة خادمة شؤون البيت ، وخادمة غرفة النوم ؛ إذ نيط بالفتاة أن تقوم بتلك المهمة حتى يتم الزفاف فتتولى زوجة بوب عندئذ تدبير شؤون المنزل .

وجلس الجميع للاستمتاع بشرب الشاي . وتضمن المجلس آن وأمها ، وجلس الزبان إلى جانب الأنسة جونسون . وبدت آن متجلدة في صدد هذا الأمر - في الظاهر على الأقل - وظهر أنها تغلبت بطريقة موفقة على أية عاطفة متبقية كانت عودة بوب قد أحيتها . وفى خلال المساء ، بينما كانوا لا يزالون يجلسون حول الطعام ، جاء لإلهم جون في زيارة سريعة ، تحقيقاً لما وعد به وبدا في الظاهر أن السبب يرجع إلى تعرفه بزوجة أخيه المرتقبة ، ولكنه كان يرجع على نحو أشد بكثير إلى رغبته في أن يفوز بكلمة وابتسامة من آن المحبوبة . وقبل أن تقع عليه

أعينهم ، التقطت آذانهم خطوات الجاويش البروجي النشطة وهو يقدم من حول ركن المنزل ، ولم تمر لحظة حتى ألقي هيكله ظلّه على الباب. ولما كان اليوم يوم أحد فقد ظهر في بزته العسكرية الكاملة .. سترته ذات الأشرطة ، وصداره الأبيض ، وسرواله ، وريشة قبعته التي كانت منتصبه ، ولكنه لم يلبث بعد ذلك أن نكسها ، مسوقاً إلى ذلك بالضرورة انسياقه إليه بأدب اللياقة ، فإن أعمدة السقف في دار الطاحون تميل إلى سحق مثل هذه الزينة وتدميرها دون سابق إنذار.

وقال صاحب الطاحون :

— جون ، كنا على أمل أن تأتي ، ولذلك أبقينا الطعام موضوعاً على المائدة عن قصد. تقدم وحادث السيدة ماتيلدا جونسون .. سيدتي ، هذا أخوجون .

وقال الجاويش البروجي في نبل :

— خادمك الخاضع ياسيدتي .

ولما كان الظلام قد بدأ يغبر في هذه الغرفة الأرضية ذات النافذة الزجاجية الصغيرة فقد تقدم جون ، بدافع الغريزة ، بينما كان يتكلم ، إلى الأنسة جونسون التي كانت تجلس موالية النافذة ظهرها. ولم يكذبين ملاحظتها حتى أوشتت خوذته تسقط من يده ، وتجمد وجهه فجأة ، وتبدد لونه الطبيعي ، وحل محله لون أصفر مشوب بالاحضرار .

أما الفتاة الشابة فما نظرت من ناحيتها إليه عن قرب حتى قالت في ضعف :
« أخو روبرت ! ، وتبدل لونها مع ذلك على نحو أسرع من تبدل لون الجندي .
والإغماء الذي كان في المرة الماضية نصف مصطنع ، تملكها الآن في جد حقيقي .
وقالت وقد وقفت فجأة وهي تبذل مجهوداً :

— أشعر بأني لست في حالة جيدة ، فهذا اليوم المحتدم قد هد كياني !
وانهار حفل الشاي انهياراً تاماً كأنهار الحفل في مشهد مسرحية هاملت .
وأمسك بوب محبوبته وحملها إلى الطابق العلوي. وصاح صاحب الطاحون :

— آه ، إن الرحلة أنهكتها إنها كما مرعجاً ! وقد أدركت ذلك عندما رأيتها على وشك الإغماء وقت أن خارت البقرة . فما من امرأة تخاف ذلك لو أنها متألمة لقوتها الطبيعية .

وأضافت السيدة جارلاند وهي تتبع الفتاة المصابة بالنكبات إلى الدور العلوى ، وكان توقعك تلك الفتاة في هذه المرة مقطوعاً به .
— هذا بالإضافة إلى كون شدة حياتها من الرجال جعل ملابس جون العسكرية الجميلة غلابة عليها ، هذه المخلوقة المسكينة .

ومع ذلك كانت — بشيء من مقاومة عنيدة يبذلها قلبها — تنوق إلى التخلص من إغاثتها بمقدار ما كانت ترغب في زيادة حدته منذ ساعتين أو ثلاث ساعات مضت .
ووقف صاحب الطاحون وجون كعصاتين معتدلتين في الغرفة التي غادرها الآخرون . ودار وجه جون فجأة إلى حيث تعلق بالحائط صورة كريكاتورية لتابليون لم يكن قد رآها من قبل أكثر من مائة وخمسين مرة .
وقال أبوه أخيراً :

— تعال اجلس ، وتناول على أية حال قدحاً من الشاي ، فلا شك أنها ستعود إلى عافيتها عما قريب .

وأسرع جون إلى القول :

— شكراً ، فليست أريد شايأً قط . وهو لم يكن يريد فعلًا ، فقد كان يعاني ألماً هائلاً يمتد من رأسه إلى قدمه .

وكان الضوء ضئيلاً جداً إلى حد لا يلاحظ أحد معه دهشته . وقال الجاويش البروجي إنه سيخرج اللحظة من اللحظات دون أن يعرف أين يذهب ليصرف تلك الدهشة .. . أسرع إلى مخبز البيت ولكنه إذ وجد ديفيد هناك اتجه إلى مخزن المؤن . بيد أنه إذ وجد الخادمة هناك اتجه إلى الكوخ الذي توضع فيه العربة ... ولكنه إذ وجد شريدين يتسكمان هناك ذهب خلف صف من شجر البازلاء الفرنسية في الحديقة حيث تمت لنفسه تتمتع من أتقى ما فاه به في يوم الأحد هذا .
قال « برني » ماذا يجب أن أصنع ،

ثم مشى ثائراً في ممرات الحديقة المعتمة حيث بدا خريف الجداول مرتفعاً بالنسبة للسكون الخيم حوله . وفي غير مبالاة وطئت قدمه القواقع التي تقدم لإطعامها ، واشتبك مهمازه بالحشائش الطويلة حتى اكتظت حلقاه بمخلفاتها . ثم لم يلبث أن سمع صوت شخص يقترب . وظهر شكل أخيه بين جذع الشجرة المقتلعة والحاجز .

وقال الملاح :

— أوو ، أهو أنت ؟

— نعم ، هو أنا .. خرجت أستنشق الهواء الطلق .

— لأنها تثوب إلى رشدها ثانية على نحو طيب . ولما لم يكونوا في حاجة إلى داخل الدار فسأذهب إلى البلدة لأزور صديقاً أو صديقين لم أتمكن من أن أتبادل معهما الحديث بعد ، وهما يودان أن أراهما ، أول ما أراهما يوم الأحد وهما يتحليان بأجبي ملابسهما .

وأمسك جون أخاه بوب من يده . وعجب بوب لذلك نوعاً .

وقال جون :

— حسناً يا صديقي . أتذهب إلى البلدة ؟ .. أظن أنك ستعود ثانية قبل أن يتأخر الوقت كثيراً ؟

وقال الريان بوب معتبطاً :

— أوو ، نعم .

وخرج من الحديقة .

وترك جون عينيه تتبعان أخاه حتى تعذرت رؤية شكله . ثم دار وعاد يذرع الحديقة صاعداً هابطاً ؟

الليلة التي أعقبت . . .

مقدم ماتيلدا .

(١٨)

وظل جون يمشى في خطوات ثقيلة حزينة إلى أن بدأ المشى بطريقة عتيقة بالية لإظهار حزن جديد كل الجدة . ومال متكئاً على فرع شجرة تفاح كأنه حرمة حطب . وظل جاويش البروجى هناك مدة غير قليلة ، ميماً وجهه شطر المنزل الذى ارتفعت معالمه القديمة ، العديدة الداخن ، تجاه السماء المظلمة ، ووارت ، على قدر سواء ، منظر المعسكر القائم فوق التل . ولكن الجلبة الخافتة الصادرة من ناحية الخيول المتبرمة في قيودها هناك ، نهت جون إلى وجود ذلك المعسكر ، وأذكرته أنه حصل على إذن بالغياب تلك الليلة عنه بسبب مقدم ماتيلدا . . . هذه الواقعة التى لم يذكرها لأولئك الأصدقاء نظر إلى المشاعر المثيرة التى جاشت لمر دخوله عليهم .

وبينما كان يتأمل ، نظرياً ، كيف يفيد من تلك الميزة في هذه الظروف الطارئة ، سمع المزارع دريمان يقدم إلى باب الدار الأمامى راكباً ، ويشترك في حديث مع أبيه . فالرجل الهرم قد جاء آخر الأمر ، على ما يبدو ، بصندوق الصفيح المشتمل على أوراقه الخاصة التى رغب في أن يحتفظ صاحب الطاحون بها أثناء غيابه . ونظراً إلى مدوه تلك الليلة فقد استطاع جون ، ولو أن اهتمامه بالأمر كان ضئيلاً ، استطاع أن يسمع توسلات العم بنجى المتكررة إلى لعدى أن يحتفظ بصندوقه في مأمن من التيران واللصوص . ثم انصرف العم بنجى ، وصعد أبوه إلى علو الدار ليحفظ الصندوق في مكان أمين . ووصلت أصوات ما حدث جميعها إلى بال جون المشغول كأنها مجرد أصوات تردد أثناء المنام .

والشئ الثانى الذى حدث هو ظهور نور أضىء في الفرفة المخصصة لمبيت ماتيلدا . وقد أثار ذلك الجاويش البروجى لإثارة فعالة ، فدخل البيت في تلصص غير معهود فيه . وكانت غرف الطابق الأرضى لا نور فيها ، فأبوه والسيدة

جارلانده وآن كانوا قد خرجوا متوجهين إلى الجسر لمشاهدة الهلال الجديد .
وصعد جون إلى الطابق العلوى على أطراف أصابع قدميه ، واجتاز طول المر
المعوج حتى وصل إلى باب غرفتها ، وكان موارباً ، وضوء الشموع الكثيرة ينير
عبر المر ويصل حتى الحائط الأعلى المقابل . وما دخل ذلك المجال المتألق حتى
رآها . وكانت تقف أمام مرآة ، وقد بدا عليها أنها مشغولة البال . وتشابكت
أصابع يديها خلف رأسها وهي شاردة اللب . والضوء ينسأط بكل لآلئه
على وجهها .

وقال جاويش البروجى :

— لا مناص من أن أحادثك .

وجففت . . ودارت ، وازدادت شغوباً عن ذى قبل ، ثم فتحت الباب على
مصراعيه كأنما دفعها إلى ذلك دافع مفاجئ . . وخرجت وهي تقول فى رباطة
جأش تامة وظرف ظاهر :

— أوو ، نعم . أنت أخو حبيبي بوب أنا لم أعرفك لبرهة قصيرة .

— ولكنك عرفتى الآن ؟

— بحسبانك أخوا بوب

— ألم ترى من قبل ؟

وأجابت ووجهها جامد التعبير كوجه تاليران (١) .

— لا ، لم أرك .

وكررت قولها :

— لم أرك .

— ولم ترى أحداً من جنود فرقة الدراغون رقم ٢٠٠٠ . ولا الكابتن جوللى ،
والكابتن بوبى ، والسيد فلايت مثلاً ؟ .

— لا .

وقال بلهجة جافة :

(١) وزير لويس الثامن عشر المشهور بسياسته الخيثة المستهرة (تعليق الأصل) .

— أنت تخطئين ، وسأخبرك بالتفصيلات .
وأسهب في تذكيرها بذلك . وقالت يانسة :
— أبدأ !

ولكنها أخطأت وهي تحسب حساب مقاومتها ، وطبع خصمها . وانهمرت
دموعها بعد مرور خمس دقائق . وتحول الحديث إلى عبارات اتخذت من جانب
الجندي طابع الأوامر التي خفف الإشفاق من غلوائها ، واتخذت من جانبها
طابع مجرد سلسلة من التوسلات .

ولم يطل المشهد بأسره أكثر من عشر دقائق . وما انتهى حتى مشى الجاويش
البروجي مبتعداً عن عتبة الباب التي كانا يقفان عندها ، ومسح البلل عن عينيه
وإذ وصل إلى غرفة لسقوط المتاع وقف ساكناً لهدى روعه . ثم نزل في سلم
فلنسكى إلى الناحية الخلفية من المنزل بدلا من النزول في السلم الأمامي . ووجد
الباقين ، ومن بينهم بوب ، قد اجتمعوا في الردهة أثناء غيابها ، وأضاءوا الشموع .

وقبل أن يدخل جون البيت من جديد بفترة من الوقت كانت الآنسة جونسون
قد زلت إلى الدور السفلي لتقول إنها تفضل أن تلزم غرفتها تلك الليلة ، ولا ينتظر
أن تنضم إلى مجلسهم ، وعلى هذا لم يظهر بوب من الانتعاش إلا أقل مما اعتاد
لإظهاره . وإذ رغب صاحب الطاحون في رفع معنوية ابنه عبر عن أسفه لعدم
تمسكهم من الغناء حتى يجعلوا الليلة مبهجة ، وذلك نظراً إلى أن اليوم يوم أحد .
وعندئذ اقترحت السيدة جارلاندا أن ينشدوا الأناشيد الدينية ، وإذا ما اختاروا
منها الأناشيد ذات النغمات البديعة ، وإذا لم يفكروا في الكلمات ، فإنها تصبح
صالحة للغناء كالملاحم المنظومة .

وهذا ما فعلوه ، حين ظهر الجاويش البروجي وانضم إلى سائرهم . ولكن
الواقع أن نعمة ما لم تخرج من بين شفثيه المتحركتين . كان ذهنه يعاني حالة بلغت
من الشدة حدا لم يستطع معه حتى استخلاص متعة من وجود آن ، برغم أنه
اشترك معها في الإمساك بطرف كتاب واحد .

وكانت تعامله بطريقة لطيفة تختلف عن الطريقة التي اعتادت أن تتبادى فيها .
لقد رأت غيوم الفكر تخيم على ذهنه حاولت أن تبددها وهي بعيدة عن أن
تحزر سبب تجمعها .

ووجدت السيدة جارلاند وابنتها في النهاية أن الوقت قد حان لانصرافهما .
وحجى جون لفتدى ، في نفس الوقت ، أباه وبوب متنصراً ، ومشى مع السيد
جارلاند حتى باب دارها .

ولم ينبس بكلمة تدل على أنه حصل على إذن بالمبيت تلك الليلة خارج المعسكر
ويرجع سبب ذلك إلى أن هناك عملاً مؤلماً لابد من القيام به ، ومن الأفضل له
أن يقوم به سراً ، وعلى انفراد . وعوق بالقرب من المنزل حتى توقفت أضواء
نوافذه عن التلألؤ فوق حوض الطاحون ، وأصبح كل ما يشتمل عليه مظلاماً ساكناً .
ثم دخل الحديقة ، وانتظر هناك حتى انفتح الباب الخلفي ، وخرجت منه قامة
امرأة تتقدم في وجل . واتجه إليها لفتدى على الفور ، وبدأ يتحدثان في صوت
خافت ، ولو أن نبراته كانت مفككة .

وظلا يتحدثان مدة عشر دقائق ، وإذا افتراقا وكأنهما وصلتا إلى تسوية
مؤلمة . وإذا كانت الأنسة جونسون تصعد التبهيدات في ألم ، أطل رأس إنسان
متلصصاً من خلف صف الحواجز ، وبعد لحظة صرخ صاحبها صرخة عالية :

— لصوص ! ... لصوص ... صندوق الصفيح ! لصوص ! لصوص ! ...
وتوارت ما تيلدا داخل المنزل ، وأسرع جون لفتدى إلى الحاجز وصاح :
— بحق ربك أمسك لسانك يا سيد دريمان !
وقال العم بنجى :

— صندوق الصفيح ! أو ، إنه ليس سوى الجاويش البروجى ! .
— أؤكد لك أن صندوقك في أمان موفور . وليس في الأمر إلا أن ...
وهنا أطلق الجاويش البروجى ضحكة مصطنعة واستطرد :
— ليس في الأمر إلا شيء من المنازلة الماكرة كما تعلم .
وقال مالك الأرض الصغير الهرم وقد شعر بالفرحة :

— ها ، ها . فهمت ! أنت تغازل الأنسة آن ! إنك أبعدت ابن أخي عنها !
إذن يا جاويش البروجى ! حسناً ، إن ذلك لأفضل . أما عن نفسي في الحق لاني
لم أستطع أن آوى إلى فراشي بسهولة نظراً إلى ما خطر لي من أن أبالك قد لا يتم
بما أودعته لديه . ورأيت آخر الأمر أن أحضر ، وأن أرى ، قبل دخول البيت ،

هل كان كل شيء آمناً هنا . وعندما رأيت قوامكاً هيأت لي أعصابي المسكينة أنكما
من مقتحمي البيوت ، ومن رجال بوني ، ولست أدري كل ما خطر لي
خلاف ذلك .

وقال الجاويش البروجي وقد سمع طرق الصلب للحجر الصوان صادراً من
غرفة نوم أبيه ، وتلا ذلك بعد دقيقة ارتفاع أضواء إلى نافذة نفس تلك الغرفة :
— لقد أزعجت من في المنزل .

ثم أردف متجهماً إذ فتح أبوه النافذة :

— وأوقعتني في ورطة !

وقال العم بنجي :

— أنا آسف لذلك . ولكن تراجع إلى وواء ، وسأصلح الأمر ثانية .

قال صاحب الطاحون وقد ظهر لدى فتح النافذة غطاء رأسه الليلي مربوطاً
بالأشرطة :

— ما الأمر بحق رب السماء ؟

وقال المزارع :

— لا شيء ، لا شيء . لقد ساورني القلق على سنداتي ووثائق القليلة ،
وسرت في هذا الاتجاه يا صاحب الطاحون نظراً إلى أنني سأبدأ رحلتي صباح غد .
وخيل لي عندما وصلت إلى سور حديقتك أنني رأيت لصوصاً ولكن اتضح
أنه . . اتضح أنه .

وهنا ألقى الجاويش البروجي قبضة تراب أصابت ظهر العم بنجي على
سبيل التذكير :

— اتضح أن فرعاً من شجرة الكرز كان يتمايل مع الريح . طبت مساء .

وقال ميلر لعدى :

— ليس هناك لصوص يتناولون على داري . والآن حذار من أن تحضر
وترجعنا على هذا النحو مرة ثانية أيها المزارع ، وإلا فعليك أن تحافظ أنت نفسك
على صندوقك . . ومعدرة إذ قلت لك ذلك . . طبت مساء .

— مادت أنني هنا ، فهل تسمح يا صاحب الطاحون أن تلقى مجرد نظرة . .

بمجرد نظرة لترى هل الصندوق في أمان ؟ إنك رجل طيب ! وأنا رجل هرم كما تعلم ، والبقية المسكينة للمتبقية منى لم تعد تماثل ما كنت عليه أصلاً . اذهب وتحقق من إذا كان الصندوق في الموضع الذى وضعته فيه . إنك لرجل طيب رؤوف .

وقال صاحب الطاحون مغتبط المزاج :

— حسناً ، سأذهب .

— يا جارى لعدى . أرى بعد التفكير ثانية أن أعود بصندوقى على أية حال ، إلى دارى من جديد ، إذا أنت لم تجد فى ذلك ضيراً . وإنك لن ترى ذلك تصرفاً سيئاً منى ؟ . أنا لا يساورنى شك فىك بالطبع ، ولكنى أفكر الآن فى الأمر ، إذ هناك منافسة بين ابن أخى وابنك . وإذا استقر فى ذهن فستوس ، مدفوعاً بدافع العداوة ، أن يشعل النار فى بيتك ، فهذا سيكون وخيم العاقبة على سنداقى ووثائقى . لا غشاضة يا صاحب الطاحون ، ولكنى سأخذ الصندوق إذا لم يهملك الأمر .

وقال لعدى :

— يقيناً إن الأمر لا يهمنى . ولكن خير لابن أخيك أن يفكر مرتين قبل يدع عداوته تتخذ هذا اللون .

وتناول الشمعة وهو يرجع عن النافذة ، وذهب بها إلى جانب خلقى من الغرفة ، ولم يلبث أن ظهر ثانية ومعه الصندوق .

وقال دريمان متروياً :

— أنا لن أزججك بمملك على ارتداء ملابسك ، فيممكنك أن تدلى الصندوق بأى شىء يقع تحت يدك .

ودل الصندوق بحبل ، واحتضنه الرجل الهرم بذراعيه ، وقال بعرفان للجميل صادر من القلب :

— أشكرك ! طاب مساوك !

ورد صاحب الطاحون التحية ، وأغلق النافذة ، وانطلقاً النور .

وقال الجاويش البروجى :

— والآن أرجو أن تكون قد قنعت ياسيدى ؟

وقال دريمان ماثلا على عصاه التي يتوكأ عليها .

— جداً ، جداً !

وسار في طريقه المهجور .

واضطجعت آن في فراشها تلك الليلة مفتحة العينين ، متأملة ملاح الصديقة الجديدة التي حلت بيت جارها . وهي لن تنتقدها ، فالتقد في هذه الحالة غير كريم ، ومجاف للصواب . ولكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير فيما هما وتساءلت في صمت : أتوجد هناك ميزات نادرة بالفعل تميز عقلية الآنسة جونسون وشخصها على نحو تلك التي رفعت هذه السيدة كلية إلى ما فوق مستوى مقارنتها بها ؟ أو ، نعم . لا بد أن تكون هناك مثل تلك الصفات ، وإلا لما اختارها الربان بوب من بين سائر الناس جميعاً ، بما في ذلك هي نفسها ؟ وهو بالطبع أدرى نظرا لخبرته العالمية .

وعندما غرب القمر ، ولم يبق في السماء إلا نجوم الصيف تلتق بأصواتها على الحديقة الفسيحة الرطبة ، خيل إليها أنها تسمع أصواتا تترامى إليها من ناحية تلك الحديقة ولعلها كانت أصوات بوب وماتيلدا وهما يجولان جولة العشاق قبل أن يأويا إلى فراشهما . فإن صدق هذا فكم سيثقل النعاس جفنيهما في اليوم التالي ، وكم سيكون سخيفا من ماتيلدا أن تدعى التعب ! وغلب آن النعاس وهي تجتر الخواطر على هذا النحو ، وتقول لنفسها إنها تؤمل أن يسعدا .

خلق الأنسة جونسون

يسبب دهشة غير قليلة

(١٩)

استيقظ بوب في صباح اليوم التالي مبكراً كأيهِ وكالسان ويرجع بعض ذلك إلى اضطرابه لمبيت ما تيلدا تحت سقف أبيه . وعند ما بدأت عجلة الطاحون الكبيرة تقمع ، وتجيها غنمة العجلات الصغيرة ، خرج إلى ساحة الطاحون الأمامية ليستدفيهِ بالشمس بين الدجاج الرمادي والمرقس على أنواع منوعة ، وقد أم المكان هو والبط الذي جاء من المر المؤدى إلى الطاحون .

وتحدث إلى أبيه ، وهو واقف على حجر الطاحون المتآكل المغروس في الحصى . . تحدث إليه عن التحسينات المنوعة التي بنى إدخالها على الاستعدادات الأولية للزواج ، وعلى الترتيبات المقترحة لإعداد مكان دائم لإقامته ، وقد شعر بتمعة أنبى بعضها على ما يدخره المستقبل المأمول ، وبعضها الآخر على تغلغل دفء الشمس إلى ظهره وكشفيه . ثم بدأ الهبوط الصباحي لمختلف طوابير الخيل إلى حوض الطاحون ، وبعد أن لوتت حفاقي ذلك الحوض بالطين صعدت في المنحدر ثمانية . وازداد ضجيج المعسكر وضوحاً على التوالي ، وعندئذ جاء ديفيد يعلن أن طعام الإفطار معد وسأله صاحب الطاحون :

— هل الأنسة جونسون في الدور السفلي ؟ .

وأصت بوب إلى الجواب وهو ينظر إلى ديدبان في أعلى التل ، يرتدى بزة زرقاء ، وقال ديفيد الممتاز :

— لم تنزل بعد يا سيدى .

وقال لعدى .

— سنتظر حتى تنزل ، ونبتنا بنزولها في حينه .

ودخل ديفيد البيت ثمانية ، وواصل لعدى وبوب تفتيشهما الصباحي بالصعود إلى أروقة الطاحون الغامضة المهترئة ، وخوض مناقشة حول حجرى طحن منقوشين

آخرين لا بد من إعادة تنظيمهما قبل استعمالها ثانية . وقد استغرق الحديث عن هذا وغيره من الأمور الماثلة ما يقرب من عشرين دقيقة . وتنبه أكبر الاثنين سنا ، وهو ينظر من النافذة ، إلى الساعة التي وصل إليها النهار برؤيته غطاء مائدة السيدة جارلاندمرفقا ، من خلال بابها الخلفي ، على رؤوس سرب من الحمام حط هناك لالتقاط الفئان .

وقال وهو يشعر بجوع لم يكن بوب في غفلة تامة عن مثله :

— أحسب أن ديفيد سيعجز عن العثور علينا .

وأطل برأسه ونادى . . . فأجابه خادمه :

— لم تنزل السيدة من غرفتها بعد .

وقال صاحب الطاحون في عبت لاه :

— لا عجلة ، لا عجلة . ولنلق نظرة على الحديقة لإزجاء الوقت يا بوب .

وعقب بوب معتذرا :

— سوف تستيقظ في وقت أبدر من هذا ، كما تعلم ، عندما تنفق على الأمور

وتضطلع بعمل هنا .

وقال لندى :

— نعم ، نعم .

ونزلا إلى الحديقة . وهناك أخذ يقبلان الأحجار المنوعة المسطحة ، ويقتلان الحشرات البطيئة المحتمة تحتهما من قيط اليوم المنتظر ، ويتحدثان عن أنواع تلك

الحشرات جميعها . . . الرمادى منها والأسود . . . الحشن منها واللين . . . وعن السبب في تكاثرها هذا العام في الحديقة . وعن الحقبة المقبلة التي ستزال فيها الحشائش التي تؤويها ، ويفرش الحصى مكانها . وعن الميزات النسبية للمقص ونعل الحذاء في القضاء عليها . وقال صاحب الطاحون آخر الأمر :

— نعم أنا في الحقيقة جوعان يا بوب . لا بد أن نبدأ تناول الطعام بدونها .

وكانا على وشك دخول الدار عندما ظهر ديفيد وهو يسرع في حركاته ، وعيناه تتسعان اتساعا أقرب إلى الاتجاه الرأسي منه إلى الأفقي . ووجنتاه تكادان تتلاشيان .

— سيدى ، ذهبت لاناديها . وطرقت الباب عندما لم أسمع صوتها . وركنته عندما لم تجب . وانفتح إذ لم يكن مرتبجا ، و . . . كانت قد ذهبت ا .

وطار بوب صوب البيت كالمصفور . وتبعه صاحب الطاحون وهو أقرب إلى الثقل كالرجل الهرم الذى فى مثل سنه . ولم يطل الوقت حتى ظهر أن الأناسة ماتيلدا لم تكن فى غرفتها ، ولم تكن بالغرفة قفصاة من أى شىء يتعلق بها . وبحثا فى كل مكان تستطيع أن تحتجىء فيه أو تحشر نفسها ، وبحثا فى كل مكان لا تستطيع فيه شيئاً من ذلك . ولكنهما لم يعثرا على شىء .

واستشرى الريان بوب كل الاستشراء دهشة وحرنا . وجرى إلى منزل السيدة جارلاند عندما استوثق تماما من أن ما تيلدا غير موجودة فى أى مكان من بيت أبيه . وإذ قص عليهم القصة فى سرعة لم يكادا يفهمان معها التفاصيل ذهب صوب منزل «كفورث» قاصداً أن يعلن الفاجعة هناك ، ويعلمها كذلك فى بيت «ميتشل» و«بيتش» و«كريبليسترو» ، والقس ، وكاتب الحسابات ، ومعسكر فرقة الدراغون ، والهوزار ، وما إلى ذلك حتى يقاع البلد جميعها . ولكنه تريت ، ورأى أنه يصعب أن يكون من اللائق نشر نبأ إخفاقه على هذا النحو . فلو أن ما تيلدا غادرت المنزل مدفوعة بأية نزوة فهو لن يهتم بالبحث عنها وإذا كان لفعلتها قصد يفجع فلا بد من إيقانها بعيدة عن المعسكر والبلدة .

وفكر فى آن ساعة اضطرابه . فقد كانت فتاة ظريفة ويمكن الوثوق بها . وذهب إليها فوجدها فى حاله عصيبة وجزع يماثلان ما يعانته .

وقال بوب يانسا ، وقد ملا التجعد جبينه :

— لأنه لموحش جداً أن أجول باحثا عنها بمفردى ، وقد فكرت فى أنك قد تأتين معى فتخلمين البهجة على الطريق ؟

وقالت آن :

— فى أى مكان سنبحث عنها ؟

— أوو ، فى فجوات الأنهار كما تعلن ، وفى قاع الآبار ، وفى المحاجر ، وفوق الصخور وما أشبه . وقد تليح عينك بارقة من أية قطعة صغيرة من شالها أو قبعتها تخطئها عيناي . وسيكون فى ذلك خدمة حقيقية تؤدينها لى . . . تعالى معى ، أرجوك !

وهكذا أشفقت آن عليه ، ووضعت قبعتها على رأسها وذهبت معه بينما صاحب الطاحون وديفيد قد ذهبا في اتجاه آخر . وقتشا في مصارف الحقول . وكان بوب يدور حول سياج ، وتدور آن حول آخر ، ويسيران حتى يلتقيا في الناحية المقابلة . ثم جملا يجعلان بصرهما تحت القنوت الحجرية ، وفي البيوت الخلوية ، وفي قاع الآبار القديمة ، وفي ذهن بوب الذى بدأ يظن أن ما تيلدا أفدمت على مجرد الحرب . وبرغم ذلك ظللا يواصلان سيرهما ، ولو أن الشمس كانت في ذلك الوقت متقدمة الحرارة إلى حد أن كان يسرها أن تجلس وتستريح .

وسألها إذ أخذ البحث يفقد نشاطه :

— ألم يكن تقديرك لها كبيراً يا آنسة جارلاندا ؟

وقالت آن :

— أوو ، نعم كبيراً جداً .

— كانت جميلة حقاً ، وخطت نظراتها من الهدر ، أليس كذلك ؟

— تماما . وكان جمالها ناضجا كل النضوج . . . فهي ليست في إبان الصبا .

وكنا سنحبها جميعاً ، فاذا حملها على الرحيل ؟

وأجاب الملاح يانسا :

— لا أدري ، وأقسم أن هذا سيحملني على أن أقول إن الأمر لا يهينى .

ثم أضاف وقد بدأت آن تهبط بمجرا وعر المسالك :

— دعيني أساعدك على النزول من فوق هذه الأحجار .

وتقدم ، وقفز إلى أسفل ، ودار صوبها .

ومدت إليه يدها ، وقفزت إلى أسفل أيضاً . وقبل أن يطلق قبضته رفع

أصابعها إلى شفتيه وقبلها .

وصاحت آن وهي تنزع يدها منه في جرح أصيل ، وقد نبقت دمعة في كل

من عينيها على حين غرة .

— أوو يا ربان لئدى ! أنا لم أسمع عن مثل هذا قط ! وأنا لن أسير معك

قيد أمثلة واحدة إلى الأمام يا سيدى . إن الأمر مفضوح جداً .

ودارت وانطلقت عدوا .

وقال الربان النادم على ما فعل وهو يسرع خلفها :
— أقسم أنى لم أقصد ذلك . إنى أحبها أكثر من غيرها . . أحبها على هذا
النحو فعلا . . وأنا لا أحبك قط ! أنا لست منتقلا إلى هذا الحد ! ولم يكن منى فى
هذه اللحظة إلا أنى أعجبت بك فقط كما أعجب بسفينة صغيرة لطيفة ، وعلى هذا
التحدث أنى ارتكبت ما ارتكبت . .

ثم استطرد وهو لا يزال يجرى وراءها :
— اعلى يا آنسة جارلاند أن الامر يتحصل فى أنك عندما تنزلين إلى
الشاطيء بعد أن تقضى ثمانية عشر شهرا محتبسة فى سفينة ، تجدين النساء فى نظرك
جيلات لطيفات إلى حد لا تتالكين نفسك من الميل إليهن بالجملة ، وعلى هذا
يصبح قلبك أميل إلى التشتت . . إلى الهيمان قليلا حسبا يقولون ولكنى أفكر
بالطبع فى ما نيلدا المسكينة أكثر من غيرها ، وسأظل الأزمها أبداً .
وأطلق زفرة هائلة ليظهر بما لا يدع مجالاً للشك أن قلبه مازال حيث يتطلب
الشرف أن يكون .

وقالت فى حركة مشاكسة سريعة وهى لا تزال تدير وجهها عنه ،
— أنا سعيدة لسماح هذا . . أنا سعيدة جداً بالطبع . وأمل أن تجدها ،
وألا يتأجل موعد الزفاف ، وأن تسعدا كلاكما . ولكنى لن أبحث عنها بعد
ذلك . . لا ، ولا يهمنى أن أبحث عنها . . رأسى يوجعنى . سأعود إلى البيت .
وقال روبرت فى حزم :

— وأنا كذلك .
— لا ، لا . استمر بالطبع فى البحث عنها . . أبحث عنها بقية النهار وطوال
الليل . أنا واثقة أنك ستفعل ذلك إذا كنت تحبها .
— أوو ، نعم . أنا أنوى ذلك . ولكن ألا يجب مع هذا أن أصحبك
أولا إلى دارك ؟

— لا ، لا ينبغي أن تفعل ذلك .
وانطلقت متخطية حجراً من مخاضات المحجر التى غص بها المكان ، تاركة
الملاح الميال إلى المصادقة واقفاً فى الحقل .

وتهد ثانية . ولذا لاحظ أن المعسكر لا يقع بعيداً خطر له أن يذهب إلى أخيه جون ويستطلع رأيه في هذه المسألة المحزنة . ووجد عند وصوله إلى المعسكر أن أمه غير غال في هذا الوقت بالذات ، فقد كان مشغولاً بتدريب جنود البروجي . ورجع أدراجه تاركاً كلمة يرجو فيها الجاويش البروجي أن يأتي إلى الطاحون في أقرب وقت ممكن .

وقال مكفراً :

— لا فائدة من البحث عنها . كانت تميل إلى بمقدار كاف ، ولكنها عندما حضرت إلى هنا ورأت البيت والمكان والحصان المتقدم السن ، وأثاث البيت الغليظ الصنع ، أيأسها أن آرانا بسطاء إلى هذا الحد ، وشعرت بعدم الرغبة في الزواج بفرد من هذه الأسرة .

وعاد أبوه وديفيد دون أن يحملأ أنباء . وقال بوب :

— نعم ، إن الأمر كما ظننت يا أبي . إننا لم نبلغ الحد الذي نصلح لها فيه ، وقد رحلت ساخرة منا !

وقال صاحب الطاحون :

— حسناً ، إن هذا لا يمكن تجنبه . إن ما نحن عليه ، نحن عليه ، وكنا كذلك أجيالاً بعد أجيال . وفي رأبي أنها سرت إلى حد كاف باستطاعتها أن تتمكن منا !

وقال بوب بطريقة فاجعة :

— نعم ، نعم . . . سرت لبرهة من الزمن . . . بسبب الزهور والطيور وكل ما يحويه المكان من جمال . ولكنك لا تعلم يا أبي . . . وكيف يمكنك أن تعلم أنت الذي لم ينادر أو فركب طول حياته ؟ . . . أنت لا تدرك تلك المشاعر الرقيقة التي ينقل بها عقل امرأة مهذبة تهذيباً حقيقياً . فأية فعلة صغيرة سوقية تحز في أعصابها حز الخرز . وإلى لاتسامل الآن هل ارتكبت شيئاً أثار استمزازها ؟

وقال لفدى متأملاً :

— قسماً إنى لا أعرف شيئاً من هذا القبيل ارتكبتة . وأنا لم أقل كلمة كان يمكن أن أقولها على السجية بقصد تحاشي الإساءة إليها .

— أنت تعلم يا أبي أنك كنت دائماً تتصرف ببساطة .
وقال صاحب الطاحون في مسكنة :

— نعم ، كنت كذلك ؟

وواصل بوب القول متسائلاً دون هدوء :

— إني لأعجب ماذا يكون قد بدر منك ، ألم تعتمد إلى الشرب من الدن
الكبير ببله فك ، أو تمس شفيتك بأكامك ؟
وقال صاحب الطاحون في حزم .

— هذا ما أقسم أني لم أرتكبه . ولست أعلم ، حسباً أظن ، أنه يمكن أن
أكون قد ارتكبت شيئاً ينفرها . ذلك أني كنت أبتلع غذائى الدسم في الخبز ،
ولا أتناول في حضورها إلا كسرة وجرة خمر من باب اللياقة .
وقال بوب مترقماً :

— يقينا أنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً أكثر من هذا .

واستطرد صاحب الطاحون قائلاً وهو يشعر بشيء من الحيف وقع عليه :

— إذا كان سلوكي صالحاً بما يكفي في نظر أناس حسنى التهذيب كأسرة
جارلاند ، فهو صالح بنفس القدر بالنسبة لها .

— هذا حقيقى . ولا بد أن يكون المخطيء هو ديفيد . يا ديفيد ، تعال هنا
كيف كان سلوكك في حضرة السيدة ؟ والآن ، احرص على أن تقول الصدق !
وقال ديفيد في جد :

— نعم ، أيها السيد الربان روبرت . أؤكد لك أني قمت على خدمتها على نحو
ما تستخدم المسكات . وقد وضعت على المائدة خير الملائع القضية ، وإبريق جدتك
المسكينة القضى ، كما رأيت بنفسك . ووضعت لها ومادة الريش لتجلس عليها .
وقال بوب فاصلاً في الموضوع ، وهاوياً ييده إلى قاعدة النافذة :

— الآن عرفت الأمر . . كان فراشها خشناً ، وليس هناك شيء يثير السيدة
الحققة مثل هذا . إن الفراش في تلك الغرفة كان جامداً دائماً كصخرة
جبل طارق .

— لا يا كابتن بوب ! لقد بدلنا الفراش . . أليس كذلك ياسيدى ؟ فوضنا
الفراش المحشو بريش البط في حجرتها ووضنا الآخر المحشو بالقطن ، الذى كان
هناك ، في حجرتك .

— نعم ، لقد فعلنا ذلك ، لقد بدلنا الفراشين بأيدينا لأنهما كانا أشد ثقلا من أن تنقلهما النساء .

وغنم بوب :

— أنا لم أدرك قطعا أن الفراش القطني كان عندي فقد نمت دون أن أفكر كثيراً فيما سأسهر عليه . حسنا ، حسنا ، لقد رحلت ، ولن أجد مثيلا لها أبداً مهما بحثت ونقبت ! لأنها كانت أفضل بكثير من أن تكون لمثلي . ولابد أن الفتاة المسكينة قد حملت صندوق ملابسها بيديها . ومعها يكن الحد الذي ذهبت إليه الأمر فإني أستطيع أن أستعيدها حتى الآن ، ولكنني لن أحملها على غير ما تريد . لست أنا الذي يقدم على مثل هذا .

وعمل ميلر لفدى ودفيد على الانسحاب بالتدرج إذ شعرا بأن وجودهما أجدر أن يشوب عواطف بوب المقدسة . وراح هذا الأخير يتغمس في أكثر أما كن الطاحون الموحشة امتلاء بالدقيق ، فهذه كانت موته الذي لا يتغير عندما يستبد به الاضطراب . إذ أن لعمقتهما تأثيراً يهدى أعصاب أولئك الذين تمرسوا سماع موسيقاها كما ينبغي .

وبلغ من نفاذ صبر بوب أنه غادر البيت للقاء جون بعد أن صعد إلى غرفتها ليتأكد ثانية من أنها لم تستبدل كساء النوم بثوبها ، واكتفت بالاضطجاع فوق غطاء الفراش . وقد انتظر في منحدر التل المشمس حتى ظهر له أخوه . وبدأ جون فاتق الشجاعة ، وحسن المظهر ، والشكل العسكري إلى حد أن بوب لم يتألك إلا أن يشعر ، حتى وهو في محنة الراحنة ، بمودة صادقة ونجار بأن له مثل هذا الأخ . ولكن خطر له مع ذلك أن جون لم يقبل عليه بنفس المشية المدهشة التي أظهرها أمس وما اقترب الجاويش البروجي حتى نظر قلقاً إلى الملاح وانتظر منه أن يبدأ الكلام .

وقال روبرت محذوقاً في عيني أخيه دون تهيب :

— أنت على علم بمحنتنا الكبرى يا جون ؟

وقال الجاويش البروجي دون أن يبدى أية دهشة :

— تعال اجلس وأنبئني بكل ما في الأمر .

واتجهنا إلى أخدود غير عميق حيث الجلوس فيه أسهل من الجلوس فوق الأرض المنبسطة . واتكأ جون هناك بين الجراد ، وأشار إلى أخيه أن يخذو حذوه وقال روبرت :

— ولكن ، أتعلم ما الأمر ؟ هل أخبرك أحد به ؟
وقال جون :

— أنا على علم به . لقد رحلت ، وأنا أحمد ذلك .
وقال بوب . ناهضا على ركبتيه في دهشة :
— ماذا ؟

وقال الجاويش البروجي متباطئا :

— أنا وراء ما حدث .
— أنت ، يا جون ؟

— نعم . وإذا أنصت إلى أفضيت لك بكل شيء أتذكر ما حدث عندما دخلت عليكم الغرفة ليلة أمس ؟ حسنا ، لقد تغير لونها وأوشكت أن يغمى عليها ذلك أنها كانت تعرفني من قبل .

وحقق بوب في أخيه بوجهه دل على الألم والشك واستطرد جون قائلا :

— أنا مضطرب يا بوب ، لمرة في حياتي أن أقول لك شيئا سيؤلمك ألما شديدا لأنها ليست بالمرأة التي يمكن أن تكون لك زوجة . . . وعلى هذا رحلت .
— أنت أبعدتها ؟

— نعم . أنا فعلت ذلك .

— جون . خبرني بكل شيء . . . خبرني .

وقال الجاويش البروجي ، وعيناه الزرقاوان تستريحان على صفحة البحر النائي الذي بدا عاليا كحائط يبلغ من الارتفاع ما بلغه التل الذي يجلسان فوقه :

— لعل الأفضل أن أفضى إليك بما تريد .

ومن ثم قص عليه قصة عن الإنيسة جونسون وفرقة الدارغون رقم . . وقد
محصر قلبه الإفضاء بتلك القصة كما مھصر قاب بوب الإنصات إليها ودل ذلك على
أن جون قسا قسوة مؤقنة من حيث أراد أن يشفق لإشفاقا مطلقا . واستطاع حتى
بوب ، على ما كان يعاني من هياج نفسى، أن يدرك من طريقة حديث جون ، أية
مهمة رهيبة كانت بالنسبة لهذا الأخير وهو يضطجع بها فى ذلك المساء ولتبرير الحظوة
التي اختطها لابن من القول بأن ضرورات الواجب كانت قاهرة . ولكن الجاويش
البروجى ، وقد أخذ يفتابه تحفظ لم يستطع أخوه بالطبع أن يقدره فى هذا الوقت
لم يكن يطيل فى وضوح شرح السبب الذى اضطره إلى سلوك ذلك المسلك .
ولاشك أنه يصبح من الصعب على أى إنسان . بعيد عن أن يصل إلى ما وصل
إليه جون من تواضع جم ، أن يبرر موقفه من مثل هذه العلاقة الخطيرة عندما
يكون المستمع هو عاشق السيدة . . ولا عجب أن يكون بوب قد هب واقفا
على قدميه ، وباعد فى المسافة ما بينه وبين جون . وسأل فى صوت جاف مكظوم

— وفى أى وقت حدث ذلك ؟

— كان ذلك قبيل الساعة الواحدة .

— وكيف استطعت معاوتها على الرحيل ؟

— كنت حاصلًا على إذن غياب . وحملت صندوقها إلى مكتب عربات السفر

وكانت سترحل عند الفجر .

— لكنها لم يكن معها مال .

— بل كان معها . . وقد اهتمت بهذا الأمر اهتماما خاصا .

ولم يصف جون إلى قوله - كما كان يمكن أن يفعل - أنه اعطاها من باب الشفقة
كل ما كان يملك من تھود . وأنه لم يعد لديه الآن من مال الدنيا إلا ثمانى عشرة بنسا

— حسنا . لقد انقضى الأمر يا بوب .

ثم أضاف :

— وعلى ذلك اجلس وحادثني عن الأزمئة السالفة .

وقال الملاح المضطرب :

— آه يا جاك . إنه لطيب لك بمقدار أن تتحدث على هذا النحو ، ولكنى لا أستطيع الشعور بأن ما ارتكبته عمل قاس . وهى على أية حال كانت لا تفتق لى بما يكفينى . وليتنى لم أعرف ذلك عنها قط ! . . . يا جون ، لم تدخلت فى الأمر؟ فإنه لم يكن من حقل أن تعدل أمورى على هذا النحو . . . لماذا لم تفض إلى بكل ما تعلم فى صدق ؛ وتدعنى أعمل وفق ما أختار؟ طردتها من البيت وهذا عار علينا ! فلو أنها رجعت إلى !! لماذا لم ترجع إلى ؟

— لأنها أدركت أن من الأفضل أن تفعل غير ذلك .

وقال بوب فى توكيد :

— حسناً . سأذهب وراها باحثاً عنها .

وقال جون :

— لك أن تصنع ما تشاء ، ولكنى أنصحك ملحا أن تدع الأمور حيث هى .

وقال بوب مستشاط الغضب :

— لن أزع الأمور حيث هى . لقد جعلتى تصادون أن يكون ثمة سبب يدعو إلى ذلك كله . أقول لك إنها حسنة إلى حد يكفينى . ومادمت لم أعرف شيئاً عما تحدثتى أنت عنه من تاريخها فأى فرق يمكن أن يحدثه ذلك لى ؟ أنا لم أجد قط فتاة أفضل صحة منها . وهى تحب أغنية سارة كما أحبها أنا . نعم ، سأبعها .

وقال جون :

— أوو يا بوب ، لى لم أكن أتوقع ذلك فى سهولة !

— ذلك لأنك لم تعرف أخاك . أستطيع أن أسألك مكرمة واحدة؟ أحسب

أنى أستطيع ذلك . . . أستطيع أن أسألك عدم التفوه بكلمة واحدة تسمى إليها أمام أى واحد من قومنا؟ ولنفس هذا السبب حملتها على الرحيل بغير ضجة ، كما حدث .

— بالتأكيد . والسبب الحقيقى الذى جعلنى أبعدها فى صمت ، كما حدث لها ،

هو الحيلولة دون أى قول يقال ضدها هنا ، دون أية فضيحة يمكن أن تصل إلى الآذان .

— قد يكون ذلك . ولكنى سأرجل فى أثرها . وسأزوج بتلك الفتاة .

— ستندم على ذلك .

وأجاب بوب مصمما :

— هذا ما سترأه .

وتوجه صوب الطاحون مسرعا . ولم يطاوع الجاويش البروجي قلبه على
اللاحاق به . . ولم تكن ثمة فائدة يمكن أن تجني من التماذى أكثر من ذلك في
معارضته وظل هناك فوق التل كصورة منحوتة حتى توارى بوب عن نظره
داخل الطاحون .

ولم يدخل بوب بيت أبيه إلا ليترك كلبة يقول فيها إنه سيرحل للبحث من
جديد عن ما تبلى ، وليحزم بعض الضروريات التي تستلزمها رحلته .

وخرج ثانية بعد عشر دقائق وفي يده حزمة . ورآه جون يخترق الحقل
الأدنى متجها صوب الطريق العموى .

وقال جون وهو يعدل ، متأملا ، رباط رقبتة حيث جرحها ، وينحدر متجها
إلى الطاحون :

— أهذا هو الخير الذى صنعته ؟

كيف خففوا

من أثر المحنة

(٢٠)

وفي هذه الأثناء كانت آن قد عادت إلى دأها . ولما كان تطوافها بجنا عن ما تيلدا قد أتبعها فقد جلست صامتة في ركن من أركان غرفتها . وكانت أمها بزجى وقتها بذكر كل تصور معقول عن إختفاء ماتيلدا يمكن للعقل البشرى أن ينسقه . وأجابها آن بإجابات مقتضبة . وليس ذلك نتيجة لعدم المبالاة ، ولكن لاشتغال بالها إلى حد كبير ولم يلبث لعدى الأب أن جاء بالبواب . وذهبت أمها معه وتواريا ، وظلا معا في غرفة مغلقة الباب مدة طويلة . وخرجت آن إلى الحديقة ، وجلست تحت الشجرة العيانية التي تحتها غصونها ساعات طويلة خلال إقامتها في هذا المكان . وكان اهتمامها منصرفا إلى جناح صاحب الطاحون في ذلك البناء الموعج البادى أمامها أكثر من انصرافه إلى الجناح الذي تحتله أمها . ذلك أنها لم تستطع إلا أن تتوقع في كل لحظة أن يخرج منه ركضا إنسان ما وحشى الوجه ، وأن يذيع تفسيراً بشعا للسر .

وكانت كل نأمة تدفعها إلى التيقظ والانتباه . ودارت ببصرها في لطفة إذ سمعت خطوات حصان يقطع الطريق . وحدثت في ذلك الطريق من فوق الحاجز فإذا فستوس دريمان يمتطى صهوة حيوان طويل طولاً غير معقول إلى حد أن راكبه يستطيع أن يراها إلى إخصص قدمها من فوق السياج الكثيف العريض الأشواك .

وما أن عرفته حتى ردت طرفها عنه ، ولكن عينيه ظلتا مسطرتين عليها دون تحول ، كانت هذه الحظفة منه غير مجدبة ... وصاح غاضباً :

— رأيتك تشيحين بوجهك عنى ! فأى ذنب جنته يداى يجعلك تعاملينى على هذا النحو ؟ تعالى يا آنسة جارلاندا . كذبة لطيفة ... لا فائدة من إيدبارك .

وواصل قوله إذ ظلت توليه ظهرها :

— والآن هذا يكنى لإشارة قديس ... الآن أقول لك يا آمنة جارلاندي إنني سأظل مقبياً هنا حتى تدورى صوبى، ولو بقيت عصر اليوم بطوله. وأنت لا تجهلين خلقى، فأنا أعنى ما أقول .

وجلس ثابتاً فوق سرجه . وقطف بعض أوراق من نبات السياج ، وبدأ يترنم بأغنية ليظهر لها كم هو لا يبالي على الإطلاق بوثبات الزمن .

وسألته أن عندما استنفدت آخر الأمر صبرها .. سألته وهي تنهض وتواجهه بحرية مستجدة أضافها شعورها بوجود السياج القائم بينهما :

— ماذا دعاك إلى الحضور وجعلك مهتماً بلقائى إلى هذا الحد ؟

وقال وقد غزت وجهه الغاضب ابتسامة بدت معها أسنانه البيض كأنها البياض تنفجر عنه الحمرة فى رقعة الشطرنج :

— هاك ، لقد كنت أعلم أنك لا بد ستدورين صوبى .

فصالت له :

— ماذا تريد يا سيد دريمان ؟

— ماذا تريد يا سيد دريمان ؟ ، أنصتوا الآن إلى هذا ! أهذا هو تشجيعك لى ؟ .

وانحنت له آن فى كبرياء ، وخطت لتغادر المكان . فقال العملاق وهو يلحظ حركاتها فى حنق ساهم .

— إنى سمعت توا أنباء تفسر هذا كله ، فعمى جهر بأشياء .. . لقد كان هنا فى ساعة متأخرة من ليلة أمس ، وراك .

وأجابت آن :

— لأنه لم يرنى بالتأكد .

— أوه ، وبعد .. . لقد رأى الجاويش البروجى لعدى يغازل فى الحقيقة فتاة تشبهك . وما أقبل حتى ركضت إلى داخل الدار .

— هذا غير حقيقى . ولست أرغب فى سماع مزيد من القول .

— أقسم بحياتي أنه قال ذلك. كيف أمكنك، الإقدام على ذلك يا آنسة جارلاندر
في حين أني أنا الذي يملك من المال ما يكفي لشراء أسرة لفدى بأسرها، يسره أن
يصل معك إلى اتفاق؟ أية ساذجة لابد أن تكوني لتفترطي في من أجله ! .. وهأنت
ذى غضبي الآن لأنني قلت عنك إنك ساذجة ! أنا لم أقصد أن أقول « ساذجة » ،
ولكني قصدت « مضللة » .. بزعم مضلل .

واستطرد بصوت عال عندما اتجهت أن صوب باب الحديقة :

— هذا ما قصدت ... اذهبي . ولكني سأفوز بك رغم ذلك ، إن لديك من
الأسباب الكثيرة ما يجعلك تتعالمين على قبول الإقامة معي ، ولكن ذلك لن يدوم
طويلاً . إنني سأزوجك يا سيدتي متى اخترت ذلك ... كما سوف ترين .

عندما مضى كية ، وهدأت أعصاب أن من الخوف والانتفعال اللذين كان
يسببهما لها دائماً ، واللذين لم يكونا غير مستساغين تماماً ، عادت إلى مقعدها تحت
الشجرة ، وبدأت تفكر فيما تعنيه الحكاية التي رواها فستوس دريمان ، تلك
الحكاية التي بدا من صدق لهجته كأنها ليست مجرد ابتداء . وخطر على بالها . فجأة
أنها سمعت هي نفسها أصواتاً منبثقة من الحديقة ، وأن الشخصين اللذين رأهما
المزارع دريمان الذي أخبرها صاحب الطاحون بزيارته ومطالبتة بصندوقه ، قد
يكونان ما تيلدا وجون لفدى . وتذكرت فوق ذلك اضطراب الأنسة جونسون
العجيب في الليلة السابقة ، وأن اضطرابها حدث في نفس الوقت الذي دخل فيه
الغرفة جاويزش الدراغون . ظل الشك يتدرج حتى بلغ حد اليقين من أنه يعرف
عن اختفاء تلك السيدة أكثر من أي شخص آخر يفترض فيه أنه يعرفه .

وكان ذلك في نفس الوقت الذي نزل فيه الجاويش البروجي إلى الطاحون .
بعد حديثه مع أخيه فوق التل . ووفقاً لمشيئة الأقدار عرج على الحديقة بدلاً من
دخول الدار ، واجتاز ذلك السياج المبهج ليرى ما إذا كان من المحتمل أن يجد
في الناحية الأخرى منه تلك المرأة التي يحبها كل ذلك الحب .

نعم ، كانت هناك تجلس تحت شجرة التفاح على المقعد الذي أصلحه لها ، وهو
مصنوع من جذوع الشجر ، ولكنها لم تكن تواجه الناحية التي أتى منها . فشى
بخطوات أشد جبلة ، وسعل ، وهز فرع شجرة . وبجمل القول أنه فعل كل شيء .

إلا الشيء الوحيد الذى يفعله فستوس فى هذا الظرف ، وهو مناداتها . فهو لم يكن ليقتدم على ذلك ولو فى سبيل ملك العالم . وإن أية إشارة من إشاراته هذه كانت منذ يوم أو يومين تكفى لاجتذابها . ولكنها لم تلتفت إليه الآن . وأقدم فى النهاية ، وهو يكابد قلقه اللطيف ، على ما لم يكن يقدم عليه ، من قبل دون دعوة ، وعبر نصف الحديقة الخاصة بالسيدة جارلاندى حتى وقف تجاه الفتاة .

ونفضت عندما لم تجد مفرأ ، وإذ قالت له فى لهجة باردة على خلاف عادتها :
« مساء الخير أيها الجاويش البروجى ، انتقلت إلى مكان آخر من الحديقة . »

ولم يملك لندى ، وهو فى حيرته المطبقة ، قدرة على التفكير تمكنه من الدأب أكثر من ذلك . وقد أدرك على نحو غامض أنه قد نمت إلى أن معلومات ناقصة عن المسألة المكدره التى وقعت فى الليلة السابقة . ولما لم يكن يستطيع معالجة الشر دون أن يفضى بما لا يجرؤ على الإفشاء به ، فقد دخل مبنى الطاحون . وكان أبوه لا يزال هناك يبدو كثيباً بمقدار كاف . وذلك من أثر اشتغال باله بالأحداث ، وكية الدقيق الكبيرة التى كست وجهه بسبب ارتباطه الوثيق بالعمل طوال ذلك اليوم .

— حسناً ما جون . لقد أخبرك بوب بكل ما حدث دون شك ؟ إنه لشيء عجيب غريب محير ، أليس كذلك ؟ إنى لا أستطيع تفسيره بحال . لا بد أن يكون هناك عيب بهذا المرأة ؛ وإلا لما حدث الذى حدث . إنى لم أرتبك على هذا النحو الشديد منذ سنين .

وقال جاويش الدراغون :

— ولا أنا أيضاً . وكنت أود ألا يقع ما وقع ولو كلفنى ذلك كل ما أملك فى الحياة . . . هل حادثت آن جارلاندى اليوم . . . أو هل سادتها أحد سواك ؟
— جاء فستوس دريمان على صهوة جواده منذ نصف ساعة وحادثها من وراء السياج .

واستنتج جون الباقي . وبعد أن قضى فترة من الزمن واقفاً مطبق الفم على عتبة الباب ، سار صوب المعسكر .

وفى أثناء ذلك الوقت كله كان أخوه روبرت يسرع المخطو فى أثر المرأة التى

انسحبت من المشهد لتجنب الخطر والسقوط التام اللذين كانا لا بد أن ينجا من بقائها. وإذا بعدت المسافة بين بوب والطاحون، شعر بأن الانفعال الذي دفعه إلى الانصراف وراءها قد أخذ يهدأ، ولكنه لم يتوقف عن مسيره حتى وصل إلى أول النهر الذي يمد جدول الطاحون بالماء. وبسبب غير عمد، أباح هنا لعينه أن يجتذبا النبع الغائر الذي لم يتقطع مازة قط ولم يقل. وتوقف كما لو أنه أراد أن يطيل النظر إلى المشهد؛ ولكنه توقف في الواقع لأنه كان مستغرق الذهن في حكاية جون.

كانت الشمس دافئة، والمكان مبهجا، فوضع صرته على الأرض وجلس. وترعرعت اعتقاداته بالتدرج إذ تدبر وجهة نظر جون أولا، ثم وجهة نظره هو. وظل هكذا حتى أصبح شديد التأرجح بين الدافع الذي يدفعه إلى موالاته السير، والذي يدفعه للعودة أدراجه، إلى حد أن أصبحت هبة واحدة من الريح متجهة إلى أحد الجانبين؛ تكاد تكفي للبت في الأمر نيابة عنه. وعندما سمح لحكاية جون أن تعيد نفسها على مسامحه؛ وجد أن سدادها ومعقوليتها يبدوان فوق كل مناقشة. وعندما فكر، من الناحية الأخرى، في عيني ما تيلدا، وفي طرائقها التي بدت له لطيفة، وفي ترتيبات زواجهما المهجبة؛ وفي رغبته حتى الآن في إتمامها على الأرجح؛ لم يكذب يدهل عليه إلا أن يتابع طريقه في أقصى سرعة.

وحرص على هذا الصراع الفكري حرصا شديدا إلى حد أنه ظل حول حافة النبع واقفاً وجالسا إلى أن امتدت الظلال شرقا، وتضاءلت فرصة اللحاق بما تيلدا تضائلا متزايدا إلى حد كبير. ومع ذلك لم يسلك طريقه بالفعل صوب البيت. وأخرج آخر الأمر جنبا من جيبه واعزم أن يترك حل المسألة للمصادفة وقال: «إذا وقع على الجنب الأمامي ذهبت؛ وإذا وقع على الجانب الخلفي عدلت عن الذهاب، ودارت القطعة الذهبية في الهواء ثم وقعت على الجنب الأمامي.

وقال عندئذ: لا، لن أذهب؛ فأنا لن أفأد بالمصادفات بعد ذلك قط. والتقط صرته وعصاه؛ وسار أدراجه إلى طاحون أوفر كيب، وأخذ أثناء سيره يطرح الحسك والثوبك على الأرض بضربات يهوى بها في تجهم وغير أكثرات ورأى ديفيد في الطريق عندما أصبحت الدار على مرأى منه. وصاح الخادم:

- لقد صلحت الحال .. صلحت الحال ثانية . وستتم حفلة العرس على أية حال .. مرحى !

وصاح بوب وقد أمسك بديفيد طروبيا ، وأخذ يدور به راقصا :
- آه .. هل عادت ثانية ؟

- لا ، ولكن الأمر سيان . ولن تكون هناك عواقب سيئة ، ولن يقع ضرر . فالسيد والسيدة جارلانده عقدا اتفاقا ، واعتزما أن يتزوجا على الفور حتى يحولادون تبذير المأكولات المعدة للعرس . لقد شعرا بأنه مما يوجب ألف حسرة أن يدعا تلك الحفريات الطيبة تفسد لحاجتها إلى حفلة تستهلك فيها ، واهتديا آخر الأمر إلى تلك الفكرة .

وصاح بوب في مرارة ، وفي لهجة تم على تفكير أسمى مما سمعه بكثير :
- ما كولات ؟ .. أنا لا أهتم بالمأكولات لكم خيبتم أملى ! .. وسار صوب البيت في هدوء .

وظهر أبوه عند مدخل باب الطاحون وقد بدا أكثر ابتهاجا مما كان عليه وقت فراقهما .. وقال :

- ماذا ياروبرت ، أذهبت تبحث عنها ؟ يقينا إنى لم أكن لأتبعها فيما إذا وثقت وثوقك من أنها رحلت هازنة بنا . وما دمت قدقلت لى ذلك فإنى ما كنت لأبحث عنها بحال .

وأجاب بوب مهموما وهو يلقى بصرته وعصاه على الأرض :

- كنت نخطئا يا أبى . . . وإنى وجدت أن ما تيلدا لم ترحل سخرية منا ، ولكنهارحلت لأسباب أخرى . وقد قطعت بعض الطريق فى أرضها ، ولكنى عدت ثانية . . . ولها أن تذهب .

وسأل صاحب الطاحون الدهش :

- لماذا رحلت ؟

وكان بوب ينوى ألا يذكر لمخلوق سببا لرحيلها ، ولكنه لم يستطع معاملة-
أبيه بثقل هذا التحفظ ، ولذلك أخبره بما حدث .

وقال صاحب الطاحون متأملا :

— إنها استغفلتنا استغفالا شديدا ، وكان يمكن أن تستغلنا أكثر من ذلك
لقد ظننتك أسلم إداكا يا بوب .

وقال بوب متوسلا :

— حسنا ، لاتذكريها بأى سوء يا أبنى . لقد كانت شدة مؤسفة . وانهى الآن
أمرها ، فانفض يديك من الفتاة فى هدوء ، واكتم السر . أتعدين بذلك ؟
— سأفعل .

وظل لعدى الكبير يفكر برهة ، ثم استطرد قائلا :

— حسنا . هذا هو ما أردت أن أقوله : لقد وفقت إلى خطة تنقذنا من
المرح الذى أوقعتنا الفتاة فيه . واست أدرى ماذا سيكون رأيك فى تلك الخطة
— لقد ذكرلى ديفيد النقاط الرئيسية .

— وهل يؤذى ذلك شعورك فى مثل هذا الطرف ؟

وقال بوب وفى هيئة ما يتم عن التضحية الكريمة بالنفس :

— لا ... وسأحمل نفسى على احتمال ذلك على أية حال ؟ وكيف أعرض
على سعادة الناس بسبب فقدان سعادتي ؟

وأجاب صاحب الطاحون فى إخلاص :

— نعم ما قلت ! ولكن يمكنك أن تتأكد من أنه لن يكون هناك إبتهاج
غير لائق بزعمك وأنت على حالتك الذهنية الراهنة وقد شعرت طوال الصباح
بجحيل أشد مما يهمنى الاعتراف به . . . خجل من فكرة كيف أن الجيران كبارهم
وصغارهم . سيهزأون بما سيسمونهم ، حماقتك ، لدى وقوفهم على ما حدث . وعلى
ذلك اعترمت أن أخطو هذه الخطوة لأنقد الموقف فيما إذا كان ذلك مستطاعا .
وعندما التقيت بالسيدة جارلاندر أدركت أنى تصرفت تصرفا صائبا ، فقد أشفقت
على إشفاقا شديدا بسبب قيامى بتنظيف البيت سدى ، وتزويده بمؤن ستهب
بديدا ، فأوجد لها هذا مزاجا معدا لقبول ظلي . ونحن ننوى تنفيذ الأمر على
الفرز قبل أن تفسد الفطائر والكعك وما تحوى القدر المسودة من مأكول .

ثم اختتم قوله جذلا :

— كانت فكرة طيبة مني ومنها . وأنا سعيد لانتهاء الامر على هذا النحو ..

وغنم بوب :

— مسكينة ما تيلدا

وقال صاحب الطاحون شاعراً بتأنيب الضمير :

— ها هو ذا الامر .. كنت أخشى أن يؤدي شعورك قيامنا بإعداد

معدات زواجك ثم استعمالها لزواجي أنا !

وقال بوب في شهامة :

— لا إن ذلك لن يؤدي شعوري بل سأجد في غمتي عزاء إذ أحس أن الطعام

الفاخر . والخمر ، وملابسك الجديدة المدهشة ، وأغطية الموائد الباهرة التي

اشتريتها ، ستكون ذات فائدة كما لو أتي أنا نفسي الذي تزوج .. مسكينة ما تيلدا

ولكنك لا تتوقع مني أن أحضر الحفل . إنه يصعب أن تتوقع ذلك . وسأستطيع

كما تعلم ، أن أتوارى في ذلك اليوم بسهولة .

وقال صاحب الطاحون في لهجة عتاب :

— هراء يا بوب !

— أنا لن أستطيع احتمال ذلك .. وسوف تنهار قواي .

— ليقبض الشيطان روحى فيما إذا كنت طلبت الزواج بها وأنا أعلم أن ذلك

سيؤدي بك إلى الابتعاد عن المنزل .. تعالى الآن يا بوب ، فإني سأجد وسيلة

لترتيب الامر ، وصبغه بصيغة الوفاق حتى يغدو ذا طابع حزين كما تبغى . وبجمل

القول إن الحفل سيكون كما تم تماماً فيما إذا وعدت أن تبق ؟

وقال الفتى المتألم :

— حسنا ... سأبقى في هذه الحالة .

وعاد إلى

الثل

(٢١)

بعد أن أبرم لعدى ذلك الاتفاق الخطير مع ابنه ، كانت خطوته التالية أن يذهب إلى السيدة جارلاندي ويسألها عن خير ما يمكن صنعه لصبي العرس بصيغة خاصة . وقد قال لها :

— من الواضح وضوحاً كافياً أن إقامة حفل بهيج في هذا الطرف بالذات يعني الاستخفاف بدمور بوب . فكأننا لا نهتم بمن لم يتزوج مادامنا قد تزوجنا نحن الاثنين . ولكن ماذا سنصنع بالأمم كوال والمشروب في هذه الحالة ؟
واقترحت السيدة :

— أقم وليمة غداء للفقراء ، وستستطيع بهذه الطريقة أن تنتفع بكل شيء .
وقال صاحب الطاحون :

— هذا صحيح ، إذ يوجد في هذه الأيام قدر من هؤلاء يمكن لا استهلاك ما زاد عن الحاجة أيا كانت كيته .

— وسيؤدى ذلك إلى مراعاة شعور بوب على نحو مدهش . ولن يعرف الفقراء أن الغداء كان معداً لعرس من نوع مختلف ، ولدعويين من نوع آخر .
وبذلك تفوز بمحبتهم دون مقابل .

وابتم صاحب الطاحون لما يتضمن هذا الرأي من دهاء وقال :

— هذا لا يكاد يسمى إنصافاً . وقد كنت أنوى مع ذلك أن أعطيهم بالفعل بعض الأطعمة ، فالأصدقاء الذين كنا نقصد دعوتهم لم يكونوا يستطيعوا الإتيان عليها كلها .

يبد أن الفكراة في مجموعها أعجبت كثيراً ، وعلى الأخص عندما فطن إلى نظرة ابنه البحار القانطة وهو يحوم حول المكان ، وتصور ماسيحدثه العرف على المكان

والدف من تأثير ألم في أعصاب بوب المحطمة بسبب مثل تلك الأزيمة ، حتى ولو تم إخفات نغمت تلك الآلات باستعمال الأحرف الموسيقية الصامتة بينها بوب محتبس في غرفة نوم نائية - وكانت هذه هي الحطة التي سخرت على باله أول الأمر ... وعلى ذلك أخبر بوب بأن خزانة المأكولات المكتظة سيتم إفراغها . بإقامة الوليمة الخيرية المشار إليها ، وأنه يأمل ألا يرض ابنه بخدماته على مثل هذا العمل الطيب غير الهيسج . ووافق بوب على هذه الحطة دون تردد ، وتم تنفيذها ومدت المواعد على الفور .

ويبدو أن الهجة التي تم بها العرس « المستعاض به » دلت على أن الجارين المحترمين كان يمكن أن يقترنا منذ زمن طويل لو أنه حدثت هناك من قبل أية حادثة عائلية إلى جانب رغبتهما الشخصية في الزواج ، توعد بأن اتخاذ مثل هذه الخطوة أمر مناسب .

وحل الصباح المحدد . وفي الساعة العاشرة الهيجة أقيم القداس في هدوء بين الحشد المجتمع على هيئة مثلث قاعدته المقعد الأمامي ، والباب الغربي رأسه . والتفتعت السيدة جارلاند بشال من « المولدين » كالمسكة شارلوت ، وهو الشال الذي جاء به بوب ، وارتدت ثوباً برقوقي اللون هو أجمل أنواعها وقد أطل من تحته حذاؤها المشدود برباط وردى . وكانت آن بين الحضور ، وقد خفتت من تجملها بقدر ملحوظ حتى لا تخسف مظهر أمها خسوفاً شديداً جداً . وفي خلال الحفل كان يعاودها بين وقت وآخر شعور بأنه لم يكن يجدر بها أن تولد . وقد سرها أن تقفل راجعة إلى بيتها .

والاهتمام الذي أثير في القرية ، برغم أنه كان اهتماماً حقيقياً ، فإنه لم يصل إلى حد إزعاج الخجل نفسه . فجيران العروسين قد ازدحمت عقولهم ازدحاماً شديداً بالاستعراض العسكري الذي أبدى لهم ، إلى حد أن زواج اثنين من متوسطي العمر كان قليل الأهمية إلا من ناحية وضع حد لتساؤل الناس هل تعد السيدة جارلاند نفسها أرقى حساباً من أن تتزوج طحاناً .

وفي المساء أطلع فواد لندى أن يرى الطعام الخبوز والمسلوقة يلتهمه القوم الذين ملأوا المطبخ وقد تجمعوا فيه لهذا الغرض . وكانت ثلاثة أرباع ساعة من الزمن

كافية للقضاء نهائياً على مخاوفه من أن يفسد طعامه . ولما كان ذلك الزاد هو سبب الاجتماع ، وليس نتيجة له ، فقد انعقد العزم في ذلك اليوم على الإتيان بكل ما لا يمكن الاحتفاظ به ، ولو تطلب ذلك البحث عن يقومون بالاستهلاك في الطرق العامة ، ووراء الحواجز... وقد دعيت — بالإضافة إلى الفقراء والمحناجين كل بنت من بنات ساكني الأكواخ يعرفها صاحب الطاحون ، وطلب إليها أن تحضر معها حبيبتها من المعسكر — وكانت هذه مناسبة من أسعد المناسبات التي عرفت ، لأنها أتاحت لاصواء النهار أن تدخل تحت القشرة إلى اللب المظلم .

وبينا كان كل من السيد والسيدة لهدى وآن وبوب واقفين في الردهة يتحدثون عما يجري في العرفة المجاورة دخل جون الذي لم ينزل إليهم من المعسكر طوال اليوم ، دخل البيت ، ونظر إليهم من خلال بابه المفتوح .

— كيف هذا يا جون ؟ لماذا لم تحضر من قبل ؟

وقال جاويز البروجي بلهجة تدل على عدم حماسه للشرح .

— كان علي أن أقابل الكابتن... وكانت هناك واجبات أخرى .

واسترد صاحب الطاحون بينما ابنه ظل يراقبهم متأملاً وهو واضع يده على

ركاز الباب :

— حسناً... ادخل مع ذلك .

وقال جون وهو يتقدم :

— لا أستطيع أن أبقى طويلاً... لقد حل موعد مسيرنا ، وسرحل .

— سرحلون ؟ إلى أين ؟

— إلى إكزنبري (١)

— متى ؟

— صباح الجمعة .

— أسرحلون جميعكم ؟

— نعم . سرحل بعضنا غداً ، وبعضنا في اليوم الذي يليه . وسرحل الملك

في الأسبوع القادم .

(١) المقصود إكسبير (شرح الأصل)

وقال صاحب الطاحون دون يعبر بقوله البسيط عن نصف خزنه :

— يؤسفنى ذلك .

ثم أضاف وهو ينظر إلى الأفق من خلال النافذة :

— وددت لو أنك استظمت الحضور اليوم مادام الأمر كذلك .

وعبرت السيدة لى عن ذلك عن أسفها الذى دعا جاويز البروجي ، على ما يبدو إلى تذكر حدث ذلك اليوم ، وتوجه إليها ، وحاول أن يقول شيئاً يلائم هذه المناسبة . ولم تقل آن أمى أسفة أم سعيدة . ولكن خيل إلى جون لى أنه قد بدا عليها لدى سماعها النبأ أنها كانت أقرب إلى الشعور بالفرج . وكان حديثه مع بوب فوق التل قد جعل تصرف هذا الأخير بارداً أيضاً رغم أنه أتبع نصيحة أخيه آخر الأمر ، وكان ذلك عقب الحادث بمدة أقصر جداً من أن يقدر خلالها ما جرى تقديرًا صحيحًا . ولم يعرف جون سبب عودة الملاح ، ولم يقدر قط أن سبب ذلك هو أنه غير رأيه في الذهاب . . . وقال له على انفراد :

— ألم تلحق بها ؟

وقال بوب :

— لم أحاول ذلك .

— ألن تحاول ذلك فيما بعد ؟

— لا . . . سأدعها تهيم على وجهها .

وقال جون في صدق وإخلاص :

— أنا سعيد حقًا يا بوب . لقد كنت حكيمًا .

ولكن بوب كان لا يزال ، مع ذلك ، يحب ما تبلى حبا جما إلى حد أنه لم يكن من الممكن إلا أن يكون غير راض عن جون وتسرع في كشف ذلك الحادث . وهذا ما أدركه الأخ الأكبر على الفور ، وحله على ألا يمكث تلك الليلة إلا وقتًا قصيرًا . وقبل أن يرحل قال لأبيه في شيء من التردد ، ناظر إلى آن وأما نظرة تدل على أن قوله يشملهما ؟

— ألا تفكرون في الصعود إلى التل لتوديعنا ؟

وأجاب صاحب الطاحون عن نفسه وعنهما بأنهم سيحضرون دون شك . .
وسأله :

— ولكنك ستهبط إلينا فيما بين ذلك ؟

وأضاف جون بعد فترة سكوت :

— سأحاول ذلك . ولكن تذكر ، في حالة عدم حضوري ، أن ريفالي
سيطلق صوت النفير في منتصف الساعة الخامسة ، وسرحل حوالي الساعة الثامنة .
وربما أتينا في الصيف الآتي ، وعسكرنا هنا ثانية .
وقال كل من أبيه والسيدة لفدى :

— أمل ذلك .

وكان هناك شيء في تصرف جون دل آن على أنه لا يكاد ينوى العودة إليهم،
ولكن الآخرين لم يلاحظوا ذلك ، ولم يقولوا شيئاً . ورحل بعد ذلك بدقائق وسط
غيش ليلية من ليالى أغسطس تاركا آن في شك من معنى التقائه على انفراد
بالآنسة جونسون .

وكان جون لفدى ينوى أن يقول لهم إنه يمكن في هذه الليلة الأخيرة ،
بتصریح خاص ، أن يكون في مقدوره الحضور والبقاء معهم إلى الساعة الحادية
عشرة ، ولكنه عدل عن هذه النية لحظة رحيله ، فإن موقف آن منه ثبت عزيمة
وجعله يتأهب على الرحيل . وقد أنفق الساعات المتوفرة له من هذه الليلة الأخيرة
بطريقة أخرى .

وكان ذلك بزواله مساء من أطراف المعسكر ، وجلوسه على أثر اشتداد الظلمة
بالقرب من حافة حوض الطاحون حيث أخذ يرقب أضواء النوافذ المختلفة إلى
أن بدا الضوء في حافة مخدع آن ، وتقدمت هي بنفسها والشمعة في يدها ، لتلحق
النافذة الصغيرة . وسطع النور فوق جانب الطاحون الأمامي العريض العميق ،
مضيئاً على نحو يميز كل فراشة وبموضوعة دخلت نطاق اللآلاء الممتد إليه عبر الماء
وكل فقاعة أو ذرة من الزبد طافية في عرض الحوض . ووقفت تنظر من النافذة

بعض الوقت دون أن يخطر ببالها ما يخفيه عنها الظلام في الساحة الأخرى من الجدول العريض . وظلت كذلك إلى أن أغلقت النافذة في النهاية ، وأسدت الستائر وارتدت إلى داخل غرفتها ، وانطفأ النور على الأثر ، وعاد جون لفدى على أثر ذلك إلى المعسكر ، وركب في خيمته .

وكان الصباح التالي ثقيلًا عاصفًا ، وترددت على سهل أوفر كيب لآخر مرة نغمات النغير التي تعلن للفرقة ال . . الاستعداد للرحيل . وكانت آن قد نامت نوما عميقًا إذ علت بأن فرقة الدراغون سترحل ، واستيقظت تواقًا على نغمات النغير المرنان ونظرت من النافذة لتجد أن صاحب الطاحون قد غادر الدار ، فطلعت البيضاء بدت في آخر الحديقة حيث وقف يرقب استعدادات الرحيل دون حراك وأطلت آن أيضاً ، بمعنة النظر على قدر استطاعتها خلال الضباب الأشهب المسكفر، ولم تلبث أن رأت دخان المطايخ الأزرق يرحف متلوياً على طول الأرض بدل تصاعده رأساً في أعمدة كما كانت حاله خلال الطقس البديع لذلك الفصل . ثم الرجال يحملون أسرتهم وملحقاتها إلى العربات ، ويلقي آخرون بالنفايات في الحفر حتى أصبح التل يموج كأنه من تلال الغمل . ولم تكن آن ترغب في رؤية جون لفدى ثانية ، ولكنها ما سمعت الحركة الدائبة في بيت الأسرة حتى بدأت ترتدى ثيابها على مهل وتطل على المعسكر خلال ذلك .

ورأت الجند بعد إفطارهم يبيعون أو يجودون بأنبيهم الزائدة عن الحاجة إلى الأهالي الذين احتشدوا حول المسكان ، ويهدمون ويزيلون المطايخ الوقتية التي أقاموها يوم مجيئهم . وبدأ دق أوتاد الخيام ، وأعقب ذلك هدم مراكز الشرطة الحربية ، ولم تلبث أعالي الخيام البيض التي أصبحت الآن جزءاً أساسياً من ذلك المنظر الطبيعي . . لم تلبث أن سقطت على الأرض . وفي هذه اللحظة دخل صاحب الطاحون منزله ، وسأل عند أسفل السلم هل يصعد أحد معه إلى التل .

وبرغم النجوم التي أحاطت بصورة جون في ذهن آن فقد شعرت بأنه من غير المناسب في الوقت الحاضر ألا تودعه عند رحيله ، ووزلت إلى الدور السفلي حيث كانت أمها قد سبقت إلى هناك ، ولو أن بوب لم يبد له أثر في أي مكان . . وتأبطت كل منهما لإحدى ذراعي صاحب الطاحون ، وصعد ثلاثتهم على هذا

النحو إلى أعلى التل . وكان الرجال قد جاءوا وخبولهم في ذلك الوقت إلى مكانه التجمع . ووصلت أسرة صاحب الطاحون بعد بقليل إلى الأرض المنبسطة ، وبدأت طواير الجند تسير قدما في بطنه . واقرب عندئذ جاويز البروجي من المكان الذي وقفت فيه أسرة لفتى ليراه أثناء مروره ، وكان غائضا في بزته العسكرية وأسلحته ورياش جواده ، ودار أبوه في قلق إلى أن وقال :

— ستصالحين جون ، أليس كذلك !

وأجاب أن في صوت خافت :

— نعم .

وأباحت لصاحب الطاحون أن يسطحها وهي تتأبط ذراعه إلى طريق المرور ليصبحا ملاصقين لجناح الطابور المقرب منهما ، ووصل الطابور ، وأمسك أناس كثيرون بأيدي الجند من كلا الجانبين مودعين . وما رأى جون لفتى أفراد أسرة أبيه حتى مد يده من وراء بندقيته المعلقة على جانبه الأيمن ليفعل مثلا فعل الآخرين . ومد إليه صاحب الطاحون يده ، وحذت السيدة لفتى حذوه ثم امتدت يد جاويز البروجي صوب أن . بيد أنه لما كان جواده لم يتوقف تماما فقد كانت مصاحته عملا مزبكا نوعا تقوم به فتاة ، لهذا السبب الذي هو أبلغ من أي سبب آخر تراجعت أن ، ومر الفارس الأبى دون أن يتأق توديعها . وأخذ ضمير أن يؤنبها اللحظة من اللحظات . ثم خطر لها أنه لم يرحل على أية حاله إلى ساحة القتال ! وأنها ستراه ثانية على الأرجح في موعد غير بعيد حيث تأمل أن يكون سر تصرفه قد وضح تفسيره . وقطع عليها خوارها صوت انطلق من ناحية مرفقا .

— شكرا لله ، لقد رحل ، وأصبحت لي فرصة .

والتفتت فإذا فستوس دريمان واقف إلى جانبها ، فقالت في لهجة إزدراء :

— ليست لك أية فرصة .

— لم لا ؟

— لأن هناك رجلا غيره لا يزال باقيا !

وقد أفلتت منها هذه الكلمات عن غير قصد ، وصنع وجهها الاحمرار على

الأثر . وكانت على استعداد لبذل أى شيء فى سبيل استرداد ما قالت ، ولكنه
كان قد سمعها وقال :

— من ؟

وتقدمت آن إلى صاحب الطاحون لتتجنب الإجابة ، ولم يلحق بها فستوس
بعد ذلك . . وسأل رفيقا له :

— أهنأك أى رجل كان يتردد على طاحون أوفر كنب غير الجندى ابن لعدى ؟
وكان جواب سؤاله :

— ابنه الملاح .

وقال فستوس فى بطء :

— أوه ، ابنه الملاح ، اللعنة على ابنه الملاح !

الأستراتان

تتحدثان

(٢٢)

في هذه اللحظة بالذات لم يكن الشخص الذى يحفظ عليه فسوس ديمان منافسا خطراً بحال . فقد دخل بوب الدار بعد أن راقب الجند في ذهول ، وهو واقف أمام المنزل ، حتى تواروا عن الأبصار . وجلس في ردهة الطاحون حيث وجده أبوه وهو مستند بمرفقيه إلى المائدة ، وحامل رأسه بيديه ، بينما عيناه شاخصتان إلى وثيقة منبسطة أمامه .

— ماذا تطالع يا بوب بمثل هذا الوجه المكفر ؟

وتهد بوب . ثم دخلت السيدة لعدى وأن . وأجاب الفتى في تجهم :

— إنها ليست سوى ورقة رسمية ظننت في بلاهة أنى سأفيد منها .

وتنحج وهو ينظر إلى أسفل كما كان ينظر من قبل . وكأن دافعا داخليا كان يدفعه إلى الاستمرار في المطالعة . وبدأ يقرأ بنغات فياضة بالشعور دلت على أنه كان يقرأ وثيقة زواجه الملعنة :

« من تيموثى تيتوس فايلون . بإذن من أسقف بريستول ، إلى العزيزين علينا روبرت لعدى الأعزب التابع لأبرشية أو فركب ، وماتيلدا جونسون من نفس الأبرشية في سينستر . . . تحياتى . . . » .

وهنا تهدت آن . ولكنها جاهدت لتسكتم تهدها وتحيله إلى مجرد لاشيء . . .

وقال بوب :

— لغة جميلة ، أليس كذلك ؟ ... أنا لم أحي على هذا النحو من قبل !

وقالت السيدة لعدى :

— نعم . وكثيرا ما خطر لى أنا نفسى أنها لغة ممتازة .

وقال صاحب الطاحون :

— دعك من هذا . إن الرجل الهرم سوف يحميك ثانية بمثل هذه التحية

إذا منحنه بضعة جنهات .

— ليست هذه هي المسألة يا أبي! أنت لن تستطيع أبداً أن تدرك المعنى الحقيقي لهذه الأشياء... حسناً... وجاء في الوثيقة بعد ذلك : « ومن حيث أنك اعترمت ، كما هو مقرر ، أن تدخل عالم الزواج المقدس ... ، ولكن لماذا أوصل القراءة ، هذا كله لا يعنى شيئاً الآن ، لا يعنى شيئاً ، وقد تبددت الكلمات الجلية كلها في الهواء ويبدو كما لو أن نيبا أشيب وقورا حياني ثم دار وابتعد عني ، وأحكم وضع خوذة ولم يسمع .

ولم يحبه أحد وقد ساد الشعور بأن إظهار العطف لا يناسب المقام . وواصل بوب قراءة الوثيقة في سره ، مطلقاً زفرة بين الحين والحين كأنها الريح تتخلل جبال صواري السفن . وقال أبوه آخر الأمر :

— لو كنت مكانك لما شغلت ذهني بها إلى هذا الحد .

— ولم لا ؟ .

— نعم فالناس قد يدعونك مجنوناً ، ويقولون إن ذهنك قد ذاب وتحول إلى سائل .

وكان واضحاً أن هذه الفكرة صدمت بوب . وبدلاً من استمراره في القراءة طوى الوثيقة في عناية ، وأخذ يذرع الحديقة ذهاباً وإياباً . وكان يسأهل على نحو مفزع ما قاله أبوه . وأسوأ من ذلك أن ما يمكن أن يرميه به الناس قد يكون صحيحاً ، وتصيح مسألة ذوبان ذهنه حقيقة وليست خرافة . وصار شيئاً فشيئاً شديد التلق . وما واصل امتحان نفسه على هدى هذا الضوء الجديد إلا وأدرك في وضوح أتم أنه في مأزق شديد .

وتذكر أثناء تأمله أن شهيته للأكل نقصت إلى حد غريب منذ رحيل الآنسة جونسون . فهو لم يعد يأكل من صنف اللحم يوماً إلا قدر أربع عشرة أوقية أو خمس عشرة... ولم يعد يأكل من فطيره البودنج ، ، في المتوسط ؛ إلاثلثه كوارترن (١) ، ومن صنف الخضروات إلا كومة صغيرة من البطاطس ونصف كريمة من كرمب يورك . ولم يتناول المرق أصلاً .

(١) ما يوزن ربع الرطل .

وإذا راعينا لطفه الملاح على الطعام الغض بعد عودته من رحلة طويلة فإن ما ذكرناه لا يعد دليلاً بسيطاً على ما يساور ذهنه من هم . ثم إنه كان يصحو من نومه مرة كل ليلة ، وقد صحا مرتين في إحدى الليالي ، وهو منذ ذلك اليوم المشؤوم لم يعزف كل صباح ، أثناء ارتداء ملابسه ، سبع « فواصل » موسيقية من ألحان المزمار إلا توقف واستغرق في تفكير مؤلم إلى أقصى حد . وهو لم يكن يقص على الجيران من الفلاحين إلا حكايات حقيقية لا يشوبها الكذب عن البلاد الأجنبية ، وذلك عندما كانوا يجيونه ، ويتجمعون حوله كالعادة ليروي لهم ما يحول له أن يروي به . ولم تشذ عن ذلك إلا قصة الحوت الذي بلغ اتساع عينه قدر اتساع البركة في حظيرة شياه ودريمان .. . وكأنما ذلك كان أشبه بإغراء الأقدار أن تعيد لسان الملاح فيه إلى الأبد .

وكل هذا الوهن العقلي والجهاني حدث بسبب رحيل ماتيلدا .

وأخذ يفكر أيضاً فيما افتقده خلال تلك الأيام المشؤومة من ملاهى الرجولة المعقولة . فقد كان يستطيع أن يذهب بعد ظهر كل يوم إلى المنتزه الأنيق المجاور ويقف أمام قصر « جلوستر لودج » ، حتى يخرج منه الملك والمملكة ، وينعم دون مقابل ، وهو يحمل قبة في يده ، ببسات جلالتهما تقديراً لولائه ... ويرقب شرطة الجيش وهم يمتطون جيادهم ، وينصت إلى زمر الناس عند تجمعهم ، ويلحظ العلم على ساريتيه ... ويرى فوق ذلك ، فتيات المدينة الحسان وهن يتبخرن في الميدان ، وتحققن متأملات بعيونهن البريئة . في البحر البعيد ، والصخور الشهب والسما . ثم يحدثن مصادفة في الجند ، وفيه هو ... وقال لنفسه :

— سأستأصل صورتها من ذهني - لأنها لن تعبت بعقلي بعد ذلك .

وقد نجم تصميمه هذا عن خلق ينطوي على عناصر عظيمة حقيقية .

وعاد إلى أبيه الذي وجدته في مخزن الطاحون ، وأبدى له الملاحظة التالية :

— إن ما قلته يا أبي صحيح ، فذهني سيتحول إلى قدر ماء فيما إذا فكرت فيها أكثر من ذلك . وأقسم قسم ملاح إنى أود لو أستطيع الإفلال من التهد ، والإكثار من الضحك . لقد رحلت .. فلماذا لا أستطيع أن أدعها تذهب وأنعم بالسعادة ؟ .. ولكن كيف أبدأ ؟

وقال صاحب الطاحون :

— هون عليك الأمر . احمل نفسك على الخروج واستمتع بالطعام والشراب .

وقال بوب :

— آه ... إنها لفكرة !

— الطباق يصلح لهذا ، وكذلك خمر « سيريس » . ولو أنى أنفصحك

ألا تشرب الخمر صرفاً . .

وقال كابتن لعدى :

— ، الطباق ، ... لقد كدت أنساء .

وذهب إلى غرفته ، وفض لفافة الطباق التي أحضرها معه إلى يده ، وبدأ يستعمل الطباق على طريقته بينما نادى على ديفيد طالبا إليه لإحضار زجاجة خمر العسل التي كان قد وضعها في خزانة المؤن في هذه السنوات الإحدى عشر فالأخيرة . ووجده أبوه بعد مروره ثلاثة أرباع ساعة شيئاً يظهر نصف ظهور من وراء حجب الطباق .

وتنفس صاحب الطاحون الصعداء ، وقال :

— ماذا يا بوب ، لقد ظننت البيت يحترق !

— إنى أدخن تدخيناً أميل إلى السرعة لاغرق تأملاتي يا أبى ، فلا فائدة من

مضع الطباق .

وفي سبيل إغراء شهيته الواهنة طلب هذا الزوج الشقي إلى ديفيد أن يطهوه له « بجة بيض » ، ويخبز فطيرة محشوة . وقد حشيت هذه الأخيرة حشواً بلغ من قدره الكبير أن أصبحت تتفتح للسكين كأنها زهرة منمنمة من الشقيق الأصفر . وفي سبيل نفس الغرض نصب حباتل ليلية لما طعم لصيد السمك في شط حوض الطاحون ، وسحبها في الصباح التالي مليئة بشعابين البحر ، وقد سلخ جلد بعضها ، وأعدده لطعام الإفطار . وكان هذا النوع من السمك هو الذى يؤثره ، ولكن حالته كانت قد وصلت حتى اللحظة التي قام فيها بذلك المجهود ، إلى حد أنه نسي تماماً وجود ذلك النوع من السمك بالقرب من باب أبيه الخلقى .

ولم تمر أيام قليلة حتى تحسن بوب لعدى تحسناً مذكوراً لونا وقوة . وكان هناك علاج واضح آخر لخور عزمته وهو أن يتغمس في حجة الآنسة جارلاندا ،

فالحلاص من الحب بأن يستبدل به ، أقوى أثراً بكثير من محاولة القضاء عليه . ولكن اعتقاد لعدى بأنه أساء إلى هذه الفتاة إساءة أبعد من تناول الغفران ، وشعوره الدائم حيالها بأنها امرأة جديرة ، بتربيتها وأصلها ، أن تزين بيتاً أرفى من بيته ، حالاً حيلولة ناجحة دون تقربه إليها مدة طويلة برغم أنهما كانا يقطنان في نفس المنزل . بيد أن هذا التحفظ انهار ذات صباح ، إلى حد ما ، بظهور طرف منشار في الحائط الفاصل بين غرفة آن ومسكن لعدى القائم في النصف الآخر من الدار ، وحدث هذا في حقبة متأخرة من ذلك الفصل . وبرغم أن الفتاة كانت تتناول الغداء والعشاء مع أمها وأسرته لعدى ، فقد ظلت تقطن في مسكنها القديم ، لأنها وجدت بقاءها هناك أكثر ملاءمة وتمكيناً من مزاولتها هواياتها من نسج خيوط الصوف ، ونسخ صور أبيها القديمة . ولم يكن الحائط الفاصل بين المسكنين قد انهار بعد .

وقفت آن تاركت رسمها بينما كان المنشار يعمل تحت بصرها المندهن ، متخذاً طريقه إلى أسفل . ولم يلبث الخيش والورق الذي كان يكسوعلى نحو مؤقت باب الاتصال بين المسكنين أن تمزق عن آخره . وانفتح الباب دفعة واحدة ، وظهر بوب واقفاً في الناحية الأخرى والمنشار في يده . وقال وهو يرفع قبعته التي كان يعمل وهي على رأسه ، بينما انفرج وجهه الجميل عن ابتسامة :

— أرجو المغفرة من سيادتك . أنا لم أكن أعلم أن هذا الباب يؤدي إلى حجرتك الخاصة .

— نجياً ، يا كابتن لعدى !

— أنا أصلاً أزيل الحاجز بيننا ما دمنا قد أصبحنا أسرة واحدة . ولكني ظننت حقاً أن الباب يؤدي إلى ممر سكنكم .

— لا أهمية للأمر عندي ، فأنا أستطيع أن أتخذ لنفسى غرفة أخرى .

— أبدأ ، فأين لي يسمح لي أن أخرجك من غرفتك . سأعيد إغلاق الباب .

ولكن آن كانت مهممة بطريق الباب الجديد إلى حد أنها اجتازته ، ووجدت نفسها في ممر منخفض مظلم لم تكن قد رآته من قبل قط .

وقال بوب :

— إنه يؤدي إلى الطاحون ، أتريدن أن تدخلن وترها وهي تدور ؟ ولكن
لعلك رأيته من قبل ؟

— لم أدخل إلا الدور الأرضي .

— تعالي لتطوفن في كل ناحية منها . إنى أتدرب على الطحن لاساعد أبى .

وتبعته عثرة المر المظلم حيث فتح باباً صغيراً في جانبه ، وعندئذ رأته كهنا
ضخماً لرجاً تتهاوى فيه أذرع عجلة الطاحون ، وتدور في بطنه وشروء . والنقت
قطرات الماء المتطيرة بالنور الذى ضل طريقه إلى المكان المظلم ، فتحوالت إلى أنجم
وومضات من نور ... وهبت على وجهها نفحة رطبة من الهواء . وإذا العجيب
المنبعث من الداخل يضطر أن إلى الصباح قائلة :

— هذا فظيع ! دعنا نواصل سيرنا .

وأغلق بوب الباب الصغير فسكن العجيب . وواصل السير إلى الجزء الداخلى
من الطاحون ، حيث كان الهواء دافئاً ، رائحته كرائحة الجوز ، يغشاها ضباب من
الدقيق . ثم صعدا في السلم ورأيا أحجار الرحي تدور وتدور ، وحببات القمح
الأصفر تجرى خلال الغربال الهزاز . ثم تسلقا أبعد من ذلك إلى الدور العلوى
حيث القمح موضوع في أدرج ، وحيث خيوط طويلة من الأشعة كقرون
الحشرات تمتد من الشمس إلى داخل المكان من خلال النافذة الصغيرة ، وتكاد
تضل طريقها بين خيوط المنسكوت والأخشاب ، ثم تتم رحلتها بدمغ الحائط
المقابل ببقعة متوهجة من الذهب .

ورفع بوب غطاء الغربال أثناء قيامه في عيرة بهممة عرض المكان ، وكان
الغربال يدور في سرعة . وتنج عن ذلك أن هبت على وجهها سحابة من الدقيق
أذكرت أن أن لونها أصبح في هذه الآونة أكثر شحوباً مما كان عليه عند دخولها
المطحن . وشكرت رفيقها على ما تحشمه من تعب ، وقالت إنها ستزول من الطاحون
الآن . وتبعها وهو يحوطها بنفس الرعاية التي حاطها بها من قبل ، ويحس إحساساً
مفاجئاً متزايداً بأن هذا العلاج بالنسبة لجميع أنواع العلاج الأخرى التي توخى
بها شفاء عاطفته السابقة التمسمة . فبين أن يكون أحسنها وأيسرها وأقوامها أترأ فيها
إذا كان سعيد الحظ إلى حد يستطيع معه الاحتفاظ بالفتاة على أساس شروط .

ميسورة . ولكن الأنسة جارلاندم تبد أى استعداد لقبول شيء غير خدماته بحسبانه مرشداً لها فى جولاتها . وزلت إلى الهواء الطلق ، ونفضت عنها الدقيق كما تفعل الطير . ودخلت الحديقة وسط أشعة شمس سبتمبر التى كانت خيوطها تمتد مستوية عبر الضباب الأزرق المنبعث من الأرض ، وكان البعوض يرقص مرتفعاً منخفضاً فى أسراب خفيفة كالهواء ، ونبات الحرف تشرق جماعات من خلال الحاجز المظلم الذى كانت تنسلقه ، وروائح أخريات الصيف الرطبة تفوح من كل شيء . وتبع بوب الفتاة حتى باب الحديقة . وشيعها ببعصره وهو يراها كنفس الفتاة التى شجعت بعض التشجيع من سنوات خلت عندما كانت تبدو أسمى منه مرتبة إلى حد كبير . ويرغم أنهما كادا يصحبان اليوم متساويين فى المرتبة فلإنها تظنه على ما يبدو دونها قدرا . وكان ذهنه يحنج فى شعور جديد من الابتهاج إلى واقعة أنها تقطن الآن فى منزل أبيه .

وظل على سلوكه الدمك خلال الأسبوع التالى . وقليل ما كانا يجتمعان خلال ساعات العمل بالنهار ، ولكنهما كانا يلتقيان بانتظام فى مواعيد الطعام . وبدأت هذه المناسبات المهججة تثير فيه الاهتمام بصرف النظر تماماً عن اهتمامه بالصحاف والكواب . واعتاد ميلر لعدى أن يحيى آن بصوت عال ، وهو يشحد سكينه ، كلما دخلت وجلست فى مقعدها . ولكنها لم تنازل وتقبل من بوب مثل هذه التحية المدالة على الألفة . وكانا يجلسان معاً ، على الأعلب ، وعين كل منها لا تنتظر فى اتجاه الاخر . ولكن بوب كان يقص فى بعض الأحيان قصصاً جديدة حقيقية عن ربانبة البحار ، والمرشدين ، وصغار الملاحين ، وضباط البحرية ، ورجال البحر الأكفاء ، وغير ذلك من القصص الخاصة بالحوانات العجيبة الموجودة فى عالم البحر . ولكنه كان يوجه هذه القصص مباشرة إلى أبيه والسيدة لعدى ، ولا يشرك أن إلا بنظرة عند الموضوع الهام من الرواية . وكان يفتح لها أحياناً زجاجات من شراب وعصير التفاح ، الحلو ، وفى هذه الحالة كانت تشكره . ولكن لم يؤد حتى ذلك إلى تشجيعها له على مواصلة حديثه .

وفى ذات يوم ، بينما كانت آن تقشر تفاحة ، قال لها الفتى وقد تركا وحدهما على مائدة الطعام .

— لقد صنعت لك شيئاً .

ونظرت إلى كل ماحوت المائدة ، ولكن لم يكن هناك إلا بقايا المائدة العادية .
— أوه ، أنا لم أقصد أن ما صنعتها هنا ، ولكنه في الخارج هناك إلى جوار
الجسر عند رأس الطاحون .

ونفض ، وحذت آن حذوه وقد بدا الفضول في عينيها ، وتحولت بفمها الصغير
الدال على الحزم من العبوس إلى هيئة تدل على الحيرة . ووجدت عند وصولها
إلى الناحية الأمامية المعشوشبة للطاحون أنه أقام دقيقتين ربح ، كبيرة الحجم في
مهب التيار الشديد الرطب الذي يسود ناحية عجلة الطاحون دون انقطاع . وكانت
الأوتار في هذا الوقت مغطاة بقطعة من القماش ، فرفعها وبدأت الأوتار تصدر
موسيقى سحرية تمزج امتزاجاً عجيماً برشاش العجلة الدائرة .

وقال بوب :

— لقد صنعتها لك خصيصاً يا أنسة جارلاندا .

وشكرته شكراً حاراً جداً لأنها لم ترق حياتها قط شيئاً يشبه مثل تلك الآلة
وقالت وقد أثارت اهتمامها :

— كان صنعك لهذه الآلة رعاية متكورة منك .

ثم أضافت :

— ما الذي جعلك تفكر في مثل هذه الآلة ؟

وأحباب وكأنه لا يهمهم بأن تسأله في هذا الموضوع :

— أوه ، لست أدري على وجه التحديد . وأنا لم أصنع طوال حياتي قيثارة
واحدة إلى الآن .

وفي كل ليلة تالية ، أثناء هبوب رياح الخريف المشجية . كان ذلك المزيج الغريب
من أنغام الماء والهواء والأوتار يصفح أذنيها وهو يعلو وينخفض في إيقاع يكاد

(١) قيثارة ذات أوتار نحتت أنغام . موسيقية كلما تعرضت لتيار الهواء .

(شرح الأصل)

يكون خارقا للطبيعة . وكانت طبيعة هذه الآلة تختلف اختلافا كبيرا عن كل ما
رأته من هويات بوب ، حتى أنها أعجبت في ابتهاج عما كشفه اختراع تلك الآلة من
وجود تلك الأعماق الشعرية في طبيعة الملاح الشاب . وسمحت لعواطفها أن تتطلق
أبعد قليلا في اتجاهها القديم ، برغم انعقاد عزمها الأخير الحازم على أن تصد
تلك العواطف .

وفي ليلة نشطة النسيم ، بينما ظلت الطاحون تعمل في الهزيع الأخير من الليل
والريح تهب في اتجاه مجرى الماء تماما ، امتزجت الموسيقى بأحلامها امتزاجا قويا
إلى حد أيقظها ، وبدأت أنغامها كأنها حلت في وقع موزون محل هذه الكلمات
« تذكرني ! . . . فكر في ! » ، وأثر ذلك في الفتاة تأثيرا شديدا ، فقد كادت
الأنغام تكون مثيرة للعواطف إلى حد كبير . وفي الصباح التالي حدثت بوب في
في الموضوع ولاحظت في رقة :

— ما أعجب أن تكون قد فكرت في وضع القيثارة حيث يتدفق الماء !
لإنها تؤثر خلال الماء تأثيراً يكاد يكون مخزنا ! إنك شاعري المزاج يا كاتبين بوب . . .
ولكنها مثيرة للحزن جدا . . . جدا ! . . .

وقال كاتب بوب على الفور :

— سأقلها من مكانها . إن أنغامها مخزنة جدا بالتأكيد . وقد ظلت أنا نفسي

مسهدا في إحدى الليالي .

— كيف توصلت إلى التفكير في صنع مثل هذه الآلة الغريبة ؟

وقال بوب :

— حسنا . إنها لا تكاد تستحق ذكر سبب صنعها . إن مكانها غير مناسب لمثل
تلك الآلة الغريبة ذات الضجيج ، وسأقلها من هناك .

قالت آن :

— إني أود ، بعد إعادة التفكير ، أن تبقيها قليلا ، فهي تحملني على التفكير .

وسأطأ في صراحة جادة :

— التفكير في أنا ؟

واحمر وجه آن في سرعة . وقالت وهي تحاول أن تبعث في صوتها لهجة طبيعية واضحة :

— حسنا ، نعم أنا مدفوعة بالطبع إلى التفكير فيمن ابتدعها .
وبدا على بوب ارتباك غير واضح السبب . ولم يواصل الكلام في هذا الموضوع . وعاد إليها ثانية بعد ما يقرب من نصف ساعة وقد بدا في نظره شيء من القلق . وقال :

هناك مسألة بسيطة لم أذكرها لك تو يا آنسة جارلارند. أقصد عن تلك القيثارة .
إني أنا الذى صنعتها دون شك ، ولكن أخى جون هو الذى طلب إلى قبيل رحيله أن أصنعها . إنه كما تعلمين موسيقى بارع ، وقال إن ذلك سيثير اهتمامك . ولكن بما أنه لم يطلب إلى إخبارك بأنه صاحب الاقتراح ، فقد كتمت عنك الأمر . ولعله كان يجدر أن أصرحك به ، ولا أنسب الفضل لنفسى .
وقالت آن في سرعة :

— أوه ، إن هذا لا أهمية له . وهذه الآلة ، على أية حال ، بعيدة عن أن تكون كاملة . وسيكون سيان تماما أن تنقلها بعيداً كما اقترحت في بادئ الأمر .
وقال إنه سيقوم بذلك ، ولكنه نسي أن ينفذ قوله في ذلك اليوم ، وكانت الريح عالية في الليلة التالية ، وصاحت القيثارة ، وأنت أنينا مثيراً إلى حد أن آن التى كانت نافذتها قريبة جداً منها ، لم تكذب تحتل الصوت وما يأتلف حوله من أفكار جديدة . وظل جون لفدى مائلا في ذهنها طوال الليل بحسبانته رجلا أسيتت معاملته ، ولكنها لم تستع أن تقر بأنها أسامت معاملة .

ونقلت القيثارة من مكانها في اليوم التالى . وإذ شعر بوب أن قدره من حيث الابتكار قد نقص في عينيها ، شرع يطلى كشك الحديدية الذى تردد عليه ، في سبيل استرداد ما فقدته . وأكد لها عندما خرج من بيته أن هذه الفكرة هى فكرته تماما .

وقالت في لهجة حيادية :

— كان الكشك محتاجاً إلى ذلك لا مرا .

- إن العمل الآن يوشك أن يكون متعباً .
— نعم ، فأنت لا تستطيع أن تطول أعلاه تماماً . ذلك لأنك لست فارغ الطول ، أليس كذلك يا كابتن لفتدى ؟
— أنت لم تمتدحى النوم بمنل هذا قط .
— أوه . أنا لم أقصد أن قامتك تنقص كثيراً عن القامة الطويلة ! هل أحل لك وعاء الطلاء حتى أجنبك مشقة النزول إليه ؟
— شكراً لك إذا قبلت ذلك .
وتناولت وعاء الطلاء ، ووقفت تتطلع إلى الفرشاة وهي ترتفع وتنخفض في يده .
ولاحظ قائلاً وهو يغمس الفرشاة :
— أمل ألا ألوث أصابعك برشاش الطلاء .
— أوه ، إن ذلك لا يهم ! إنك تحسن غمسها جداً .
— يسعدنى أن أسمع منك أنك تزين ذلك .
— ولكن لعل طلاء كشك حديقة لا يتطلب من الفن مثل القدر الكبير الذى يتطلبه رسم صورة زيتية ؟
وكانت تتكلم بلهجة فيها لذعة من السخرية إذا خطر ببالها أنها ابنة رسام ، وفتاة متعلمة تفوقه قدراً . وشعر بتحقيرها له وقال :
— إنك لم تتعودى مخاطبتى على هذا النحو .
وعلقت في جرأة :
— لعل كنت صغيرة جداً عن الحد الذى أجد فيه أية متعة في إيلام الناس .
— أهدأ يمتدك ؟
وأومات آن إيجاباً . وقالت بحدة دون أن تتحول بعينها عن السائل الأخضر الذى تحمله في يدها .
— أسألك العفو عن ذلك .
— أنا لم قل لى قصدتك . . مع أنى قصدتك فعلاً .

وظل بوب ينظر ، ويعيد النظر إلى جانب وجهها حتى بلغ من افتتانه بها أن وضع فرشاته جانبه ... وصاح :

— إنه نسياني الأحق لك بعض الوقت ! .. حسنا ، إنى لم أرك مدة طويلة جدا . تصورى كم كان عدد تلك السنين ؟

وقال وهو يتقدم ليتناول يدها :

— أوه ، يا عزيزتى آن . . . كم كان كل منا يعرف صاحبه جيداً يوم أن كنا أطفالاً ؛ لقد كنت ملكة فى عيني وقتئذ . . . وكذلك أنت الآن ، وستكونين كذلك على الدوام .

ومن المحتمل أن تكون آن قد ارتجعت رجفة لذيدة بمقدار كاف عندما أعادت هذا الفتى الرقيق المارق ثانية إلى موطئ قدمها .

ولكن الفتى لم يجد الموقف سهلاً كما تصور ، وهى لم تسمح له بعد بأن يتناول يدها . وقالت ضاحكة :

— هذا بديع جداً ! .. ولم يمر على رحيل الآنسة جونسون سوى ستة أسابيع !

وتوسل إليها بوب :

— أستحلفك ألا تقولى شيئاً عن ذلك ! أقسم أنى لم أحبها قط . . . أى إنى لم أحبها قط عن عمد مدة طويلة متصلة ، فقد كان الأمر نوعاً من الأمور المفاجئة كما تعلمين . ولكنى ، بالنسبة لك ، ظلت طوال حياتى أجدك وأحبك من آن لآخر محاطاً بالاحترام . هاك الأمر ، هذا حقيقى .

وأجابت آن فى سرعة :

— وأنا أريد من آن لآخر أن أصدقك يا كابتن روبرت . ولكنى لا أرى أية فائدة ترجى من إدلائك بهذه البيانات الخطيرة .

— اسمحى لى أن أشرح الأمر يا عزيزتى الآنسة جارلاندا . إن القصد أن أحملك على الفضل بتجديد وعد قديم . . . يرجع إلى سنوات خلت . . . وهو أن تذكرينى .

— إنى لن أكرر كلمة واحدة من أى وعد .

— حسنا ، حسنا ، إني لن ألع عليك في ذلك اليوم . وإنما دعيني أتوسل إليك فقط أن تزعي عنك الفكرة الخاطئة التي كوتها عني . وسيكون قصارى جهدي أن أفوز منك بحظوة كريمة .

ودارت آن فابتعدت عنه ، ودخلت المنزل حيث تبعها في ظرف ربع ساعة طارقا بابها ، طالبا الدخول . وقالت له إنها مشغولة . ومن ثم مضى إلى سبيله ليعود ثانية بعد فترة وجيزة ، ويتلقى نفس الإجابة .
وقال لها من خلال الباب :

— لقد أتممت لك دهان كشك الحديقة .

— لا أستطيع أن أحضر لاراه ، فسأكون مشغولة إلى حين العشاء .

وسمعه يطلاق زفرة عميقة ، ويقفل راجعا وهو يدمدم قائلا شيئا عن سوء حظه لكونه مقطوع الصلة من جذعه على هذا النحو ، ولكن الأمر لم ينقض بذلك بعد ، فعندما حانت وجبة العشاء ، وجلسا إلى المائدة معا . أخذت على عاتقها أن تلومه على ما وجهه إليها من قول في الحديقة .

ونم جبين بوب عن اليأس وقال :

— والآن أسألك هذا الأمر الوحيد متوسلا : دعيني أعرف فقط كل ما ينطوي عليه ذهنك ، وستتاح لي بعد ذلك فرصة الاعتراف لك بجميع أخطائي ، وإصلاحها أو أوضح سلوكي توضيحا يرضيك .

وأجابته في عجلة ، ولكن صوتها لم يرتفع إلى الحد الذي يسمعه معه الشخصان المرمان اللذان يجلسان في الطرف الآخر من المائدة :

— سأقول لك إذن شيئا واحدا يا كابتن لفندي . سأذكر عيبا واحدا لعله كان يمكن أن يلائم طبعي أكثر مما يلائم طبيعتك . وهو أنك تتأثر في سهولة شديدة بالأوجه الجديدة . وهذا يعطيني « فكرة سيئة » عنك . . نعم ، « فكرة سيئة »

وقال بوب في ببطء وهو ينظر إليها بذلك الاحترام الشديد الذي يوليه التليذ لاستادته . وكانت قد نطقت بكلماتها على نحو يقف بالضبط بين الجد والهزل إلى حد أنه أصبح في شيء من الشك في الكيفية التي يتلقاها بها .

— أوو، أهذا هو الأمر! . . . أنا متأثر بالوجوه الجديدة . . . هذا خطأ حتى دون أدنى ريب .

وكانت صوت القمقمة الصادرة من فتح سداة الزجاجة، وقيام صاحب الطاحون بصب الجمعة القوية قاصدا أن يتوجها برغوة وفيرة . . . كان ذلك يشئت ذهنها تشتيتا ظاهرا يصفح لها عن عدم المضي في الإنصات إليه . . . وفي أثناء البقية الباقية من جاستهما بدا أن تأنيبها اللطيف أخذ يرسب في ذهنه رسوبا جديا . ولعل قلبها قد أوجعها وهي تراه إلى أي حد كان يلوذ بالصمت . ولكنها ظلت تقصد معاقبته . وقد حافظت يوما بعد يوم، خلال أسبوعين أو ثلاثة، على نفس تصرفها، متمكنة من ضبط نفسها على نحو أظهر من أنة خلقها . سم إنه من ناحيته هو، نظرا إلى ما كان عليه أن يتجشمه . والى طريقة تملصها منه، ورفضها الخروج له عندما يتأديها، وامتناعها عن مقابله عندما كان يريد دخول الردهة الصغيرة التي وضعت يدها عليها الآن لاستعمالها الخاص . . . كان صبره حياجا هذا يشهد في قوة على طبعه الرضي ؟

استعدادات عسكرية

على نطاق واسع

(٢٣)

انقضى عيد الميلاد . ومضى شتاء موحش ذليال مظلمة . مفسحا المجال لشتاء أشد إجماعا ، لياليه مضيئة . وكانت سيول الجليد تنتهي بإهمار المطر ، وانهمار المطر ينتهي بهبوب الريح ، وهبوب الريح بانتشار الغبار . لقد أقبلت الأيام الممطرة . . . أقبل فصل شروق الشمس الوردى وغروبها الأبيض . وود الناس أن ينتهي أوان جو مارس .

والواقعة الرئيسية المتعلقة بالأسرة التي تقطن في الطاحون هي أن صاحب الطاحون تطوع في الجيش مقتنيا أثر جميع جيرانه . وكان يظهر مرتين في وقت معين من كل أسبوع ، ويرتدي سترة عسكرية حمراء طويلة الذيل ، وجراديل في لون الفخار ، ورباط ساق من قماش أسود ، وخوذة مصقولة ذات زر مصنوع من الصوف الأخضر ، وأشرطة عسكرية على كتفيه منسوجة من صوف لا يختلف عن صوف الزر مادة ولونا . وظل بوب على الحياد ، فهو إذ عجز عن أن يقرر أينضم إلى رجال البحر المدافعين عن وطنهم ، أم إلى الحرس الوطني المحلي ، أم إلى المتطوعين ، اكتفى بمرافقة آن في الرقص . وفطنت السيدة لندى إلى أن هذين العنى والفنساء يقف كل منهما قبل الآخر موقفا غريباً ، ولكنها لم تستطع أن تستوثق من معنى حركاتهما إذ لم يشاهد أحدهما رأسهما يبدوان معا ، ونادراً ما كانا يجلسان حتى في نفس الغرفة .

ومن العجيب إلى حد كاف (أو لعله من الطبيعي إلى حد كاف) ، أنها منذ انضمت هي نفسها إلى أسرة لندى أخذت تحببها لفكرة اقتداء ابنتها بها يقل تدريجياً وعادت إلى فكرتها الأصلية ، ففكرة تجميع فستوس ، وذلك على الأخص لأنه أبدى أخيراً مشاركة متواصلة في ترده على تخوم الطاحون ، وأغلب الظن أنه أقدم

على ذلك بقصد الالتقاء بالفتاة . ولكن حالة الطقس حملتها على ملازمة الدار أغلب الوقت .

وفي عصر أحد الأيام كان المطر ينهمر كالسيول . وكانت أوراق الشجر التي تظل على أفرعها في هذا الوقت من العام - كأوراق شجر الغار ، وغيره من الشجر دائم الاخضرار - كانت تترنخ تحت لطحات القطرات الشديدة التي كانت تتساقط عليها ، ويرى بعد ذلك وهي تسيل على جذوع الشجر السفلى ، ثم تدرب صامتة في الأرض . وكان سطح حوض الطاحون يتوثب تحت ذلك الوابل المدرار في آلاف من التجمجات التي كانت تفرق على طول الشاطئ كالدجاجة الواقعة في حجر فأر ، وهي تهتز في مهب الريح . والمكان الوحيد الذي بدا من نوافذ دار الطاحون الأمامية جافا لم يبتل كان الجزء الداخلي من كوخ قائم في الطرف المقابل من الفناء وقد توجه إليه فستوس ديمان ، ودخله ليحتمى فيه بينما كانت السيدة لغدى ترقب خيوط المطر عبر الظل الداخلي لذلك الكوخ الذي لم يكن ليوفر إلا حماية ضئيلة لرجل يضارع عمالقة (١) فريدريك وليام ، وذلك نظرا لما تكسده فيه من سقط المتاع .

وكانت هذه فرصة طيبة تعين السيدة لغدى على تنفيذ مشروعها . فابنتها آن كانت في الغرفة الخلفية ، وهي إذا سألت فستوس أن يدخل البيت حتى يكف المطر عن الهطول ، جمعته وجها الوجه بابنتها التي رغبت الآن ، بعد كرا الأيام ، في تزويجها برجل من غير أسرة لغدى ... لقد رغبت في ذلك الآن بعد أن جربت من بعض الوجوه نشوة قصة إقترانها بصاحب الطاحون . لقد أصبحت الان أحوط من ذي قبل . وهي ليست تعسة ، لكن الأمر الواضح هو أنها تزوجت بمن يقل عنها مستوى . وأشارت إلى فستوس من وراء زجاج النافذة فاستجاب لإشارتها على الفور ، وقد لجأ إلى ذلك المكان في الواقع لتلحظه الأعين إذا كان يعلم أن الآنة جارلانده لم تكن لتخرج من الدار في مثل ذلك اليوم .

وقال فستوس وهو يدخل الدار :

(١) جنود فارعو الطول كان فريدريك وليام ، أبو فريدريك الكبير ، يختمهم حرسا له .
(شرح الأصل)

— مساء الخير ياسيدة جارلاند . انظري الآن .. وكأنه لم يخاطر لي أن الامر سيكرن على هذا النحو !

واحتد صوته فجأة إلى درجة الغضب إذ رأى الباب يغلاق في الناحية الخلفية من الغرفة بعد أن مرقت من خلاله طلعة رشيقة .

والتفتت السيدة جارلاند ، ولاحظت أن آن قد انصرفت ، فقالت وكأنها لم تدرك ما حدث :

— ما الامر ؟

وقال فستوس غاضبا :

— أوو .. لا شيء .. لا شيء ! إنك تعلمين ما حدث علما كافيا ياسيدتي ، وتتظاهرين فقط بنير ذلك ولكنى سأناقشها مع ذلك الحساب .. سوف تتخيلين عن مظاهر التعالي يافانتى ! فهى قليلا ما تظن أنى ظلت أحصى عليها كل ما ارتكبت .

وقالت السيدة لفتدى وقد فرحت في سرها لدلائل الحب التي لم يستطع السيطرة عليها :

— ولكن لا بد أن تعاملها في أدب ياسيدى .

— لا تحدثنى عن الادب والكرم ياسيدتي ! إنها أكثر من ندمتلى ، فهى تتغلب على دائما ... وقد مررت بهذا البيت أكثر من خمسين مرة منذ عيد القديس مارتين الماضى .. وهذا هو كل ما نلته من جزاء على ذلك .

— ولكنك ستمكث هنا حتى يكف المطر عن المطول ياسيدى ؟

— لا . أنا لا أهتم بالمطر .. سأخرج ثانية .. . إن هناك شخصا آخر نصب عينها !

وخرج الفارس المتطوع مغلقا الباب في عنف .

وفى هذه الأثناء كانت باعثة أمه المتقلبة قد سارت فى الممر المظلم واجتازت الفتحة الصغيرة المؤدية إلى العجلة واخرقت الباب إلى الطاحون حيث التقت بيوب . الذى نظر إليها من مستودع الدقيق متسائلا ، وقال :

— أرغبين في لقائى يا آنسة جارلاندا؟

وقالت الفتاة :

— أوو ، لا . أنا لا أريد إلا السماح لى بالمسكث هنا بضع دقائق .

ونظر إليها ليعلم هل هى تعنى ماتقول ، وعاد إلى مكانه إذ وجد الأمر كذلك حقاً . ثم ارتد ثانية بعد أن ظلت الطاحون تتعقع بعض الوقت .

وقالت له إذ رآته يتحرك صوبها .

— تذكر يا بوب أنك قائم الآن بالعمل ، وليس لديك فراغ من الوقت

لتقف فيه بالقرب منى .

وانحنى لها ، وعاد ثانية إلى عمله الأصيل بينما أخذت آن ترقب من النافذة

خروج فستوس . وظلت الطاحون تتعقع كمهداها السابق . وجاء إليها بوب أخيراً للرة الثالثة ، فبدأت تقول له :

— والآن يا بوب ..

— أقسم بشرفى أنى لم أجدى إلا لاسألك سؤالا .. . أتذهبين معى إلى

الكنيسة بعد ظهر الأحد المقبل ؟

فقال :

— قد أفعل ذلك .

وغادر الفارس المتطوع البيت فى هذه اللحظة ، فعادت آن إلى مسكنها من

من حيث أتت لتهرب من التهادى فى المناقشة .

وحل بعد ذلك ظهر يوم الأحد . وكان أفراد الأسرة يقفون بالباب مترقبين بده

دقات الأجراس فى الكنيسة . وكانوا يستطيعون من هذا الجانب من البيت أن

يروا إلى الجنوب ، عبر حظيرة خيل ، تلك الأرض التى تأخذ فى الارتفاع أمامهم

عن بعد ، حيث تقوم شجرة دروار كبيرة تتقاطع تحت أفرعها آثار أقدام متجهة

إلى مختلف الاتجاهات تكيوط الظهير عند القطب . وكانت الشجرة قديمة ، وكانت

الحشائش الممتدة تحتها تبلى تماماً فى الصيف من وطء أقدام المتواعدين والمتسكعين

الذين يقصدون هذا المكان . وهى تمثل هدفاً بادياً للعيان وسط المنظر الطبيعى

المحيط بتلك البقعة .

وأقبل من أحد الطرق ، إذ هم ينظرون جندي من المشاة في سترة حمره وسروال
أبيض ، وقف تحت شجرة الدردار ، وأخرج من جيبه ورقة ، وشرع يسرها
من أطرافها الأربعة في جذع الشجرة . ثم تراجع إلى وراء ، وألقى عليها نظرة ،
ثم مضى في طريقه . وجاء بوب بمنظار مكبر من داخل البيت ، وصوبه إلى ورق
الإعلان ، ولكنه لم يتبين ، بعد أن أطل النظر ، إلا صورة أسد وحصان
أسطوري (١) في أعلاها . وسارت آن ، مستعدة عن الباب ، وكانت مستعدة للذهاب
إلى الكنيسة ، برغم أن الوقت كان مبكراً . وأبدت رغبتها في أن تسلك طريق
شجرة الدردار . وكانت الورقة معلقة على نحو يثير الشعور إلى حد أن فضول
الفتاة دفعها إلى قراءتها حتى في هذا الوقت المخصص للعبادة . وانتهز بوب الفرصة
وتبعها ، وقد ذكرها بالوعد الذي قطعته . وقالت له :

— سر إذن خلقي دون أن تقترب مني .

وأجاب وقد تخلف عنها على الفور :

— لك ذلك .

وحلها خضوعه المضحك في تصرفه على أن تقول له من فوق كنتها مازحة :

— هذا ما تستحق كما تعلم ..

— أنا أستحق كل شيء . ولكن لا بد أن أتجاسر فأخبرك أنني أأمل أن يكون

منسلكي مع ما تيل ... وقد نسيتك فترة ما ... يجعلك ترغيبين في وضعي دائماً ،
في المؤخرة ؟ ...

وأسرت إليه قولها :

— إن سبب اهتمامي الجدي بالأأرى معك هو إمكان ظهوري أمام الناس

مستقلة عنك . ولست أستطيع غير ذلك . علما مني بما يجب أن أصنعه لإزاء أهواء

ضعفك . لا بد من تدريبك على ...

وتنهذ بوب :

— أوو يا آن ، أنت تصدميني بعنف ... بعنف شديد ! إنني إذا ما فزت بك

(١) حيوان خرافي على هيئة حصان له ذيل معقد طويل . وحوافر مفقوفة ، وقرن بارز

من أمام . والمقصود بالأسد والحصان الخرافي الثمار البريطاني .

يوما فلا شك عندى أنى سأكون قد استحققتك عن جدارة .

وردت عليه فى دمامة :

— إنك لم تعد تبدو على نحو ما كنت تبدو عليه يوما . وأنا لأود كل الود
أن أضع نفسى تقع فى حبك .

ولم تكن هذه الكلمات الأخيرة مسموعة تماما . ولم تلتقط أذنا بوب شيئا
منها نظرا لتخلفه إلى وراء . ولم يرك ذلك كيف أصبحت فجأة عاطفية المشاعر .
وقطعا باقى الطريق صامتين ، وقرأ لدى وصولها إلى الشجرة ما بلى مكتوبا تحت
الشعار البريطانى ، :

« إلى الإنجليز من جميع المراتب والهيئات ، ،

« أيها الأصدقاء والمواطنون ، يقوم الفرنسيون الآن بجمع أضخم قوة أعدت
من قبل ، مستهدفين غزو هذه المملكة ، معترفين بأنهم يرمون من وراء ذلك إلى
إزلال الحراب والدمار التامين بنا . وهم لا يخفون مقاصدهم كما فعلوا غالباً مع الدول
الأخرى ، بل يفاخرون بأنهم سيقبلون فى أعداد غفيرة إلى حد أنه لا يمكن صدها .
« وقد اعتاد الفرنسيون فى الآونة الأخيرة ألا يعفو أبنا حلوا ، غنيا
أو فقيرا ، كبيرا أو صغيرا . وإنما خلفوا الدمار كأنهم وباء مهلك ، ودمروا كل
شيء كان من قبل جميلا مزدهرا .

ولن يرغب أحد فى هذه المناسبة على تقديم خدماته ، ولكنكم مدعوون إلى
أن تتقدموا متطوعين للدفاع عن كل ما هو عزيز عليكم . وذلك بأن تقيديوا أسماكم
فى سجلات أرسلت إلى المسجل فى كل أبرشية ، وتنخرطوا فى سلك الجيش
إما متطوعين منضمين من حاملى السلاح ، وإما كشافة وعمالا ، وإما سائقى عربات .

وبحسبانكم « متطوعين منضمين ، ستدعون مرة واحدة كل أسبوع ، إلا إذا
نزل الأعداء فى أرضنا ، وأدى ذلك إلى جعل قيامكم بخدمات أكبر ضروريا .

وبحسبانكم كشافة أو عمالا ستستخدمون فى تحطيم الطرق لتعويق تقدم الأعداء .
والذين يملكون قوسا أو معاول أو مجارف أو مناجل أو غير ذلك من أدوات
العمل ، فالمرجو منهم أن يذكروا هذه الأدوات « لكونستابل ، الأبرشية
أو المسجل حتى يمكن تدوينها فى كشوف تعلق إزاء بيوتهم ، وذلك لاستعمالها

فيا إذا اقتضت الضرورة ذلك ...

وقد رأينا من المستحسن أن نمدكم بهذا الإيضاح حتى لا تجهلوا الواجبات التي قد تدعون للقيام بها . بيد أنه إذا كان حب الحرية الحقيقية ، والسمة الشريفة لا يزال يثير قلوب الإنجليز ، فأجر العمل في هذه الحالة ، وإن كان دفعه ضرورياً ، لن يصبح إلا أقل جوانب مكافآتهم أهمية . فأنتم ستجدون خير ثواب لكم في واجبك للمسيككم ووطنكم بصد عدوكم القديم المضطعن أو تحطيمه ، ذلك العدو الذي ينفس عليكم تمتعكم بحريتك وسعادتك ، ويسعى لذلك إلى تدميرها ... وستجدونه في قيامكم بحماية زوجاتكم وأطفالكم من الموت ، أو بما هو شر من الموت ، وهو ما سيرتب على نجاح عدوكم القديم في غزوه .

«هبوا إذن ، واتحدوا كرجل واحد في سبيل أشرف قضية إننا قد نستطيع بالاتحاد أن نتحدى العالم بأسره إذا حاول قهرنا ، ولكن النصر لا يمت بصله أبداً إلى المتقاعسين وغير المتأهبين (١) .»

قال بوب :

— لا بد أن أذهب وأنضم إليهم في الحال !

ودارت آن إليه ، وقد غاض من وجه كل أثر للدعابة ، وغمنمت في إنزعاج :

— وددت لو أننا نعيش في شمال إنجلترا يا بوب حتى نكون على مسافة أبعد من المكان الذي سينزل فيه إلى البر .

— سيكون أمر مكان نحل فيه جنة في نظري ، هذا فيما إذا جعلته أنت كذلك .

— ليس من الصواب أن نتحدث بمثل تلك الاستهانة في وقت عصيب كهذا .

ودارت ثانية مستفرقة في التفكير ، متجهة صوب الكنيسة .

وإذ هما يتقربان منها رأيا من خلال أفرع أكمة من أشجار اعترضت سبيلها ، وكانت الأفرع لا تزال جرداء ، ولكنها أخذت تفتت عن براعم في لون العنبر... رأيا لآلاء بدا أنه ينعكس من أسنة فولاذية ... ولم تمض إلا دقائق قليلة حتى سما صوتاً يعلو على رنين أجراس الكنيسة الرقيقة ... صوتاً جهورياً لرجل يلتق

أوامر تحولت على أثرها فجأة جميع الأسته المعدنية وكأنها قنفذ ينتفش ، والتمع لالازها من جديد . وقال لعدى :

— إنه التدريب العسكرى . فهم يتدربون اليوم فيما بين الصلاة كما تعلين ، لانه لا يمكن جمع الرجال فى سرعة خلال الأسبوع . وهذا يجعلنى أشعر بأنه ينبغى على أن أقوم بما هو أكثر مما أقوم به !

وعندما دارا حول نطاق الشجر بدت لهم جماعة الجنود على نحو أوضح وهى تتألف من ذوى الأجسام القادرة من سكان القرى الصغيرة القريبة ، وهم معروفون على أقدار متفاوتة لكل من بوب وآن . وقد تجمعوا فى بقعة مكسوة بالحضرة خارج باب الفناء التابع للسكنية ، وكانوا يرتدون ملابسهم العادية . والجاريش الذى أقامهم على التدريب كان نفس الرجل الذى سمر الإعلان فى الشجرة . وقد شغل الآن بفتح كيس نقود من خيش ، وأخرج منه قبضة شانات ، ، وأخذ يمنح كل واحد من الرجال شلنا أجرأ للخدمة التى قام بها .

وصاح الرجل :

— أيها الرجال ... إنى أذنت لكم فى الانصراف قبل الموعد بمدة طويلة ... اصطفوا للعرض ... أقول لكم اصطفوا ثانية ... لقد وجدت أن ساعتى أسرع . وهناك عشرون دقيقة أخرى باقية على بدء عبادة الله . وليرتد الآن إلى الطرف الأذن كل من لا يحمل سلاحاً نارياً انظروا إلى اليمين وانتظموا .

واهتم كل رجل بأن يرى كيف يقف الباقون . ولذلك اندفع أولئك الذين كانوا يقفون فى طرف الصف إلى أمام حتى اتخذ الخط شكل القوس .

— انظروا إلى أنفسكم الآن ! ولكنكم معوجون فى وقتكم جميعاً . انتظموا ، انتظموا !

وانتظموا من فورهم . ولكنهم عادوا إلى وقفهم السابقة تحت ضغط الدافع نفسه ، وعلى ذلك أبيع لهم ، بعد اليأس منهم ، أن يظلوا على حالهم .

وقال الجاريش وهو واقف وسط ذلك القوس :

— أرجو الآن أن تعتصموا بقليل من الصبر ، وتنبهوا انبهاها دقيقاً إلى الأوامر على أثر إصدارها إليكم . وإذا ارتكبت خطأ فإنى أكون شاكرآ كل

الشكر لآى صديق يردنى ثانية إلى الصواب ، فأنا نفسى لم أنخرط فى سلك الجيش إلا منذ ثلاثة أسابيع ، ونحن جميعاً معرضون للخطأ .

وقال الجنود المصطفون من صميم قلوبهم :

— سنكون كذلك ، سنكون كذلك .

— انتبهوا جميعاً لآذن ... ثبّتوا بنادقكم ... أحسنتم جداً .

وقال من بالطرف الأذنى من الصف فى يأس :

— خبرنا من فضلك ... ماذا نصنع نحن الذين لا نملك أسلحة نارية !

— والآن، هل سمع أحد قط بمثل هذا السؤال ! كيف ذلك ، ينبغى ألا تفعلوا شيئاً بتاتاً ، ولكن فكروا فى كيفية تثبيتها فيما إذا كنتم تحملونها . وأتم أيها الرجال المتوسطو العمر الذين تسلّحتم بقضبان الحواجز ، وجذوع الكرنب لمحض الإيهام بأنكم تحملون سلاحاً ، ينبغى عليكم بالطبع أن تستعملوا هذه الأشياء كما لو أنها سلاح حقيقى . والآن لآذن ، ارفعوا الزنادا استعداداً ! أطلقوا النار !.. (أفصد أن تنظّاهروا بذلك ، وأن تطلقوا خيالكم ، فى نفس الوقت ، إلى ميدان القتال .) هذا حسن جداً حسن جداً جداً . ما عدا أن بعضكم تسرع قليلاً ، والباقي أبطأ قليلاً .

— من فضلك أيها الجاويش، هل أستطيع أن أنصرف إذ أنى رئيس العازفين فى جروقة المرتلين فى الكنيسة ، وأوتار كمنجى الكبيرة والباص ، لا تحتل العرف عليها فى هذا الوقت من العام إلا إذا شدت قليلاً قبل أن يبدأ القداس ؟ ...

وقال الجاويش مقطباً :

— كيف يمكن أن تفكر فى نزاهات مثل الذهاب إلى الكنيسة فى مثل هذا الوقت الذى أصبح موطنك فيه على وشك التعرض للغزو ؟ والتدريب العسكرى كما تعلم ينتهى قبل أن يبدأ ميعاد الكنيسة بثلاث دقائق . وهذا هو القانون ، ولا يزال هناك ربع ساعة باقياً على ذلك الميعاد ... وعليكم الآن ، لدى سماع كلمة « عمروا البنادق ، أن تحمشوا البارود فى خزانة الزناد (على فرض أن معكم بنادق) ، وتبقوا ثلاث أسابيع وراء الزناد . ثم أغلقوا الخزانة . وضخوا ذراعكم اليمنى بحفنة إلى جسمكم . وكان ينبغى أن أخبركم قبل ذلك أن تمسكوا بالخرطوشة ، وهى معدة ،

وترفعوها بحركة سريعة إلى فمكم ، وتفضموا أعلاها عن آخرها ... وإياكم أن
تبتلعوا قدراً كبيراً من البارود يجعلكم تسعلون وتبصقون بدلا من الانتباه إلى
تدريبكم .. من هذا الرجل الذي يتكلم في الصف الخلفي ؟

— من فضلك يا سيدى . إنه أنطوني كرييلسترو . وهو يريد أن يعرف
كيف يقضم طرف خرطوشته بينما لم تعد هناك أسنان باقية في رأسه ؟

— كيف هذا يا رجل ! ... أين عبقريتك الحربية ؟ ارفعها بالتأكيد إلى فم
الرجل الواقف إلى يمينك ، ودعه يقضمها لك ... حسناً ، ماذا تريد أن تقول
أيها الجندي « ترييليث » ؟ ألا تفهم الإنجليزية ؟

— أسألك المَعذرة يا جاويش . ولكن ماذا علينا أن نفعل نحن رجال فرقة
المشاة غير المدربة إذا ما جاء بوني (١) قبل أن نحصل على بنادق ؟
— خذحربة كسائر العاجزين . وستجد كمية منها معدة في ركن برج الكنيسة ..
والآن ... البنادق على الكتف ... ف ... ف ...

وصاح ديفيد ، خادم ميلر لفدى ، وهو أحد الرجال الذى يكونون تلك
الجماعة ... صاح إذ تحول رنين أجراس الكنيسة الثلاثة إلى دقات سريعة صادرة
من جرس واحد :

— ها كم ... إنهم يدقون الجرس في الكنيسة !
وتنفس الصعداء رجال الصف جميعاً ، وألقوا بأسلحتهم ، وشرعوا في مغادرة
المكان ركضاً .

وقال الجاويش :

— حسناً ، يذبحى إذن أن أسر حكم . عودوا ثانية ... عودوا ثانية . ميعاد
التدريب التالي هو الساعة الرابعة من بعد ظهر الثلاثاء القادم . وتذكروا أنه إذا
لم يسمح لكم بخذوموكم بترك العمل في الوقت المبكر الكافي ، فأخبروني بذلك ،
وسأكتب عندئذ كلمة إلى الحكومة ... انتباه ! إلى اليمين ... الشمال در ...
لا ، لا . أقمصد إلى اليمين در ... سر .

(١) يقصد نابليون بونابرت .

ودار بعضهم إلى اليمين، وبعضهم إلى اليسار . وحاول بعض الرجال الأفاضل أن يدوروا إلى كلنا الناحيتين .

— توقفوا ، توقفوا . حاولوا ثانية . أيها الجند والرفاق ! . إنى لا أستطيع أبداً ، لسوء الحظ ، أن أتذكر عند العجلة يمينى من شمالى ، وأنا لم أتمكن قط ، وأنا صعب ؛ من أن أفرق بينهما . وينبغى أن تعذرونى ... أرجوكم ... إن القرين يؤدى إلى السكال على حد قول القائل . وبرغم كثرة ما تعلبت منذ تطوعى للخدمة العسكرية ، فإننا نجد دائماً الجديد الذى تتعلمه ... والان: إلى اليمين در .. سر .. قف ! استرح ! .. انصراف . أظن أنى نفذت التعليقات . ولكنى سأراجع كتاب الحكومة قبل يوم الثلاثاء .

وآثر كثيرون من رجال الجماعة التى قامت بالتدريب أن ينطلقوا وينفقوا شلناتهم على دخول الكنيسة . ولكن آن وكابتن بوب دخلها . وكان حتى داخل ذلك البناء المقدس قد تأثر بالهياج الذى ساد تلك الأوقات . ودين البلاد قد تحوّل من محبة الله إلى كراهية نابليون بونابرت . فالحراب المعدة لملتها (جميع أولئك الذى قبلوا فى الجيش ، ولم يساحوا إلا بهذا السلاح) كانت تحفظ فى كنيسة كل أبرشية ، وكأنما حدث ذلك بقصد تكبير كل متدين بذلك التحول . ظلت تلك الحراب قائمة إلى جانب الحائط — وكانت أكداً مكدسة مصنوعة من جذوع شجر الدرار الجديدة ، ركب فى أحد طرفى كل منها رأس حربة ، وعقدت صدورها بمقرعة لصيانتها من التشقق . وقد ظلت هناك فى ركن من برج الكنيسة عاماً بعد عام حتى نقلت ووضعت تحت سلم الرواق ، ومن ثم نقلت نهائياً إلى قبة الأجراس حيث أصبحت سوداء صدئة منخورة . وسرقها بالتدريج ، ومضى بها موظفو الكنيسة الإداريون والكتائيون ، ومن يقومون بطلاتها ، وإصلاح نوافذها ، إلى غير هؤلاء من خدم الكنيسة ، وذلك لاستعمالها فى المنازل . أيدى مجارف ، أو هراوات لنوادى التأمين المتبادل ضد المرض والعجز ، أو أيدى معاول ، وقد يجدها الإنسان عرضاً إلى الآن بعد انحدارها إلى هذه الحالات .

ولكنها كانت ، وهى فى حالتها الجديدة البراقة ، مصدر رعب لأن التى ظلت عيناهما منجذبتين إليها قسراً عنها وهى جالسة إلى جانب يرب أثناء الصلاة . وأخذت تلك الحراب تملأ ذهن الفتاة بروى دموية لاحتتمال استعمالها غير بعيد عن المكان

الذى اجتمعا فيه الان . وكانت الخطبة الدينية أيضاً عن موضوع الوطنية . حتى أن الفتاة ، بعد خروجها مع بوب من الكنيسة ، أخذت تضرب في جزع على فكرة ترجيح طردهم من دورهم .

وأكد لها بوب أنه ليس ثمة سبب جدى للخوف مع وجود ستين ألفاً ، من الجنود النظاميين ، ومائة وعشرين ألفاً من رجال الحرس الوطنى الاحتياطى وثلاثمائة ألف من المتطوعين .. واستطرد بعد فترة صمت :

— ولكنى أخشى فى بعض الأحيان على جون المسكين أن يقتل فما لاشك فيه أنه سيكون من بين أولئك الذين سيواجهون الغزاة . ورجال البروجى معرضون لأحصد .

وقالت آن :

— سيكون له حظ كحظ الآخرين .

— نعم . . . نعم . . . نفس الحظ إنه كذلك حقاً . أنت لم تبلى الى جون فقط منذ تلك المسألة المتعلقة بما تيلدا جونسون ، أليس كذلك ؟

وسألته فى سرعة :

— لماذا ؟

وقال بوب فى حياء :

— حسناً . . . بما أن الوقت الحاضر مزعزع بالنسبة له ، فهلا يستحق الأمر تسوية أية خلافات بينكما قبل أن تقع الطامة ؟

وقالت آن فى شيء من الحزن :

— ليس هناك شيء بيننا لأسويه .

وكانت لاتزال تعتقد اعتقاداً جازماً أن جاويش البروجى أقدم على تهريب الأنتة جونسون لاهتمامه الخاص بتلك الفتاة مما جعل اعترافاته لها (أى لأن) مجرد تسوية . ولكن هذا التصرف ذاته عاد عليها بفائدة عجيبة إذ هو الذى حرر بوب من قيد خطبته .

وواصل رفيقها حديثه قائلاً :

— منذ رحيل جون وأنا أزداد إدراكاً لمعنى ما كان يقصده ، ولحقيقة اهتمامه بهرب هذه المرأة . هل عرفت أنه كانت له علاقة ما بهذه المسألة ؟

— نعم .

— لأنه حملها على الرحيل ؟

ونظرت الى بوب في دهشة . فهو لم يكن ساخطا على جون مع أنه يعلم مثل هذا القدر عن ذلك الأمر وقالت الفتاة .

— نعم . ولكن ماذا يعنى ذلك

ولم يشرح لها الأمر وقدئذ . ولكن احتمال مريت جون . وهو ما تفيد به الأنباء التي وصلت إليه أخيرا عن أحداث ذلك اليوم العسكرية ، حملته على تطهير سمعة جون . وذهب إلى أبيه وهو يلوم نفسه على ترك آن هذه المدة الطويلة . مضاللة بفكرة خاطئة عن أخيه . . ذهب إليه على أثر عودته مع آن إلى المنزل ، ورجاه أن يحمل السيدة لعدى على أن تكشف لابتها السبب الحقيقي في اعتراض جون على أن تصصح الآنسة جونسون زوجة أخيه .

وهتف لأبيه محتتما قوله :

— هي تظن أنهما حبيبان قديمان تقابلا أخيرا . وأنه يريد أن يتزوجا .

وقال صاحب الطاحون :

— هذا إذن هو تفسير الصدع الذي أصاب العلاقة بين الآنسة نانسي وجاك .

وسأل بوب قلما :

— ماذا ؟ هل كانت العلاقة بينهما أكثر من علاقة بين صديقين عاديين ؟

— لعل ذلك لم يكن من ناحيتها هي .

وأجاب بوب مدركماً في ألم أن إنصاف جون قد يعرضه لمنافسة خطيرة ،

ربرغم ذلك اعتزم أن يكون منصفاً :

— حسنا . لا بد أن تقوم بذلك . قص على السيدة لعدى القصة كلها ، واحملها

على الإفضاء بها لأن ؟

خطاب وزير

وعلبة من الصفيح

(٢٤)

لقد نجم عن ذلك الإيضاح في نفس أن شعور مرير بتبكيك الضمير ، وأسفت على ظلها لذلك الجندي الرؤوف إلى حد أن ذهبت وحدها إلى التل ، ووقفت في نفس المكان الذي كانت خيمة جون تظلل أرضه . . . وحيث قضى جون ذلك العدد الكثير من الليالي . . . وقد خطر لها مبلغ الحزن الذي لا بد عاناه بسببها وقت أن حزم أمتعته ورحل . ثم مسحت من عينها دموع الشفقة التي صعدت إليهما ، وانحدرت إلى البيت ، وكتبت إليه رسالة محرمة للشاعر تضمنت الفقرات التالية التي بلغت حداً كافياً من التهور نظراً للظروف التي كتبت فيها :

« إنني أجد أن الحق كله ، والصواب كله ، في جانبك أنت يا جون . وأجد السفاهة كلها ، والطيش كله في جانبي . وقد اقتنعت بالتزامك الشرف في كل ماحدث لي حد أني لن أثق بنفسى في شيء مستقبلاً ... وإنى كلما اختلفت معك على شيء - إذا كان ذلك ممكناً - فسأقضى ساعة في إمعان الفكر قبل أن أقرر أنى اختلفت معك . وإذا كنت قد فقدت صداقتك ، فلن ألوم إلا نفسى على ذلك ، بيد أنى آمل مخلصاً أن تستطيع الصفح عني ، .

وبعد أن أتمت كتابة هذه الرسالة ذهبت إلى الحديقة حيث كان بوب يقص حشائش الربيع النابتة في الممرات وقالت له وهي ممسكة في يدها بالخطاب المختوم .

— ما عنوان جون ؟

وتلعم بوب ، وانخسفت أسارير وجهه :

— شكنتك إجزونبرى .

وشكرته ودخلت البيت ... ومر يباب غرفة جلوسها الخالية حينما دخل البيت بعد فترة من ذلك اليوم ، ورأى الرسالة على رف المدفئة . وكره رؤيتها . ودخل الغرفة الأخرى إذ سمع أصواتاً منبعثة منها ، ووجد هناك آن وأمها

(م ١٦ - نافع البوق)

تحدثان إلى كرييلسترو الذى كان قد حضر من توه برسالة من السيد ديريمان
يرجو فيها الآنسة جارلاندى أن تذهب وتقابلها على الفور بحسبانها تقدر راحة بال
رجل قلق متقدم فى السن .

وقالت آن غير مبالاة إلى التعرض للجازفة التى تتضمنها تلك الزيارة :
— لا أستطيع أن أذهب .

وبعد ساعة جاء كرييلسترو فى نفس المهمة ، ودخل يدلف فى المعر :
— سيدى رجو فى مسكنة أن تحضرى يا آنسة آن ، وهو يريد أن يراك على
الأخص فى أمر يتعلق بالفرنسيين .

وكانت آن قينة أن تذهب خلال دقيقة لولا خوفها من أن يقابلها أحد عدا
المزارع . وأجابته بمثل ما أجابته به من قبل .

ومرت ساعة أخرى ، ووصل إلى الأذان صوت عربة . فقد جاء كرييلسترو
للرة الثالثة راكباً عربة بعجلتين يجرها حصان ، مرتدياً أحسن مالدیه من ثياب .
وحمل معه بهذه المناسبة سلة تحوى زيبياً ولوزاً وبرتقالاً وحلوى من الفطير .
وكرر على مسامعها ، وهو يقدم لها هذه الأشياء هدية من المزارع المتقدم السن ،
مطلبه السابق إليها ، وهو أن تذهب فى رفقته . وقد أرسلت لها العربة وخير
فرس لترغبها ترغيباً إضافياً فى تلبية الرجاء .

وقالت أمها :

— أعتقد أن الرجل المرم يجبك يا آن .

وسألت آن كرييلسترو :

— لماذا ! ألم يكن يستطيع أن يركب إلى هو نفسه ليلقانى .

— إنه يريدك فى بيته ... من فضلك .

— هل السيد فستوس هناك ؟

— لا ، إنه متخيب فى بودماوث .

وقالت الفتاة :

— سأذهب .

وقال بوب :

— أستطيع أن أحضر وأقابلك ؟

وقالت بدلا من أن يجيب على سؤاله :

— هناك خطابي . . . ماذا سأصنع بشأنه ؟ اذهب به إلى مكتب البريد .

وتستطيع بعد ذلك الحضور .

وأجاب موافقا وخرج . كذلك ارتد كرييلسترو إلى الباب حتى تعد أن

تنفسها للخروج . وقالت أمها :

— أى خطاب هذا ؟

وقالت آن :

— خطاب لجون ليس إلا . وقد سألته فيه أن يغفر لي ظنوني . ولم يكن

عني استطاعتي أن أفعل أقل من ذلك .

وسألته السيدة لفدى في غلظة :

— هل ترغبين أن تزوجيه ؟

— أى !

— حسنا . سيعد هذا الخطاب تشجيما له . ألا تستطيعين أن ترى ، أيها

الفتاة الطائشة ، أنه سيعد الخطاب كذلك ؟

ورأت آن الحقيقة على الفور وقالت :

— طبعاً . أخبرى زوبرت ألا داعى لذهابه .

وذمبت إلى غرفتها لتحجز الخطاب . فلم تجده على رف المدفنة . وبسؤالها

عنه ظهر أن صاحب الطاحون أرسله مع ديفيد ، إذ رآه ، إلى بودماوث ،

وذلك من ساعات خلت . ولم تقل آن شيئاً ، ورحلت مع كرييلسترو إلى

« أ كسويل هول » .

وقالت السيدة لفدى لصاحب الطاحون بعد أن رحلت آن ، واستأنف بوب

عمله في الحديقة .

— يا ولدي ، هل أرسلت ذلك الخطاب عن قصد ؟

— حسنا ، أنا فعلت ذلك . فقد أردت أن أتأكد من إرساله . إن جون يميل إليها ، والآن سيسوى الأمر بينهما . . . لماذا لا يتزوجها ؟ إنى سألقه بالعمل هنا إذا كانت تقبله بذلك زوجا .

— ولكن لعلها ستزوج فستوس دريمان .

وقال صاحب الطاحون فى عناد :

— أنا لا أريد لها أن تزوج أحدا غير جون .

وسأله زوجته بلهجة المتصر :

— حتى ولو أنها تحب بوب ؟ وظلت تحبه عدة سنين ؟ وهو كذلك يحبها ؟

وكرر لفقدى القول :

— تحب بوب وهو يحبها ؟

وقالت وهى تغادر الغرفة وتتركه لتأملاته :

— بالتأكد

ولدى وصول آن وجدت دريمان الهرم جالسا فى مقعده المعتاد . وقد صار لون وجهه أميل إلى اللون الرمادى ، ولكن حركاته إذ وقف عند دخولها ، وقدم لها مقعدا ، وأغلق الباب وراءها ، كانت أقرب ما يكون إلى عادته .

وقال فى جد :

— شكرا لله على بيمك يا فتاتى العزيزة . آه ، إنك لا تنتقلين إلى الآن انترنى لى الصحف ! لماذا جعلتى أنكبد كل ذلك فى سبيل إحضارك ؟ نحتما لا كبدتتى فرسأ وعربة ووقت رجل فى ذهابه ثلاث مرات . والأشياء التى أرسلتها تساوى كثيرا فى سوق بودماوث حيث كل شىء مرتفع الثمن كثيرا ، وكانت ستكلفنى ثمنا أعلى لو أنى لم أشتري العنب والبرتقال منذ شهرين عندما كان ثمنها أرخص . وأنا أهدئك عن هذا لأننا صديقان من قديم ، وليس لدى أحد غيرك أحدثه عن هموى . ولكنى لا أحمل لك أى ضغن مادمت قد حضرت .»

وقالت الفتاة :

— أنا غير راضية كثيرا عن حضورى ، حتى وقد حضرت الآن . ماذا

جعلك تهتم بحضورى هذا الاهتمام البالغ ؟

— حسنا ، فأنت فتاة صادقة طيبة . وقد خطر لى أنك خير أبناء الجيل الجديد
الذين يمكن أن أتق فيهم . لأنها مستندأتى وحجج تمليكى ، كما هى الحال . وعمود
الإيجار كما تعلمين ، وبضع جنبيات فى رزم ... وفوق ذلك وصيتى التى لا بد أن
أتحدث عنها . والآن ، تعالى من هذه الناحية .
والتفتت فى دهشة :

— أرو ، مثل هذه الأشياء ! إنى لا أفهم شيئا عن هذه الأشياء أبدا .
— ليس هناك شيء ليفهم . المسألة لاتعدو ما بأتى : سيكون الفرنسيون بيننا
هنا خلال شهرين . هذا أمر محقق ، فقد علمت من أوثق المصادر أن الجيش المحتشد
فى بولونيا مستعد ، والسفن بجهرة ، والخطط مرسومة ، والقنصل الأول لاينتظر
إلا حلول المد ، والله يعلم ما سيحل برجال هذه المنطقة ولكن الأرجح أن الأعداء
سيبقون على النساء . والآن سأريك الأوراق .
وقادها عبر الردهة إلى سلم حجرى ، شبه حلزونى ، يؤدى إلى القبو .

وقالت الفتاة :

— هنا تحت ؟

— نعم . لا بد لى أن أتبعك بالنزول هنا . لقد فكرت ثم فكرت فيمن
تكون المرأة التى تستطيع أن تكتم السر أكثر من غيرها مدة ستة أشهر ، وقالت
لإنها آن جارلاندا . إنك لن تتزوجى قبل مرور هذه المدة ؟
وغنمتم الفتاة :

— أرو ، لا .

— أنا نالا أتوقع أن تظلى مطبقة الغم بعد إقدامك على مثل هذا الأمر ، ولكنك
لن يكون ضروريا .

وعند وصولها لى أسفل الدرج أضاء النور بقداحته ذات الزناد والصفوفان ،
وفتح بابا يقع وسط أبواب ثلاثة بدت فى الحائط المقابل المظلى بالجير . وتساقت
خيوط نور الشمعة على السرداب وجوانب قبو منخفض مستطيل مملوء بمنقولات
من الادوات الخشبية البالية المجلوبة من مختلف نواحي الدار ، ومن بينها أعمدة
« درابزين » ، وألواح زخرفية منقوشة ، ولوحات رسم ، وخشب منحوت لآزبن
جدران الغرف .

ولكن الذى خطف بصرها أكثر من غيره هو بلاطة مقلوبة وسط أرض القبو وإلى جوارها كومة من تراب ، وشريط لقياس الأطوال . وتوجه دريمان إلى ركن القبو وجذب من تحت القش صندوقا مقلقا بكلاب ، وخاطبه بحنان وهو يرفعه : « أنت ثقيل الوزن نوعا يا عزيزى ، هيه ؟ . ولكذك ستوضع كما تعلم فى مكان أمين وإلا امتدت يد ذلك الوغد إليك ، وحملك معه ، وأزل فى الخراب » ثم أنزل الصندوق فى شيء من الصعوبة إلى قاع الثقب المحفور تحت البلاطة المخلوعة وردمه بالتراب ، ووضع عليه البلاطة التى قضى وقتا طويلا فى تثبيتها على النحو الذى يرضيه . وساعده فى الأنته جاران لاند التى اهتمت بالامر اهتماما بقصة خيالية .. ساعده على إزالة بواقى التراب المبعثر . وصعدا ثانية إلى الهواء الطلق بعد أن بعثر الرجل فوق أرض القبو شيئا من القش الموضوع هناك .

وقالت آن .

— أهذا كل ما فى الأمر ياسيدى ؟

— انتظرى دقيقة فقط يا عزيزتى : أنتحضرين معى إلى غرفة الاستقبال الكبرى؟
وتبعته إلى هناك ، واستأنف قوله :

— إذا وقع لى مكروه أثناء المعركة . . . وقد يكون ذلك فى هذا الميدان نفسه . . . فإنك تعرفين ماذا تصنعين عندئذ . ولكن عودى إلى الجاوس أولا من فضلك حتى أكتب ما يجول بخاطرى . إنك لغالية . . انظرى ، هذا أحسن نوع من الورق ، وقلم جديد جئت به لهذا السبب .

وقالت وهى تجلس :

— لأنها مهمة غريبة ، ولا أحسب أنى أميل إليها كثيرا ياسيد دريمان .

وكان قد بدأ فى الكتابة حينئذ ، وأخذ يغمغم وهو يكتب :

« ثلاثة وعشرون ونصف . . من الشمال الغربى ، وستة عشر وثلاثة أرباع . . من الشمال الشرقى ! . . »

— ها هو ذاك ما فى الأمر . والآن أغلف الورقة وأعطيك إليك لتحتفظى بها مصونة حتى أطلعها منك أو تسمعى عن مصرعى بيد الأعداء .

وسألت وهي تتناول الورقة :

— ماذا يعنى ما بها ؟

— ك ل ك ها ! ها ! كيف ! إنها المسافة ما بين الصندوق وركني القيو ،
وقد قستها قبل مجيئك . وللوثوق التام من الأمر يا عزيزتى ، فرسى لأمك مضمون
تلك الورقة فيما إذا تعقبك الجنود الفرنسيون ، أو فسيه لآى صديق إذا كان
كانوا سيعدمونك ويضيع السر ولكنى آمنى فى ثقة أنهم لن يفعلوا ذلك ، ولو أن
وجهك الجميل يكون طعنا محزنا للجنود . ولكم تمنيت لو أنك كنت ابنتى ، ومع
ذلك فإنه كلما قلت شواغل بال الإنسان فى هذه الأيام كان أحسن حالا . وعلى
ذلك يسرنى أنك لست ابنتى . أذهب بك خادى فى العربة إلى بيتك ؟

وقالت وقد حزنت حزنا شديدا لما قال :

— لا ، لا . أنا أستطيع أن أتبين طريق . ولا حاجة تدعو إلى إزعاج
نفسك بالنزول .

— اعتنى بالورقة إذن ، وستجدين فيما إذا عشت من بعدى أنى لم أنسك ؟

فستوس يظهر

جبه . .

(٢٥)

بقى فستوس دريمان في المنزه البحرى الملكى طوال ذلك اليوم نظرا لان حصانه كان مريضا في ، الاسطبل ، ولكنه لاذ رغب في الحصول من عمه على مطية جديدة لفصل الصيف المقبل إما عن طريق الملاطفة المشاغبة ، فقد اتخذ طريقه إلى أوكسويل أوائل المساء مشيا على الأقدام . وعندما اقرب من القرية ، أو من بيت عمه الذى كان أقرب من القرية ، أدرك امرأة هيفاء ، حادة البصر ، تتجول هناك على مهل . وكانت ترتدى ستره خضراء ، على أحدث طراز ذات أكمام من نوع « الملوك » (١) وتضع على رأسها قبعة إسبانية النوع من قطيفة وريش .

وقال فستوس وقد أضفى على نحيته جوا عسكريا :

— مساء الخير ياسيدتى . أخرجت للنزهة ؟

وقالت السيدة التى تقدته بطرف عينها دون أن يبدو عليها أنها فعلت شيئا أكثر من احتفاظها بنظرها الرزينة إلى أمام وقد منحت لقب « كابتن » ملتزمة تهدة ما بدا لها من سلوكه .

— لقد خرجت للنزهة يا كابتن .

— أأنت من سكان البلدة ؟ أقسم أنك منها ياسيدتى . . . إنى لأقسم بشرى !

فقال له :

— نعم أنا من البلدة ياسيدتى .

(١) اسم أطلق على طراز من الأكمام كانت نساء باريس ترتديها في عهد الإمبراطورية الأولى (شرح الأصل)

— آه ، لقد جئت زائرة ! أنا أعرف جميع السكان المقيمين بها ، فنحن نقصدها ونغادرها دون انقطاع . أنا فستوس دريمان ، من الفرسان المتطوعين . والواقع أن المنزه البحري تحت حراستنا . وسيعتمد علينا الناس كل الاعتماد في النجاة من المعركة المقبلة . نحن نحمل حياتنا على أكفنا . وأستطيع أن أقول إننا نحمل حياتهم في جيوبنا . ماذا حملك على القدوم إلى هنا ياسيدتي في مثل هذا الظرف الحرج ؟ .

— لا أرى الظرف حرجا كما تقول .

— ولكنه حرج مع ذلك . تخبريني إذن هل لك علاقة بشؤون الأمة العسكرية كما هي حال بعضنا .

وابتسمت السيدة وقالت .

— سيأتي الملك هذا العام على أية حال .

وقال فستوس مصمما :

— أبدا ! آه ، لعلك من بطانة البلاط الملكي . . هل أقدمت إذن لتعدى غرف الملك فيما إذا لم ينزل بوني إلى الشاطيء ؟

وقالت السيدة :

لا . أنا على اتصال بالمرح ، ولو أني لست كذلك في الوقت الحاضر بالذات فقد غابتي الحظ في السنة ، أو السنتين الأخيرتين . ولكني عوضت ما فات ثانية . وسأنضم للفرقة عند حضورها في الموسم .

وراقها فستوس باهتمام :

— حقا ! . أهو هكذا ؟ حسناً ياسيدتي ، ماهو الدور الذي تقومين بتمثيله .

وقالت وهي تنسحب في وقار .

— أنا غالبا الممثلة الأولى ... البطلة .

— سأحضر وأتق عليك نظرة إذا سارت الامور على خير حال ، وتأجل موعد غزو الشاطيء . . . سحقتا لي إذا لم أحضر . . . هاللو ، هاللو ، من ذا الذي أراه .

وامتد بصره صوب حقل بعيد كانت آن جارلاند تقطعه في هذه اللحظة
مسرعة وهي في طريقها من أكسويل هول إلى أوفر كومب . وصاح وهو
يتقدم متعجلاً !

— لا بد من ذهابي . كان يوماً سعيداً برؤيتك أيتها المخلوقة العزيزة ! وقالت
السيدة وهي تبسم وترآقبه وهو يوسع في خطاه قدماً :
— أوو ، أيها الوحش الماجن .

وقفز فستوس من فوق السياج ، وعبر بقعة الأرض الخضراء التي اعترضت
طريقه ، ودخل الحقل الذي كانت آن لا تزال تجتازه . والتفتت بعد دقيقة أو
دقيقتين ، وشعرت بالازعاج نوعاً ما إذ رأت خلفها قامة الفارس المتطوع الهرقلية
بيد أنها اعترمت أن تظهر أن أى اختلاف لم يطرأ على هيئتها . ولكن الاحتفاظ
بطبيعة مشيتها كان فوق طاقتها ، وأسرت في خطاها متشنجة ، ولم يجدها الإسراع
مع ذلك ، فقد لحق بها ، وصاح إذ صار على بعد خطوات قليلة منها :
— حسناً ، يا حييتي .
وأخذت آن تعدو .

وكانت أنفاس فستوس قد انقطعت الان . ولم يلبث أن وجد أن اللحاق
بها غير متوقع . وظلت تواصل جريها دون أن تدور برأسها حتى سمعت خلفها
ضوضاء غير عادية أرغمتها على التلفت . وكانت هيئته تدل على أنه أخذ يقع على
الأرض ، فقد مال على جانب ، ثم سقط كتلة من الخشب على جانب سياج.
بناق متاخم للطريق ، ورقد هناك بلا حراك .

وجزعت آن بعض الجزع . وبعد أن وقفت تحديق فيه دقيقتين أو ثلاثاً
اقتربت منه على دفعات ، متقدمة خطوة ونصف خطوة في كل دفعة ، متعجبة
متشككة كشاة ودبعة تقرب من متشرد هائم على وجهه يلقى بنفسه على الحشائش
بالتقرب من قطع النعم .

وغنمتم الفتاة :

— لقد أغمى عليه .

وأُسرع قلبها في خفقانه ، وتلفتت حولها ولم يكن هناك أحد على مرى النظر فاقتربت منه خطوة أخرى كذلك وطلفت رقبة ثانية ، وبدا أن لون وجهه تحول إلى زرقة داكنة ، وأن تنفسه قد اختنق ... وقالت في حزن عميق :

— هذا ليس لإغماء ، ولكنها سكتة أو نقطة الذبحة الصدرية
ينبغي أن أفك رباط عنقه .

ولكنها خشيت أن تفعل ذلك واكتفت بأن اقتربت منه قليلا مرة أخرى .
وقد أصبحت الآنسة جارلاندا الآن على بعد ثلاث أقدام منه ، وعندئذ هب الرجل الفاقد الوعي واقفا على قدميه بعد أن عجز عن كتم أنفاسه مدة أطول ،
واندفع إليها قائلا :

— ها ! ها ! .. إنها خطة لنيل قبلة !

وشمرت بذراعه تزايق حول عنقها ، ولكنها إذ التفت حول نفسها بمهارة مدهشة ، تلوت منفلتة من حضنه ، وجرت على طول الحقل . وكانت قوة الدفعة التي تخلصت بها كافية لإلقاء فستوس على الحشائش . وفي خلال الوقت الذي نهض فيه على قدميه ثانية كانت الفتاة قد ابتعدت عنه عدة خطوات . وإذفاه بكلمة لم تكن دعاء طبيبا على وجه الدقة ، شرع على الفور في مطاردتها . وهكذا ركضا حتى دخلت آن مرجا يشطره من منتصفه جدول يبلغ عرضه حوالي ست أقدام . وكان هناك لوح خشبي ضيق ملق في الجدول دون قيد عند ملتق الطريق به ، وما وصلت آن إليه حتى مرقت من فوقه في الحال . والتفت لدى وصولها إلى الجانب الآخر لتعلم باحتالات الموقف التي دلت على أن فستوس يستطيع ، حتى الآن ، اللحاق بها . وانحنت إذ خطر لها خاطر مفاجيء ، وأمسكت طرف اللوح الخشبي ، وحاولت أن تسجبه وتبعده عن الشاطئ المقابل . ولكنه كان شديد الثقل عليها إلى حد أنها لم تستطع إلا أن تزحزحه قليلا ، واستأنفت الركض ثانية وهي ترسل زفرة يأس لفقد ثوان عديدة ثمينة .

ولكن محاولتها كانت كافية لزحزحة الجسر الصغير برغم عجزها عن سحبه وعندما وصل دريمان إلى منتصفه ، وذلك بعد مرور نصف دقيقة ، انقلب اللوح على حافته ، وأمال دريمان ، وألقى به في الجدول دفعة واحدة . ولم يكن الماء

عميقا كل العمق ، ولكن الفارس المتطوع غاص فيه إلى قف رأسه نظرا إلى أنه سقط منبطحا على وجهه ، ومضى بعض الوقت قبل أن يتمكن من جر نفسه إلى خارج الجدول . وعندما نهض فوق الشاطئ وهو يقطر ماء ، ونظر حوله كانت آن قد توارت من المرج . فتوهجت عيناه كالبحر ، وتقوه بلعنات مخيفة وهو يهز قبضة يده ، في هواء الصيف الرقيق ، تجاه آن ، على نحو يفرع أية فتاة . وعاد أدراجها خائضا الجدول ، ومثى على طول الشاطئ في خطوات ثقيلة . وكان الماء ينهمر من ذيل سترته ، ومعصميه ، وأطراف أذنيه ، في قطرات فضية تتلألأ في لطف تحت أشعة الشمس . وهكذا أسرع إلى بيت عمه ، منعظا حول مر جانبي .

وكانت باعثة متاعبه في هذه الأثناء ، تقترب في سرعة من الطاحون ، ولفرط سرورها الذي لا يوصف رأته بوب متبلا للملاقاتها . وكانت قد سمعت صوت قدومه ولدى شعورها بأنها أصبحت أبعد منألا من مطاردها تحول ركضها إلى مشى سريع . وما وصلت إلى بوب حتى ألقت بنفسها في ضمة بالغة الإحكام إلى حد أن خطر سقوطها لم يعد محتملا ، مهما كان من الميسور أن يحدث ذلك السقوط غير المتوقع نوعا بسبب ميلغ إرهابها ، وظلا على هذا الوضع صامتين إلى أن خطر لأن أن هذه هي أول مرة وقفت فيها هذه الموقف طوال حياتها ، فالتهب وجهها عندئذ كالشمس الغاربة ، ولم تدر كيف ترفع بصرها إليه ، واعتزمت فجأة ؛ وقد شعرت أخيرا بأمان تام ، ألا تستسلم للدافع الأول الذي كان يدفعها إلى أن تروى له كل ماحدث . وذلك خشية أن يحدث عراك وقتال رهيبان بين بوب والفارس المتطوع ، وتنشأ صعوبات لأسرة لعدى بسببها حيث أن هناك معاملات خاصة بالتمتع بينها وبين أسرة دريمان .

وقال بوب في رقة :

— يبدو عليك الفرغ يا عزيزي آن .

فأجابت آن :

— نعم . لقد رأيت رجلا لم تعجبني نظرتة ، وكان يزرع إلى ملاحظتي . ولكن الأسوأ من ذلك أنى مضطربة بسبب الفرنسيين . أوو يا بوب ! أنا أخشى أن تقتل

أنت وأمي وجون وأبوك ، وأن يتصيدونا جميعا !

— لقد قلت لك قبل الآن أيتها العزيزة الرقيقة القلب ، إن هذا مستحيل الحدوث فنحن سندفع بهم إلى البحر بعد موقعة أو موقعتين ، حتى لو نزلوا في البر ، وهذا لا أعتقد أنهم سيتمكنون منه ، فإن لدينا تسعين سفينة حربية ، وبرغم أنه كان من سوء الحظ نوعا أننا اضطررنا إلى إعلان الحرب على إسبانيا في مثل هذا الوقت الحرج ، فإن لدينا ما يكفي لمواجهة البلدين معا .

وظفق بوب يحصى في دقة عدد السفن ، وأفراد الجيش ، والحرس الوطني والمتطوعين ، ليطلق وقت إمساكها . وما انتهى من حديثه حتى زفر زفرة عميقة .

— ما الأمر يا بوب ؟

— أنا لم أقدم نفسى للقوة المدافعة عن البحر ، وكان ينبغي أن أفعل ذلك من مدة طويلة مضت .

— إنك لست إلا مجرد فرد ، ولا شك أنهم يستطيعون العمل بدونك .

وهز بوب رأسه . وأفاقته من وضعها المريح . والتقت عينها بعينه وفيها تعبير حي عن استسلامها له في النهاية . وأخرج لفتى من جيبه ورقة . وقال وهما يسيران على مهل :

— هاك شيئا يجعلنا شجعانا وطنيين . لقد اشتريتها من بودماوت أليست .

صورة مثيرة ؟

كانت صورة للناحية الجانبية من وجه نابليون مرسومة على الطراز الهيروغليفي كانت التبعة تمثل النصف الأعلى لنسر فرسى ، والوجه مكون على نحو بارع من هياكل آدمية عقد بعضها بعض ، وعقصر في اتجاهات مختلفة على نحو يصور سحنة نابليون وهناك شريط أو عمود رسم بشكل معين ليثبه المصنِّع الإنجليزي . قد التفت حول عنقه ، وبدأ أنه يخنقه والرامة القصصية على كتفه كانت يدا تمزق بيت عنكبوت . يمثل اتفاقية السلام مع إنجلترا . وكانت أذنه عبارة عن أم تحجم على ابنها المحضر . وقالت آن :

— إنها صورة رهيبة . أنا لأحب أن أراها .

وأفاق من سورة انفعالها ، وسارت إلى جانبه بوجه مهوم مستسلم . ولم يشأ بوب أن يتمتع بميزات العاشق المقبول ، فيجذب يدها ويتأبطها . فهو يخشى نظرا لعله بأنها تنتمى بالطبع إلى طبقة أرقى من طبقة تهديبا ، أن يكون ما أبدته من حنان محض اندفاع عاطفي قد تدفعها الأوقات الأكثر هدوءا إلى التدم عليه غيابة بول وفرجيني ، (١) النقية لم تكن قد ابتدأت له تماما بعد ، وهو لا ينبغي أن يتعجلها قسرا .. وعندما اجتازا الجسر إلى الناحية الأمامية من الطاحون رأيا صاحبها واقفا يباها وقد دل وجهه على اشتغال البال . . وقال لها :

— مر مندوب من الحكومة بنا ، منذها بكا ، بجميع المنازل ، مسجلا عدد النساء والأطفال وأعمارهم ، وعدد الخيل والعربات التي يمكن حشدتها في حالة الاضطرار إلى التمهقر داخل البلاد بعيدا عن طريق الجيش الغازي .

واجتمع أفراد الأسرة معا ، شاعرين جميعا بالأزمة على نحو أكثر جدا مما رغبوا في التعبير عنه . وخطر ببال السيدة لفتدى أنه كم يكون الطموح الاجتماعي مضحكا في وقت حرج كهذا ، وقطعت على نفسها عهدا أن تترك لأن حرية الاتجاه بحبا حينما تشاء ونسيت أن هناك أيضا بعض الخصائص الغريبة في لهجة وطبع كل من بوب وأبيه ، تلك الخصائص التي آذات شعورها الأسمى تهديبا ، لحظة من اللحظات وحدث الفتاة لها حبهما وحمايتها إبان تلك النعمة التي أخذت تقع .

وتذكرت وهي تصعد إلى الدور العلوى ، تلك الورقة التي أعطاها لها المزارع دريمان ، وبمحت عنها طى صدرها فلم تجدتها هناك . وقالت لنفسها . ولا بد أنى تركتها على المنضدة . . ولم يهمها الأمر ، فقد تذكرت كل كلمة فيها وتناولت قلبا فكتبت صورة منها ، وحفظتها في مكان أمين .

ولكن كانت آن مخمطة فيما خطر لها ، فهي قد وضعت الورقة ، مع ذلك ، حيث افترضت وجودها ، وكان ينبغي أن توجد هناك ، ولكنها وقعت على الحشائش أثناء هرب آن من فستوس . عندما ادعى لإصابته بالسكتة أو النقطلة وبعد مرور خمس دقائق على هذا الحادث ، إذا كانت الطريدة ومطاردها قد

(١) عاشقان في قصة كتبها برناردان دي سان بيير (١٧٣٧ — ١٨١٤) طبعت

عام ١٧٨٧ وتمس صورة لعجب المثالي . (شرح الأصل)

تجاوزا مكان وقوعه بثلاثة حقول ، أخذت المرأة ، الزاهية الملابس ، التي باغتها فستوس تطل في حذر ، من خلال السور على ركن الحقل الذي كان مسرحا للتدافع بالمناكب وتسلفت السور إذ رأت الورقة ، واستحوذت عليها وفضت غلافها دون أن تمزقها ، وقرأت المذكرة المدونة بها . ولما لم تستطع تلك الهاتمة على وجهها أن تفهم معناها وضعتها في جيبها ، وإذ أبدت هذه المسألة عن ذهنها مضت في ذلك المنعطف المؤدى إلى الناحية الخلفية من الطاحون ووقفت هناك خلف السياج ، وأنعمت النظر في السياج القديم بعض الوقت ، ثم دارت مستغرقة في التأمل ، وعادت أدراجها إلى المنتزه الملكي البحرى .

الذعر

(٢٦)

كانت الليلة التالية ليلة تاريخية ومشهودة . لقد استيقظت السيدة لفدى على دوى مدفع أطلق من بعيد ، وأخبرت صاحب الطاحون بذلك ، وظلام مدة يتصنتان . ولم يتكرر الدوى ، ولكن حالة شعورهما كانت على نحو أدى إلى ذهاب السيد لفدى لغرفة بوب وسؤاله هل سمع ذلك الصوت . وكان بوب مستيقظاً تماماً ، ومظلا من النافذة وقد سمع الصوت المشؤوم ، ورغب في استجلاء الأمر . وخيل إلى الأب وابنه ، وهما يرتديان ملابسهما ، أن هناك وهجاً يتصاعد إلى السماء في اتجاه تل الإشارة ، وأكد صاحب الطاحون لأن وأمها ، رغبة منه في عدم إزعاجهما ، أنه سيخرج هو وابنه ليجرد السؤال عن علة طلقة المدفع . وعلى أثر ذلك غاص كلاهما في الظلة . وبعد أن تقدما بضع خطوات انكشفت السماء أكثر من ذي قبل ، وكانت بالفعل مضاءة ، كما ظنا ، بنور مغبر . ولكنهما لم يستطيعا أن يقطعا أهومتصاعد من منارة التحذير ، أم من مكان أبعد . وأسرعاً في المسير صوب الأرض الصاعدة .

وكان هياجهما مجرد جزء من هياج الرجال كافة في هذا الوقت العصيب . وبلغ توقع الشر في كل مكان درجة حرارة الحمى . ففي غضون السنة أو السنتين الأخيرتين لم يفصل بين الدور الإنجليزية الهادئة وجيش الأعداء البالغ مائة وخمسين ألفاً من الرجال إلا مسافة خمسة وعشرين ميلاً من الماء الضحل . وقد أخذنا الأمر مأخذ الاستخفاف نوعاً ، منصرفين إلى الأكل والشرب كما كانوا يفعلون أيام نوح ، وإلى ترديد أغاني الهجو دون انقطاع ، والاعتماد على نابليون وسفنه الحربية ، وتصوير وجهه بالطباشير على مركبات السفر العامة ، ونشرها مطبوعة . وفيما بين نوبات المرح هذه كان الناس مع ذلك يتذكرون أحياناً أن إنجلترا كانت الدولة الأوروبية الوحيدة التي لم تستسلم للرجل الجبار الصغير الذي كان أقل من أن يكون بشرياً في شعوره ، وأكثر من أن يكون بشرياً في إرادته ، وأن روح مقاومتنا كانت أكبر من قوتنا ، وأن المصيق الإنجليزي

كان هادئا في أغلب الأزمنة . وبدت السفن المصنوعة من خشب كان أحضر ناميا في غابته الاصلية منذ ثلاثة أيام سابقة على قطعه وتقويسه من طرفيه ليصلح جوانب السفن ... بدت مضحكة نوعا ، بيد أنها قد تكفي مع ذلك لرحلة واحدة بين الشاطئين الباديين كل للآخر .

وراقب الإنجليز بونابرت في تلك الاستعدادات كما راقب بونابرت الإنجليز . وغابت التفاصيل على بعد من شاطئ بولون . ولكننا تأثرنا خلال الأيام الصافية بالمنظر الجديد للجيش الضخم وهو يتحرك ويتلألا تحت أشعة الشمس كسرب من سمك المقريل . والطريقة المتبعة بانتظام لتعضية الوقت ، عصر كل يوم ، في البلاد الساحلية كانت التمشي إلى مراكز الإشارات ، والثروة مع ضابط النوبة عن آخر شيء . معاد للأعداء ظهر في البحر . وكانت تظهر في الصحف ، زهاء مرة في الأسبوع ، إما فقرة عن سيد إنجليزي مغامر أبحر في سفينة زهية حتى أصبح على مقربة كافية من بولون تمكنه من رؤية نابليون واقفا على مرتفع بين فواده . . وإما بضعة أسطر عن رجل أجنبي للهجة استأجر مركبا من مفرجنوي بعد أن جمع قدرا كبيرا من المعلومات عن مواردنا وتوارى في اتجاه فرنسا قبل أن يتمكن أحد من التكهن بحقيقة مقصده .

كان بونابرت ، في تدبيره لمغامرته الكبرى ، يستجد بالمعونة الإلهية إلى حد بعيد . وفي نفس الساعة التي ركب فيها جنوده السفن المسطحة القاع ، واستعدوا للإفلاق بها ، حدث أن تراكم ضباب كثيف نشر ظلمة واسعة النطاق فوق طول المضيق وعرضه ، وأبقى الإنجليز عاجزين عن رؤية الأحداث التي تقع على الشاطئ الآخر . وكان مقدرا للضباب أن يستمر مدة أربع وعشرين ساعة قد يتشعب بعدها . وساد السكون الثقيل الذي يلازم الضباب . وأدى ذلك من ناحيتين إلى الغاية وهي توفير انتقال سهل لمراكب الأعداء مع الحسك على سفننا بأن تظل ثاوية بلا حراك . . . وحدث ثالثا ، أن علاسد الربيع القميين بأن يؤلف بين مناوراتهم ومناورات الضباب والسكون .

ونحن نذكر من بين آلاف الرجال الإنجليز الثانويين الذين تأثرت حياتهم بهذه الخطط الرهيبة ، رجلين عرفناهما من قديم ، أحدهما هو الأنباشي تاليدج (م ١٧ — نافخ البوق)

الذى يتباهى بذراعه المحطمة . والآخر هو سيمون بيردن الجندى التائه الوعى الهرم المسكين الذى حارب فى « مدين » (١) . فبدلان أن يقبح كلاهما مستريحين بمسقط « أولد شيب » (٢) فى القرية المتاخمة لأوفر كيب ، كانا مضطرين إلى القيام بالحراسة فوق التل . وقد وفرا لنفسها هناك سبل الراحة بقدر ما استطاع فى مثل تلك الظروف ، فسكنا فى كوخ حيطانه من مدر وعشب متسلق ، وبه موقد للطبخ ذو مدخنة مبنية من طوب . ومن هنا كانا يرقبان القمر والنجوم فى مدارهما الليلي ، وألغا تنفس الطوابين (٣) ورقص الأرانب فوق الروابي ، وضباح العناب فى غابات الجزيرة الأبعد موقعا . ولكننا لم يربا علامة على وجود وكانا يطوفان ، ليلة بعد ليلة ، بالكومتين اللتين كان من واجها أن يشعلاها الأعداء لدى صدور الإشارة بذلك — وكانت إحناهما مكونة من حطب شائك لإشعال لهبه فى سرعة ، والآخرى من عشب لإشعال ضوته البطيء الطويل الأمد . وكانا بذكران الأرض السابقة ويتحدثان عنها . كذلك كانا فى تلك الأثناء يشربان الخمر فى وطنية من راقود خنبي يعاد ماؤه كل يوم .

ولم يلبث بوب وأبوه أن فطنا إلى أن النور كان يتصاعد من منارة التحذير هذه . وعندما وصلا إلى القمة كانت النار المشتعلة كتلة واحدة من النار المحلقة التى تساقط شررها على السكلا الأخضر كأنه ظل متقد . وكان شكلا الرجلين الهرمين يبدوان للعيان وهما يمران ويكرران مرورهما وسط ذلك الضوء الساطع . وظل لفدى وابنه اللذان صعدا إلى الجانب الداخن يعلمان النظر لحظة فى ذلك المشهد ، ثم برزا وسط النور ، وقال الانباشى تاليدج وهو يحمل بيده السليمة حربة موضوعة على كتفه :

— من الذى يسير هناك ؟ . . أو ، إنه الجار لفدى !

وقال صاحب الطاحون فى عجلة :

— هل جاء تك إشارة إشعال النار من الشرق ؟

(١) فى وستفاليا حيث هزم البريطانيون والهنوفريون الفرنسيين فى أغسطس عام ١٧٩٩

(شرح الأصل)

(٢) معنى السكلا (السفينة القديمة)

(٣) جمع طوبين ، ويسمى تلبا أيضاً ، حيوان على شكل فأر كبير .

- لا . بل من ساحل أبوتسى .

- ولكن ليس عليك أن تدعن لإشارة ساحلية !

- سخفا . ألم تكن تعليقات الضابط الأمر أن ذئبل النار عندما ترى منارة
« ريناو » مشتعلة من الناحية الشمالية الشرقية ، أو منارة « هاجردون » مشتعلة
من الناحية الشمالية الغربية ، أو ترى العدو موجوداً بالفعل على الشاطئ ؟

- ولكن هل العدو هنا ؟

- لا شك في ذلك . ولم ينطق نور الشاطئ إلا الآن فقط . وقد سمع

سيمون طلقات المدافع أوضح حتى بما سمعتها أنا ؟

وقال بوب :

- صه ، صه ! إنى أسمعها الآن .

وظفقوا ينصتون وشفاهم منفرجة ، والهواء يهب من خلال أنياب سيمون
بوردن القليلة كما يهب من خلال أقناض ستونهنج . وترأى من المنحدرات
البعيدة لجب مجلات ووقع حوافر خيل على طريق بوابة المسكوس .

وقال صاحب الطاحون لفدى بلهجة خطيرة :

- حسنا ، لا بد أن يكون هناك أمر من وراء هذا . بوب ! سنذهب
إلى البيت ، ونوفر الأمان للنساء . ثم أردى أنا ملابس الجندي وأنصرف .
ويعلم الله متى سيجمع شملنا ثانية !

وهبطا من التل مسرعين . وانتظرا وأنصتا ثانية لدى وصولهما إلى الطريق .
وبدأ المسافرون يقبلون في عربات من جميع الأنواع . وكان يصعب لفت نظرهم
وسط هذا النور الضئيل . ولكن أمكنت رؤية بوب في النهاية بوقوفه على سطح
حائط يحجب الطريق ، وقد نادى قصايا يستقل عربته « الكارو » ويمر بها مسرعا
بينما تجلس امرأته من ناحية العربية الخلفية دون أن تضع على رأسها قبعة .

- ما الأمر ؟

وقال الرجل دون أن يكبح الحصان .

- نزل الفرنسيون في البر !

وصاح بوب :

— أين ؟

وأجاب الصوت وقد أصبح الآن خافتا لا بتعاده :

— في « ويست باي » (١) . . . وبودماوت جميعها في هرج ومرج !
وأسرع بوب وأبوه في المسير حتى وصلا إلى بيتهما . ووجدنا آن وأما على
الحال التي كان عليها أغلب الناس . وجداهما قد ارتدنا ملابسهما ووقفتا بالباب ،
ولبستا القبعة والثال ، وأخذتا تنصتان إلى حركة المرور في الطريق العام المجاور .
وكان قد سبق للسيدة لفدى أن احتفظت بما كانت تملكه هي وزوجها من مال
وأشياء قليلة نفيسة ، في جيب كبير التف حول خصرها ، فزادها حجما ووزناً
إلى حد وفير .

وقال صاحب الطاحون :

— الأمر صحيح تماما ، لقد جاءوا .. عليك أن تذهبي أنت ، وآن ، والخادمة ،
إلى بيت ابن العم جيم في « كينجز بير » (٢) ، وينبغي أن تصنعى هناك مثل ما يصنع
الآخرون . ولا بد لي من أن أنضم إلى فرقتي .

وقال بوب :

— وأنا ؟

— أولى بك أنت أن تعدو إلى الكنيسة وتأخذ لك حربة قبل أن تنفذ
الحراب جميعها .

وشد الحصان إلى عربة الركوب ذات العجلتين ، وحشرت السيدة لفدى
وآن والخادمة في العربة دون إبطاء ، وأمسكت هذه الأخيرة باللجام . وكانت
واجبات ديفيد بحسبانه محاربا تحظر عليه الآن أن يفكر أى تفكير في أعمال
الخدمة المنزلية . ثم إن الكوب الفضى الكبير ، ولريق الشاي ، والشمعدان
ذا الذراعين الشبهتين بالأعمدة الإيونية (٣) . . هذه الآنية وغيرها من الأدوات
التي لا يمكن وضعها في الجيوب لكبر حجمها ، قد ألقى بها جمعا في سلة وضعت

(١) الترجمة الحرفية للاسم « الخليج الفرن »

(٢) شرح الأصل)

(٢) أى « بير ريجز » .

(٣) نسبة إلى الإيونيين وهم أسلاف اليونان .

خطف العربية . ثم حلت ساعة الوداع التي كانت مخزنة بقدر ما كانت عجلة . لقد قبل بوب آن ، ولم يكن ثمة تكلف في قبولها علامة محبة هذه وهي تقول له من خلال دموعها : « ليباركك الله ! » ، وضمت العربية بين أخيراً وسط ضوء الفجر الباهت دون أن تعرف لإحداها الطريق الذي سيسلكه . ولكنهن اعتمدن في الاهتداء إليه على مجرد الحظ .

وما غبن عن النظر حتى انصرف بوب ليحصل على حربة . وبدأ أبوه يحشو بندقيته من جديد ، ثم شرع في ارتداء سترته العسكرية ؛ وتقصير (١) سرواله في سرعة مستخفة إلى حد أن شوه جرموقه (٢) برشاش ذلك المزيج الزخرفي . وإذا وجد ، بعد تأهبه للرحيل ، أنه لم يتردد صوت أى نفيير بعد ، ذهب مع ديفيد إلى حظيرة العربية « السكارو » . وجر العربية إلى الخارج ، ووضع فيها أكثر الأشياء فائدة ، وأسهلها نقلا ، استعدادا للحالة التي قد تتاح فيها فرصة نقلها بعيدا . وفي أثناء القيام بذلك ، ودفع العربية إلى مكانها ثانية ، وإغلاق الباب عليها ، عاد بوب حاملا سلاحه . وقد أذله . إلى حد ، أن يقسم له التسليح بهذا النوع الرخيص من أسلحة الدفاع . وصافح صاحب الطاحون ابنه مصالحة الوداع ، واتفق معه على أن يقابله في كينجز بير لدى سنوح أول فرصة فيها إذا كانت أنباء الغزو صحيحة ، أما إذا كانت لحسن الحظ كاذبة فيكون اللقاء هنا في بيتهما .

وصاح وهو ينظر إلى زناد بندقيته :

— بالمضايقة !

وقال بوب :

— ماذا ؟

— ليس لدى ذخيرة . . حتى ما يكفي لدورة مباركة واحدة في القتال !

وسأله ابنه :

— وما فائدة ذهابك إذن ؟

(١) تبيضه بالأنايب الفخارية .

(٢) الجيرتر ، هو غطاء الحداء والناق .

وترث صاحب الطاحون قليلا ، وقال :

— أوو . سأذهب ، ففعل أحدا يقرضني قليلا منها إننا خضت مأزقا
حامي الوطيس .

وقال بوب يثنيه :

— يمرضك قليلا منها ! . . إنك كنت ساذجا جدا على الدرهم يا أبا !

وقال صاحب الطاحون :

— حسنا . . أنا أستطيع أن أختلس بعضا منها على أية حال .

وكان قد نفخ في النفير قبل ذلك . وتوارى لفدى الأب منطلقا إلى مكان
الاجتماع ، وصندوق خرطوشه ، الخالي معلق خلف ظهره . وأخذ بوب غدارتين
محتويتين كان قد جاء بهما من السفينة ، ولذا دجج نفسه بهما وبالحريرة أغلق الباب ،
وخرج ثانيا ، واتجه إلى طريق « بوابة المكسوس »

وفي هذه الأثناء كان الفرسان المتطوعون في المنطقة يرتحلون أيضا ، ومن بينهم
فستوس دريمان الذي بات ليلته عند عمه ، وأيقظه كرييلسترو من نومه . وحوالي
الوقت الذي كان بوب وأبوه يبهطان فيه من المنارة وقف الفارس المتطوع المعلق
في فناء « الإسطبل » ، مثبت سيوره بينما كان كرييلسترو يسرج له حصانه ؛ وأخذ
فستوس بصلصل بسلاحه رائحا غاديا وهو ينظر مقتبا إلى المنارة . ويسمع صوت
العربات المرتدة . ونادى كرييلسترو الذي جاء له من « الإسطبل » ، وهو يقود
الحصان ، وحدث ذلك في نفس الوقت الذي كان العم بينجى يطل فيه ، غير
ملمحوظ ، من شبكة نافذة فوق رأسها . وكان ضوء نار المنارة البعيد يلمس
أسارير وجهه ويحيلها إلى لون ميناء ساعة نحاسية قديمة .

وقال فستوس الذي كان يحياه المكفر يعانى ابضاضا متناقضا يثير العجب لدى

التنظر إليه ؛

— أرى يا كرييلسترو أن تذهب إلى بودماوث ، قبل أن أشرع في الرحيل .

وتتحرى تحريا جريئا أنزل العدو الجيسان إلى الشاطئ ، أم هو يبدو فقط .

في المضيق ؟

وقال الآخر :

— لو أن ألم رجل لم يعاودني لذهبت على الفور . بل لكنك انضممت الى فرقتي قبل ذلك . ولكنهم قالوا في آخر تدريب لنا اني كبير السن جدا . وعلى ذلك سأنتظر الأبناء في مخزن الدريس على أثر انتهاء من إعداد العدة لرحيلك أيها السيد المسكين !

— هل حدث قط أن أطلقت مثل إنذارات الخطر هذه يا كرييلستروودون أن يكون لها أساس ؟ إن بونا برت حقير . شق حقير . وقد يكون هذا الإنذار كاذباً قصد به تخييب أمل رجل مثل ؟

— أوو ، لا ياسيدي ، أوو ، لا !

— ولكن هناك إنذارات كاذبة في بعض الأحيان ؟

— نعم ياسيدي . كانت هناك في العام الماضي غارة وهمية قامت بها السفن الحربية .

— أليس هناك حادث آخر وهمتي . . . شيء يشبه ذلك مثلا ؟

وهز كرييلسترو رأسه :

— إنني ألاحظ ياسيد فستوس تواضعك في الاستهانة بالأمور . ولكن هذا لم يحدث قط ، ويمكنك أن تتأكد من أنه جاء فعلا ، وشكرا لله على أن واجبي بصفتي من أهل هذا البلد لا يتطلب ذهبا إلى جبهة القتال ، ولكن ذلك مقصور على على الرجال الشجعان من طراز سيدي . أه لو أن بوني يستطيع أن يفيد شيئا من ضابط مصمم ماهر مثلك إلا العلم بات ورماس البنادق !

— نعم ، نعم ياسيدي . فأننا إذا ركبت الى بومادوث . وقابلتهم هناك فقدت كل ما أفدت من تدريب . فليست هناك مهارة تحتاج إليها مثل التفاني في القتال .

— صحيح . هذا بيت القصيد ياسيدي ، إنك ستظهر عليهم جميعا ، وستطلق عليك النيران من أول القتال بحسبانك رجلا شجاعا شديد الخطورة .

— ولكنني إذا مكنت هنا ، ودفعت بضعاف القلوب الى القتال ، أو دخلت سلم المنارة من ذلك المر ، وأطلقت على الفرزة من ثقب المراقبة ، فإني

لا أكون قد ضعت ضياعا تاما . أليس كذلك ؟

— لن يكون ذلك يا سيد دريمان . ولكن النار المتقدة في عروقك . . . كنت على وشك أن تقول بعد هذا .. ستحول دون إقدامك على ذلك . كن باسلا ، طيبا جدا ، فأنت لأرغب في اختزان بسالتك داخل بيتك . إن الحجة واضحة .
وغنم الفارس المتطوع :

— لو أن أصلي كان أكثر خمولا ، وكنت مثلا من رجال الحرس الوطني غسب ، أو من حملة الرماح المتضمين ، لما كان يرجى مثل هذا الرجاء الكبير مني . . . من طبيعتي المتوقدة . أهنك يا كرييلسترو جرة من البراندى ، (١) يمكن العثور عليها في البيت ؟ إذ أشعر بأنى لست في حالة جيدة .

وقال الرجل الهرم من فوق ، ولم يكن أحد منها قد لاحظ وجوده بعد :

— يا ابن أخى العزيز ، ليس عندى لسوء الحظ ، دن خمر مفتوح بعد ! ولكن هناك برميلا لطيفاً من خمر التفاح البرى لم ينضج ، وشيئاً من الشاي البارد متبقياً من ليلة أمس .

وقال فستوس شاخصاً إلى أعلى :

— ماذا ، أهو يسرق السمع ؟ أنا ضامن كم هو فرح الآن برؤيتي مضطراً إلى الرحيل ... يستدعوتى من فراشى للقتال دون أن أفطر ، بينما هو آمن تماما ، وواثق من نجاته لأنه رجل مسن ! .. يا كرييلسترو ! يطيب لى أن أكون فى سلاح الفرسان المتطوعين ، ولكنى وددت لو لم أكن فى صفوف جنده ... وددت لو أنى كنت طبيياً جراحاً فقط لأبقى فى المؤخرة حيث تنقل إلى الأجسام المصابة . . . أعنى أنه كان يجمل لى فى وقت كهذا أن أكون أشد ميلا بقلبي إلى شفاء الجرحى ، ووصل أعضائهم المهشمة . . . أوج ! ... أشد ميلا إلى هذا من إحداث الجروح ... أنا يا كرييلسترو أكثر إنسانية من أن أكون ضابطاً فى الصف !

وقال محادثه وهو يخفض من روحه المعنوية إلى ما يشبه مستواه :

— نعم ، نعم . ومع ذلك هكذا القدر ، فإنيك بدلا من أن تصل أعضاء

(١) نوع من الخمر .

الزجال المشمة ، سهضطر إلى توصل لك أعضاؤك أنت . . . أيها الجنسدى
المسكين ! وهذا كله يسبب روحك العسكرية .

وعغمم فستوس :

— نعم .

وتوقف قليلا ، ثم استأنف قوله وهو يضع يده فوق أزرار صدره الوسطى :

— أنت لا تستطيع أن ترى يا كرييلسترو كم أشعر بأنى غريب هنا ! فلمكم

أتمنى لو كنت طبيبا جراحا ليس إلا !

وامتطي جواده فى بطنه وكان العم بنجى فى هذه الأثناء يقنى لنفسه وهو

يرقبه ، ما يأتى : « ثلاثة وعشرون ونصف من الجانب الشمالى الغربى ، وستة

عشر وثلاثة أرباع من الجانب الشمالى الشرقى ، » .

وقال فستوس بوحيثية :

— ما الذى تفنيه هذه المومياء العتيقة ؟

وأجاب المزارع فى وداعة ، وكان قد سمع الملاحظة :

— إنه مجرد تشيد لخمايتنا من أعدائنا يا ابن أخى العزيز . . . ثلاثة وعشرون

من الجانب الشمالى الغربى . . .

وأباح فستوس لحصانه أن يخطو بضع خطوات ، ثم التفت ثانية وكأنما

أصاب ذهنه فكرة مبتكرة سعيدة ، وبدأ يقول وهو يضحك :

— أنا مع ذلك مضطر ، يا كرييلسترو ، أن أعترف بألا بد لى من رؤيتها !

إنها ليست الطبيعية التى تحملنى على الارتداد . . ، ولكنه الحب . لا بد لى أن

أذهب وأبجت عنها .

— أهى امرأة يا سيدى ؟

— أنا لم أرد أن أعترف بالامر . ولكنها امرأة . ومن العجب أن أستمال

كلية لى عكس رغبتى الطبيعية فى الهجوم عليهم !

ولاذ رأى كرييلسترو من أية ناحية تهب الريح ، وجد من المناسب أن

ينفخ فى اتجاهها :

— آه يا سيدى ، لقد أدركت الآن أخيراً ! فبرغم أن قليلا من الناس

الذين يعيشون اليوم جديرون أن يقودوك ، وبرغم أنك تستطيع الهجوم ، وتنظيم

الجيوش لتحقق النصر - كما يمكنني أن أقول - فإذا كان من الأمر بعد ذلك ؟
كان أن ابتليت بعيني امرأة فتملكك الخوف ! ومن ذا الذي سيظل على حاله
يا سيدى دريمان عندما تتعلق امرأة بعنقه وكأنها حجر طاحون ؟
- إنها شيء من هذا القبيل .

- إنى أدرك المسألة . أأنت شجاع ؟ ... إنى أعرف بالطبع أن الكلمات
ليست إلا مسألة شكل . . . إنى أسألك ، أأنت شجاع ؟ نعم ، بالطبع . . . أقول
لك يا سيدى ادخر شجاعتك لحرب أسمى مرتبة . . . ادخرها للدفاع عن سيدتك
الجديرة بالعبادة . فكر فيما أنت مدين لها به في مثل هذه الأوقات الرهيبة !
والآن ، أسألك مرة أخرى يا سيدى دريمان أن تطرح تلك الرغبة الأولى
المتجرفة في الاندفاع إلى بودماوث . وأن تذهب إلى حيث تقيم حبيبتك وحيدة
غير محمية .

- سأفعل ذلك يا كربلسترو ، بعد أن أوضحت لى الأمر على هذا النحو .
- أشكرك ، أشكرك من صميم القلب يا سيدى دريمان ، اذهب الآن
واختبئ معها .

- ولكن ، هل أستطيع ذلك ؟ كف الآن عن المللق . أستطيع الرجل أن يختبئ
دون أن تشوبه شائبة . إنى لن أختبئ بالطبع اختباء ذامنزى وضع . لاء لست
أنا الذى يفعل هذا !

- إذا كنت تحب ، فن الواضح أنك تستطيع فعل هذا بما دام الأمر
لا يتعلق بحياتك أنت ، ولكن بحياة شخص آخر تهم به ، فأنت لا تتخذ حياتك
إلا لأنه لا حيلة في ذلك .

- هذا حقيقى بمعنى من المعاني يا كربلسترو ، ولكن هل يفسر الناس
اختبائى على أساس هذا المعنى ؟ هل سيرونه اختباءً باسلاً ؟

- أنا أسلم لك يا سيدى بأن الاختباء يبدو غريباً إذا أنت لم تكن واقعاً
في جبال الحب . ولكن إذا كان بقصد إلتقاد حبيبتك من الدموع والتأوهات
والنوبات والإغماآت ، وربما من موت فتاة في ريعان الشباب ، فإن مبدأك يكون
سليماً . . . إنك تتخلف في شرف لأنك أجمع من أن تتقدم . وقد تقول يا سيدى إن
ذلك غريب ، ولكنه واضح وضوحاً كافياً لمن كان ذهنهم أقل اعتماداً .

وحاول فستوس ، لبرهه من الزمن ، أن يكشف باقتسامه طبيعية عن أسنانه ،
ولكن الاقتسامه ماتت على ثفره :

— أنتت تملقنى يا كريلسترو أم تعنى ما تقول ؟ نعم ، إن قولك يشتمل
على صدق ، فأنا فى ذهابى إليها أجمع منى فى مسيرى إلى الشاطىء . ولكننا
لا نستطيع ، نحن الجنود ، أن نحافظ فى عناية شديدة على حسن سمعتنا ، فينبى
الآيرانى أحد ، لى سامضى .

وفتح كريلسترو السياج الذى يسد معبر باب الإسطبل بينما كان العم
بنجى يقى فى نوع من الطرب العظيم أغنية ، ثلاثة وعشرون من الجانب الشمالى
الغربى ، ، شاعراً — كما لاحظ فستوس — بأن ماله أصبح فى حرز مكين ، وبأن
الفرنسيين لن يرجعوا رجلا متقدم السن ، متدثرا بتلك السترة البالية المتحفنة التى
يرتديها ، والتى استعارها لهذا الغرض من فزاعة منصوبة فى أحد حقوله .

وسار فستوس على صهوة حصانه ممتلئ الخاطريزية البحث عن آن ، ومرافقتها
إلى كينز بير ، حيث كان على علم بأن هناك أقارب لأسرة لعدى ، متعللا بأنه
يحميها فى ارتدادها إلى ملجأ . وقابل فى الطريق ، جرانى سيمور ، التى كانت قد
وضعت كل ما تمتلك فى سلة ، وسارت مرتدة إلى الجبال اتبى هناك حتى
تزول التمة .

وسألها فستوس :

— حسنا يا جدتاه ، هل رأيت الفرنسيين ؟

وقالت وهى تنظر إليه من خلال عويناتها النحاسية :

— لا . فلو أنى رأيتهم لما وجدتك أنت !

وقال الفارس المتطوع :

— أف !

ومضى بجواده . وما وصل إلى الطريق القديم الذى كان ينوى مجرد عبوره ،
ثم الابتعاد عنه ، حتى اكفر وجهه . فقد كان هناك جنود نظاميين ، ظهر أنهم
من فرقة الدراغون ، يقمعون بأسلحتهم على طول الطريق . وأسرع فستوس إلى
مر مقابل ليصل إلى الحقل قبل أن يبصروه . ولكنه لم يدخل المر حتى وجد —

كما أراد له سوء حظه - ثلثة من فرسان فرقة المتطوعين التي ينتمى إليها ، تبلغ ستة فرسان أو سبعة ، تسلك هائمة على وجهها نفس الحقل ، وتوجه إلى الموضع الذي كان فيه . ومر جنود الدراغون دون أن يبصروه . ولكنه دارمخرج إلى الطريق ثانية إذ كان من المستحيل عليه أن يرتد إلى قرب أفركب نظراً لوجود الفرسان المتطوعين . وعلى ذلك مضى قدماً ، وسمعهم يقبلون في أعقابهم ، ولم يكن هناك ممر آخر . ولم يلبث الطريق العام أن أصبح مستويًا كوتر القوس . واقترب فستوس شيئًا فشيئًا من الشاطئ المشؤوم إذ لم يتمكن من النكوص إلى وراء دون أن يقابلهم ، ووقع في الورطة كما يقع ثعبان البحر في د ماسورة الماء . ولكنه لم يتخل عن الأمل . فهناك مفترق طرق أمامه رأساً ، وقد يواتيه حظ المروق من أحد تلك الطرق دون أن يراه أحد . وعند وصوله إلى ذلك المفترق لم يجد نفسه وحيداً هناك ، فقد أقبل فارس من طريق يقع إلى اليمين ، وشد لجام حصانه . وكان ضابطاً في الفرقة الألمانية . وإذ رأى فستوس رفع يده ، فتقدم إليه هذا الأخير وحياه .

وقال الضابط .

— لقد كان خبراً كاذباً !

وعاد فستوس رجلاً من جديد ، وشعر بأن ليس هناك شيء يكبر على همته . وقال الضابط ، بعد أن أحل بعض الإيضاحات عن سبب الإنذار بالخطر ، إنه سيغير الممر إلى الطريق المؤدى إلى المستنقع ليوقف تقدم الجنود المتطوعين المتجهين إلى هذه الناحية ، وعرض عليه فستوس عندئذ أن يقوم هو نفسه بتبليغ النبأ إلى القادمين عن طريق كاستر بريدج . وعبر الألماني الممر إلى طريقه . ولم يلبث أن غاب عن العيون بينما دار فستوس وعاد سالكا نفس الطريق الذي جاء منه . وكانت ثلثة الفرسان المتطوعين تقرب في عجلة ، وسرعان ما ميز من بين اللهبجات المهتاجة أصوات « ستوب » ، و « دودل هول » ، و « نو كس » ، و « نيدر موبنتون » وغيرهم من رفقائه لهُوه في بيت عمه . وسنحت لفستوس فرصة عظيمة فشر سيفه . وعندما أصبحوا على مرمى الصوت أدار بليجانه رأس حصانه إلى يودماوث وصاح :

— إلى الامام يا رفاق ، إلى الامام! إنى أنتظركم . إن المدة التى استغرقتموها
للحاق بى طويلة بالنظر إلى طبيعة أعمالنا العظيمة اليوم !

وأجاب الفارس الذى كان فى مقدمة الركب :

— أجدت يا دريمان ، أجدت ! أما سمعت أنباء جديدة ؟

— لاشيء إلا أنه جاء إلينا بعشرات الآلاف من جنوده ، وأن علينا الركوب
للقائه ، وسيوفنا فى أيدينا ، على أثر اجتماعنا كلنا فى البلدة البادية هنا أمامنا .

وقال نوكس ، وقد انحسف فكاه الأسفل قليلا :

— أوو ، يارب !

وقال فستوس شاهراً سيفه فى وجه الشمس وهو لا يزال على رأس
بقية الجنود :

— إن الرجل الذى تخور عزيمته الآن غير جدير بأن يسمى بالفارس
المتطوع . أوو يا نوكس . خسئت ! ... لقد بدأت تبدو شاحباً يا رجل .

وقال نوكس وهو يلقى على فستوس نظرة حسد على سلوكه الجرىء :

— حقاً ! فلعلك كنت تبدو شاحباً لو أن لك زوجة وأبنة تعتمد عليك !

وأجاب فستوس وهو لا يزال يلوح بسيفه :

— سأقضى بمفردى على ثلاثة من أكلة الضفادع الفرنسيين !

وقال آخر من الفرسان المتطوعين :

— إن لهم سيوفاً بآرة كسيفك حسباً سترى عما قريب .

وقال فستوس :

— لو أنهم مسلحون بثلاثة أضعاف أسلحتهم ، أو بثلاثة أضعاف أضعافها ،
لسعيت إليهم واحداً إلى ثلاثة . (ودار إلى جندى آخر) ما شعورك الآن

يا صديق القديم ، ستوب ، ؟ أوو ، يا صديق ستوب ! لن يكون ثمة تباها بالعافية
لحبيباتنا هذا الصيف فى أوكسويل هول كما كان الشأن فى الصيف الماضى ...

أليس كذلك يا براون جون ؟

وقال براون جون متجهماً :

— أخشى ألا يتيسر ذلك .

— ولن تكون هناك حفلات عشاء صاخبة في فندق « ستاسي » بينا الملك في الدور السفلى مع بطاته . ولن نخدع طارق الأبواب ، ونرسلهم إلى المخبز للمجىء . ببطيرة لم يطلبها أحد . هناك بالأحرى أسابيع عمل مفروين علينا !
— أظن ذلك .

ولا حظ فني من الفرسان المتطوعين هادى الوجه ، عاقد العزم على أن يؤدي واجبه دون الإكثار من الكلام :
— لو حاربنا بقدر ما نستطيع فإننا لن نتخلص من الطاغية قبل الحريف . وسيرقد تحت الثرى عدة آلاف من الرجال الشجعان قبل أن يتم ذلك .
واستأنف فستوس القول :

— ولن تكون مباريات عنيفة هذا الصيف في « ميدون كاسل (١) » ، لا ولا لعبة « الفتلة والإبرة » ، في « جرين فير » (٢) ، ولا الذهاب إلى المعارض ، وإطاشة صواب أصحابها بتشتيتنا لذهن المنفرجين .
— أظن ذلك .

— هل هذا يجعلك تبدو بانوكس منزعجا ولو انزعاجا طفيفا ؟ احتفظ بروحك العالية يارفيقي القديم . تقدم . إننا ندمل بالخييل ذميلا وئيدا كبعض راكبات الحبير . إن علينا أن نصل إلى بودماوت وننضم إلى سائر الجيش . ثم تقطع الشاطئ غربا على ما يبدو لى . ولن نخوض غمار المعركة الحقيقية في هذه الحالة قبل الساعة الثانية عشرة . حشوا الخييل بمهمازكم يارفاق !

— لن يكون ثمة رقص على الحشائش تحت ضوء القمر هذا العام يا لوكهام . لقد كنت تعطف على تلك الفتاة . ياللهى ، ماذا سيكون مصيرها بعد هذا القتال ؟
وحاوره لوكهام قائلا :

— مهلا ، مهلا يا دريمان ، هذا كله طيب جدا ، ولكنى لا أهتم به . أنا على

(١) صر الجبل الكبير ، وهو على بعد ميلين من دوشيتير (شرح الأصل)

(٢) « وودبرى هيل » وهو قريب من يريجيس ، ويقام بهمرض سنوى (شرح الأصل)

استعداد للقتال كأي رجل آخر ، ولكن ...
وأضاف نوكن مؤيدا رفيقه ، وإن كان يضر الإعجاب بشجاعة فستوس
المهورة :

— لعل شجاعتك تخمد قليلا يا فستوس عندما نخوض غمار المعركة ، وترى
على أي نحو هي !
وقال فستوس :

— سأصاب بطعنة قبل أن يحدث لي ذلك . لنصطف الآن ، وإلى الأمام .
ومنذ اعتزم فستوس أن يحث جواده بوحشية ، لم يشأ باقي الفرسان
المتطوعين أن يبدوا متخلفين ، وأخذوا يقتربون من البلدة مسرعين . ولو أنهم
كانوا هادئين بمقدار ما يكفي للتأمل ، فلربما لاحظوا أن أية عربات نقل أو ركوب
لم تقابلهم على الطريق خلال نصف الساعة الأخيرة كما حدث قبل ذلك . ولم يعلم
الجند ماعله فستوس منذ ربع ساعة مضت إلا عندما وصلوا إلى بوابة المكوس ،
وأغمد فستوس سيفه متنهدا لدى سماع النبا . ولم تلبث جماعة أن وقعت على
زملاء لها كانوا قد وصلوا من قبل ، ومن ثم دارت مناقشة عاصفة حول مصدر
وإنذار الخطر ، وتفاخيله .

وسأل أحد أولئك الذين قدموا أخيرا :

— كيف أنكم لم تعلموا بذلك الخطأ إلى الآن ؟ إنني التفت إلى الورا بينما
كنت أجتاز مفترق الطرق ما بباط من الل ، ورأيت هذا الرجل يحدث الرسول
الذي لا بد أنه أخبره بالحقيقة .

وأشار المتحدث إلى فستوس ، فأدار رقابته عيونهم الملأى بالحنق إليه ،
إذ لم يلبث أن بدا للجميع أنه كان يعبت بأعتم أحاسيسهم وهو يعلم بأن الإشاعة
كانت على غير أساس . وصاح منهم اثنان أو ثلاثة قائلين وهم يلوون رؤوس
جياهم ليرتدوا وينقضوا على فستوس ، وقد تبعهم في حركتهم هذه أغلب
الجماعة :

— لنوسعه ضرباً ببطون سيوفنا .

وكان فستوس ، إذ توقع الخطر الناجم عن إفشاء السر ، قد سبق في حكمة

فجعل بينه وبين رفقاته الفرسان المتطوعين بضع خطوات . . . وغمر الآن جواده
بمهازه ، ودوى كالرعد والبرق قاطعاً الطريق إلى بيته . وزاد هذا الهروب
المبيت مطاردته حرارة .

وكان أثناء ركضه بجواده ، والتفاتة من فوق كتفه في خوف ، يستطيع أن
يراهم في لآثره عابسي الوجوه شاهري السيوف . وظلوا على تلك الحال مسافة
تزيد على ميل . ثم سره بعد ذلك أن رآهم ينكصون عنه واحداً بعد واحد ،
ولم يلبث هو وحصانه اللاهث أن بقيا وحدهما في الطريق العام ؟

الخطر يهدد آن

(٢٧)

توقف وفكر كيف يحول هذه الخيبة إلى فائدة . فخطر له بعد خيبته في خطة دخوله ، المنزه البحرى ، وتمتعه بالتهنئات على سلوكه الوطنى أثناء تقدم الجيش . . . خطر له وهو عابس أنه قد يستفيد بعض الفائدة من انسحابه الإجبارى ، بركوبه إلى أوفر كيب ، وتعظيم نفسه في عيني الآنسة جارلاندى قبل أن يتاح وصول الحقيقة إلى تلك القرية . وأعمل مهمازه بعد هذا القرار ، وقد صار أحسن مزاجا .

وكان المتطوعون في هذه الأثناء يتقدمون . وقابل دريمان فرقة مشاة أوفر كيب ، وهو يصعد في الطريق حيث كان صاحب الطاحون لعدى يدب في الأرض جنباً إلى جنب مع غيره من الملاك ذوى المسكنة في القرية وما يجاورها ، وكانوا مزودين كايبنغى ، بأكياس وأحزمة متقاطعة ، وبنادق ، وصناديق الأزند لتدح النار ، وملاقط ، وأسباخ لتنظيف فوهات البنادق ، وصناديق الذخيرة ، وأدوات وضع الفتيل ، وأعقاب الرصاص ، ودهان للجروح . ولم تعد هناك أية فائدة ترجى من كتمان الحقيقة مدة أطول . وبعد أن أخبرهم فستوس في إيجاز بأن الخطر غير مباشر كما كان يظن ركض بجواده وبعد أن قطع مقدار ميل قابل في نهايته رهطاً كبيراً من حملة الرماح من بينهم بوب لعدى الذي عزم الفارس المتطوع أن يسرعوره بشأن المسكن الذى فيه آن . وكانت الظروف على حالة حملت بوب على أن يكون في خديته أكثر صراحة مما لوتحدث بعد روية ، وأفضى إلى فستوس بالجهة التى أرسلت إليها النساء . ثم أخبر فستوس الجماعة أن نبأ الغزو كان غير صحيح ، وترتب على ذلك أن دار الجميع ليعودوا إلى دورهم بروح مضوية شاعرة بفرجة كبيرة .

وسار بوب إلى جانب حصان فستوس مسافة قليلة ، إذ استقر رأيه بنته على الذهاب والبحث عن النساء ، وإراحتن من جزعن بالاقضاء إليهن بالنبا الطيب

في أقرب وقت ممكن . ولكنه لم يقل لفستوس شيئا من ذلك أثناء عودتهما معا . كذلك لم يبنيه فستوس بوب أنه اعتزم أن ينشدهم هو أيضا ، ويجعل من سبقه لسلك من عداه في هذا المعنى مناسبة عظيمة لإرجاع الآنسة جارلاندا إلى صوابها بالنسبة له . وكان لا يزال يتأذى مما تلقاه على يديها من سقوطه في الماء ، ولم يزل إلى ترك هذه الإهانة تمر دون أن ينال نوعا ما من الثأر اللطيف .

وعلى أثر ائراقهما خب فستوس بجواده فوق التل ، ملتقيا في طريقه بمتطوعي «لونيبيودل» تحت قيادة النقيب كسنجهام ، وهم يبلغون ستين رجلا جنودا وضباطا ، وبطابور «كاستربريدج» تحت قيادة النقيب سترىكلاند ، وهو مكون من تسعين رجلا من الأشداء (كان يعرف في تلك الأيام باسم «كونسيدريشن كبنائي») وبغير ذلك من العسكر . وكان الجميع مضطربى الوجه ، يكسوم الغبار . وما أن أفضى إليهم بالنبا ، وتركهم واقفين ، حتى واصل الركض إلى الأمام مسرعا صوب «كينجزبير» . وانقضى بعض الوقت دون أن يظهر أحد في الطريق حتى قابل بعد قطع عدة أميال أونباشيا من المتطوعين ضل طريقه . وردا على سؤال فستوس أخبره الأونباشى بأنه لم تمر قطعا أية عربة نقل محملة بالنساء على النحو الذى وصفه له ، ولذا اعتقد دريمان أنه أخطأهم بقطعه الطريق العام ، عاد أدرجه إلى الدرب لعلهم اخترن السفر فيه التماسا للتخفى برغم رداهته ، وعدم التثبت من اتجاهه . ولدى وصوله إلى مسافة تبعد خمسة أميال عن أوفركب سمع في نهاية الأمر أخبارا عن العربة النائية ، وحملها الثمين ، وقد هامت متروكة كما يبدو لغريزة الحيوان الذى يجرها كسفينة نوح عندما انطلت من بلاد الفلطينيين (المعادين لإسرائيل) . وكان أحد العمال قد رأى الجماعة العاجزة ، عند شروق الشمس تماما ، وهى تسير فى بطء على مسافة بعيدة أشار إليها .

وما فارق فستوس مبلغ هذا النبا حتى رأى بوب يقرب منه وهو يمتطى حصان صاحب الطاحون الثانى الأشد بطئا . وبدت الدهشة على بوب نوعا ما ، وشعر فستوس بأن المجد المقبل الذى سيحققه فى خطر . وقال وهو يشير إلى عكس الاتجاه الصحيح تماما :

— لقد سلكوا هذا الدرب . أنا كنت أبحث أيضا عن أصدقاى تأهين .
ولم يكن هناك سبب يدعو إلى الشك فى نيا فستوس ما دام أنه عاد أدرجه .

حوسار لعدى على حصانه حسبما ضلله ذلك الرجل . ولم يكذب يغيب عن النظر حتى غير قستوس خط سيره على الفور ، وسلك الطريق الذى شوهدت آن ورفيقاتها يسلكنه آخر مرة .

وكانت العربية التى نتحدث عنها تصعد فى ذلك الطريق قبل الآونة الحاضرة بزهاء ساعتين ، وقد أمسكت الخادمة « مولى » بالزمام ، وجلست السيدة لعدى بجوارها كما جلست آن خلفها . ولم يكن يتقدم إلا فى ببطء نظراً لافتقار « مولى » إلى مهارة القيادة من ناحية ، وإلى انحدار الطريق من ناحية أخرى ، ومروره بجسر واسعة إلى حد ما لم يتناولها الإصلاح إلا نادراً ، أو لم يتناولها قط . وكان صباحاً مزيجاً لمن جميعاً ، ووقعت محاسن الصيف فى إبانه على أعين غير مكرّمة . لقد كن أشد جزعا من أن يترسلن فى الحدس والتخمين . وجلست كل منهن تستغرق فى خواطرها الخاصة ، وتلفت أحياناً إلى الغرب ، أو توقف الحصان لتنتصت إلى الأصوات الصادرة من دروب مطروقة أكثر من غيرها ، حيث كانت جماعات أخرى ترد على طولها . وفى إحدى المرات التى كن ينصتن ويحدقن على هذا النحو رأين اللآء على بعد ، وسمعن وقع أقدام خيول كثيرة . وكان حشداً كبيراً من الفرسان يمضى فى اتجاه المنزه البحرى الملصكى . وهو فى الواقع نفس فرقة الدراغون التى رآها قستوس تمضى فى طريقها على مسافة أبعد . ولم يشك النساء فى العربية أن هؤلاء الرجال فى طريقهم إلى الالتقاء بالعدو على الفور . ومن باب لإدخال التغيير على رتابة الرحلة كانت دموع « مولى » تنبجس أحياناً من الارتياح لاعتقادها أن بونابرت ، فى شكله وعاداته ، يشبه الصور الكاريكاتورية التى تمثل كل الشبه . وحاولت السيدة لعدى أن تشيع الهجة بتأكيد مدينة الأمة الفرنسية لرفيقاتها . تلك الأمة التى تأمن النساء العاجزات معها على أنفسهن من الأذى ، إلا إذا استثنينا تهور الجنود العرضى الخارج عن نطاق الرقابة . وكانت هذه تعزية هزيلة لأن التى كان خاطرها أكثر اشتغالا ببوب من نفسها . وشعرت بخوف تعمس من أن تمتنع عليها رؤيته حيا من جديد ، وأشاع ذلك فى وجهها كالتشعوب ، وأخرن نظرتها الشاخصة إلى حد أن قالت لها أمها فى النهاية :

— فيمن كنت تفكرين يا عزيزتى ؟

وكان رد آن الوحيد نظرة إلى أمها امتزجت بها دموع .

وأهبت ، مولى ، بسوطها ظهر الحصان فجعلته بذلك يسرع خمس خطوات .
عاد بعدها إلى تباطؤه العنيد بما أظهر كيف أنه يدرك إداركاً كاملاً بعنه العقل
المتسلط والشخصية الرئيسية بين أربعتهم . وكان كلما بدت بركة ماء على جانبه
الطريق يدور إليها ليشرب ملء فمه ، وتبقى هناك متأنياً كما شاء برغم شدة مولى ،
للجام ، وإزالة الضربات الخاطفة على دبره . وقد وصلن الآن إلى المنطقة الحجرية
حيث لا تقوم حواجز على جانبي الطريق ، وحيث بذلت محاولة لإصلاحه بإلقاء
كتل هائلة من تلك المواد الخشنة تكومت أكواماً دون بذل أى جهد لتسويتها
أو لإزاحتها إلى الخارج . وكانت رجة العربية هنا مؤلمة إلى أبعد حد ، وبدا أنها
ستحطم اللولب ، وقالت مولى آخر الأمر :

— كم تتخلخل هذه العجلة .

ولم تكذب تنطق حتى انفصلت العجلة ، وندهور ثلاثين من فوقها إلى الشارع .
ولحسن الحظ وقف الحصان ساكناً ، وبدأن يلمن شعثن . وكانت آن ، بين
ثلاثين ، هي الوحيدة التي لم تعان إلا الأقل من الوقوع ، فهي لم تشعر إلا برجة
عنيفة جعلتها في شبه ذهول فترة من الوقت . ووقدت العجلة منطرحه في الطريق ،
وعلى ذلك لم يعد من المستطاع ، وهن في مثل هذه الورطة ، أن يتقدم من مسافة أخرى
إلى الأمام . ونظرن حولهن طلباً للمعونة . ولم يكن شيء قريب ودى المظهر
إلا كوخ وحيد يتضح من موقعه أنه بيت راعي غنم . وفك الحصان من العربة ،
وربط في مؤخرها . وعبر النسوة الثلاث الطريق إلى البيت ، ووجدن لدى
اقترابهن منه أن مصاريع النوافذ السفلى مغلقة جميعها . ولكن الباب فتح بأيديهن
لدى معالجته . ولم يكن بالبيت أحد ، وبدا أن من كانوا به غادروه مرتبكين
بعض الارتباك . والمرجع أن راعي الغنم هرب لدى سماعه إنذار الخطر . وقالت آن
عندئذ إنها تشعر بأثر سقوطها حاداً جداً بحيث لا تستطيع في الآونة الحاضرة أن
تمضى في طريقها مسافة أخرى . فتم الاتفاق على أن تترك هناك بينما تمضى السيدة
لفدى ومولى طلباً للنجدة ، ذلك لأن السيدة الكبيرة وجدت مولى أصغر كثيراً ،
وأفرغ عقلا من أن يعتمد عليها في ذهابها بمفردها . واقترحت مولى أن تأخذ
الحصان ، إذ قد تكون المسافة التي ستقطع طويلة ، وأن تركبه كل منهما مناوبة

بينما تمسك الأخرى بقيادة . وفعلنا ذلك وأن رقبهما وهما تتواريان خلف الطريق الأليض غير السوى .

ونظرت في أرجاء الغرفة بقدر ما مكنتها الضوء النافذ من الباب المفتوح . وكان يتضح من بقاء النوافذ مغلقة أن راعى الغنم غادر بيته قبل الشروق ، ودل على نفس النتيجة وجود الشمعة وطفئتها على المنضده . وظلت هناك تجيل طرفها بين حين وحين في إمتداد تلك الكتيبان التي اقفرت ، وغرمتها أشعة الشمس ، ولم يتقدما من الحواء التام إلا العربية المقلوبة عن بعد : وكانت الغنم قد رحلت على ما يبدو . ونادراً ما حوم عبر المكان طائر ليزعج الوحدة السائدة . وكانت أن قد استيقظت مبكرة هذا الصباح ، فلم تلبث أن غفت غفوة غير مريحة وهى مستلقية على المقعد الخشبي الذى وضعته وراء الباب . وصححت منها على وقع أقدام حصان يركض عن بعد . وقامت فى اهتمام وهى تشعر بأنها برئت إلى حد كبير من أثر سقوطها ، ونظرت إلى الخارج . ولم يكن ذلك الحصان حصان لهدى ، ولكن كبيت شديد المراس ، على صوته رجل يرتدى البزة الكاملة للفرسان المتطوعين ولم تنتظر أن لتتحقق من الأمر أكثر من ذلك ، بل دخلت البيت على الفور ، وأقفلت الباب وأرتجته . وجالست فى الظلام وأنصتت . . . ما من صوت . وبعد انقضاء عشر دقائق ، وقد ظننت أن الفارس يكون قد مر دون اهتمام إذا لم يكن فستوس ، وإذا كان فستوس فهو لم يرها . . . صعدت فى هدوء إلى علو البيت وأطلت من النافذة . وكان الطريق الرملى مقفراً تماماً باستثناء بقعة الظل التى كوتتها العربية على نحو ما فعلت من قبل . وعندئذ فتحت النافذة ومدت منها عنقها إلى الخارج .

وجاءها صوت كقصف الرعد من مسافة تحتها تبلغ ثلاث أقدام أو أربعا .

— هاه !! هانت ذى أيتها الصنية ! لقد أمسكت بك الآن !

ورأت ، وهى تدير عينيها الخائفتين ، فستوس دريمان يكمن ملتصقاً بالخائط . وكان قد لفت انتباهه فى بادىء الأمر لإغلاقها باب الكوخ ، ثم العربية المقلوبة . فخرج ليمد لخص العربية للتأكد من أنه لم يخطئ . فى التعرف عليها ، وتسلل لاصليادها .

وارتدت أن فرزة إلى داخل الغرفة ، وبقيت هناك جامدة كقطعة من الحجر . واستطرد فستوس قائلاً :

— تعالى ، لا بد أن تثق بي . إن الفرنسيين نزولوا إلى البر . وقد حاولت في كل ساعة أن ألتقي بك منذ الحادثة المخزية التي خدعتني بها . إنك ألقيت بي في الماء . وفي الحق إنه كان من حسن حظك أني لم ألحق بك وقتذاك ! فإني كنت حيناً أن أثار لنفسي بطريقة أفضل من التي سأثار بها الآن . أعني أني كنت سأحصل منك على تلك القبلة . تعالى يا آنسة ناني ... أسمعيني ؟ لا فائدة من اختبارك . هناك داخل الكوخ ، فإذك ستضطرين إلى الخروج حالماً يأتي بوني من فوق التل . اسمعي ، هل تفتحين الباب وتحديثني بطريقة مهذبة ؟ من تظنيني إذ تحصنين وراء الباب مني كأني وحش ضار أو جندي فرنسي ؟ افتحي الباب ، أو أطلي برأسك ، أو اصنعي أي شيء ، وإلا فإني قسما بالله سأحطم الباب !

وخطر لأن عند وصول المشادة إلى هذا الحد أن خير سياسة تتبع هي أن تسيره حتى يأتي إليها أحد ، فأطلت برأسها ووجهها الذي شجب الآن بعض الشجوب .

وقال فستوس :

— هذا أفضل ، فإنا أستطيع محادثتك الآن . هيا يا عزيزتي ... هل تفتحين الباب ؟ لماذا تخشيتي ؟

وقالت آن غير صادقة وهي تلتقي نظراتها جازعة على الطريق الرملي المقفر :

— لست خائفة منك قط . وإنما أنا آمنة هنا من الفرنسيين .

— دعيني أخبرك إذن أن إنذار الخطر كان خاطئاً ، وأنه لم تقع محاولة للزول إلى البر . فهل تفتحين الباب الآن وتسمحين لي بالدخول ؟ إنني مجهد ، فقد ظلمت على صهوة جوادى منذ الفجر ، وجئت أحمل إليك النبأ السار .

وبدا على أن كأنها تشك في صحة النبأ . وقال فستوس :

— هيا .

وتغمضت بعد فترة صمت :

— لا ، لا أستطيع أن أدعك تدخل .

وصاح وقد أقعد وجهه :

— أف لك إذن . ساجد وسيلة للدخول ! ولا تستثيرني الآن ! فإنك لا تعلمين ما أنا قادر على ارتكابه . إنى أسألك مرة أخرى : — هل تفتحين الباب ؟

وقالت متخاذلة :

— لماذا ترغب في فتحه ؟

— قلت لك إنى أريد أن أجلس ، وأن أسألك سؤالاً .

— تستطيع أن تسأله وأنت حيث تقف .

— لا أستطيع في هذه الحالة أن أسأله كما يجب ، فهو يتعلق بمسألة جدية ... وهى هل تقبلين حبي وطلب زواجي بك ... أنا لن أرتعى على قدميك ، ولكنى أسألك أن تؤدى واجبك بحسبانك امرأة . أى أن تقطعى على نفسك عهداً أن تقبلين زوجاً على أثر انتهاء الحرب وتيسر الوقت لبقائى إلى جانبك . وإنى لآف أن أقدم بهذا الطلب إلى متبجحة متعالية تأبى أن تحادثنى إلا من خلال النافذة . بيد أن أضع الأمر بين يديك لآخر مرة يا سيدتى .

ولم يكن فى الطريق الرملى أثر يدل على بحىء أحد ... وقالت الفتاة :

— سأفكر فى الأمر يا سيدى .

— إنك فكرت فيه مدة كافية ... أريد أن أعرف ... أتعلمين أم ترفضين ؟

— حسناً جداً . أظن أنى أقبل .

ثم أحست أنها ، بتهربها منه على هذا النحو ، ربما تكون قد اشترت أمنها بضعن باهظ جداً ما دام أنه سيذيع نبأ قبولها الزواج به ، وسيسبب ارتباكات لانهائية لها ... فقالت :

— لا . لقد غيرت رأى . أنا لا أستطيع قبولك زوجاً يا سيد دريجمان .

وصاح ضارباً الأرض بقدمه :

— هكذا أنت تمبينين بي ! فى إحدى اللحظات تقولين « نعم » ، وفى اللحظة التى تليها تقولين لا . هيا ، فأنت لا تعلمين أى عرص ترفضين . إن بيت عمى القديم ملك له ، وليس هناك أحد يتركه له من بعده غيرى . وسأحجر الزراعة حالماً تخمين منيته ، وأصبح « سيداً » .

وأضاف في سخرية مريرة :

— والآن أية حقاء تصبحين حين تعرضين عن انتهاز مثل هذه الفرصة !
وقالت آن .

— شكرآ لك . أنا لا أقدر ذلك .

— أ لأنك تمقتين الذى سيجعل هذا البيت ملكا لك ؟
— قد لا يكون فى استطاعتك أن تفعل ذلك .

— ماذا !.. أ كان الرجل الهرم يحدثك فى شؤونه ؟
— لا .

— لماذا إذن تسيئين فى الظن ؟ والآن ، هل تفتحين لى الباب بعدما تقدم ،
وتظهري لى أنك تعامليننى كأنى صديق ، فيما إذا رفضت معاملتى كأنى عاشق ؟
لنى لا أريد إلا أن أجلس وأحادثك .

ورأت آن أن تأتمنه . فقد بدا أنه يكاد يكون من المستحيل أن يستطيع
إيذاءها . وارتدت عن النافذة وزلت لى سفل الكوخ . وما وضعت يدها على
رتاج الباب حتى راجعها عقلها ، وبقيت صامتة حيث كانت بدلا من أن تسحب
للزلاج . وبدأ يقول ثانية :

— هل تفتحين الباب ؟
ولم تنبس آن بكلمة .

— والآن أف منك . سأصل إليك ! إنك أجهدتنى فوق ما أحتمل . إن
قبلة واحدة كانت تكفى ذلك اليوم فى المرج ، والآن سأنال منك أربعين قبلة
لما برضاك ، ولما قسرا عنك !

وارتبى بنفسه على الباب ، ولكن هذا لم يحدث أى أثر إذ كان الباب مرتجا ،
وكان هناك فوق ذلك « ترباس » خشبى ضخيم مثبت بعرضه . وصحمت فستوس
لحظة ، ثم سمعته الفتاة المرتعبة يحاول فتح النافذة المغلقة ؛ فصعدت راكضة لى
الدور العلوى ، ودققت النظر فى الطريق الرملى من جديد . وكانت العربية
الصفراء لا تزال ملقاة تحت وهج الشمس ، وحصان فستوس واقفا فى ركن الحديقة
ولم يبد أى شىء آخر . وحك سمعها فى هذه الآونة صوت سيف يسحب من غمدة

ورأت الذي يرهقها ، وهي تطل من فوق حافة النافذة ، ينفذ سيفه بين مفاصل النافذة محاولا شقها وفتحها ، وقصف السيف في يده ، وشده وهو يسب ويلعن وأعاد نصفه الى غمده . وصاح وقد لمح قه رأس الفتاة :

— ها ، ها ! إنها مجرد دعابة كما تعلمين ، ولكني سأدخل أيا كان الامر . كل ذلك في سبيل قبلة . ولكن لا بأس ، سأدخل مع ذلك !

وكان يتكلم بلهجة مصطنعة مستهترة كأنما أخجلته سورة مزاجه الصاخبة السابقة . ولكنها استطاعت أن ترى من زرقة قفاه الداكنة أنه مغمم بشهوة مكبوتة . واستطرد قائلاً :

بمجرد دعابة كما تعلمين . كيف تقوم بالامر الآن ؟ لماذا ! بهذه الطريقة . سأذهب وأحضر سلبا ، وأدخل من النافذة العليا حيث توجد حبيبتى والسلم موضوع تحت كومة القمح في أول حقل محاط بسياج . سأعود بعد دقيقتين يا عزيزتى ! وجرى مبتعدا ، وغاب عن نظرها ؟

آن تصنع العجائب :

(٢٨)

عابث أن مقامها في خوف... كانت نوافذ الكوخ العليا مصنوعة من ألين أنواع الرصاص . ولم يكن ثمة أمل في صد فستوس عن الدخول . وشعرت بأنه لم يبق لديها دقيقة تفرط فيها دون الهروب وهبطت إلى أسفل الكوخ ، وفتحت الباب ، ثم خطر على بالها المضطرب أنه ليس هناك فرصة للإفلات منه جريا على قدميها عبر ذلك السهل الشاسع مادام يستطيع أن يمتطي جواده ، ويركض خلفها في سهولة . وكان ذلك الحيوان لا يزال مقيدا في ركن الحديقة . فلو أنها استطاعت أن تحمل وثاقه ، وتستنفره إلى الانطلاق قبل عودة فستوس ، لما ظلت لمطاردها هذه الميزة كلها عليها وعلى ذلك أطلقت الحصان من قيده إذ صعدت فوق مرتفع الأرض . وبعد أن زعت عنها مندبلها الحريري ، أخذت تلوح به أمام عينيه لتخيفه ، ولكن الحصان الشهم لم يتحرك ، ولم تختلج له عين . وأعادت المحاولة ، ولكن بدأ أن ذلك سره أكثر بما ساءه . وسمعت عندئذ صرخة من ناحية الكوخ ، ورأت خصمها ، وهي تلتفت ، مقتربا من وراء ركن البناء .

وصاح فستوس مبهتجا :

-- خطر لي أنه ينبغي استدراج الفأر بهذه الحيلة !

لقد اكتفى بأن اختبأ في الناحية الخلفية ليغريها بالخروج بدلا من الذهاب لإحضار السلم .

لقد يئس أن المسكينة الآن . وكان مرتفع الأرض الذي وقفت فوقه محاذيا لظهر الحصان . وبدا هذا المخلوق وديما كالمحل ، فأمسكت لجمامه بعزيمة تقدر عليها عند الضرورات الطارئة ، وألقت بنفسها فوق ظهره على فروة النعم ، واستوت متشبثة بعرفه . ورفع الحصان الدهش رأسه ، واشتم الهواء . وأدار أذنيه هنا وهناك ، وانطلق راكضا عبر السهل في سرعة مخيفة .

وقال فستوس ملقظا أنفاسه ، وقد انزعج كل الانزعاج وهو ينظر وراءها

— أو يا لقلبي وأطرافي ! إنها تمتطى ، شامبيون ، !! سوف تحطم عنقها ، وأحاكم أنا منها « بجناية قتل » ، ويلطخ اسم دريمان بالعار !
وواصل « شامبيون » ربه بخطى واسعة ، ولكنه لم يرتكب ما هو أسوأ من ذلك : فلو أنه شب أو قفز لتحققت مخاوف دريمان ، وسقطت آن على الأرض في شدة يمته . ولكن الرحلة كانت طيبة ، وسرت سرعة الحصان أمانا نسيها .
ونادرا ما كانت آن تهتز في جلستها المقلقة المنحنية ، بيد أنها كانت ترتعب من رؤية الحشائش ، والحجر المشور ، وغير ذلك من الأشياء وهي تمر من تحتها كلما فتحت عينها ، وكأنها لطات تلطمها . . . ولم يكن ذلك يحدث إلا لمدة ثوان معدودة بين فترات تبلغ كل منها نصف دقيقة . . . وكان يرعبها كذلك أن تحس كيف يتأرجح سرجها العنيف ، وهذا هو زناد الغدارة يصطدم بركبتها ، وهذا هو قراب الطبنجة يؤلم ذراعها .

وقطعا السهل في سرعة . وأدركت آن أن الحصان كان يتجه إلى حماه . وما أخذت الأرض ترتفع صوب النطاق الخارجي لمرتفع الأرض الواقع بينها وبين الشاطيء حتى خفف « شامبيون » من سرعة ، معانيا كلالا شديداً ، وقد أصبح الآن يلهث ويتعصب عرقا . وواصل رحلته وهو يخج خبيبا مرتججا . وشعرت آن بأنها لا تستطيع أن تحسن تماسكها بمقدار نصف ما فعلت من قبل ، فالركض لم يكن إلا لعب أطفال إذا قيس بهذا الخيب . وكانا يقطعان طريقاً يصعد إلى ربوة ، واستقر رأى آن أن تلقى بنفسها من فوق الحصان .

وكانت هناك على الربوة بقعة متحركة تصعد إلى أعلى فأعلى ، وظهر أنها كانت الجزء الأعلى من قامة إنسان ، وأن الإنسان كان جندياً . وكانت آن في وضع لا يتيح لها إلا أن تلمحه لمحة عرضية . ورغم أنها خشيت أن قد يكون فرنسياً ، فقد كانت تخشى الحصان أكثر من العدو ، كما كانت تخشى فستوس أكثر من الحصان . وبقيتها بقيت من الهمة تكفي لصياحها قائلة ، والجندي يقترب : « أوقفه . . . أوقفه . . . »

وسبق الجندي فوق وسط الطريق ، دهشاً لم رأى حصان من خيول الجيش على ظهره حزمة من الأقشة . وقد بسط الآن ذراعيه حتى اتخذ هيئة صليب لا تفي مغروس وسط الطريق . واقترب شامبيون منه ، وانحرف ، وتوقف توقفاً كاد

يكون مبالغتا . وكان ذلك صدمة تسكني لوقوع آن على الأوض منزلة من فوق جنبه . وتقدم الصديق الذي جاء في أوانه ، وساعد آن على النهوض ثانية ، وعندئذ رأته أنه جون لفدى .

وقال في سرعة . وقد شحب وجهه تماماً عندما رآها تقع .
— أ أصبت بأذى ؟

وقالت آن وهي تستجمع قواها ناهضة في حفة قهرية لتتو من أمر المكروه الذي وقع :

— أوو ، لا . لم أصب بأى أذى .

— ولكن كيف وصلت إلى مثل هذا المكان ؟

وبدلاً من أن تجيبه على سؤاله صاحته وقد أسل شامبيون حول جون لفدى ، وانطلق متتصراً صوب أوكسويل .

— ها هو ذا يمضى !

ولاحقت المشهد بعينها .

— ولكن كيف جئت على صهوته ؟ وحصان من هو ؟

— سأخبرك .

— حسناً ؟

— أنا ... لا أستطيع أن أخبرك .

وشخص جون ببصره إليها دون أن يقول شيئاً .

وسألته :

— وكيف أتيت أنت إلى هنا ؟ ألم ينزل الفرنسيون إلى البر حتماً ؟

— نعم ، كل الحق ، فأنا نذار الخطر لم يبق على أساس ، وسأنتبك بكل ما يتعلق به . أنت تبدين بمجدة جداً ، وكان خيراً لك أن تجلسي بضع دقائق . لنجلس على هذه الحافة .

وساعدها على التقدم إلى الحافة المشار إليها . وواصل قوله وكأنما أفضكاره كانت لا تزال مشتغلة بسر حالتها الأخيرة أكثر من اشتغالها بالموضوع الذي يتحدث عنه :

— وصلنا إلى تمكنات بودماوث هذا الصباح ، وعلينا أن نمك هناك طوال الصيف . ولم أتمكن من الكتابة إلى أبي لأخبره بأننا قادمون . ولا يرجع قدومنا إلى الإشاعة التي راجت عن الفرنسيين ، فنحن لم نعلم شيئاً عنها حتى التقينا بالناس في الطريق ، وقال الكولونيل على الفور إن النبأ غير صحيح ، وبونابرت ليس حتى في بولونيا الآن . وكنت أتوق إلى أن أعرف كيف احتملم الفرع ، وأسرت لذلك إلى أوفر كيب فور تمكني من مبارحة التمكنات .

ومالت آن التي لم تكن تتجاوب مع ما يقول ... مالت الآن بثقلها عليه ، ووجد وقد انخفض بصره إليها أنها قد أغمى عليها في صمت . وأول ما نازعته نفسه إليه كان بالطبع أن يسندها بين ذراعيه ، ولم يكن من اليسور الحصول على ماء ، وبذلك لم يستطع التفكير في شيء آخر غير أن يمسكها في رفق حتى تثوب إلى رشدها ، ولا شك أنه لم يتق إلى شيء أكثر من ذلك .

وسأل نفسه ثانية عن معنى هذا كله ؟

وانظر ما تلا بصره إلى جفنها المجهدين ، وصنى أهدابها الراقدين على كل من خديها اللذين نمت استدارتهما على كمال حسنهما المنفرد بعد أن تخلى الآن احمرارهما المعتاد عن مكانه اللام باهت مستمت من الجو المحيط بهما ... وإلى جدائلها القصيرة المدلاة على جبهتها وقداها ، تلك الجدائل التي كانت مشدودة في العادة كالزبرك ، فأصبح بعضها الآن مفسكاً بفعل ذلك الركض العنيف ، ومبعثراً في ذؤابات على جبهتها وعنقها ... وكان جون الذي لم يعيش خلال أشهر غيابه الطويلة إلا ليراها ثانية ، كان في حالة تيجيل مذهل . وإذا انحى عليها قبلها في رقة .

وكانت آن تقيق على التيم من غيبوبتها ، ونغممت وهي تمر يدها على وجهها :

— أوو ، ياسيد دريمان ، أبدا . أبدا !

وقال جون :

— لقد ظننت أنه وراء الأمر .

وفتحت آن عينيها ، وجفلت متراجعة عنه . وقالت في حدة :

— ما الأمر ؟

وأجاب جون وهو يرتجف قلقاً ، ويتناول يدها :

— أنت مريضة يا عزيزتي الآنسة جارلاندا .

وقالت الفتاة :

— أنا لست مريضة ، ولكنى منهكة القوى . ألا نستطيع أن نمضى ...
كم تبعد عن أوفركب ؟

— حوالى ميل . ولكن خبرينى ... هناك أحد كان يؤذيك ... كان
يرعبك . وأنا أعلم من كان هذا الرجل ... كان دريمان ، والحسان كان حصانه .
فهل تفضين لى الآن بكل شىء ؟
وفكرت آن ، وقالت :

— وإذا أفضيت لى لك بذلك فهل تناقشنى لإذن فيما يحسن لى أن أصنعه ؟
وهل تمتنع عن إبلاغه فى الوقت الحاضر لى أمى وأبيك ؟ أنا لا أريد أن أزعجهم ،
ولا ينبغى لى أن أدع شئونى تعكر صفو علاقة العمل بين الطاحون وأوكسويل
هول ، تلك العلاقة التى دامت سنوات عديدة .

ووعدها جاوئش البروجى بذلك ، وقصت عليه آن الواقعة . واحتقن جبينه
وهى تمضى فى روايتها ، وقالت بعد أن انتهت منها :

— إنك الآن غاضب ، فلا تقدم على أمر رهيب ، أليس كذلك ؟ تذكر أن
فستوس هذا سيخلف عمه فى أوكسويل برغم المظاهر الحاضرة ، وإذا خاف بوب
أباه فى الطاحون فيجب ألا تقرم عداوة بينهما .

— هذا صحيح . أنا لن أقول شيئاً لربوب ... دعى أمره لى . أين دريمان
هذا الآن ؟ ... إنه فى طريق عودته لى بيته على ما أظن ... سأناقشه الحساب
بعد مرافقتك لى البيت ... وسيتم ذلك فى هدوء تام حتى أنه لن يقول عنه كلمة .
— نعم ، الجأ لى إليه ، افعل ذلك ! فقد تحسن حاله عندئذ .

وسارا معاً ، وقد بدا على لى أنه ينعم بقدر كبير من سعادة هادئة ... وقال :
— حيث أبحث عنك مدفوعاً بدافع ذلك الخطاب العزيز المعسول الذى
كتبته لى .

وقالت مقرة بذلك ، وقد ساورمها الريبة الآن بعد أن بدأت تدرك خطأها :
— نعم ، أنا كتبت لك خطاباً بالفعل ، وكان ذلك لآنى أسفت على تأنيبى لك .

وقال جون مفتبطا :

— أنا أكاد أكون سعيدا بهذا التأنيب ، إذ لولاه لما وصل إلى الخطاب وقد أعدت تلاوته خمسين مرة في اليوم .

وجعل هذا القول آن في حالة تعة . وواصل سيرهما دون أن يزيدا قدرا آخر كبيراً من الكلام حتى بدت مداخن الطاحون تحتها .

وقال جون عندئذ إنه يريد تركها لتدخل البيت بمفردها .

— آه ، هل تعود أدراجك ثانية لتتعمق في خطر كبير بسببي ؟

وقال جون مبتسما :

— لا يمكن أن أفعم في خطر كبير بالتقاني ومثله هذا الفتى ، أليس كذلك ؟

وقالت في استهانة طرأت فجأة على لهجتها :

— طيب ... لا .

كان لاغنى عن مصارحته بالحقيقة . ولعل البدء في اتهاج هذا النهج بإيداء استخفاف مفتعل بمخاطراته الشخصية يكون طريقة مجدية كأية طريقة ناجية أخرى . فعندما تؤول الصداقة على أنها حب يكون التظاهر بعدم الاكترات هو التعبير الذى لا بد منه عن تلك الصداقة .

وعلى ذلك تركته يذهب . وإذ طلبت إليه أن يعود مبكرا على قدر ما يستطيع ، هبطت من التل بينا أقدام جون اتبعت طريق الصعود .

وقضى جاويش البروجى طوال بعد الظهر والعشية في ذلك البحث الطويل العسير عن فستوس دريمان . والتقى بالسيدة لعدى ومولى وهو يجتاز السهل في آخر الساعة الثانية من ساعات بحثه . وكانت عربتهما قد أصلحت ، وعلتا بأن إنذار الخطر كان على غير أساس . وكان يمكن أن تعودا إلى البيت سعيدتين بمقدار لولا جزعهما على آن . وأخبرهما جون في اقتضاب أنها أعينت على الوصول إلى بيتها ، ثم واصل شق طريقه .

أما الشخص القيم الذى كان موضوعا لبحثه فقد قضى هذه الأثناء يكد في المسير إلى بيته على قدميه ، عابسا لفقد حصانه ، مثقلا بسيفه ونطاقه ، وحناءه العالى ، وبزته العسكرية ، غير مبال وهو متعثر في خيبته أتمرضت حياة آن للنظر أم لا .

ووصل دريتمان في النهاية إلى حيث ارتفع كشييان على جانبي الطريق ، فصعد في أحدهما ، وواصل مسيره هناك بدلا من طريق المرور الوعر . ورأى أمامه رجلا هراما يجلس وعيناه شاخصتان إلى تراب الطريق ، وكأنما قصد من جلوسه الراحة والتأمل في نفس الوقت . ولإذ تيقن فستوس تماما من أنه عرف عمه في شخص هذه الطلعة الوقورة ، تقدم إليه خلسة حتى أصبح يعلو ظهر الرجل مباشرة . وكان هذا الأخير يرتدى سروالا من جلد الماغر ، وجورا باملطخا بالأوساخ ، وقبعة مبتدلة ، وسترة كانت فيما مضى ذات لون لازوردي ، ولكن تعرضها لتقلبات الجو فوق فزاعة الطير جعلها تتخذ لون وشكل النسيج المعجن المجفف . كان المزارع في طريق عودته فعلا إلى بيته الذي غادره في الصباح بعد مغادرة ابن أخيه له ببعض الوقت ، وذلك التماسا لماوى في جوف شجرة على بعد ميلين . وكانت هذه الشجرة تقع في مكان يشرف على منظر بيته . وحرم العم بنجى رؤية على أن يتسلق إلى جوف هذا الحصن الطبيعي على ارتفاع يكفى لمراقبة بيته من ثقب في لحاء الشجرة . وظل هناك حتى اجترأ على الخروج ثانية إلى وضح النهار بعد أن استخلص من الكلمات التي فاه بها المارون عرضا أن إنذار الخطر كان على الأقل سابقا لأوانه .

وكان مشتغلا الآن وهو شارذ الذهن في تخطيط رسم على التراب بالعصا التي يتوكأ عليها ، وتمتمة أقوال لنفسه بصوت عال . ولم يلبث أن نهض وسار في طريقه دون أن يتلفت . وتملك فستوس فضول كاف دفعه إلى النزول وإلقاء نظرة على الرسم . وكان يمثل مستطيلا ذا نصفي قطرين ، ومربع صغير في وسطه . وقد كتب على القطرين العددان ١٧ر٢٠ ، وعلى خطي محيطه المتوازيين علامة تشير إلى نقطة الارتكاز .

وقال فستوس لنفسه : « أية خواطر مخبولة تمر بباله الآن ! ، قال ذلك مشفقا في عجرفة وقد تذكر أن المزارع كان يتغنى بهذه الأرقام نفسها قبل ذلك في الصباح الباكر . ولما لم يستطع أن يستخلص شيئا من ذلك أوسع في خطاه ، ولحق بقريه سائرا على أطراف أصابع قدميه ، ومجريا بمشم ظهره كما تفعل الدجاجة . ودار المزارع الهرم المزعج راقصا حول نفسه كالنحلة الخشبية وقال لا هنا وقد تبين ابن أخيه :

— ماذا افسى ! انك لم تقع من فوق حصانك اذن ، وتندق عنقك أخيراً !

— كلا ياخيبت . وماذا جعلك تظن ذلك ؟

— مر بي شامبيون منذ ساعة بينما كنت محتباً . . . أحمى نفسه المسكينة الهيوبية إذ ليس لدى شيء غيرها أخشى فقدته بمجيء الفرنسيين . . . مر بي وقد بدأ شنيعاً بركابه المدلى ، وسرجه الخاوى . كان منظر أكثيبيا أن ترى ياقتى حصانا يركض دون أن يكون عليه راكبه . . . وخطر ببالي أنك قد تكون . . . خشيت أن يكون قد ألقى بك من فوق ظهره . وقتلت ، وأصبحت ميتا كالصنبان .

— بارك الله في قلبك الهرم العزيز لجزعه الشديد على ، وما هو ذلك الرسم

الجميل الذى كنت ترسمه توا بعصاك !

— أوو ، ذلك الرسم . إنه الوسيلة الوحيدة التى ألهى نفسى بها . . . وهو

يظهر ، كما تعلم ، كيف كان يمكن أن يتقدم الفرنسيون في حالة هجومهم . إن مثل هذه الترهات تملأ رأس رجل ضعيف هرم مثلى .

— أم هو رسم المكان الذى أخفى فيه شيء . . . ؟ . . . أخفى فيه مال مثلاً ؟ . . .

وقال المزارع عاتبا :

— فستى ، أنت تعلم أنى استعمل دائما القفاز القديم الموجود بخزانة غرفة

النوم ، فأضع فيه أى جنيه أو جنهين أملكهما .

وقال فستوس ساخرأ :

— أعلم ذلك بالطبع .

ووصلا إلى نزل منزول على مسافة ميل ونصف ميل تقريبا من « هول » ، ودخله فستوس وحده بعد أن أبى عمه الاستجابة إلى دعوته الكريمة ، والدخول وتناول شيء على حسابه . وكان أغبر متسنا منك القوى ، وبقى طويلا فى النزل . وسمع الجاويش البروجى وقتئذ ، وقد بحث فى الطرق سدى ، عن وصول الفارس المتطوع فى غضون المساء إلى ذلك المكان ، وعن أرجحية استمرار وجوده هناك . وعلى ذلك أخذ يأخذ يدنو من الباب ، ووصل إليه فى نفس الوقت الذى تحول فيه اغبرار المساء إلى ظلام .

ولم يكن ثمة نور فى المر ، ولكن جون سار فيه مجازفا ، وسأل عن دريمان ،

وقيل له إنه يمكن العثور عليه في البو الخلقى جالسا بمفرده . ولم يستطع لفتدى ، أول ما دخل الغرفة ، أن يرى شيئا ، ولكنه وصل إلى الفراش الذي يرقد فيه فستوس ، مهتديا بهدى شخير عتيف . وقد دل دلالة طفيفة على مكان الرائد ، لمعان أزراره وأجزاء أخرى من بزته العسكرية . ووضع جون يده على الهيكل المتمدد ورجه . فتوقف دريمان عن الشخير شيئا فشيئا ، واعتدل جالسا ، وقال في نبرات رجل أمرط في الشراب :

— من أنت ؟ أمهي أنت يا عزيزي آن ؟ دعيني أقبلك . نعم ، سأقبلك .

— صه أيها الأحمق الجدير بالثناء . سأعلك طباعا أطف من أن تضطهد

فتاة هذه الطريقة !

وشد أذن فستوس شدة طيبة إذ أمسك بها . وثار هذا الأخير فشب الدين وضرب الهواء بقبضته في غير تبصر . وعلى ذلك بادره جاويش البروجي بكلمة على أذنه اليمنى ، ثم بأخرى مثلها على أذنه اليسرى ليعادل بها الأولى معادلة فنية . وقفز فستوس واقفا ، واستعمل قبضته بوحشية ، ولكن دون أية نتيجة حاسمة . وقال جون .

— أتريد المنازلة ؟ هيه ؟ . . . هراء ! أنت لا تستطيع أن تقا تل أيها الطفل

الكبير ، ولم تستطع ذلك قط . أنت لا تصلح إلا لصفك !

وصفع وجه فستوس براحة يده صفقة أخرى من نفس النوع .

— لا ، ياسيدي ، ياسيدي ، لا ! أو أنت الفتى الذي ستزوجه على ما أظن ؟

أقسم أنني لم أرد إيذاءها ياسيدي .

— نعم ، أنا أدعى لفتدى . وستعرف أين تجدني ما دمنا لا نستطيع أن نحسم

الأمر بيننا الليلة . المبارزة بالندارة أو بالسيف ، ولك الخيار بينهما يا بني . خذ

هذه اللطمة ، وهذه ، حتى لا نستطيع أن تنسى المرور بي .

وعاد فاطم الفارس المتطوع على أذنيه وخديه ، واستطرد قوله :

— أتعرف لم هذه اللطات ؟ هيه ؟

— لا ، يا ماستر لفتدى . . . ياسيدي . . . أقصد أنني أعرف .

— لم هي إذن ؟ سأظل أطمك حتى تنبئني بسببها . يا إلهي ! لو أنك لم تكن

ملا لما تركتك هنا الليلة إلا نصف مقتول .

— السبب هو أني أسأت معاملتها . وعلى اللعنة إذا كانت تهمنى ! إنى لن أعود إلى مثلها ولو أشقت لذلك . أين حصاني شامبيون ؟ خبرنى عن ذلك .
وسدد ضربة إلى جاويش البروجى .
ودرأ جون عن نفسه الضربة . ودفعه إذ أخذه بقوة من خنأفه ، وألقى به على المقعد قائلاً :

— سأظل مسكاً بك هنا حتى تسألنى العفو عن أعمالك اليوم . هل تريد مزيداً من السمكات ؟ هل تريد ذلك ؟

ورج الفارس المتطوع رجاً عتيفاً .
— أسألك العفو ... لا ، لن أفعل ذلك . أنا أقول لك إنك لن تجترى ثانية بمثل ما اجترأت به على ابن أخ السيد الشريف «سكواير دريمان» ، أنت يا قدر ، يا ابن الطحان ، يادودة الدقيق ، يا حشف القمح ! سأذهب إليك غداً صباحاً ، وأثار لنفى .

— ستفعل ذلك دون شك ، فهو ما أتيت أنا من أجله .
وبعد أن دفعه لندى إلى ركن المضجع خرج من النزل وهو يشعر بقدر كبير من الارتياح لأنه بدأ يخوض بسبب آن معركة بلغت من الظرف المبلغ الذى يمكن أن يتمناه أشد العشاق غيره .

ولكن لم تكن لدى جون أية فكرة عن وجه خاطيء من أوجه تلك المأمره العجيبة . ذلك أن فسوس دريمان الذى ضلته ظلمة المكان وأبحرة الخمر التى شرهها ، ورؤيته المستمرة لأن وبوب معاً ، لم يحسب قط أن يكون من اعتدى عليه رجلاً آخر غير بوب ، لا سيما وهو يعتقد أن جاويش البروجى على بعد أميال .

وكان القمر مطلقاً أثناء النوبت الأولى من مسير جون إلى بيته ، ولكنه عندما صار على بعد ميل من أوفر كيب تلبدت السماء بالسحب ، وبدأت السماء تمطر نجاةً فى شيء من الشدة . وكان بالقرب منه مخزن غلال خشبي قائم على كومة مرتفعة من الأحجار . وإذ أدرك أن المطر لن يابث أن يتقطع لأنه ليس إلا وليد عاصفة عارضة ، صعد فى سلم المخزن ، وعبر عتبة بابيه حيث وقف يرقب القمر شبه المحتجب من خلال المطر المنهمر . وعلى الأثر رأى لدهشته طلعة امرأة

تجرى قدما في سرعة كبيرة ، ولم تتجه إلى المخزن لتحتسى فيه ، ولكن إلى الأرض
القضاء . فقيم جريها في هذا الاتجاه ؟ وجاءه الرد بظهور أخيه بوب مقبلا من
تلك الناحية على ظهر حصان أبيه الثقيل . وترجل بوب وقتيا قابلته المرأة ،
واحتمضها بين ذراعيه . وظلا واقفين معتنقين والمطر يصطدم بهما غير الواعين .
والحصان ينظر إليهما .

وارتد جاويش البروجي إلى داخل المخزن ، وارتمى فوق كومة من الأكياس
الفارغة المكسدة في الركن .. لقد عرف أن المرأة كانت آن . واضطجع هناك في
ذهول حتى أنهضه تردد أصوات تجته . تلك كانت أصوات آن وأخيه اللذين احتميا
في أسفل المخزن بعد أن فطنا إلى بللها .

قالت آن :

— لقد عدت إلى البيت ، وكذلك رجعت أمي ومولى إليه منذ زمن طويل .
وكنا جميعا فلقين عليك ، فخرجت أبحث عنك . أوو يا بوب ، كم يسرنى أن
أراك ثانية !

وكان يمكن لجون أن يسمع كل كلمة من الحديث الذي استمر على هذه الوتيرة
مدة طويلة . ولكنه سد أذنيه ولم ينصت . وظلا باقين ، وظل هو مصمما على
ألا يرياه .

وبرغم الأمل الذي تحطم في لحظة بعد أن صانه أكثر من نصف عام . فقد
استطاع أن يشعر بأن قسوة الاحتجاج قد تكون أكبر من عدم جدواه . ثم إن
هذا الوضع لم يتكون مطلقا إلا بوساطته هو ، فلو أن بوب ترك وشأنه لكان قد
أصبح زوج امرأة أخرى منذ عهد بعيد .

وخفت حدة المطر ، وانصرف العاشقان ، وشيعهما جون بنظره وهما يسيران
وقد لوهما القمر الشاحب والضباب فصارا كصور الألوان المائية . كان بوب
يضع إحدى ذراعيه حول لجام الحصان ، وذراعه الأخرى حول خصر آن .
وخرج جاويش البروجي بعد أن تواريا خلف المنحدر ، وسار إلى البيت
في خطوات أبطأ حتى من خطواتهما . وخلع عن وجهه مسحة اليأس بينما كان
يتقدم ، ليستبدل بها تصميما رصينا . ولجأ إلى طريقة التوجه لأول مرة في معاملة

أصدقائه فسق أسارى وجهه على نحو يخفى خواطره ، وأوصى لسانه أن يتبع مثل ذلك . وأدخل الاصطناع على مشيئته نفسها ، حتى منذ الآن وما من أحد يراه . وأخذ يضرب سيقان البقدونس البرى بخيزرانه العسكرية على نحو ما اعتاد في أول عهده بالجندية ، أيام كانت الحياة في عمومها مبهجة .

وبعد أن أخفى أفكاره السقيمة على النحو المتقدم هبط إلى الطاحون كما فعل الآخرون قبله ، ناظرا بين حين وحين إلى السبيل المبتل ليتبين إلى أى مدى كان أثر أقدام آن قريبا من أثر أقدام بوب على طول طريقهما ، وكيف أن كل ميل في خط سيره . كان يتبعه انحراف مماثل في خط سيرها . ولكنه رفع رأسه بعد ذلك ، وسار صوب الباب الأمامى في نشاط شديد إلى حد أن صوت مهمازه جليجل في الفناء .

كان الجميع قد وصلوا إلى المنزل ، ولكن قبل أن يتمكن أحد من أن يقول كلمة ، صاح قائلا :

— آه ، يابوب . كنت أفكر فيك ، كيف حالك بالله يا ولدى ؟ ليس هناك بعد ذلك كله فرنسيون سفاحون كما ترى . فما نحن أولاء نعدع باجتماع شملنا ثانية .

وقالت السيدة لعدى مبهجة :

— إن العناية الإلهية الطيبة سهرت علينا : نعم نحن بين يدي الله في كل زمان ومكان .

وقال صاحب الطاحون ، وهو مازال يتألق في بزته العسكرية الصارمة :

— نحن كذلك ، نحن كذلك ! حسنا ، لنشرب الآن جرعة من الخمر .

وقال ديفيد مقبلا عليهم ، وقد استطال وجهه :

— لم يبق منها شيء .

وقال صاحب الطاحون :

— ماذا !

— نرعت سدادات جميع البراميل يا معلى قبل أن أذهب إلى الكنيسة لأخذ

رحما أحى به وطنى من بونى . ذلك أنى رأيت . . . عليه اللعنة ! . . . ألا أدعه
يشربها هو أو أى واحد من رجاله ما دمتا لا نستطيع نحن شربها .

وقال صاحب الطاحون مذهولاً :

— لم يكن يجدر بك أن تفعل ذلك حتى تتأكد من مجيئه .

وقال ديفيد :

— سخفاً ، لقد كنت متأكداً من ذلك . وإنى لأوثر أن أرى الكنائس تهدم ،
على أن أرى الخمر الجيدة تضيع هباءً ، ولكن كيف لى حينذاك أن أكون
أصدق علماً ؟

وقال لعدى وهو يندفع فى ضوضاء الى مخزن الخمر الذى وجد فيه الصهباء
الراكدة تعلق على الأرض بمقدار عدة بوصات :

— حسناً ، حسناً . إن هذا اليوم سيكلفنى ، بهذا وذاك من الخسائر ، مبلغاً
طيباً من المال . . .

ولدى عودته الى الغرفة استطرد القول فى بأس :

— كيف أستطيع الترحيب بك يا جون ، ما عليك إلا أن تذهب وتنظر
ماذا صنع !

وقال ديفيد :

— لقد اعترفت بعضاً منه بملقمة يا جاويز البروجى . . . وهو ليس بالمشروب
الردى ، وإن كانت له فى الحق ، رائحة الأرض .

وقال جون إنه لا يطلب شيئاً على الإطلاق ، وعندئذ جلس الجميع الى مائدة
العشاء ، ومرحوا مرحاً معتدلاً بشرب كمية من نبيذ خفيف أقدم من الآخر
وجدته السيدة لفسدى فى قاع دن من الدنان . وطفق جاويز البروجى يذكر
لهم وهو مستمسك بالدور الذى قصد أن يلعبه ، وقائع فكهة من النوادر التى
وقعت له منذ آخر مرة جلس فيها بينهم هناك . وأخبرهم أن موسم الصيف سيكون
لطيفاً جداً . . . فالأسرة الملكية ستحضر كالعادة ، وستحدث أشياء أخرى
كثيرة هامة . وترتب على ذلك أنه عندما غادر البيت ليعود الى السكنات لم يخطر
إلا ببال القلة أن فى الجيش البريطانى رجلاً أروح قلباً .

وكانت آن هي الوحيدة التي شكت في حقيقة هذا السلوك . وقد وقفت بعض الوقت ، بعد صعودها إلى غرفة نومها ، وقفت تنظر إلى ذبالة الشمعة كما لو كانت شيئاً مؤلماً ، فقد تشكل تعبير وجهها على أساس تيقنها من أن عبارات جون بعد الظهر ، حينما عاونها على الإفلات من شامبيون ، لا تطابق عباراته الليلية ، وأن القبلة التي شعرت بها شعوراً غامضاً أثناء غيوبتها لم تكن قبلة وهمية ، ولكنها نظراً للظروف السعيدة التي أعادت إليها بوب ثانية ، جنحت إلى الحواطر المتفائلة ، وأقنعت نفسها بأن جون لن يلبث أن ينظر إليها من جديد على أنها أخته ؟

المموة :

(٢٩)

كان جون لندى يبدو للنظرة العابرة أنه يحقق ذلك في سهولة مدهشة . فهو كلما أتى من التكنات إلى أوقركب ، وكان ذلك يحدث مرة أو مرتين في الاسبوع ، قص عليها وعلى بوب أخبارا من كل نوع في حماسه شديدة . وجعل الوقت يمر كأسعد ما عرفه قطان الطاحون ، ما عداه هو نفسه ، ولم يقل شيئا عن فستوس إلا ما لم يتجاوز إخبار أن أنه توقع أن يراه نخاب فأله . وظهر جون ثانية في الليلة التالية لوصول الملك إلى مقره الصيفي ، وقد بقي لتناول العشاء ، وأخذ يصف الدخول الملكي للمصيف ، وأنوار الزيتة الحسنة التنسيق ، والشعوف التي استعرضتها السيدات ، وشموع الدهن التي أضيئت لهذا الغرض . وحشود عليه القوم الذين تبعوا الملك هناك .

وخرج بوب من المنزل . عندما فرغوا من العشاء ليغلق مصاريع النوافذ التي غالبا ما كانت تترك مفتوحة مدة من الزمن بعد إضاءة النور في الداخل .

وعندما اقترب أخو جون من النافذة كان هذا الأخير لا يزال جالسا إلى المائدة ، وإن كان الباقيون قد نهضوا وغادروا الغرفة . وصدم بوب إذ رأى من خلال زجاج النافذة مبلغ التغيير الذي طرأ على وجه جون الذي كان طوال تناول العشاء يتحدث إلى أن بطريقته المرححة التي اعتاد أن يتحدث بها في الآونة الأخيرة . وقد خلع ذلك على تجمه مظهره الحاضر غرابة أشد . فإنه ظل مستغرقا في التفكير برهة ، وأخرج رسالة من جيب صدره ، ونشرها ، وفي لحظة ضعفه قبل خط الرسالة ، وهو يتسم ابتسامة رقيقة ، قبل أن يعيدها الى مكانها . وكانت الرسالة هي التي كتبتها إليه آن وهو في إكزنبوري .

ووقف بوب حائرا . ثم ساوره الشك في أن جون يتظاهر برضاه عن الأحداث الأخيرة ، مدفوعا بصدق أخوته ، دون أن يشعر بذلك في الواقع . وقعق بوب الآن بمصراعى النافذة ، فنهض جون على أثر ذلك وخرج حيث تبعه بوب على الفور .

وقال الملاح في صراحة :

— يا جاك ، أنا أسف أشد الأسف لاني أخطأت في حقك ..

وسأله أخوه :

— كيف ذلك ؟

— في معازلة فتاتنا الصغيرة آن . حسنا . أنت ترى يا جون أننا كنا نعيش تحت سقف واحد ، وقد جعلت نفسي فتاها المحب على نحو ما . ولكني أخذت أفكر في أنك قد تكون صاحب الحق الأول عليها ، فإذا كان الأمر كذلك يا جاك فلاني سأفصح لك في المكان . وأنا . . . أنا لا أهتم بها كثيراً كما ترى . . لا أهتم بها كثيراً جداً . أنا أستطيع أن أبتعد عنها في يسر . وليس بيننا علاقة جدية بحال . نعم يا جون . أبذل أنت جهدك لتفوز بها ، وأنا أستطيع أن أبحث في مكان آخر .

ولم يدر بوب الى أى مدى كان يحب أن حتى وجد نفسه ينطق عبارة استعدادده لتبذها .

وقال جاويش البروجي الذى لم يجر عليه قول أخيه :

— أوو يا بوب ، أنت مخطيء . فلاني أعجبت بها أول ما رأيتها ، وأعجب بها الآن ، وأميل إليها . وقد بلغ مدى ميلى إليها الحد الذى يجعلنى أسعد أن أراك تزوجها .

وأجاب بوب متردداً .

— ولكنى حسبك تبدو حزينا جداً كما لو كنت عاشقاً . وبمحل القول أتى رأيتك تخرج من جييك خطاباً . وهذا ما ألقننى وحلنى على الجيىء إليك .

وقال جون في ضحكة مفتضبة :

— أوو ، لنى أرى وجه خطتك !

وفى هذه اللحظة مرت السيدة لعدى وصاحب الطاحون بالقرب من المكان الذى وقف فيه الأخوان ، وكانا يتمشيان حول الحديقة فى الشفق : وتحدثت السيدة بلسان طلق عن أحداث بودماوث كما كان يفعل أغلب الناس فى ذلك الآوان.

وكانت تقول :

— أخبروني أن المسرح أعيد طلاؤه ، وأن الممثلين جاءوا لإحياء الموسم ،
ومن بينهم أجمل الممثلات اللواتي رأتهن عين .

وواصل جون القول بعد مرورهما :

— أنا عاشق يابوب ، ولكنى . . . لا أعشق آن .

وقال البحار وقد راوده الأمل :

— آه ! . . ومن هي التي تعشقها إذن ؟

وأجاب جون وهو ينظر في تدبر الى طلعتي السيد والسيدة لعدى وهما
ينواريان :

— إحدى ممثلات المسرح ! واعلم أنها امرأة جميلة جدا . ولكن دعنا من
التحدث أكثر من ذلك عن الأمر . . . فالحب هكذا يداهم الرجل . . .

وقال بوب فاغر الفم :

— أوو ، إحدى الممثلات !

وواصل جاويش البروجي القول في حماسة :

— لكن إياك أن تذكر شيئاً عن هذه المسألة ، فأنا لا أريد أن يعلمها أحد .

— لا ، لا . لن أذكر شيئاً عنها بالطبع . وهل أستطيع أن أعرف اسمها ؟

وأجاب جون :

— لا ، ليس الآن يابوب .

وقد قال لعدى ذلك صادقاً ، لأنه لم يكن يعرف اسم أية ممثلة من ممثلات العالم .

وعقب انصرافه أسرع بوب الى آن ، وهو في حالة انفعال شديد ، ووجدها

على قمة ربوة مجاورة كانت بقية ضوء النهار لم تكد تنحسر عنها . وقالت له في

نبرات عتاب رقيقة :

— لقد تأخرت في حضورك مدة طويلة ياسيدي .

— نعم ، يا حبيبتي . وسيسرك أن اسمعى السبب . إنني وقفت على السر

بأكمله . . . نعم عرفت سبب غرابته . . . عرفت كل شيء .

وبدا على أن الفرع :

— إنه غارق في الحب إلى ذقنه ! وينبغي أن نعاونه ، وإلا فإنني أخشى أن تصل كآبته إلى ما يشبه الجنون .
وسألته أن متخاذه الصوت :

— نحن نعاونه ؟

— لقد أضع قلبه وراء إحدى الممثلات في بودماوث ، وأظنها تستخف به .
وصاحت :

— أوو ، كم أنا مفتبطة !

— أمفتبطة لأن مفاخرته ان تشر ؟

— أوو ، لا . بل لأنه على هذا النحو المرهف من الحس . . . كم من الوقت مضى على ذلك الإندار بمجيء الفونسيين ؟

— ستة أسابيع يا حبيبتى . . . لماذا تسأليني عن ذلك ؟

— يستطيع الرجال أن يفسوا في ستة أسابيع ، أليس كذلك يا بوب ؟
وكانت لا تزال متأثرة بأن جون قبلها فعلا .

ولاحظ بوب في حكمة :

— حسنا . قد يستطيع ذلك بعض الرجال . ولكنني لا أستطيعه أنا . بيد أن جون قد يستطيعه . أنا لن أتمكن من نسيانك بعد مدة يزيد طولها على تلك المدة عشرين ضعفا . اعلمي يا أن أن شطرا من تفكيري انصرف إلى حسابان جون يهتم بك أنت ، وقد انزاح حل عن قلبي عندما أنكر ذلك .

— هل أنكر هو ذلك ؟

— نعم . لقد أكد لي بنفسه أن الشخص الوحيد الذي يتملك قلبه هو تلك الممثلة الجميلة ، ولا أحد غيرها .

— كم أود أن أراها !

— نعم ، وكم أود ذلك أنا أيضاً !

— كنت أؤثر لو أنها إحدى فتيات الجيران اللواتي نعرف أصلهن ونشأتهن .

ولكن إذا كان هذا هو اختياره فإني أمل مع ذلك أن تطيب له الخاتمة . لكم أسرع في تبده ! إني أود فعلاً أن أراها .

— إني لا أعرف عنها شيئاً كما لا أعرف اسمها ، فهو كقوم جداً ، ولم يثنأ أن يذكر شيئاً عنها .

— ألا تستطيع أن تحمله على الذهاب معنا إلى المسرح ؟ فنحن نستطيع في هذه الحالة أن نراقبه ، ونقف في سهولة على حبيته الحقيقية ، ونعرف هل هي فتاة سالحة في مقبل العمر . فإن كان الأمر كذلك فهنا نستطيع أن ندعوها إلى المجيء هنا ، ونسهل الأمر عليه ؟ لقد كان مرحاً جداً في الأيام الأخيرة ، وهذا يدل على انبثاق الحب . وكانت تمر به أحياناً لحظات كأية بين خلجات مرحة ، وهذا يدل أيضاً على وجود صعوبات .

ورأى بوب خطتها سالحة ، واعزم أن يضعها موضع التنفيذ في أقرب ليلة مؤاتية . وكانت آن شديدة التطلع إلى معرفة هل ينطوى صدر جون حقاً على عاطفة جديدة ، فإن حكاية بوب أدهشتها كل الإدهاش . ومن المحتمل أن تكون حقيقية إذ اقتضت ستة أسابيع على إبداء جون للعلامة الوحيدة الدالة على علاقته القديمة . . وأى أثر لا يستطيع هذا الردح من الزمن أن يحدته في قلب جندي مهنته نفسها تحشد الفتيات وراءه ؟

وظل جون لفدى بعد ذلك أكثر من شهر دون أن يحضر لزيارتهم ، وهذا إهمال قدمه بوب دليلاً إضافياً على أن عواطف أخيه لم تعد مركزة بنوع خاص في دائرة بته القديم . وعندما حضر أخيراً ، وذكروا أمامه نبأ افتتاح المسرح ، خلا وجهه خلوا لا يمكن تعليقه من فورة الشعور التي توقعت أن تراه مرتسمة عليه . وأجاب في اهتمام :

— نعم ، يا بوب ، أنا أود كثيراً أن أذهب إلى المسرح ، ومن ذا الذي يحضر غيرك ؟

وقال له بوب :

— لا أحد غير آن .

ثم بدا أنه خطر ببال جاويش البروجي أن شيئاً كان ينتظر منه ، فهض وقال لبوب على حدة في شيء من الارتباك .

— أوو ، نعم . سندهب بالطبع . وبما أن لى علاقة بإحدى اللواتى . . .
مختصر القول أنى أستطيع إدخالكما المسرح دون مقابل . دعنى على الأقل أرتب
جميع الامور .

— نعم ، نعم . إنى لأعجب كيف لم تعرض علينا يا جاك أن تذهب بنا إلى
المسرح وتسمح لنا أن نراها مليا !

— كان ينبغى أن أفعل ذلك . وستذهبان ليلة حضور الملك . وأنت لا تريدنى
يا بوب أن أدلك عليها ، فإن لى الآن أسبابا تحملنى على أن أطلب إليك أن
تمتنع عن ذلك .

وقال له أخوه :

— ستقنع بالخدس والتخمين .

وقالت آن بعد انصراف جون الكريم النمس :

— لى تغير يا بوب ! إنى راقبته فلم يبد عليه أى تأثير حتى عندما انقضضت
عليه فجأة بذكر الموضوع الاقرب إلى قلبه .

وقال كابتن بوب :

— لا بد أن هذا يرجع إلى عدم ملاءمة برته العسكرية لذلك ؟

في المسرح الملكي

(٣٠)

وبعد يومين أو ثلاثة أيام وصلت إليهما رسالة تدعوهما للحضور إلى المسرح في الليلة التالية ، وتطلب إليهما أيضا أن يرتديا أزهى ملابسهما حتى تناسب المكان المحجوز لهما . وعلى ذلك رحلا بالعربة أثناء العصر وقد ارتدى بوب حلة بديعة اشتراها حديثا كحالة للاقترب من طراز آن حين يظهران معا أمام الجمهور . وبعد أن أكل أنافته بهذه الحلة الجريئة الحديثة النمط حقا أصبح صورة كاملة لتتبع الحسان الغرير في أيام الشعرى (١) . فالسروال والحذاء مفصلان على آخر طراز . و ياردات ، و ياردات ، من حرير ، الموسلين ، ملفوفة حول عنقه ، ومكونة نوعا من الماوى الجزء الأسفل من وجهه . وصداران للزينة ، وأزرار سرة كرايا الخلافة المستديرة . . . والمبالغة السخيفة في هندام المرأة التي تلبس الحرير في شهر يناير كان يضارعها في ذلك العصر لبس الرجال في شهر أغسطس قذرا من الثياب يكنى لإذابة أجسادهم . ولم يكن أحد ليحزر من مظهر بوب الآن أنه ركب ظهر المحيط الأطلسي في كل ليلة ليلاء . أو عرف مئات من الطرف التي يمكن تحقيقها بطرف جبل ومنتقب في مثل سهولة التحدث بلغة بلاده .

ذلك اليوم كان يوم الأيام . وقد ارتدت آن معطفها الشهير المصنوع من الفراء ذي اللون الأزرق السماوي ، وقبعتها من طراز لجمهورن ، وثوبها الحريري المنطق تحت الذراعين . وذلك النطاق مزين « بدانتيل » مقاطعة « هونيتون » البديعة المشتراة من السيدة التي جاءت من تلك المنطقة إلى أفركب وما جاورها حاملة سلة مملوءة بمنسوجات صبتتها بنفسها كما صنعت غطاء حشية أثناء الطريق . . وقابل جون العاشقين في النزول الواقع خارج البلدة . وبعد أن أودعوا الحصان « الإصطبل » دخلوا المدينة جميعا ، وأنبأهم جاويش البروجي أن المنتزه البحري لم يكتظ بالوافدين عليه قط مثل اكتظاظه اليوم ، وأن الحاشية الملكية ، وولى العهد ، وكل ذى شأن ، كانوا هناك . وأنه لم يكذب بيب من المستطاع استئجار

(١) أشد أوقات الصيف قيفا . (شرح المؤلف)

ماوى بأى مبلغ من المال ، وأن الملك خرج في ديبخته ، إلى زهرة بحرية ، وأنه يمكن أن يصلوا في الوقت الذى يستطيعون أن يروا فيه عودة الملك إلى الشاطئ .

وسمعت أصوات الطبول والصفافير . ورأوا بعد دقيقة أو دقيقتين ، الجاويش ستار ، يطوى الشارع صارم الوجه مشتعل الرأس ، شاخص النظرات جادها . وكان يتقدم زمرة رجاله المجندين ، شاهرا سفية الذى انتظم نصله المتألق أوراقاً مالية من ذات الجنيه الواحد تبعه كل منها عن الأخرى بمقدار بوصتين أو ثلاث بوصات ، وترفف معبرة عما بذل لأولئك الرجال من نعم بلغت حد الإسراف . وأوماً لجماعتنا إيماء جافة نصف مكتوبة تعبيراً عن صداقته لأفرادها ، ثم مر بهم . وجاء هؤلاء بعد ذلك إلى عربة مظلة بأوراق الشجر والزهور إلى حد أن الناس لا يكادون يرون من بداخلها .

وتعالى صوت أحد الموجودين بها قائلاً .

— تعالوا اتروا الملك . . . هيب . هيب . . . هورا !

ودار الجماعة فرأوا من خلال أوراق الشجر أنف كريسترو ووجهه . وكانت العربة تحتوى على جميع من يشتغلون عند دريمان . وقال له جون :

— هل سيدك هنا ؟

— لا ياسيدى جاويش البروجى ، ولكن السيد الصغير سيحضر في الساعة التاسعة ليعود بنا فيما إذا لم تسعفنا الرؤية الكافية لقيادة العربة إلى المنزل .

— أوو ! وأين هو الآن ؟

وقالت آن متملة :

— ماعلينا من ذلك .

ومضى عندئذ جاويش البروجى مطيعاً .

وكانت الساعة قد وافت السادسة عندما وصلوا إلى رصيف الميناء . وهناك وحدوا اليخت الملصكى في طريق عودته من الزهرة . وهذه واقعة أعلنتها السفن الراسية في الميناء بإطلاق مدافعها محيية . رنزل الملك إلى البرحاملا قبضته في يده ، ورد تحيات الجماهير الحسنة الملبس بطريقته المعهودة التى لا يميز فيها بين الناس . ووقفت آن بين الأخوين خلال ذلك الهتاف والتلويح بالناديل ، وكانا قد ضما

يديهما خلف ظهرها ليحميها حتى لسكانها تمثال دقيق صغير قد تتلفه صدمة . ولم يلبث الملك أن أمر ، وبعد أن أدت له شرطة الجيش التحية العسكرية لحق بالملكة والأميرات في قصر جلوسستر ، وهو البيت البسيط ، المبني بالطوب الأحمر ، الذى يقم به فى غير أهبة .

ولما كان لا يزال هناك وقت متبق على فتح أبواب المسرح هاموا على وجوههم فوق الرمال المخملية ، وأنصتوا الى أغاني البحارة ، وكانت أحداها مرتجلة للنسابة الراهنة .

« يا طريق بورتلاند . الملك فى عرض البحر ، فى عرض البحر !

« يا طريق بورتلاند ، الملك فى عرض البحر .

« لقد تدبرنا الأمر ، وأبحرنا من طريق بورتلاند (١) !

وبعد أن تفرجوا بعض الوقت على مباريات العصي التى كانت تجرى عن بعد ، ورأوا خمسة الجنهيات التى أعطيت للسيد المتواضع الذى فلق بعصاه أغلب الرؤوس . عادوا الى قصر جلوسستر حيث ظهر الملك الآن من جديد هو وغيره من أفراد أسرته ، وركبوا عربات سارت بهم على مهل ، معرجة على المسرح ، تجرها خيول بيض من هانوفر كانت معروفة جيدا فى تلك البلدة وقتذاك .

ووجدت آن وبوب لدى دخولها المسرح أن جون قد حجز لها مقعدين ممتازين ، واستدلا من ذلك على أنه حصل عليها دون مقابل بوساطة نفوذ السيدة التى اختارها قلبه . أما واقع الأمر فهو أنه دفع الثمن كاملا لهذين المقعدين كما يدفعه أى رجل أجنبي عن المسرح . بل لأنه حتى فى هذا وجد صعوبة فى الحصول عليهما نظرا لجمية الملك فى تلك الليلة . وبعد أن أجلس آن وأخاه فى المقعدين ارتد الى مكان تحت قبة البناء باهت النور لا تكاد خشبة المسرح تظهر معه .

وقال بوب فى نبرة أرسوقراطية بينما هو يضع فى أنفه قبضة دقيقة من الشوق ، ويخرج من جيبه المنديل الباهر الذى جاء به من الشرق لمثل هذه المناسبة .

— نحن نستطيع أن نرى المسرح على أحسن وجه ، ولكني أخشى أن تتعذر على جون المسكين رؤيته كلية .

وأجاب آن :

— ولكننا نستطيع أن نراه ونلاحظ على وجهه أية فتاة بين هؤلاء أعجب بها هذا الإعجاب ، فإن ضوء شمعة ذلك الركن يقع على وجهه تماما .

وظهر الملك بعد ذلك في مقصورته التي أسدل عليها ستر من الحرير الأحمر المزركش الحواش بالذهب . واحتل أفراد أسرة الملك وحاشيته ما يقرب من عشرين مقعدا . وظهر وراءهم جمع من شخصيات معفرة بمسحوق البودرة ، متآلفة متأقمة على أحدث طراز ، ملأت منتصف ذلك المسكن الضيق عن آخره ، ولو أن الملك كان يعاخذ المسرح المحلى خلال هذه السنوات التي لم يكن التخلي عنه فيها غير ملائم .

ورفع الستار ، وبدأ تمثيل مسرحية كانت هذه الليلة من تأليف كولمان (١) الذى حظى في ذلك الوقت بشهرة واسعة النطاق .

وقام السيد « بانسترا » (٢) بتمثيل شخصية المسرحية الرئيسية وساندها بذلك : وأخذت آن ، وهى تقبض بكفها على كف بوب في خفية ، أخذت تتابع المسرحية تارة ، وتتنظر إلى وجه جون المتأثر تارة أخرى ، جون الذى أتجه بعواطفه إلى امرأة أخرى — وتتنظر بأن ذلك يصدر عنها عفوا . ولم يكن عليها أن تنتظر طويلا . فعندما اعتلت منصة المسرح إحدى ممثلات المسرحية الثانويات لم يبد على جاويش البروجى انه انتبه إليها غضب . ولكنه أزعج وحدث فيها فإغراق القم . وهمت آن على عجل .

(١) هو ابن جورج كولمان ، ويسمى باسمه . وقد ترقى الأب وابنه العلم في ويستمنستر وأكسفورد ، وكذا عدة مسرحيات . وللكولمان الابن أربع مسرحيات من نوع « الفارس » كتبها ونسرها باسم مستعار هو « آرثر جريفينون » خشية أن تتأثر شهرته الدرامية تأثرا جديا في حالة وفوف الناس على أنه يكتب مسرحيات من نوع الفارس (شرح الأصل)

(٢) جاك بانسترا (١٧٦٠ — ١٨٢٦) كان الممثل الشهير ديفيد جاريك قد دربه على التمثيل فأصبح ممثلا مشهورا منذ صباه حتى شيخوخته . وقد كان ملحوظا الجمال ذاع بين سوداوين عاديين ، ولون صايع ، وصوت موسيقى جميل . (شرح الأصل) .

— لا بد أن تكون هذه حبيبته . انظر . إنه يضرب !
وتلفتت إلى بوب ، ولكن يده أبطقت متشنجة على يدها في هذه اللحظة
بينما شخصت عيناه هو أيضا في عجب ، إلى السيدة التي اعتلت المنصة أخيرا .
— ما الأمر ؟

وتنقل نظر آن من أحد الرجلين إلى الآخر دون أن يتجه إلى المسرح مرة
واحدة . وجاءها رد سؤالها من صوت الممثلة التي تكلمت الآن لأول مرة ، فقد
كانت نبرات هـي نبرات صوت ماتيلدا جونسون . وفضت إلى ذهن كليها على الفور
فكرة واحدة ، وكان بوب أول من عبر عنها .

— ماذا . . . هل هذه هي المرأة التي اختارها أخيرا ؟
ونغممت آن :

— إذا كان الأمر كذلك فهو فظيح !

ولكن جون التمس (حسبا يمكن أن تنصور ، كان لا يقل دهشة لهذا اللقاء
عن الآخرين . لقد كان على جبل تام بفرقة المسرح وكل ما يتعلق بها . وهو فوق
ذلك لم يكن يدرى قط ، على كثرة ما كان عمله عن الآنسة جونسون ، أنها تدرت
على التمثيل منذ صباها ، وأنها بعد ما لاقت من عقبات وصعاب خلال خمس
سنوات ، أسعدها الحظ بأن تحصل ثانية على عمل هنا .

ورأت ماتيلدا الآن جاويش البروجي برغم أنه لم يكن يجلس في مكان بارز ،
كما لاحظت على نحو أوضح وجود خطيبها السابق وأن جالسين في الناحية الأخرى
من قاعة المسرح . ولم يهتم جون ، فيما يتعلق به شخصياً ، أن يجاهها وجها لوجه ،
ولكن الذي همه هو الشك الغريب الذي لا بد أن يثيره هذا الاتصال الظاهر بها
في ذهنى صديقه المحبوبين . ودق ركبته بعد لحظات من التأمل المولم ، وقال لنفسه :
« قسا إثنان أفسر لهما شيئا ، وسيظل الأمر يجري كما يجري الآن ليظننا أنها فتاتي ،
فذلك أفضل من الحقيقة على أية حال .

ولو كان حسن هذا المشهد ، من الناحية الشخصية ، يتناسب في هذه الآونة مع
تيقظ الشاعر ، لتبدد جميع النظارة ، من أفراد الأسرة الملكية إلى الآخرين ،
غارقين في ضباب غامض بمؤخرة القاعة ، غير تاركين من الوجوه البارزة المعبرة .

غير بوب وآن في ناحية ، وجاويش البروجي إلى اليسار ، وماتيلدا في الركن المقابل من المسرح . ولكن هذا المأزق من الحيرة المزعجة التي وقع فيها أربعتهم ، انتهى لحسن الحظ بمحادث . فقد دخل مقصورة الملك رسول يحمل له رسالة . وتوقف التمثيل لحظة . وظل الملك ، بعد فتح الصندوق المشتعل على الرسائل ، ظل يقرأ بضع دقائق في اهتمام شديد . وشخصت إلى وجهه في قلق عيون جميع من بالقاعة ، ومن بينهم آن جارلاندا ، لأن الأحداث الرهيبة تقع في غير توقع . خلال هذه الفترة الحرجة من التاريخ ، كما تنقض الصواعق . وأوما الملك في نهاية الأمر إلى اللورد ... الذي كان يقف وراءه مباشرة . وتوقف التمثيل من جديد ، وألقيت حقوى الرسالة على مسامع النظارة .

إن سير « روبرت كالدرا (١) » ، الذي غادر « فينستر » إلى عرض البحر ، شاهد سفن « فيلنغ » ، فأعطي إشارة بدء العمليات الحربية ، وبرغم أن رداة الجو عاقبتا ، فقد أسفرت عن أسرفيتين من أسطول أسبانيا الحربي ، وتقهقر « فيلنغ » إلى فيرول .

وقبول النبأ بحماسة وطنية حقيقية إذا كان الضحيج يمكن أن يتخذ دليلا على حب الوطن . وطلب عزف نشيد « احكمي يا بريطانيا » ، واشترك كل من بالقاعة في إنشاده . ولكن أهمية هذا النبأ كانت أبعد من أن تدرك على حقيقتها في ذلك الوقت . ولم يمر ببال بوب لفتى ، بينما جلس هناك وسمع النبأ ، إلا خاطر ضئيل عن مدى تأثيره في مصيره .

(١) أميرال الأسطول البريطاني الذي قهر الفرنسيين على مبعدة من رأس فينستر « وم تحت قيادة « فيلنغ » . وهكذا انهارت خطة نابليون التي كانت ترمى إلى غزو إنجلترا بينما أسطوها متنيب ، وقضى على هذا المشروع . وكانت الأوامر قد صدرت إلى فيلنغ أن يستدريج الأسطول الإنجليزي بقيادة نلسون إلى جزر الهند الغربية ، ثم يروغ منه ويود في سرعة إلى مضيق المانش ليحتمي السفن المسطحة التي تقصد الشاطئ الإنجليزي لغزوه . وسارت الأمور بادية الأمر في مصلحة الفرنسيين ، ولكن نلسون وقف على الحقيقة ، وإن كان ذلك قد تم في الوقت الذي لم يسمح له بالعودة في الوقت المناسب . فأرسل سفينة سريعة إلى قيادة الأسطول البريطاني لتحذيره ، وترتب على ذلك أن اعترض « كالدرا » سبيل « فيلنغ » عند وصوله إلى رأس فينستر ، وتصدى له بخمس عشرة سفينة ، وانتصر في الموقعة . وتقهقر الفرنسيون إلى ميناء فيرول بالقرب من كورونا ، ثم إلى ساحل فادس . وهكذا قضى على المشروع الذي أعده نابليون لغزو إنجلترا .

هذه الحماة التي قطعت التمثيل شغلت عيني بوب وأن عن الجاويش البروجي مدة بضع دقائق ، وعندما استوفى التمثيل ، والتفتنا إلى ركنه وجدها قد انصرف . وقال بوب عن معرفة :

— لقد انسل فقط إلى ما وراء « الكواليس » ليحاذيها هناك ، فهل تذهب نحن أيضاً لنغيظ ذلك الكلب الماكر ؟
— لا ، فأنا أوتر ألا أذهب .

— هل نعود إلى البيت إذن ؟

— لا ، لن نعود إلا إذا كنت لا تتحمل وجودها ؟

— أو ، أبدأ . سنبقى إذن هنا . آه أه هي ذى تعود ثانية .

وظلا ماكثين ، وأنصتا إلى كلام ماتيلدا الذي كانت تلقيه في عدم اكتراف لطيف لم يلبث أن بدأ يثير اهتمام واحد من الجماعة إلى حد ملحوظ .

وقال بوب أخيراً في لهجة إعجاب وهو يتحدث في الآتية جونسون بكل قواه :

— أية أعصاب تملكها هذه الفتاة ! إن ذوق جاك ليس رديئاً على كل حال .
إنها ماهرة مهارة شيطانية .

وقالت آن في سرعة :

— بوب ! سأعود إلى البيت إذا رغبت في ذلك .

— أو ، لا . . . دعينا نرى كيف سنتخلص من المأزق الذي تمثله الآن .

ما أمرها في ذلك بالتأكيد !

ولم ترد آن شيئاً على ما قالت ، ولكنها ظلت تنتظر في ضيق شديد ، وأوشكت أن تبكي . وبدأت تشعر بأنها لا تميل إلى الحياة وتستطيعها على نحو خاص ، فالحياة شديدة التعقيد . ولم تر شيئاً من المشهد ، ولكنها تأقت إلى الرواح ، وأخذ بوب معها . وانسدل الستار بعد المشهد الأخير . وبدأ تمثيل المسرحية الهزلية « لا عشاء إذا لم يكن غناء » (١) ، وهي من نوع « الفارس » ، ولم تشترك ماتيلدا في تمثيلها . وعادت آن فسألت هل من الممكن أن يعودا إلى البيت . ووافق بوب

(١) « أوبرا كوميك » من فصلين مثلت على المسرح الملصكي « دروري لين » ، ولحن موزيغهاماغل اليانو والثيارة « سفين ستوريس » (١٧٦٣ — ١٧٩٦) وقد اختار لينلاي لتلحين « أوبرات » دروري لين عام ١٧٨٧ . (شرح الأصل)

على ذلك هذه المرة . ورافقها في هدوء إلى خارج المسرح وهو يحوطها برعايته في حجة مضاعفة ليكفر عن ألوان الفتور التي استولت على لبه بعض الوقت .

وعندما خرج إلى الميدان كان قر أغسطس يضيء عرض البحر من ناحية رأس « سانت أدم » . وتمهل بوب دون قصد ، وعرج على رصيف الميناء . ولدى وصولهما إلى آخر المطاف أخذا يرقبان البحر المتموج صامتين بعض الوقت إلى أن رأيا خطأ أسود مستطيلاً يخترق الماء من وراء رأس نوث ، وينساب قدما إلى الميناء .

وقالت آن :

— أية سفينة هذه ؟

وقال بوب بلا اكترات وهو يدور بأن ويشدها بذراعه شداً لطيفاً ، ويعرج بخطوته إلى طرف البلدة المؤدى إلى بيتهما :

— يبدو أنها فرقاطة ترسو في « رودز » .

وفي هذه الأثناء بدلت الآنسة جونسون ملابسها على عجل ، بعد أن آتمت واجبات عملها تلك الليلة ، وخرجت من المسرح هي الأخرى . وكان المقعدان الممتازان اللذان جلس فيهما بوب وأن جنباً إلى جنب في قاعة المسرح لا يتيحان لها إلا أن تظن أن بوب رتب هذا الوضع كنوع من أنواع تعديده لها . وأصبح قلبها ، كما هو الواقع ، منغصاً مغنيظاً منه على قدر هذا التحدى . ورغم الازدهار الذى طرأ على حال الآنسة جونسون ، فهي ما زالت تذكر — وستظل تذكر دائماً — رحيلها المذل من أوفر كيب . وكان خضوع بوب لأمر أخيه أشد إيلاماً لها حتى من تدبير هذا الأخير لما حدث . وأثناء هذا الوقت الذى خرجت فيه تملكها يقين ثابت من أن بوب سيأتى فى أثرها ، وينقض تدبير أخيه . ولكنه لم يأت قط رغم انتظارها .

وسارت مارة بجانب المنازل المطلة على البحر ، وتأملت الشاطيء ، وعمر السائزين على الأقدام ، والطريق العريض القريب الذى ما أضاه القمر المنحدر

(١) « ذى نوث » رأس تل بارز في البحر عند وماوث كانت تقوم عليه قلعة تسمى على الميناء . وهو الآن مرثاد للناس ومنته عام . (شرح الأصل)

إضاءة شديدة الإشراق ، حتى تلامأ بوميض سطح الأملاح المتبلورة المختلفة من رشاش الماء الذى تساقط خلال النهار . وبدت جوانب المتجولين الظليلة في الطرف الأبعد . وامتد وراهم البحر الرمادى الذى تشطره خيوط القمر الدقيقة المترامية عبر الأمواج .

ومرت ظلمتان بهذا الطريق على مقربة مروعة منها فعرفتهما في الحال على أنهما آن وبوب لعدى . كانا يسيران على مهل ، وغفلا وهما مأخوذان بحماسة حديثهما عن أى مخلوق آخر غير نفسيهما . ووقفت ماتيلدا بلا حراك حتى مرأبها . وقالت وهى تواصل خطوات مسيرها السابق قدماً في حية لاتنظها النزهة :

— كم أحبها !

وصدر صوت من جوار لإبطها قائلاً :

— وأنا أيضاً ... لا سيأ أحدهما .

ودار رجل حولها ، ونظر إلى وجهها الذى تعرض للقمر تعرضاً كاملاً ... وسألته :

— أنت ... من أنت ؟

— ألا تذكرين ياسيدتى ؟ لقد سلكتنا طريقاً ما معاً صوب أوفر كيب إبان

الصيف .

ونظرت إليه ماتيلدا نظرة أكثر تدقيقاً ، وأدركت أن المتكلم هو دريمان في ملابس عادية . واستأنف الرجل القول :

— أنا أعلم أنك لإحدى مثلات المسرح . هل أستطيع أن أسألك لماذا قلت

على هذا النحو العجيب إنك تحبين هذين الإلفين ؟

— على هذا النحو العجيب ؟

— نعم ، وكأنما أنت تبغضينهما .

— لايهمنى أن تعلم أن لدى سيياً جدياً يدعونى إلى بغضهما . ويبدو أنك

تبغضهما أنت أيضاً .

وقال فستوس بوحشية :

— هذا الرجل جامنى ذات ليلة في شأن هذه السيدة بعينها ، وأهانتى قبل أن

أتأهب له ، وفر هارباً قبل أن أطلع له وأثار لنفسى . والمرأة تخدعنى كل مرة !
وأنا أريد أن أفرق بينهما .

— لماذا لا تقدم على ذلك إذن ؟ إن هناك فرصة ذهبية . هل ترى ذلك
الجندى الذى يسير قدماً ! إنه نوتى وهو فى كل ليلة ينعم النظر فى رواق المسرح ،
وعلى صلة « بفرقة الإرغام » (١) التى وصلت إلى الشط الآن من الرقطة الراسية
فى « بورتلاند » . وهى غالباً ما تأتى هنا لجمع الرجال .
— نعم . وملاحونا يخشونها .

— هذا صحيح . وما علينا إلا أن نخبره أن لدى من رجال البحر فتنتخلص
منه فى هذه الليلة بعينها .
وقال فستوس :

— ليكن ذلك ! تأبطى ذراعى ، وتعالى من هذه الناحية .
وسلكا عشى السائرین على الأقدام .

— ليلة جميلة يا جاويش .

— إنها كذلك ياسيدى .

— أظن أنك تبحث عن أيد تعمل فى البحر ؟

— لا علم لى بذلك الآن ياسيدى . فعملنا لا يبدأ إلا فى العاشرة والنصف .

— أسفا على أنك لا تبدأ الآن ، فأنا أستطيع أن أدلك على صيد ثمين .

— ماذا ، أتقصد ذلك الوكر الذى يضم الشبان فى « أولدرومز » عند
« كوف رو » ؟ لقد سمعت عنه ذا الوقت .

— لا ، تعال هنا .

وقاد فستوس الجاويش ، والآنة جونسون تتأبط ذراعاً ، وسلكوا

(١) هيئة مكونة من بعض الجنود بقيادة ضابط تقوم بتلك الطريقة القديمة ، السبئية الشهيرة ،
التى كانت تتبع لجمع الرجال وحملهم على الخدمة فى الاسطول . وكان أولئك الجنود ينتظرون
عودة الصيادين أو غيرهم من الرجال الذين على شاكلتهم ، ويضبطون عليهم ، أو « يرغمونهم »
على الخدمة البحرية .

الطريق على عجل . وعندما وصلوا إلى « ناروز » (١) ظهر العاشقان أمامهم إذ كانا يسيران على مهل .

وقال فستوس :

— ها هو ذا رجلك .

— هذا الظبي في السروال والحذاء القصير . . . البادي في مظهر السيد ؟

— كان منذ اثني عشر شهراً وكييل ربان على ظهر السفينة الشراعية « بيوت » ، ولكن أباه جمع ثروة واستبقاه في البيت .

— حقاً ، لقد أخبرتني الآن . . . فلن فيه شيئاً يشير إلى مشية رجال البحر النشطة . ما اسم هذا الفتى الغريب ؟

ومست ماتيلدا وهي تتشبث بذراع فستوس في انفعال :
— لا تخبره ،

ولكن فستوس كان قد قال من فوره :

— روبرت لفدى ، ابن صاحب الطاحون في « أفركب » . ويمكنك أن تجد في الانحاء المجاورة فتياناً كثيرين على شاكلة .

وقال الجندي البحار إنه سيتذكر ذلك . . . وغادراه .
وقالت ماتيلدا دامعة العينين :

— وددت لو أنك لم تذكر له اسمه ، فإنها هي أردأ الأثنين !

— اجترني على الآن ، . . أنصتوا إلى هذا ! . . كيف هذا ! إنك وافقت على ذلك موافقتي أنا أيتها الرعديدة الداهية . . ألم يعاملك معاملة سيئة ؟

وعاودت ماتيلدا غلظتها ، وقالت :

— لقد كنت في محنة ، ولولا ذلك لما واثته الفرصة .

— حسناً . دعي الأمور إذن تجرى في مجراها ؟

(١) مسمى هذا الاسم « المسالك الضيقة »

زوار منتصف الليل

(٣١)

سارت الآنسة آن وبوب على مهل إلى النزل ، وطلبا العربية وحصانها ،
وذهب السائس يستحضرهما بينما أخذ صاحب النزل يحادث بوب في المر محادثة
هادئة . وكان يعرفه ويعرف أسرته معرفة وثيقة ، قال وهو يلقي نظرة إعجاب
إلى رداء بوب :

— أهذا اللبس إذن لأنك تريد ذر الرماد في عيون فتیان سفينة
« بلاك دياموند » ؟

رقال بوب :

— « بلاك دياموند » ؟

وشحب وجه آن .

— كانت تبدو للعيان صاعدة هابطة بعد حلول الظلام مباشرة ، وفي
الساعة التاسعة ركب أكثر من اثني عشر بحاراً مرتدين عبا آتهم ، قارباً ساروا
به مجدفين إلى الميناء .

واستغرق بوب في التأمل . وقال :

— ستكون هناك كبسة إذن الليلة ، كونوا على ثقة من ذلك .

وقالت آن مزعجة :

— لإنهم لن يعرفوك . . أليس كذلك يا بوب ؟

ولاحظ صاحب النزل وهو يضحك ويعيد النظر إلى بوب تصورياً

وتصعداً :

— لا شك أنهم لن يعرفوه نوتيا الآن . ولكني لو كنت مكانك لركبت
إلى البيت رأساً في هدوء يا سيد لعدى . ولا تنهكت في العمل بالطاحون كل
الانهاك غد .

وركباً العربية وسارا بها وضيقت آن جفنيها محذقة باهتمام شديد في اتجاه
يورتلاند ، ولم يظهر هيكل السفينة المعتم وهو جائم في البحر كالحوت ،

إلا على قدر ما تراه العين ، إذ كان كعارض خلقي لأضواء ست سفن أقرب منه إلى الشاطئ .

وسألت آن :

— إنهم لا يستطيعون إرغامك على الذهاب الآن وقد أصبحت من السادة التجار . أليس كذلك ؟

— إذا كانوا في حاجة إلى فسيأخذوني يا حبيبتى . ألم أقل مراراً إن على أن أظوع ؟

— ولا تهتم بي مطلقاً ؟

— إن هذا بالذات هو الذى أبقانى في القرية . وأنا لن أتترك ما دمت أستطيع ذلك .

— لا يمكن أن يكون هناك فرق كبير لدى الدولة في بقاء رجل واحد أو ذهابه . ولكنك إذا أردت الذهاب فأولى بك أن تتعجل ، ولا تهتم بنا إطلاقاً !
ووضع بوب حداً لحديثه بإيداء علامة مودة بجود التاريخ بأمثال عديدة منها في كل عصر وأوان . ولم تذكر أن شيئاً بعد ذلك عن «بلاك دياموند» . ولكنهما لم يصعدا في تل إلا لتلفتت لترمق أضواء « بورتلاند رودز » ، وامتداد البحر الرمادى القائم دونها .

وبرغم ما ذكره كابتن بوب من أنه لا يرغب في التطوع ، وأنه لن يتركها ما دام قادراً على ذلك ، فإن قوله هذا كان يحتاج إلى بعض التعديل . فصحيح أن كانت فاتنة وودوداً إلى الحد الذى يربطه بأى مكان ، ولكنه بدأ يدرك أن العمل في الطاحون عمل على نحو مزعج في بعض الأحيان . وكثيراً ما كان يتنام خلال الشهر الأخير بينما هو واقف بين الدواليب المتعقمة في سترة الطحان الجديدة التى لا تلامسه ... ويذكر في لهفة صدار الملاحين القديم ، وماء البحر الأزرق العميق الغور ، وكان شديد الخوف من أن يكدر أباه بإيداء شيء من هذا التغيير الذى طرأ على ميوله . بيد أنه كان يمكن أن يقدم على ذلك لولا علمه بأن زواجه بأن يتوقف كل التوقف على استمساكه بالعمل في الطاحون ، هذا الزواج الذى كان يؤمل في إمكان عقده في العام المقبل . ثم إنه حتى إذا لم يتم

أبوه بالأمر ، فالسيدة لفتى لن تودع ابنتها الوحيدة أمانة بين يدي زوج سينتفب
عن داره خمسة أسداس أيامه .

ولكن برغم عدم نفوره من الملاحه فى حد ذاتها ، فهو لم يكن يحتمل ،
بصرف النظر عن آن ، أن يتم تهريبه إلى هناك بوساطة ذلك الجهاز المكون من
« عصابة الإرغام » . وإن عملية القبض والصق والتصفيد وحمل الأيدي غير
الراغبة فى العمل برغم إرادتها ، هى إحدى العمليات التى اعترم بوب دائماً ،
بحسبانه رجلاً ، أن يقاومها بكل ما يملك من قوة . وعلى ذلك أكثر من إرهاف
السمع لأصوات قد تصدر وراءه وهو فى طريقه إلى البيت ، ولكنه إذ لم يسمع
شيئاً أكد لحبييته أنهما سيقضيان ، ولو الليلة فقط ، فى أمان . وكانت الطاحون
لا تزال تدور لدى وصولها . وإن كان السيد لفتى الكبير لم يظهر لها . فاقد
أوى إلى البيت على أثر سماعه وقع حوافر الحصان على الطريق ، وترك لبوب
ملاحظة الطحن حتى الساعة الثالثة ، وعندئذ يصحو الرجل الكبير ويأوى بوب
إلى فراشه ... ذلك ترتيب مألوف بينهما منذ شغل بوب وظيفه طحان .

وعندما وصلت آن إلى غرفتها الخاصة محتلية بنفسها ، فتحت النافذة على
مصراعها لأنها لم تكن تنوى قط أن تأوى إلى فراشها بعد فى هذه الساعة .
وكانت حكاية السفينة « بلاك دياموند » قد أزعجتها بطريقة بطئية غادرة هى
أفصح من الخوف المفاجئ . وكانت نافذتها تطل على الساحة التى امتدت أمام
البيت ، وقد التفت الآن بظلال الأشجار والتل . ومالت آن على قاعدة النافذة
منصتة فى اهتمام شديد . وكانت تستطيع أن تسمع الأصوات الصادرة من إحدى
النواحي فى وضوح كاف ، ولكن جميع الأصوات الخافتة الصادرة من الناحية
الأخرى كانت تتلاشى فى قمعة الطاحون ، واصطخاب الماء المتدفق فى مجراه .

ومع ذلك كان الصوت الذى وصل إلى سمعها صادراً حتى الآن من الناحية
إلى الساكنة ، وظهر فى لحظة أنه وقع أقدام رجال مقبلين . وحاولت أن تدخل فى
روعها أنهم شاردون من بودماوت تأخروا فى تجوالهم ولكن لا ، وأأسفاه ،
فوقع أقدام القادمين كان أكثر انتظاماً من أن يكون جماعة من الفلاحين .
ودارت فى سرعة وأطفأت الشمعة ، وأنصتت من جديد وكان محتملاً كل الاحتمال

أن هذه الجماعة ، وهي تقطع الطريق العام ، ستعبر الجسر الذى يؤدى إلى مدخل فناء الطاحون دون أن تعرج عليه ، أو حتى تفتن إلى وجود مثل ذلك المدخل . وخاب أمل أن حتى فى هذا . فقد عبر أولئك القوم الجسر وأقبلوا على الطاحون دون توقف . واضطربت الآن دقات قلبها فما السبب الذى يدعو أولئك الرجال ، فيما إذا كانوا من « جماعة الإرغام » ، وغرباء عن هذه الناحية ، إلى الظن بأنهم سيجدون ملاحاً هنا ما دام أن أصغر الرجلين المشتغلين بالطحن من أسرة لعدى لم يره أحد فى ثوب ينم على أنه غير طحان قح كأيبه .

وقال أحد أولئك الرجال :

— لست واثقاً من أن هذا هو المكان المقصود .

وقال آخر :

— هذه طاحون على أية حال .

— توجد طواحين كثيرة فى هذه النواحي .

— تعال إذن لحظة بمصباحك من هذه الناحية .

وتوجه اثنان من الجماعة إلى « اسطبل » العربات فى الناحية المقابلة للفناء ، وفتحاً منوراً مظللاً عند وصولها إليه ، وسلطوا النور على الجانب الأمامى من عربة صاحب الطاحون .

واستأنف الرجل القول وهو يقرأ المكتوب على العربة :

— « لعدى وولده ، طاحون أفركب » . أنظر ، إن الكلمة مكتوبة بالطلاء

حديثاً . هذا هو رجلنا .

ومضى ليظنيء النور ، ولكن الضوء غمر طلعتى المتكلمين قبل أن يتم ذلك ، وكشف جاوياً ، وضابطاً بحرياً ، وثلاثة من الملاحين .

ولم تنتظر أن ترى أكثر من ذلك . وكثيراً ما كان يوبس يجلس فى غرفته أثناء قيامه بنوبة رقابة الطحن ، كما فعل الليلة ، بدلاً من إنفاق الوقت بطوله فى الطاحون . وكانت غرفته هذه قائمة فى عزلة فوق الخبز ، والوصول إليها يتطلب النزول ثم الصعود إليها فى سلم خشبي ، مستند إلى الحائط ، مخصص لصعوده . وزلت آن فى الظلام ، وتسلمت السلم الخشبي ، ورأت النور يتغذى من شق عتبة الباب .

وكانت نافذة بوب تواجه الحديقة فتعذر لذلك على عصابة الإرغام ، أن ترى نورها .

وقالت آن من خلال ثقب المفتاح :

— بوب ، عزيزى بوب ! أطفىء النور ، واهرب من الباب الخلفى !

وقال بوب ، وهو يندق غليونه على مهل لينفض رمال الطباقي الذى دخنه :

— لماذا ؟

— عصابة الإرغام !

— هل جاءوا ؟ يا إلهى ! من ذا الذى استطاع أن يشى بي ؟ حسناً ، ياغريزى .

إلى طريدة لهم .

ونزلت آن فى السلم وهى لا تكاد تدرك ما تفعل ، وجرت إلى الباب الخلفى ، وشرعت تفض رتاجه لتوفير وقت بوب ، وتفتحه بلطف لئىء له الخروج . وهى لم تكذب تفعل ذلك حتى شعرت بيدين يضعهما عليها صاحبهما من الخارج ، وسمعت صوتاً يصيح :

— نحن نودى عملنا على هذا الوجه ... أيتها الفتى المفضل !

ولم تهتم آن بنفسها رغم خشونة اليدين اللتين أمسكتا بها ، وإذ دارت إلى الوراء ، صاحت يائسة بنبرات عالية قصدت بها أن تصل إلى أذنى بوب : « إنهم عند الباب الخلفى ، حاول الخروج من الباب الامامى ! ،

ولكن الآنسة جارلانء ، غير المجربة ، لم تعرف إلا القليل عن خبث ما اعتاده السادة الذين تعاملهم ، فقد سبق أن أقاموا أنفسهم ، وهم الذين مارسوا هذا اللون من التسلية ، على كل منفذ من منافذ الدار .

وصاح الفتى الذى يقبض عليها :

— هات المصباح ... ماذا ! .. إنها فتاة . لقد ظننت ذلك .

واستطرد يقول لرفاقه وهو يسرع إلى أسفل السلم الذى يؤدى إلى غرفة بوب :

— ها هو ذا طريق للدخول .

وقال بوب وهو يفتح الباب فى هدوء ، ويظهر لهم وهو لا يزال متأثراً

في كامل ثيابه التي ارتداها في المسرح الملوكي محدثاً ذلك الأثر الكبير ، وكان يوشك أن يخلعها ، ويستبدل بها كسوة العمل ساعة أنذرته آن بالخطر .

ولاحظ أحد الملاحين وقد تأثر نوعاً بمظهر بوب :

— لا يمكن أن يكون هذا السيد هو الرجل المطلوب .

وقال الجاويش :

— نعم ، نعم . بل هو الرجل . والآن خذ الأمر بيسر يا فتى الغرير المصنوع من شمع . إنك تبدو كأنك نويت ذلك ، وهذا تصرف حكيم منك .

وقال بوب :

— إلى أين تأخذونني ؟

— إلى السفينة ، بلاك دياموند ، ليس إلا . وإذا اخترت أن تتفضل بالهجوم معنا متطوعاً ، فسيسمح لك أن تنزل إلى الشاطئ كلما رست سفينتك في ميناء . أما إذا أبيت ذلك فإننا سنقيد يديك ، ولن نكون لك بعد حرية على الإطلاق . وما دمت ستحضر إن طواعية ، وإن قسراً ، فعليك أن تتبع الخطة الأولى إن كنت على أي قدر من الذكاء .

وبدأت أعصاب بوب تتور :

— لا تنبجح على هذا النحو بتصفيد يدي يا رجل . فلاني عندما استقر

قراري . . .

وقاطعه منذره :

— الآن أو أبداً أيها العنيد .

وقال الملازم قادماً :

— هيا ... ما هذه الثرثرة ؟ أحضروا رجلكم .

ووضع أحد الملاحين قدمه على السلم الخشبي ، ولكن بوب قذف في هذه اللحظة حذاء أصاب المصباح إصابة مباشرة بحكمة التصويب ، وأوقعه كلية من قبضة الرجل الذي يحمه . وبرغم الظلام أخذوا ينسلقون السلم . وأغلق بوب عندئذ الباب الذي كان يعلم أنه واق مؤقت نظراً لضعف تركيبه . ولكن ذلك له وقتاً كافياً لفتح النافذة ، ورفع رجليه إلى قاعدتها ، والقفز إلى شجرة

تفاح نامية خارجها . وقد امتطأها دون أن يصاب بأذى شديد غير بضعة خدوش أصابته بها أفرعها . ودل وابل التفاح الذى انهمر منها على شدة وثبته .
وصاح كثيرون من تحت وقد رأوا وجه بوب ينتقل عبر السماء ، وكأنه وجه غراب .

— ها هو ذا !

وساد السكون الشجرة لحظة من اللحظات . ثم أسرع الهارب إلى تساق فرع منها مائل صوب الحديدية ، واندفع الواقفون تحت الشجرة جميعاً إلى ذلك الاتجاه ليسكوا به أثناء هبوطه وهم يقولون : نستطيع أن ننزل على أية حال أيها الصديق . لقد كانت قفزة رشيقة ، ونحن نقر لك على ذلك بالإبداع . ،

وكانت حركة بوب التالية محض خدعة ، إذ تسال ، وقد ستر ورق الشجر بعضه ، إلى الجانب الآخر من الشجرة حيث كان من السهل عليه أن يقفز إلى بناء خارجي مظلل بسقف من القش . ويبدو أن نيته هذه لم تدر بخلدكم ، فأتمحت له بذلك فرصة الانزلاق على ذلك الفصن المتدلى ، ودخول باب الطاحون الخلفي .

وصاح الرجال وهم يرتدون عن الشجرة صائحين :

— ها هو ذا ! .. ها هو ذا ! ! ! ..

وكانوا قد حصلوا في ذلك الوقت على مصباح آخر ، وتعقبوا بوب عن قرب في الجوانب الخلفية للطاحون . ودخل بوب الفرفة السفلى ، وأمسك بالسلسلة الحديدية الموصولة بعجلة الطاحون ، المستعملة في رفع أكياس الدقيق من طبقة إلى طبقة ، وجذب الحبل المعلق إلى جانبها بقصد إلقائه على الآلة الدائرية . ووصل متعقبوه ، المتقدمون على زملاتهم ، في نفس الوقت الذى رأوا فيه من خلال باب السقف رجلى الكابتن بوب ، ولأيزيم حوائه ، تنيب وراء دعائم السقف ، وقد دار جسمه بواسطة الآلة كأي كيس من أكياس الدقيق ، وهوى مصراع باب السقف خلفه .

وقال الجاويش وهو يتساق سلباً في أحد الأركان إلى الدور الثاني ، ويرفع النور في اللحظة التي بداله فيها وجه بوب المعلق يصعد بنفس الطريقة ماراً بباب سقف من نفس النوع إلى الدور العلوى :

— لقد صعد بواسطة القذافة !

وهوى مصراعاً باب السقف الثانى أيضاً وراء بوب الذى توارى عن الأنظار
كلمرة السابقة .

وأصبح اقتفاء أثره أصعب الآن . فلم يكن هناك إلا سلم صغير واه . وصعد
الرجال فيه بحذر ، وعندما خرجوا إلى علو الدار وجدوه غاوباً .

وقال أحد الملاحين ، وكان يعرف عن الطواحين أكثر مما يعرفه الآخرون :
— لا بد أنه غادر الآلة هنا ، فلو ظل متشبثاً بها لحظة أخرى لاصطدم بهذه
الدعامة وتحطم .

ونظروا إلى أعلى . وكان الكلاب الذى أمسك به بوب قد صعد إلى السقف ،
وأخذ يلعب حول الأسطوانة . ولم يبد شيء فى أى مكان آخر غير أقسام مجزأة
بالواح خشبية ، كحواجز الخيل فى « الاسطبل » ، بدت على جانبي المسكان الذى
وقفوا فيه ، وتضمنت ، على قدر متفاوت ، أكواماً من القمح والشعير على ما يبدو .
— ربما دفن نفسه فى القمح .

وقفز الملاحون جميعهم إلى صوامع القمح ، وحركوا محتواها الأصفر ،
ولكن لم تنكشف لهم ذراع أو رجل أو طرف سترة . ونقلوا الأكياس من
مكانها ، ونظروا فيما بين عوارض السقف ، ولكن فى غير طائل . وأخذ الملازم
يتميز غيضاً لضياح الوقت سدى .

— عليكم اللعنة من حق لتسكينكم الرجل من الحرب ! كيف ذلك ! انظروا

هنا ، ما هذا ؟

وفتح الباب الذى يستعمل فى نقل الأكياس إلى الداخل من عربات النقل
في الخارج . وتدل من رأس العاتق البارز من أعلى جبل يرفعون به تلك الأكياس ..
واستأنف الضابط قوله :

— هذا هو الطريق الذى نزل منه . لقد ذهب الرجل .

ونزل جماعة الملاحين فى السلين بين الضجيج واللعنات ، وخرجوا الى الهواء
الطلق . ولكن لم يظهر للكابتن بوب أثره فى أى مكان . وعندما وصلوا
إلى باب البيت الأمامى كان صاحب الطاحون يقف على عتبه وهو فى نصف
ثيابه . وقال الملازم :

— ان ابنك فتى بارع يا صاحب الطاحون . ولكنه لو أتى معنا في هدوء
لكان ذلك أفضل له بكثير .

وقال لفتى :

— إنها مسألة نظر .

— أنا لا أشك أنه داخل البيت .

— قد يكون ذلك ، وقد لا يكون .

— هل تعرف أين هو ؟

— لا . ولو أتى عرفت لما أخبرتك .

— هذا طبعى .

وقال الجاويش :

— سمعت وقع أقدام تدب في الطريق ياسيدى .

وداروا عن الباب . وبعد أن تركوا أربعة منهم ليواصلوا الرقابة حول البيت
سارت بقيتهم في الطريق حتى وصلت إلى حيث يتفرع طريق آخر . ورفع أحد
الجند الصباح بينما كان زملاؤه قد وقفوا ليقرروا أى الطريقين يسلكون . وبدا
شيء أسود على الأرض أمامهم ، وتبينوا أنه قبة . . قبة بوب لفتى .

وصاح الجاويش ، وقد استقر رأيه على السير في هذا الاتجاه :

— نحن نتبع الأثر الصحيح .

وساروا على عجل . ولم يلبث وقع الأقدام الذى سمع فيما مضى أن أصبح مسموعا
من جديد ، وازداد سماعه وضوحا ، وقد دل ذلك على أنهم أخذوا يقتربون من
الغارب الذى توقف بعد خمس دقائق أخرى . ودار إليهم . وسلط ضوء شمعة
المصباح على آن .

وقالت الفتاة مبدية وجهها المرتعب :

— ماذا تريدون ؟

ولم يجها أحد ، ولكنهم داروا حولها وغادروها . وارتمت على حافة الطريق
لستريح بعد أن قامت بكل ما في وسعها : وكانت هى التى أخذت قبة بوب
من مشجب بالبيت ، وألقت بها عند منحنى الطريق بقصد تضليلهم حتى يتمكن
صاحبها من الهرب .

النجاة

(٣٢)

ولكن آن جارلاندا كانت أشد جزعا من أن تظل بعيدة عن مركز العمليات .
وقد وجدت عصابة الإرغام ، لدى عودتها ، واقفة في الفناء تناقش الخطوة التالية .
وقال الملازم :

— لا داعى لتبديد مزيد من الوقت هنا ، فعلينا أن نזור الليلة قريتين
أخرين أقربهما تقع على بعد ثلاثة أميال . وليس ثمة شخص آخر في هذا البيت ،
ونحن لن نتمكن من العودة ثانية .

وأثناء انصراف الجنود الملاحين تحايل أحدهم حتى استطاع أن يهمس في
أذن آن ، وهو يمر بها قوله : سنعود ثانية وقتما تبرغ الخيوط الأولى من الفجر .
ولم يقل الآن إلا لخداعكم ، أبعدى فتاك عن طريقنا . . وكان قد لزمها بنظره ،
ولاحظ كربتها .

وذهبوا كما أتوا . واجتمع أفراد الأسرة عندئذ . وكانت السيدة لفدى قد
ارتدت أثناء ذلك ثيابها ونزلت إلى سفل الدار . وعلى أثر ذلك دارت مناقشة
طويلة مضطربة .

ولاحظ لفدى :

— لا بد أن شخصا ما وشى بالفتى . إذ كيف يمكنهم العثور على مكانه بطريقة
أخرى وقد مضى الآن على عودته إلى القرية من البحر اثنا عشر شهرا ؟
وذكرت آن عندئذ ما أخبرها به الملاح المتودد فقاموا وبحشوا عن بوب ،
ونادوا عليه في كل مكان خشية أن يكون محتبئا في المنزل ، وأن يجده الملاحون
عند حلول النهار .

وقال صاحب الطاحون :

— أية ثياب يرتديها ؟

وأجابته زوجته :

— ثوبه الجديد البديع ، وأراهن أنه تلف .

وقالت آن :

— لقد ذهب بغير قبعة .

وقال لفدى :

— حسنا . اذهبا أنتما الآن لترقدا ، وسأبقى أنا منتظرا . ولدى حضوره ، وأغلب الظن أن ذلك سيحدث في غضون الليل ، سأخبره أنهم سيعودون ثانية .

وذهبت كل من آن والسيدة لفدى إلى غرفة نومها . ودخل صاحب الطاحون طاحونه وكأنه لا يقصد من المكث فيها إلا مباشرة الطحن . ولكنه لم يكف عن معادرة مستودع الدقيق ليخرج إلى العراء ويدور هناك دورة . ولم يتمكن في أية مرة من أن يرى مخلوقا حيا حول هذه البقعة . واستلقت آن أثناء ذلك على فراشها وهي في كامل ملابسها ، وأرهفت أذنيها والنافذة لا تزال مفتوحة ، وأنصتت إلى صوت وقع الأقدام خائفة من انبثاق نور الصباح وعودة العصابة . ونزلت إلى المطبخ ثلاث مرات أو أربع مرات لتسأل زوج أمها هل ظهر بوب ، ولكن الإجابة كانت دائما نفيا .

وبدأ شكل كل سريرها يظهر في النهاية ، والتمتع مقابض الأدرج النحاسية ، وطلع الفجر . ونهضت آن بينما نور الفجر لم يزد عن كونه خضابا شاحبا ، ووضعت قبعتها على رأسها ، واعترمت أن تستكشف الأماكُن المحيطة بها قبل مجيء الرجال وخرجت إلى خلاء الفجر الحام ، واجتازت الجسر وفحصت بنظرها أدنى الطريق وأعلاه . ووجدته كما تركته خاويا . وازدادت الوحدة إلحاحا بسبب سكوت مجلّة الطاحون التي أوقفت الآن عن الدوران بعد أن كف صاحب الطاحون عن توقع عودة بوب ، وأوى حوالى الساعة الثالثة إلى فراشه . وظلت أثار أقدام الملاحين مرسومة على التراب فوق الجسر ، وكانت كعوبها المتجهة صوب البيت تدل على أن العصابة لم تعد بعد .

وسمعت وهي تترث هناك صوتا خفيفا صادرا من الناحية الأخرى ، ورأت وهي تدور ، امرأة تقرب . وكانت المرأة تقبل في سرعة ، ولدهشة آن تبينت

أنها ماتيلدا . كانت خطواتها متشنجة ، ووجها شاحبا بل يكاد يكون بشعا ، وقد خلع عليه ضوء الصباح البارد كل إشاعة شبح الموت . وظهر في وضوح أنها قطعت على أقدامها طول الطريق من بودماوت لأن حذاءها كان مغطى بالغبار . وقالت لاهثة :

— أكانت عصابة الإرغام ، هنا ؟ إذا كانت لم تجيء بعد فسوف تجيء !
— كانت هنا .

— هل أمسكوه . . لقد جئت متأخرة جداً !

— لا ، ولكنهم سيمودون ثانية . لماذا أنت ...

— أنا جئت لإيقاظه . أستطيع إيقاظه سوية ؟ أين هو ؟

وأنعمت آن النظر في وجه المرأة ، وكان من المستحيل عليها أن تشك في جدتها . . وأجابت :

— لست أدري . أنا أحاول أن أجده قبل مجيئهم .

وصاحت ماتيلدا التادمة على ما فعلت :

— ألا تدعيني أعاونك ؟

ودارت آن وسارت في الطريق المؤدى إلى الجانب الخلفي من ملحقات البيت دون أن توافق على سؤالها أو تعترض .

وكانت ماتيلدا قد شقيت أيضا في تلك الليلة ، إذ تملكها منذ اللحظة التي فارقت فيها فستوس دريمان شعور الامتعاض من الفعلة التي اشتركت فيها ، وتزايد هذا الشعور حتى صار في النهاية فيضاً من الندم لا تستطيع احتجاله في استسلام . ونهضت قبل بزوغ النهار ، وأسرعت إلى هناك لتقف على أسوأ ما قد يحدث ، وتعمل ، فيما إذا كان ذلك ممكناً ، على تحاشي العواقب التي كانت هي أول من جرهما عليهم .

ودخلت آن الحديقة بعد أن سارت هنا وهناك في الحقل المجاور ، وكانت الممرات مبتلة بطل رمادى . وبدا لأن ، وهي تسير فيها بعين مراقبة ، كأن أقداما اخترقتها بسرعة في ساعة مبكرة جداً . وكان في آخر الحديقة دغل من عشب وأشجار غار وزرنب تكونت منها غيضة أخذت ترحف على الحديقة باطراد ، وكاد طلوعها يكون عن طريق المصادفة ، ولم يتناولها التشذيب قط . وفيما وراء هذه الغيضة مقعد من مقاعد الحديقة ، وكان بوب ينام فوقه نوما عميقا .

والتصقت أطراف شعره من البلل ، وغشيت أزرار سترته الشبية بالمرآة
ولابزم حذائه اللامع ، غشاوة من ضباب . وأطفأت نفس هذه الرطوبة العادرة
بجموعة خواتم أصابعه الذهبية الجديدة . وأصبحت أطراف قيصه ، وأرطلة
عنتقه الحريرية لزجة كأعشاب البحر . وقد وضح أنه ظل هنا مدة طويلة . وهزته
آن ، ولكنه لم يستيقظ ، وكان تنفسه بطيئا يتخلله العطيط .

وقالت آن في جد برى :

— استيقظ ، يا بوب . إنها فتاتك آن !

ثم أدارت رأسها على خوف ، ورأت ماتيلدا خلفها عن قرب .

وقالت ماتيلدا في مرارة :

— لا داعي لاهتمامك بي ، فأنا من حزبك . هزبه ثانية .

وهزته آن ثانية ، ولكنه ظل مستغرقا في النوم . ثم لاحظت أن علامة

جرح عميق ترسم على جبينه .

وقالت رفيقتها وهي تتقدم وتحاول إيقاظ بوب بنفسها :

— يخيل لى أنى أسمع صوتا !

ثم قالت :

— إنه غائب الوعى أو مخدر ، ويستحيل إيقاظه .

ورفعت آن رأسها ، وأنصتت . وترامت من الناحية الشرقية أصوات خطوات

منتظمة ، فشبكت يدا بيد وقالت :

— لأنهم عائدون ! وسياخذونه وهو على هذه الحالة من المرض . إنه لن يفتح

عينيه . . لا ، لا فائدة من المحاولة ! أوو ، ماذا سنصنع ؟

ولم تجب ماتيلدا . لكنها وقد جرت إلى طرف المقعد الذى رقد عليه بوب ،

أخذت تحبر وزنه بين ذراعها ، وقالت :

— إنه ليس شديد الثقل . تولى أنت ذاك الطرف ، وسأتولى أنا هذا ،

وسنحمله إلى مكان نخبه فيه .

وأمسكت آن على الفور بالطرف الآخر ، ومضتا بحملهما فى خطى بطيئة إلى باب

الجانب الأدنى من الحديقة ، ووصلا إليه بينما تردد وقع أقدام عصابة الإرغام ،

فوق الجسر الذى يؤدى إلى فناء الطاحون ، وقد حجه الآن عن الأنظار سياج الحديقة وشجرها .

وقالت آن فى خور :

— سنذهب إلى جوف هذا الحقل

وقالت الأخرى :

— لا ، فسيرون أثر أقدامنا فوق الطل . لا بد أن نذهب إلى الطريق .

— إن هذا الطريق هو نفسه الذى سيسلكونه عند مغادرة الطاحون .

— لامهرب من ذلك . وليس أماننا الآن إلا الحياة أو الموت .

وظلمتا على الطريق ، وترنختا وهما تسلكانه دون أن تنبسا بكلمة ، وكانتا بين حين وحين تغلطان إلى الراحة لحظة لتريحاً ذراعيهما . وتهزان بوب لتوقظاه وتعودان إلى الإمساك بالمقعد بعد أن تجدان عدم جدوى ذلك . وأظهرت ماتيلدا دلائل التعب بعد أن سارتا مقدار ما يقرب من مائتى خطوة ، وسألت رفيقتها .

— ألا يوجد ملجأ قريب ؟

وقالت آن :

— هناك عندما نصل إلى هذا الحقل الصغير من القمح .

— إنه بعيد جداً . ولا بد أن يكون هناك مكان ما قريب ؟

وأشارت إلى دغل من بعض الأعشاب الحقيمة المتدلية فوق جدول صغير يمر فى أسفل الشارع على مقربة من ذلك المكان .

وقالت آن :

— ليست الأعشاب كثيفة إلى حد كاف .

وقالت ماتيلدا :

— دعينا نأخذنه إلى ما تحت الجسر ، فأنا لا أستطيع التقدم خطوة أخرى .

وخاضتا ، وقد دخلتا فى مر تنحدر فيه السوام لتشرب . . . خاضتا فى ماء ملوّه بالعشب يعالو على كعبيهما فى هذا المكان بمقدار بضع بوصات . وكان الصعود إلى الجدول ، والانحناء للورور من تحت القوس للوصول إلى الطريق العام عملاً يستغرق بضع دقائق . وغنمتم آن :

— سيكون مصيرنا الضياع فيما إذا أطلوا من تحت القوس .
— ليس هناك حاجز للجسر ، وقد يمرون عليه دون انتباه .

وانتظرتا ورأساهما يكادان يلامسان القوس المتصاعدة الأبخرة ، وأقدامهما
مخاطة بماء الجدول الذي انخفض سطحه إلى مستواه الصيني . ومرت دقائق لم
تستطيعا أن تسمعا خلالها إلا خرير الماء المار فوق كعوبهما وفوق أرجل المقعد
الذي ينام عليه بوب . وكان ذلك الخرير يرتد رنيناً موسيقياً من جانبي القوس
المجوفين . وأصبح خوف آن في هذه الآونة ألا يظل بوب نائماً حتى يتم البحث
عنه ، بل يهب من نومه في رعوته المعتادة ، ويندفع مرتبياً بين أيديهم ، مستخفاً
بوسائل الأمان هذه .

ومر ربع ساعة يدب دبيبا . ووصلت إلى آذانها دلائل تدل على أن إعادة
فحص الطاحون قد بدأت وتمت ، واقرب وقع الأقدام المعروف لها جيداً ،
وارتد فوق وؤوسها عبر الطريق ، واستدلت المنصتان من مقداره على أن الجماعة
قد زيد عددها برجال متحمسين بعد ما كان من ليلة أمس . ومرت العصابة بالقوس ،
وتضامل صوتها بالتدرج ، وكأنما لم يخطر ببال رجل منها أن ينظر ، لبرهة واحدة ،
إلى جانب الطريق .

وقطعت ماتيلدا السكوت ، وقالت والشك يساووها :

— إنى لاتساءل هل تركوا وراهم عيوننا ترصد المكان ؟

وقالت آن :

— سأذهب لاقف على ذلك . وانتظري أنت حتى أعود .

— لا ، أنا لا أستطيع أن أصنع شيئاً فوق ما صنعت . وسأكون قد غادرت
المكان لدى عودتك . وإذا مرت بك الأمور على خير ، وأقدم على زواجك ...
لا تنزعجى فإن خططى تنزع منزعا آخر . . إذا أصبحت زوجته فأنبئه عن عاون
على نقله بعيدا . ولكن لا تذكرى اسمى لسائر أفراد أسرتك ، سواء الآن أو في
أى وقت آخر .

وتأملت آن من تحادثها لحظة من اللحظات ، ثم وعدتها بما طلبت ، وخاضت
في الماء خارجة من طريق القوس .

ووقفت ماتيلدا تنظر برهة إلى بوب ، وكأنما تعد بذلك نفسها للرحيل ، وظلت كذلك حتى انحنى عليه في خفة ، مدفوعة إلى ذلك بنازع نفسى وقبلته قبلة واحدة .

وصاحت آن تونها :

— كيف تستطيعين ذلك !

وكانت قد مالت إلى الورا ، وهي تغادر عمر القوس ، ورأت المشهد . واحر وجه ماتيلدا ، وقالت ساخرة :

— أيها الطفلة الغيور !

وترددت آن لحظة ، ثم خرجت من الماء ، وأسرعت إلى الطاحون . ودخلت البيت عن طريق الحديقة ، وتقدمت إذ لم تجد أحدا ، وأطلقت عل الداخل من خلال البافذة ، وكانت أمها والسيد لعدى يجلسان هناك كعادتهما . وقالت آن في صوت منخفض :

— هل انصرفوا جميعا ؟

— نعم . وهم لم يرجعونا بأكثر من دخول كل غرفة ، والبحث في الحديقة حيث رأوا آثار أقدام . وقد اتاهم الحظ الليلة إذ أمسكوا بخمسة عشر رجلا أو عشرين في أمكنة أبعد من هنا . . . إنى لأعجب في أى بقعة من العالم يختبئ الفتي المسكين !

وقالت آن :

— سأريك هذه البقعة .

وإذ شرحت ما حدث في بضع كلمات سار كل من ديفيد ولعدى خلفها في الطريق بسرعة . ورفعت ذيل ثوبها ، واجتازت القوس مزججة بسبب ماتيلدا . ولكن الممثلة كانت قد انصرفت ، وكان بوب لا يزال راقدا فوق المقعد كما تركته .

وأخرجوا بوب من مكمنه ، ورشوا الماء على وجهه . ولكنه لم ينهض ، برغم تحركه ، إلا بعد مرور فترة من الزمن على حمله إلى داخل المنزل . وعندئذ فتح عينيه ، ورآهم يحيطون به ، وأخذ يسترد قدرا قليلا من وعيه .

وقال له أبوه :

— أنت بخير يا ولدي ! ماذا حدث لك ، وأين أصبت هذه الضربة الفطيمة ؟
وغنم بوب ، وهو يدير حوله نظرة ذاهلة :

— آه . . أنا أستطيع أن أتذكر الآن . لقد سقطت وأنا انزلق على جبل
أعلى الشراع . . ذلك أن الحبل كان أقصر مما ينبغي . وكان سقوطي على رأسي .
ثم مضيت . وخطرت لي ، عندما عدت ، ألا أزعجكم . وعلى ذلك رقدت هناك
لأنام وأكون على رقبة . ولكن ألم رأسي كان شديدا جدا إلى حد أني لم أستطع
النوم . ولهذا قطفت بعض أزهار الحشخاش من جانب المر : وقد سمعت ذات
مرة ، أنها تصلح في جلب النوم للناس عندما يتألمون . وهكذا مضغت كل ما وجدته
منها ، واستغرقت في النوم استغراقا عميقا .
وقالت مولي :

— لقد تساءلت عن قطفها ، فإني لاحظت أنها زالت من مكانها .

وقالت السيدة لعدى وهي ترفع يديها :

— ما هذا ، فقد كان من الممكن ألا تستيقظ أبدا ! وكيف حال
رأسك الآن ؟

ووضع الفتى يده على جبينه وقد أخذ يهوم من جديد .

— لا أكاد أعرف . وأين أولئك الفتيان الذين هاجمونا ؟ ينبغي أن نهرب
منهم مع هذا الماء الساكن . . . والريح المؤاتية . . . اجذبوا الشراع . . . من
مقبضه الأيسر . . . واستقبلوا به الريح .

وقالت آن وهي تنحنى عليه :

— أنت في بيتك يا عزيزي بوب . وقد رحل الرجال .

وقال أبوه :

— تعالوا إلى علو الدار ، فهو يكاد يكون مستقيظا الآن .

وأعين بوب على الانتقال إلى فراشه .

استكشاف

يقلب كفة الميزان

(٣٣)

عاد بوب إلى حالته الطبيعية خلال أربع وعشرين ساعة . ولكنه لم يطمئن على موقفه من ناحية وطنيته برغم أنه استرد عافيته ثانية من الناحية البدنية . فإنه كان ذا معرفة عملية بفض الملاحه الذى تحتاج البلاد الى الملبين به أشد الاحتياج وقد أذله أن يجد الإرغام ضروريا ، على ما يبدو لتلقيته كيف يفيد بلاده بهذه المعرفة . وهناك كثيرون من شباب الأماكن ، بمن هم أضال عظامه ، قد أخذوا مرغمين ، وبدأ غيابهم كأنه تأنيب له . وذهب وحده إلى سطح الطاحون ، ونفس عن نفسه هناك بتقريبها وهو محاط بأكياس القمح : « لاشك أن لست برجل مادمت قد قبعت هنا هذه المدة الطويلة بقصد التمتع بالنظر إلى هذه الصبية أربعين مرة فى اليوم الواحد ، وتركها تنظر إلى — بورك فى عينها — حتى أحتاج ، لا عمالة ، إلى عصية الإرغام ، لتلقنتى ما نسيت . وهل انتهى أمرى إذن بحسبانى سلاحا بريطانيا ؟ سوف نرى . »

وعندما وقع ثانية تحت تأثير عيني أن اللتين ازدادتا الآن بالذات جمالا خداعا عن أى وقت مضى ، (فمكذبا بدتا له) قدر لانعقاد نيته على بذل خدماته لحكومته أن يضمحل ويضعف ، وقدر له أن يرجى . اتخذ القرار الحاسم إلى الغد . ورأت أن تقلبات عقله هذه بين حبه ووطنيته . ولما كان قد أفرغها ما سمعت عن المعارك البحرية فقد بذلت غاية ما تستطيع من مهارة لتفريه بالرجوع عن قصده المرسوم وجاءت إليه فى المطبخ وهى ترتدى أجمل سترة تملكها من سترات الصباح ، تلك السترة التى جاوزت خصرها بقدر قليل جدا ، وطرز ما حول عنقها وصدرها تطريزا زخرفيا حسن النوق . ثم يحدث بعد ذلك أن تظهر مرتدية قبعتها الجديدة المزينة بزهر الربيع المعلق بإحدى ناحيتها . وفى يوم الأحد التالى تسير أمامه فى حذائها الليمونى حتى تبدو قدمها كأنهما مطرقتان صفراوان تنقلان تحت ثوبها .

وكانت الملابس أضعف الوسائل التي اتخذتها لتبقيته رهن قيدها . لقد تحدثت في صوت أرق من كل ما عهد قبلا ، وطلبت إليه أن يقوم لها ببعض الأعمال الهينة في الحديقة . وتنت في أرجاء البيت حتى يمكن أن يبدو للمكان مهجعا عندما ينشأه وكان هذا الغناء الذي يستهدف هدفا يتطلب منها جهدا كبيرا ، ويدعها بعد ذلك تعانى كآبة شديدة . وكلنا سألهما بوب عما بها كانت تقول :

— لاشيء إلا أنى أفكر في مقدار ما ستسببه من حزن لأبيك . ومن معارضة لاغراضه إذا حققت فكرتك القاسية الرامية إلى عودتك للبحر ، وتحليك عن عملك في الطاحون .

وكان بوب يجيبها في قلق :

— نعم ، سيزعجه الأمر . أنا لا أجهل ذلك .

ويعود إلى التأجيل إذ كان على علم تام بمقدار ما سيسببه لها ذهابه من كدر . وهكذا ينتضى أسبوع آخر .

ولم يحضر جون إلى الطاحون حتى مرة واحدة خلال هذا الوقت بطوله . وبدا كأن الأنسة جونسون قد استنفدت كل وقته وتفكيره . وكثيرا ما كان بوب يضحك من هذه المناسبة ويقول : « الوغد المكبر ! . . يزعم يوم جاءت لعقد القران أنها غير جديرة بي بينما يريد لها هو لنفسه ! إنه لفوق مقدورى أن أعرف كيف أمكنه أن يقنعا بالرحيل ! »

ولم تستطع أن تنزع جيبها في هذا الاعتقاد ولاذت بالصمت . ولكن الشك في أرجحية ذلك طرق ذهنها أكثر من مرة . بيد أنها لم تنفذ فكرة تدبير جون لمسألة ماتيلدا إلا لتعتنق الفكرة الخاطئة المضادة ، وهى أنه أشفق على السيدة عندما وجد أنه أساء إليها ، ومن ثم نما حبه لها .

واستأنف بوب القول :

— ومع ذلك كان جاك أيام صباه أبسط الفتيان طوية . وأقسم رغم ذلك أنى كنت قينا أن أحتد عليه لمثل الخدعة التي ارتكبتها لو لم أجد بعد فقد ماتيلدا من هى خير منها ! . . ولكننا لن نتحدر إليه ونقبله زوجا بحال ، فقد أصبحت لها . الآن سوانح أفكار متعالية ، وأخشى أن يكون مقدر له التنهد في غير طائل !

ورغم أن بوب أسف على هذا الاحتمال إلا أن آن لم تشاركه في شعوره .
وصحيح أنها لم تعلم شيئاً عن خيانة ماتليدا ، ولم تصدق حكاية افتقارها
إلى الفضيلة ، ولكنها لم تحب هذه المرأة . وقالت لنفسها : د لعل الأمر لا يهم
إذا كان مقدرًا له أن يتهد سدى . ولكني لا أضمر له نية سيئة ، فقد أفدت
من أفعاله ، وإن كانت غير مفهومة القصد . ومالت بعينها الجليتين إلى بوب
وابتسمت .

وبدت الريبة على بوب . وقال لنفسه : د هو يظن أنه جرح شعوري بعد
أن استشفقت الآن سره ، وأنى سأعارض في الاجتماع به ! ولكني لست بالطبع
سريع الغضب إلى هذا الحد . فأنا أستطيع أن أحتمل التكلفة العملية كما يستطيع
ذلك أى رجل جاب البحار . وسأذهب لزيارته ، وسأراه وأقول له هذا .

وحدث بوب نفسه ، قبل ذهابه ، عن شيء قد يكون برهانا جديدا لجون
الخطيء على العفو عنه . وذهب إلى غرفته ، وأخرج من صندوقه لفافة تحتوي
على خصلة من شعر الآنسة ماتليدا كانت أهدتها له خلال علاقتهما القصيرة ،
وكان قد نسبها حتى الآن . وعندما ودع آن ، وهو على أهبة الذهاب ، صاحبه
ابتسامه أشرفت على نحو فهمت منه الفتاة أن فكرة تسحوذ عليه تماما ، وتساءلت
عما يكون هذا الشيء الذى سره إلى هذا الحد .

وقال وهو يضرب على جيب صدره :

— ولكن ، هاهى ذى . . إنها خصلة كانت ماتليدا قد أعطتها لى .

وتراجعت آن فاغرة الفم :

— سأعطيها لجاك ... وسيقفز فرحا لحصوله عليها . وستدله على مقدار
رغبتى فى إعطائها له برغم كونها تحفة بديعة .

وسألته آن وعلى ثغرها ابتسامه غير مستقرة .

— هل تقابلها اليوم يا بوب ؟

— أوو ، لا ... إلا إذا وقع ذلك مصادفة .

وعرج رأسا على الثكنات لدى وصوله إلى مشارف البلدة . وواتاه قدر من
الحظ جعله يجد جون فى مسكنه الواقع فى الركن الأيسر من البناء المربع ، وسر

جون برويته ، ولكنه لم يبد ، لدمشة بوب . أى شاهد مباشر على ندمه ، ولم يهيم بذلك بجالا ما للحديث الأخرى الذى كان بوب سيدلى به عن الصفع . وشعر هذا الأخير بأنه من المرغوب فيه أن يطرق الموضوع مادام لم يطرقه جاويش البروجى . وقال وهما يجلسان إلى النافذة ، ويطلان على ساحة فناء المعسكر الواسعة :

— جئت لك بشيء ستقدره يا جاك ، فلم تعد له بعد فائدة عندى ، وكان قينا أن تحصل عليه قبل ذلك لو أن الأمر خطر بيالى .

وقال جون وهو ينظر سارح البال إلى جمع من الفتيان المرتبكين كانوا يقومون بالتدريب العسكرى فى الحوش :

— أشكرك يا بوب . وما هو هذا الشيء ؟

— إنه خصلة من شعر فتاة .

وقال جون وقد أفاق تماما من شرود فكره ، واحمر وجهه احمرارا خفيفا :

— آه !

أيمكن أن تكون قد وقعت مشاجرة بين بوب وآن ؟ .. وأخرج بوب لفافة الورق من جيبه وفضها .

وقال جون :

— خصلة سوداء !

— نعم ، سوداء إلى حد كبير .

— لمن هى ؟

— ماذا ، خصلة ماتليدا !

— أوو ، خصلة ماتليدا !

— ولمن ظننتها إذن ؟

واحمر وجه جاويش البروجى . بدلا من أن يجيب ، حتى صار فى لون الشمس الغاربة ، ودار إلى النافذة ليخفى ارتباك .

وصمت بوب . ثم اتجه بنظره إلى الفناء هو أيضاً . ونهض أخيراً ، وخطا صوب أخيه ، ووضع يده على كتفه ، وقال بصوت ينفير صوته السابق :

— أنت فتى طيب يا جاك . أنا أرى كل شيء الآن على حقيقته .
وقال جون على عجل :

— أوو ، لا . ليس فى الأمر شيء .

— كنت تدعى اهتماما بهذه السيدة حتى لا يحدث أن ألوم نفسى على إبعادى
لك عن الأخرى ، وهو ما حدث منى فعلا دون أن أدرى .
— وما أهمية ذلك ؟

— ولكنهم بهم ! لقد ظلت أشقيك طوال أسابيع وأسابيع بعدم تبصرى .
واعلم يا جون أنهم كانوا يظنون فى البيت ، على ما بدا لى ، أنك لم تعد تهتم بها .
ولولا ذلك لما أقدمت على ما أقدمت عليه ولو فى نظير العالم بأسره !
— تعلق بها يا بوب ، ولا تهتم بى . فهى فتاتك ، وتحبك أنت . وليس
لى عليها حق ، وأنا لا أخطر لها على بال .

— إنها تميل إليك كل الميل يا جون ، وكذلك يميل إليك الجميع . آه لو أنى
لم أعد إلى بلدى ، ولم أضع فى البيت قدى ! . . لقد كانت عودتى إلى البيت نعمة
حقيقية على الأسرة ، وكان ينبغى ألا أعود أبداً . . . إن البحر وطنى ، فلماذا لم أستطع
أن أظل هناك ؟

وأبتعد جاويزش البروجى بمحدث بوب عن هذا الموضوع حالما استطاع ذلك .
ويدا على بوب ، بعد أن أدلى ببعض أجوبة وملاحظات غير محصنة ، أنه يرغب
كذلك فى تجنب الموضوع الآن . ولم يطلب لى جون أن يحضر فى رفقة لى البيت
وفق ما كان ينوى . وعرج على الجنوب بعد مغادرة المعسكر ، ودخل البلدة
ليتحول هناك حتى يستقر رأيه على ما هو صانع .

كان ذلك فى اليوم الثالث من سبتمبر ، ولكن مصيف الملك البحرى كان
لا يزال يحتفظ بمظهره الصينى . وقد جرى « بكشك الاستحمام » (١) للملكى
فى نفس الوقت الذى وصل فيه بوب إلى قصر جاوستر ، وقد وقف هناك برهة
إذ لم يجد تسليية أخرى يتسلى بالنظر إليها : وما غاضت « آلة استحمام » الملك

(١) «كشك» استحمام ذو عجلات يدفعه ندى داخل الماء فى شواطئ البحر .

في الماء حتى ظهر جمع من رجال متألق المظهر يحملون الكبان والقيثارة والمزامير والطبل ، وتقدموا واحتشدوا في « كشك استحمام » آخر كان في انتظارهم . وسحب « الكشك » إلى حيث تراقص الأمواج في مؤخرة « الكشك الملكي » . وكان خفق البحر البطيء هو كل ما يمكن سماعه مدة بضع دقائق . ثم انفجر من داخل « الكشك » الثاني صوت يصم الأذان . وقد بلغ من قوته أن شق جوانب الكشك شقاً . وقد حدث ذلك من حشد الموسيقيين المتكأ كثرين داخله وهم يعزفون نشيد «حفظ الله الملك » ، وعندئذ أطل جلالته برأسه من الماء . ورفع بوب قبمته ، وانتظر حتى انتهاء هذا المشهد الذي قصد به نواب المقاطعة المخلصون أن يكون مفاجأة سارة لجورج الثالث . ولعل ذلك الملك المكتنز الشحم (١) كان يجده مضيقاً أكر مما كان يجده مرغوباً فيه نظراً إلى ظروف المصيف في ذلك العام .

وانتقل لفدى بعد ذلك إلى الميناء حيث قضى بعض الوقت متطلعاً إلى منظر الحركة الدائبة الخاصة بشحن السفن وتفريغها ، وتنظيف ظهور « اليخوت » ، وإلى القوارب والصنادل المحتكة برصيف الميناء ، وإلى بيوت التجار ، وهي تنقسم إلى أبنية قديمة مشيدة من حجر صلد ، وأخرى من خشب أخضر موشج ، لها نوافذ خشبية مقوسة ثقيلة الوزن تبدو كأنها ستسقط في الميناء لثقلها . لقد أنعم النظر في هذه الأشياء كافة ، وانحصر تفكيره في شيء واحد . . . هو أنه أشقى أخاه جون لإشقاء شديداً .

ودقت ساعة المدينة . وعاد بوب أدراجه إلى أن اقترب من « المنزه » ، وقصد قصر « جلوستر » ، الذي سطعت الشمس على جوانبه الأمامية حتى لم يبد أن هناك بقعة ظليلة يمكن تفويها . وتردد هتاف جذب انتباهه ، ولاحظ أن عدداً من الناس احتشد أمام قصر الملك حيث وقفت عربة ذات مجلتين ، ونزل منها رجل في مقبل العمر ، متين البنيان ، يرتدى بزة زرقاء ذات أشرطة مذهبة على الكففين ، وقبعة مزينة بريشة ، يحمل سيفاً . وقد اجتاز الرصيف ، ودخل القصر . وتقدم بوب فانضم إلى الحشد وقال :

(١) تراجع المقدمة (ورد هذا في الأصل) .

— ماذا يجري هنا ؟
— وأجاب أحد الواقفين إلى جواره :
— كابتن هاردى (١) ؟
— وما شأنه ؟
— دخل الساعة ... منتظراً مقابلة الملك .
— ولكن الكابتن فى جزائر الهند الغربية ؟
— لا . لقد عاد الاسطول إلى الوطن . لانهم لم يعثروا للفرنسيين على أثر
فى أى مكان .
وسأل بوب :

— وهل يرحلون ويحشون عنهم ثانية ؟

— أوو ، نعم . . . فإن نلسون مصمم على أن يجدهم . وسيعود إلى عرض
البحر بعد إعداد الاسطول من جديد . آه ! ها هو ذا الملك يدخل القصر .
وقد اهتم بوب بما سمع الساعة اهتماماً شديداً إلى حد أنه لم يكدهم يلاحظ قدوم
الملك وحاشيته من السادة النبلاء . واسترسل مفكراً فيما سمعه أخيراً . . . لقد
جاء كابتن هاردى ! لاشك أنه يقيم بين أسرته فى منزله بموطنه « بوس —
هام (٢) » ، الذى يعد أميالا قليلة عن أوفركب . وقد اعتاد أن يقضى فيه الفترات
التي تتخلل طوافه بالبحار .

وعاد لندى إلى الطاحون دون أن يتأخر مدة أطول من ذلك . وبعد أن
أوضح باختصار أن جون بخير ، وسيحضر قريباً ، راح يتحدث عن مقدم ربان
السفينة المعقود لوازها لنلسون .

وقال صاحب الطاحون وهو ينفذ خواطره إلى سنين خلت :

— وهل حضر آخر الأمر ؟ حسنا ، إنى أستطيع أن أذكر يوم غادر البلاد
على ظهر السفينة « هيلينا » ، وهو يعمل بها صف ضابط !

(١) هو سير توماس ماسترمان (١٧٦٩ — ١٨٣٠) قائد السفينة « النصر » التي
كانت ترفع علم « الأميرالية » تحت لمرّة نلسون فى موقعة الطرف الأغر . (شرح الأصل)
(٢) المقصود « بوريتشام » موطن أسرة هاردى نذ السلف . (شرح لأصل)

وقالت السيدة لعدى :

— ليست هذه بالذكرى العريضة ، فأنا أيضاً أستطيع أن أتذكرها .

— لأنها ترجع على أية حال إلى ما قبل أكثر من عشرين سنة مضت . وأنا أستطيع أن أذكر أيضاً يوم ولد ، وكنت وقتذاك غلاماً يزاول المراتة على المهنة . وقد جاء في صباه إلى هذا البيت مراراً وتكراراً . ومكث في هذه الأثناء مدة طويلة بعد عودته من رحلته الأولى ، واعتاد أن يزور الطاحون كلما مر به . وقالت له أمى ذات يوم وهو يولى قائمة الباب ظهره : « ماذا ستصبح بعد ذلك ياسيدي ؟ » . فأجابها « ملازماً ، ياسيدة لعدى !! » وقالت له : « وماذا بعد ذلك ؟ » « قائداً . » « وبعد ذلك ؟ » « بعد ذلك ساعد ريان . » « ثم ماذا ؟ » « ثم أمير الاء ، » « وبعد ذلك ؟ » « بعد ذلك تخين الوفاة . » وأنا ضامن أنه يذكر ذلك حتى يومنا هذا فيما إذا سألته .

وسمع بوب هذا كله وهو مشغول البال . ولم يلبث بعد ذلك أن عاد أدراجه إلى الطاحون . ومن ثم توجه إلى غرفته سالكا المر الخلفى . وأخرج ثياب رحلات البحر من خزانة مظلمة داخل الحائط ، ونقلها إلى الغرفة المسجورة في أعلى الطاحون ، وقضى بقية لحظات الفراغ من يومه في نفض الأوساخ العفنة عن طيات تلك الثياب ، ونشر كل قطعة منها في النافذة لتهويتها . وفي المساء عاد إلى الغرفة المسجورة ، وبعد أن ارتدى ثوبه البحرى القديم خرج من البيت دون أن يلحظه أحد ، وصعد في الطريق إلى البلدة التي قضى فيها كابتن هاردى أيام صباه ، واتخذها في الوقت الحاضر محل إقامة مؤقتة .

ودكنت البيد الحالية من الظل بفعل جفاف الصيف الجارى ، ولم يقع بصر بوب إلا على قليل من الأحياء . ولم يشب استدارة الریوة الطبيعية إلا مكان يبدو بين حين وحين مكونا من كومة تراب ، وعشب شائك ، أو قطعة يابسة باقية من حائط حاولوا إقامة سوراً حول المكان . وكان الظلام قد نشر ظلاله لدى وصوله إلى القرية ، وأخذت النجوم الكبيرة تشع وهو يسير إلى باب البيت العتيق الطراز الذى كان مقرراً لفرع أسرة هاردى الذى استوطن جنوب ويسكس .

وسأل لعدى بعد أن أوضح من يكون ، وما حرفته .

— هل يسمح لي الربان أن أنتظر لأقابه الليلة ؟

وغاب الخادم بضع دقائق ثم قال له إنه يستطيع مقابلته في الصباح التالي :

وأجاب بوب شاعراً باهتاج شديد لأن إخفافه لم يكن شاملاً .

— مادام الأمر كذلك ، فسأعود ثانية ،

وما ابتعد عن الباب غير خطوات حتى تؤدي ثانية ، وسئل هل قدم من

أوفركب ماشياً لهذا الغرض وحده .

وأجاب بوب في اتضاع بأنه أقدم على ذلك فعلاً :

— هل تفضل بالدخول إذن ؟

وتبع محدثه إلى غرفة مطالعة صغيرة أو غرفة مكتب . ولم تمض دقيقة

أو دقيقتان حتى دخل كابتن هاردى .

وكان الكبّين في ذلك الوقت أعزب في نحو الخامسة والثلاثين ! أقرب إلى

سمنة البدن ، لون عينيه زاه ، وحاجباه كنيغان ، ووجهه مربع عريض ، وذقنه

كبيرة ، وركنا شفتيه يتراوحان بين البشاشة والعبوس . وقد لخص بوب بنظره

من قمة رأسه الى إخصص قدمه .

وقال بوب منحنيا انحناءة بسيطة :

— أنا روبرت لعدى ياسيدى ، ابن صاحب الطاحون في أوفركب .

وأجاب الملاح الدمك :

— آه ، أنا أتذكر أبك ، لعدى . حسناً ، فيم تريد محادثتي ؟

وإذ وجد بوب يعاني بعض الصعوبة في افتتاح الحديث مال الهوينا على

سطح المدفأة ، واستأنف القول :

— هل أبوك في صحة وعافية ؟ إلى لم أراه منذ سنوات عديدة جداً .

— لأنه على أحسن حال ... شكراً .

— كان لك أخ في الجيش على ما أظن ؟ ماذا كالي اسمه ... جون ؟ شاب ممتاز

جداً ! هذا إذا كانت الذاكرة لم تخفى .

— نعم ، ياكابتن . وهو لا يزال هناك .

— وأنت في البحرية التجارية ؟

— كنت وكيلاً لربان السفينة بيوت .

— وكيف لاتعمل على ظهر سفينة حربية ملاحاً بحارياً ؟

وقال بوب وهو يستعيد الثقة بنفسه :

— نعم ، يا سيدي . هذا هو الأمر الذي جئتك في شأنه . وكان ينبغي على أن أكون كذلك ، ولكن النساء عرفنتني . وقد ظلت أنتظر وأنتظر في بلدي بسبب فتاة ... أو سيدة ، على ما كان ينبغي أن أعتبها ... لأنها نشأت في طبقة من المجتمع أرقى من طبقتي . كان أبوها يشتغل مصوراً للناظر الطبيعية ... ولعلك سمعت باسمه ياسيدي ، إن اسمه « جارلانده » .

وقال كابتن هاردي ناظراً الى لوحة صغيرة قائمة تبدو في أحد أركان الغرفة :

— لقد رسم هذا المنظر من قريتنا هنا .

وتطلع بوب إلى اللوحة ، واستأنف القول وكأنه يخاطبها :

— حسناً ، ياسيدي ، لقد رأيت أنه... وبرغم ذلك جاءت وفرقة الإرغام ، منذ أسبوع أو أسبوعين ، ولم تستطع القبض على . فأننا لا أود أن أركب البحر مرغماً . كانت الحاجة إلى ذلك ماسة جداً . إنها بالطبع ضرورة كريمة ، ولكن لم يكن يستطيع تجنبها .

— وقد حدث منذ ذلك الوقت أمر جعلني أتمنى يا سيدي لو أنهم وجدوني .

وإني جئت أسألك الليلة هل أستطيع العمل على سفينتك « فكتوريا » ؟

وهز السكابتن رأسه بشدة ، ولاحظ على الفور :

— يسعدني أن أجدك تفكر في القيام بالخدمة العسكرية بالندى ، فالحاجة

الى الرجال الحاذقين ماسة جداً ، ولكنه لن يكون في مقدورك أن تختار سفينتك .

وقال بوب ، وقد نم وجهه على اليأس الذي لم يشأ أن يفصح عنه كل

الإفصاح :

— حسناً ، حسناً ياسيدي . ينبغي على إذن أن أجرب حظي في مكان آخر .

وكل ما في الأمر أن شعرت بأنه أولى بكثير أن أعمل تحت إمرتك قبل أى

قائد غيرك . وأنت يا كابتن هاردى تعرف أبى وتعرفنا جميعاً ، وأسرتانا من نفس هذه النواحي .

وأهمت كابتن هاردى بترفع بوب اهتماماً أشد ، وسأله متأملاً :

— هل أنت ملاح طيب متمرس ؟

— نعم ياسيدى . . أعتقد أنى كذلك .

— ونشط ؟ وميال الى المرح ؟

— حسناً . لىنى لا أعرف شيئاً عما ذكرته أخيراً ، ولكن بوسعى أن أقول أنى نشط بقدر كاف . فأنا أستطيع أن أسير على طرف الراجع ، فيما إذا تطلب الأمر ذلك ، وأن أنتقل فوق الحواجز من شراع الى شراع ، وأقوم بكل ما يقوم به الفتيان الذين يسمون أنفسهم بارعين .

وسأله الكابتن فى إثر ذلك بعض الأسئلة عن تفاصيل علم الملاحة . وأجاب عليها لىنى لإجابات مرضية ، وكان لحسن الحظ قد خبر أجهزة السفن المجهزة العريضة . وأضاف قوله :

— أما عن لف أعلى الشراع فإنى أتمه فى مثل ومض البرق ، وإذا لم أفعل ذلك فإنى أستطيع أن أله على نحو يتحمل الجو العاصف . ولم تكن « بيوت » سفينة بطيئة ، وعندما رافقنا الفرقاطة فى طريق عودتنا من لشبونة إلى بلدنا ، استطاعت سفينتنا وهى تسير بأقصى سرعتها ، أن تظل على مرمى البصر من تلك السفينة الحربية المتدفعة مع الريح على مبعده منا . وكان لدينا عدد كاف من الملاحين الذين يلفون أعلى الأشرعة على طريقة الجنود البحارة ، وهذا أمر عزيز النوال فى هذه الأيام ياسيدى إذ يندر وجود الملاحين الأكفاء الآن فى مجال الملاحة التجارية . . .

وأردف بوب فى إخلاص :

— وإنى لأسمع أن الأسطول الحربى يفضل كثيراً الملاحين الذين عملوا على السفن المجهزة العريضة لكونهم مدربين معدين للعمل ؟ وعلى ذلك لن أكون ناقص البراية كلية إذا ما استطعت الالتحاق بسفينتك ، بيد أنى إذا لم أستطع ذلك فلا بالذ حيلة .

وقال الكابتن مستغرباً في التفكير :

— قد أطلبك يا لعدى فأذهب إلى هناك إذن على هذا الأساس . وبجمل القول أنى قد أستطيع الإفضاء إليك ! على ما يبدو لى ، بأنى سأطلبك ، وعلى ذلك عد الأمر مقضياً .

وقال لعدى :

— أشكرك ياسيدى .

— هل أنت لا تجهل أن فيكتوريا سفينة أنيقة ، وأن النظافة والنظام لاغنى عنهما فيها ، والإصرار عليهما هناك أدق من الإصرار عليهما فى أى مكان آخر ! — أنا على بينة من ذلك تماماً ياسيدى .

— حسناً . أرجو أن تودى واجبك على ظهر السفينة الحربية ، بمثل المهمة التى أديته بها وأنت نائب ربان على ظهر السفينة ذات الشراعين ، فهذا الواجب قد يكون خطيراً .

وأجاب بوب بأن محاولة ذلك ستكون أهم محاولة له . ودار لينصرف بعد أن تلقى بضع تعليمات عن ركوبه سفينة الحراسة ، وانتقاله إلى بور تسموث . واختتم الكابتن قوله وهو يطل من النافذة :

— ستقطع شوطاً شاقاً يا لعدى قبل أن تصل فى هذه الليلة المظلمة إلى طاحون أوفر كيب ، ولهذا سأرسل لك كأساً من الخمر لتعينك على قطع الطريق .

ومن ثم انصرف الكابتن تاركاً بوب لنفسه ، وبعد أن شرب هذا الأخير كأس الخمر التى جىء له بها بدأ يسلك طريق بيته بقلب لم يشعر بالحفاة تماماً ، ولكنه امتلاً بابتهاج وطنى ظل دون اضطلال لدى دخوله بيت أبيه بعد أن سار فى سيرة انفعاله على عجل الى حد أن نضدت حبات العرق جسمه .

وكان الجميع ساهرين فى انتظاره . ورفعوا فى قلق أعينهم الناعسة لدى اقترابه ، فقد كادت الساعة توافى الحادية عشر . وصاحت آن قافزة ضاحكة لعدى شعورها بالفرح :

— ها هوذا . كنت أعلم أن تأخره لن يطول كثيراً ! .. لقد رأوا أن حالتك

كانت غريبة جداً اليوم يا بوب ، وأنت كنت تلوذ بالصمت ، ولكن هذا غير صحيح ! أليس كذلك ؟

— وقال صاحب الطاحون :

ما الأمر يا بوب ؟

ذلك لأن المحادثة الأخيرة خلعت على وجه بوب جلالاته أشبه بجلال القوس ساعة خروجه من « أعماق » المعبد .
ولاحظت السيدة لفتى :

— إنه يرتدى سترة وكيل ريان ، كما كان يرتديها تماماً لدى عودته من الغربة .
وفطن جميعهم الآن إلى أن لديه كلاماً يريد أن يفرضه . وقال عندما جلس :
— إني . سأرحل . سأرحل لالتحق بالخدمة العسكرية في الأسطول ، ولعلني سأخدم على ظهر السفينة « فيكتوريا » .
وقالت آن متخاذلة القوى :

— سترحل ؟

ومضى في قوله بابسا ، وهو يقبض على يدها :

— والآن ، لا عليك من ذلك ، فهناك عزيز مازال بلغيا . وأنت يا أني ، لا تشرع في أخذ الأمر مأخذ الجد . (وكان صاحب الطاحون يبدو مهموماً)
كانت فرقة الإرغام هنا . وبرغم أني أهديت لها أني رجل حر ، فسأبدى للناس كافة أني قادر على القيام بواجبي .

ولم يحبه أحد الثلاثة الحاضرين ، وكان كل من آن وصاحب الطاحون يرخي بصره إلى الأرض ، وحاولت الفتاة أن تكف دموعها عن الجريان .

واستأنف بوب القول :

— والآن لا يحزن كل منكما ، ولا يتكدر لأن ذلك قد حدث . وأرجو ألا تغضب على يا أني لأنني تخليت عنك وعن الطاحون التي أنت في حاجة إلى عملي بها ، فإني مضطر إلى الذهاب . فقد ظللنا نحن وسائر المواطنين بخاف العدو طوال هذه السنوات الثلاث ، واضمحلت التجارة ، وجماع المساكين ، وتحول كثير من الأغنياء إلى فقراء . ولا بد أن يكون ثمة خلاص من هذا . وذلك الخلاص

لن يتم إلا في البحر وقد قابلت كابتن هاردى ، وسأعمل تحت إمرته إذا كان ذلك فى استطاعتى .

— كابتن هاردى ؟

— نعم . وقد ذهبت إلى بيته فى « بوس هام » حيث ينزل هو وأخواته . وقطعت المسافة على قدمى ذهاباً وإياباً ، وما كنت لأقبل أن يفوتنى ذلك ولوفى نظير خمسين جنيتها . وكان أملى فى أن يقابلنى ضعيفاً ، ولكنى قابلته فعلاً . وهو لم ينسك يا أبى .

وبدأ بوب يقص قصته مرتبة ، ذاكراً على نحو مؤثر المحادثة التى كان طرفاً فيها . وأنصتوا إليه فى انتباه انبهرت له أنفاسهم .

وقال صاحب الطاحون فى انفعال :

— حسناً . إذا كان لا بد من ذهابك ، فليكن ذلك . ولكنى أظن أن يصعب على بعض الشيء من ولدى الاثنين ألا يتيسر حل أحدهما على البقاء ومعاوتى فى العمل بينما تتقدم فى السن .

وقالت السيدة لعدى قاصدة تهدئته :

— لا تجزع ، ولا تشكدر لذلك ، فإن كليهما أداتان فى يد القدر وقع عليهما الاختيار للاقتصاص من ذلك الغول الكورسيكى ، وبذل ما فى وسعهما لخدمة وطنهما فى هذه السنوات العصيبة .

وقال بوب :

— هذا هو تكييف الأمر تماماً ياسيدة لعدى .

وواصلت السيدة قولها متافئة صوب آن .

— وسيعود قريباً ، وسيحدثنا عندئذ عن كل ما شاهدته ، وعن المجد الذى حققه . وكيف عاون على اكتساح هذه المحنة البونبارتية من ظهر الأرض .

وسأل أبوه :

— متى سترحل ؟

— غداً إذا كان ذلك فى استطاعتى . وسأزور المعسكر عند مرورى به ،

وأخبر جون بالامر . ولدى وصولى إلى بورتسهاوث ...

وقطع عليه القول دوى من زفرات انطلقت من آن التي كانت تجلس من قبل،
هادئة في الظاهر كل الهدوء ، ويدها في يد بوب وفقرت السيدة لعدى من مكانها،
وقبل أن تقول شيئاً يهدى من روع الفتاة المحتاجة تمسكت هذه الأخيرة من
تهدئة نفسها بمثل السرعة التي تميز بها انبهارها الفجائي ... وقالت :

— أنا لا أهتم برحيل بوب ، بل أرى أن عليه أن يرحل ... لا تظن يا بوب
أني أريد بقاءك !

وغادرت الغرفة بعد ذلك ، وذهبت إلى الغرفة الصغيرة الجانية التي اعتادت
هي وأمها أن تقوموا فيها بأعمال التطريز . ولحق بها بوب بعد دقائق قليلة ، وأصبح
لدى عودته في حالة شديدة من الاكتئاب والانفعال . وكان في وسع كل واحد
أن يدرك أنه قد جرى وداع بينهما برح بكل منهما تبريحاً عميقاً ... وقال :

— لأنها لن تعود إلى هنا الليلة .

وقالت أمها :

— هل تراها غداً قبل رحيلك ؟

فأجاب :

— قد أستطيع ، وقد لا أستطيع . أرجو أن تأوياً الآن إلى فراشك يا أبي
ويا سيدة لعدى ، فإن على الآن أن أتفقد حاجياتي ، وأعد نفسي للرحيل ،
وسيستغرق ذلك قليلاً من الوقت . فإذا سمعنا جلبة فأعلنا أنها ليست إلا صوت
تنقل .

وعندما تركوا بوب وحيداً أصبح على حين لجأة نشطاً ، وعكف على تهئية
ملابسه وأشياءه الأخرى بطريقة منظمة . وكانت الساعة قد جاوزت الثانية عند
ما أتم إعداد صندوقه ، وطوى الأشياء التي قصد تركها بالبيت في خزان الملابس ،
وأعدم الأشياء التي لم تعد لها فائدة . ثم أوى إلى فراشه في هدوء شديد إلى حد أن
صرير درجة واحدة قلقة من درجات السلم تمت على صعوده إلى علو البيت . وفي
لحظة مروره بباب غرفة آن كانت أمها تميل عليها وهي راقدة في فراشها وتقول لها .

— ألن تراه غداً ؟

وقالت آن :

— لا ، لا ، فأننا أوترألا أراه ، وقد قلت إن ذلك محتمل ، ولكنه لن يكون ، فأننا لا أستطيع أن أراه ثانية !

وعندما استيقظ أفراد الأسرة صباح اليوم التالي لم يجدوا لبوب أثراً . وكان من عادته أن يحتج على هذا النحو ليتحاشى مشاهدة الفراق المؤثرة . وفى وقت جلوسهم إلى مائدة الإفطار متجهين كان بوب يركب قارباً صغيراً للعبور ، ويمر فيه بجوانب سفينة الحراسة ، ويمسك بجبل الصعود ، ويصعد ويتوارى عن أعين الناظرين من الخارج . وأقلمت السفينة فى غضون النهار ، ورفعت شراعها الملصق (١) ، وغزت البحر إلى بور تسموث ، مقلة حسمائة رجل للعمل على ظهرها ، وبعض هؤلاء من الرجال المرغين على العمل ، وبعضهم الآخر من المتطوعين ، ومن بين هؤلاء الآخرين روبرت لفدى .

(١) شراع ملصق صغير يخفق فوق الشراع الكبير (نرح الأمل)

بقعة صغيرة

فوق متن البحر

(٣٤)

قال بوب لجون وهو يفارقه ، وكان هذا الأخير قد رافقه إلى رصيف الميناء :
— هذه هي كلماتي الأخيرة لك الآن يا جاك : إني أتنازل لك عنها ،
ورحيلي هذا عن قصد ، وسيطول غيابي . وإذا ما كنت إليك فأحرص على أن تنالها
مهما يكن هذا الميل قليلا . إن لك عليها حقاً يسبق حتى أنا ، فإنك اخترتها وقتها
كان بالي مشغولاً بغيرها ، وأنت أجدر بها ، فأني لم أعد منك نسيان امرأة
واحدة بينما نسيت أنا أكثر من عشرين نساء . خذها إذن فيما إذا أقبلت ، وليبارك
الله كليكما .

وكان هناك شخص آخر في توديع بوب غير جون . هذا الشخص هو دريمان
الذي كان يقف عند « المراتب » (١) في رصيف الميناء ، على بعد قليل منهما . وهو
لم يكتم رضاه عن هذا المشهد . ونظر إليه جون نظرة ازدراء صريحة ، فإن اللسكات
التي كالمها للفارس المتطوع لم ترفيه ، على حد علم جاويش البروجي ، أية رغبة
في الأخذ بالتأثر لتلك الإهانة . وكان جون لا يعلم قط بالطبع أن فستوس نسب
الامر خطأ إلى بوب على طريقته الغريبة ، وإن كانت لا تكاد تمت إلى العسكرية
بصلة . ومضى جون إلى سبيله إذ وجده لم يقدم الآن حتى على الاقتراب منه ،
وأخذ يفكر فيما اعترمه من المحافظة على علاقة الحب بين آن وأخيه سليمة دون
إن تمس .

وقد أدهشه ، عندما ذهب بعد ذلك إلى الطاحون ، أن يجد كيف سر الجميع
برؤيته . ولم تعد آن تعيش على ظهر الأرض منذ اللحظة التي عاد فيها بوب إلى
جوف المحيط . وقد ينظر الناس إلى جسدها البشري ويقولون إنه انطلق إلى

(١) جبال أو سلاسل حديدية مثبتة في رصيف الميناء تربط بها السفن عند رسوها -
(نرحم الأصل)

هناك . فالبحر وكل ما يتعلق بالبحر كان مجال تفكيرها بالنهار ، وحلها بالليل . وكانت الامنتان والثلاثون ربحاً تحت بصرها ، وكل عاصفة ترافق تلك الرياح لدى عودة الخيف مسجلة في ذهنها . وأصبحت على علم دقيق بالجهات التي تقع فيها بور تسموث ، وبريست ، وفيرول ، وقادس وغيرها من الأماكن المماثلة . وبدلاً من ترديد صلواتها الخاصة المعتادة في المساء ، رددت مكانها ، وهي تعاني بعض البلبلة الفكرية ، صيغ الصلوات ، التي تردد في البحار . ولاحظ جون على الفور غيبتها ، ونظراتها الشاردة ، فرثى لها — ولكم رثى لها — وسألها عندما اختلت بها هل هناك مطلب يمكن أن يؤديها لها .

وقالت وفي عينيها حماسة تكاد تكون صيانية :

— هناك مطلبان .

— سيقضيان لك .

— أولهما أن تعرف هل عاد كاتب هاردي إلى سفينته . وثانيهما ... أوو ، هل تقضيه لي يا جون ! ... أن تحضر لي جرائد كلما أتبع لك ذلك . وغاب جون مدة ثلاث ساعات بعد هذا الحديث الذي دار بينهما ، وظن من بالبيت أنه عاد إلى المعسكر . ومع ذلك فقد دخل في نهاية هذا الأمد ، وخلع قبعته المصنوعة من قش ، ومسح عرق جبهته .

وقال أبوه :

— يبدو عليك التعب يا جون .

— أوو ، لا .

ودار في أرجاء البيت حتى وجد أن جارلاند . وقال لها :

— أنا لم أقض إلا أحد مطلييك .

— ماذا ! أبهذه السرعة ؟ أنا لم آمل ، ولم أقصد أن تقوم بذلك اليوم .

— لقد غادر كاتب هاردي بوس هام ، وكان ذلك منذ بضعة أيام . وسنسمع

عما قريب أن الأسطول أقطع .

— أقطعت الطريق إلى بوس هام لهذا الغرض ؟ ما ألفت ذلك منك !

حسناً ، لقد كنت مهتماً ، أنا نفسي ، بمعرفة الوقت الذي يحتمل أن يسافر فيه

بوس هام . ولإن أتوقع الآن أن ترد لنا أخبار منه

وعاد بعد يومين يحمل جريدة ، ويحمل كذلك ما يفوقها أهمية ، وهو رسالة
لأن معفاة من أجرة البريد بخاتم نائب الزبان الأول للسفينة « فيكتورى » .
وقالت آن وهى تأخذ الرسالة فى لففة :
— إنه على ظهرها لاذن .

كانت الرسالة قصيرة ، ولكنها وافية بالقدر الذى يمكن أن تتوقفه آن فى
مثل هذه الظروف . وقد أخبرهم فيها أن الكابتن كان عند حسن وعده ، وحقق
لبوب رغبته الصادقة فى العمل تحت إمرته . وكان مقرراً للسفينة التى تحمل
الأميرال لورد نلسون على ظهرها أن تبحر خلال يومين ، فى صحبة الفرقاطة
« أوربالوس » ، إلى بلباو حيث تلتحق بها سفن أخرى ، ومن ثم تقلع جميعا
إلى ساحل إسبانيا .

واضطجعت آن تلك الليلة صاحبة تفكر فى « فيكتورى » ، وفى الذين أبحرو
على ظهرها . وكانت هذه السفينة الحربية ، وفقا لأدق تقديرات آن ، ستمر خلال
الساعات الأربع والعشرين القادمة على بعد بضعة أميال من هذا المكان الذى ترقد
فيه . والشىء الذى كان أجدد بإسعادها من أى شىء آخر فى الدنيا ، بعد رؤية
بوب ، هو أن ترى السفينة التى تضمه . أن ترى مدينته العائمة ، وموئله الوحيد
فى معمران الحرب والعاصفة ، ومناط أملها كله فى سلامته من الرياح العاصفة
من أعدائه .

وكان الصباح التالى هو ميعاد انعقاد السوق فى الميناء ، وقد وجدت آن
فى ذلك فرصتها . وكانت هناك عربة برید تنادر أوفركب إلى هناك فى الساعة
السادسة ، واحتاجت آن لشراء أشياء قليلة فاتخذت من ذلك حجة للتغيب الذى
نوته فى ذلك اليوم ، واتخذت لها مكاناً فى تلك العربة . وكان الصباح مازال
باكراً عندما وصلت إلى البلدة ، ولكن المكان كان قد وصل إلى أوج صحبه
وتجليه اليومى . واعتاد الملك فى الساعة السادسة من كل يوم أن يكون خارج
قصره . وفى مثل هذه الساعات المبكرة تحدث بين السكان فى جلوستر حركة
مماثلة . ونزلت آن من العربة ، وانحدرت إلى المنتزه الساحلى الذى اكتظ بأناس
عصرى الملابس فى هذا الوقت ذى الضباب وأشعة الشمس الهادئة ، وكان المكان
فى اكتظاظه أشبه بمنزه بحرى من منزهات ذلك العصر فى الساعة الرابعة من

بعد الظهور. وحلق في آن وهي تمشي سرعة ، فتبان بجثرون ، من كل غير وتبيع
نساء ، يرتدون قبعات مزخرفة ، وأثواب سود ذات حواشي وفضيات . واحتشد
الشاطيء بفساء يبتردن وكل منهن تتمنطن بوشاح كتب عليه بأحرف من ذهب .
ذلك الشعار الوطني ، حفظ الله الملك ، وكانت الحوائث مفتححة الأبواب جميعا ،
والجاويز ستار ، بسيفه الذي ينظم الأوراق المالية ، ونظراته الباسلة ، يهز
في الهواء مبلغ جنهين ، وربال إنجليزي ، ، وكان الريال ، مخصصا لمعاقره الخنزير
في صحة صاحب الجلالة .

وانتهت أخيراً من شراء حاجياتها ، ثم واصلت سيرها على طول الطريق
الساحلي إلى بورتلاند بعد أن عبرت البلدة القديمة . وبعد سير ساعة ركبت
قاربا اجتازت به مراكب الأسطول المصطفة (التي لم تكن تصلح جسرا ملائما)
ووصلت إلى قاعدة « بورتلاند هيل » . وكان جانب التل ، الشديد الانحدار ،
البادي أمامها ، منمنما بدور تتجلى عن خصائصها العجيبة ، وهي أن يقوم باب
كل جار خلف مدخنة جاره ، وأن تكون المادة العامة المستعملة في إقامة الحيطان
والاسقف ، ورصف الأرض ، وبناء حظائر الخنازير ، ومذاود الاسطبلات ،
وماسح الأرجل أمام الأبواب ، وقوائم مداخل الحدائق ، هي قطع البلاط .
ووصلت آن إلى أعلى التل ، ومن ثم اتبعت الطريق الرئيسي سائرة فوق كومة
الحجر الرمل الضخمة التي تكون شبه الجزيرة . وكان منظر البحر العريض ينبسط
أمام آن كلها سارت قدما . واقتربت ، وقد أجهدتها الرحلة ، من قمة الصخرة
الواقعة إلى أقصى الجنوب ونظرت من المنحدر إلى « بورتلاند بل » أو « بيل » ،
وهو النطق الأصح الذي كان ينطق به في تلك الأيام .

وكان رأس التل ، الممتد في البحر ، الموحش المقفر ، البالي بفعل تقلب
الجو ، في عزلة تامه ، ولولا منارة قديمة قائمة على ارتفاع خمسين ياردة من
المنحدر لندرت رؤية علامة تدل على أن إنسانا اقترب من هذه البقعة . ووجدت
أن لنفسها مقعدا فوق حجر ، وأجالت طرفها في امتداد العباب الهائل المحيط
بها ، وكان يبدو أنه يرتل تعاويذ غير مفهومة لا تنقطع . وكان الموج يغطي
ارتفاعا يبلغ مائتين وستين درجة من مجموع ارتفاع الخط الأفقي الذي تقف عليه
والذي يبلغ ثلاثمائة وستين درجة . والنظرة السريعة ، تشمل منطقة المياه

المضطربة المعروفة باسم « ذى ريس » حيث يلتقي بحران يتسديان في تحطيم مثل تارك السفن التي لا يمكن لبحر واحد أن يتغلب عليها . وأحصت أن القوارب الواقعة تحت بصرها ... كانت خمسة .. لا ، بل كانت أربعة فقط ... لا ، بل كانت سبعة ، فالواحدة من بعض هذه البقع المرئية كانت تنشطر إلى اثنتين . وكانت جميعها من القوارب الساحلية التي تظل دائماً على مرمى النظر من البر .

واستغرقت آن في شروود ذهني . ثم سمعت جلبة خفيفة عن يسارها . وتلفتت فرأت ملاحاً هرباً يقترب حاملاً منظارا ، ويصوبه إلى البحر في الاتجاه الجنوبي الشرقي ، مبتعداً قليلاً عن المكان الذي كانت عينها تجولان فيه . وخطت آن بضع خطوات إلى ذلك الاتجاه حتى يتكشف لعينها مجال أوسع من هذه الناحية ، وعلى ذلك اهتدى بصرها إلى سفينة أكبر حجماً من أية سفينة سبق أن بدت أمامها في عرض البحر . كانت قلاعها على الأغلب جديدة نظيفة ، وبدت السفن الصغيرة ، قياساً إلى تقدمها السريع ، كأنها واقفة في مكانها لا تتحرك . وكان منظر الرجل الهرم مائلاً صوب هذا الشيء العجيب . وسألته :

— ماذا ترى أيها النوق ؟

فأجاب :

— لا أكاد أرى شيئاً ، فقد ضعف نظري أخيراً إلى حد أن الأشياء جميعاً تبدو لي كضباب شهر نوفمبر . وأنا مع ذلك أتوق إلى الرؤية اليوم . إنني أنظر باحثاً عن السفينة فيكتوري .

وسألته على عجل :

— لماذا ؟

— لي ابن على ظهرها ، وهو أحد ثلاثة من أهالي هذه الأتجاه . فهناك ريان السفينة ، وهناك ابني جيم ، وهناك لعدى الابن ، من أوفركب ، وهو الذي انضم إلى البحرية أخيراً .

وقالت آن بعد فترة صمت :

— هل أنظر نيابة عنك ؟

— بالطبع يا آنسة ، وهذا يكون من فضلك .

- وتناولت آن منه المنظار ، وسنده لها ببراغه . وقالت الفتاة :
- إنها سفينة كبيرة ذات ثلاثة دلاع ، وثلاثة صفوف من المدافع على طول جانبا ، وقلوعها منشورة جميعها .
- لقد حزت أن بها كل ذلك .
- وهناك علم صغير مرفوع من أمام على « بومبريسها » .
- إنه العلم البحرى .
- وهناك علم آخر كبير يخفق فوق مؤخرتها .
- إنه علم جنسية السفينة .
- وعلم أبيض فوق أعلى مقدمتها .
- إنه علم الإمبرالية . . علم سيدى لورد نلسون . ما هى الصورة الرئيسية المرسومة عليه ؟
- إنه شعار فارس نبيل يسنده نوتى من هذه الناحية .
- وأوما رقيقها فى رضا ، وقال :
- وهناك جندى بحار من الناحية الأخرى .
- إن السفينة تلتوى وتدور على نحو عجيب ، وشراعا ينخسف تكدا العجوز .
- وهى تنفض كورقة الشجر فوق فرعها .
- إنها تهربت لتتخذ خط سيرها إلى اليسار ، وأنا أستطيع أن أرى ما تصنع . فقد اقتربت من الشاطئ لتتجنب عباب المد ، إذ الريح تهب صوب الجنوب الغربى بينما وجهتها سفلية . ولكن ما انحسر المد حتى أداروا دفتها إلى الغرب . والكابتن هاردى يمكن الاعتماد عليه فى هذا ، فهو يعرف كل تيار مائى فى هذه التواحي بحسبانته من أهلها .
- أنا أستطيع الآن أن أرى الناحية الأخرى للعلم ، فالصورة فيه لجندى بينما كانت من قبل للملاح . هل أنت واثق من أنها السفينة « فكتورى » ؟
- أنا واثق من ذلك .
- وبعد ذلك ظهرت الغرقاطة « ذى أوربالوس » ، وكانت تسير فى نفس الاتجاه .
- وجلست آن . ، ولم تتحول عيناها عن السفينتين قط . وقالت :

— زدنى قولاً عن السفينة فيكتورى .

— إنها أحسن سفينة فى الأسطول الحربى ، وتعمل على ظهرها مائة مدفع .
وأثقل تلك المدافع منصوبة على سطحها الأذنى ، والمدافع التى تليها فى الحجم قائمة على
سطحها الأوسط ، ثم ذات الحجم الذى يلى ذلك على سطحها الرئيسى والأعلى .
ومكان عمل ابنى جيم على سطحها الأذنى ، لأنه قصير ، وهم يضعون القصار فى
الجانب الأسفل من السطح .

وبرغم أن بوب ليس بالطويل ، فهو لا يمكن أن يعد ، بوجه خاص ، بين
القصار . وتصورته آن على ظهر السفينة الأعلى مرتدياً سرواله الناصع البياض ،
وسترته البحرية الزرقاء ، ولعله ينظر صوب نفس البقعة التى هى عليها الآن .

ومرت السفينة الضخمة بمن هى أهله بهم من نوتية ، وجنود بحريين ، وضباط ،
وربان ، والأميرال الذى قدر ألا يعود إلى وطنه حياً .. ومرت بدعوة «ذى بل»
كالشبح . وكان منظرها يبدو أحياناً كضرب كرة كبير أبيض ، ويبدو أحياناً
كآخر أشهب . ورات الفتاة المترقة ، مع مرور الزمن ، أن السفينة جاوزت
أقرب نقطة من الساحل . وأخذ شراعها العريض يتضال حتى اتخذت
السفينة شكل بيضة قائمة . وبدأ بعد ذلك كأن شيئاً يتلا لا . وعادت أن إلى الملاح
الحرم ، وكانت قد ابتعدت عنه ، ونظرت ثانية من خلال المنظار : وكان اللاه
غبارة عن انعكاس الضوء على نوافذ الحجرات فى مؤخر السفينة . وشرحت ذلك
للرجل الحرم .

— نحن إذن نرى الآن ما لم يره العدو لإمرة واحدة . وكان ذلك عام ١٧٧٩
عندما شاهدت السفينة الفرنسيين والإسبان على بعد من صقلية . ولكنها ارتدت
إلى الوطن خوفاً من زول الفرنسيين بأرضه . حسناً ، إنها سفينة باسلة تحمل
رجالاً بواسل .

وخفق صدر آن الرقيق ، ولكنها لم تفه بكلمة ، وعادت فاستغرقت
فى تأملاتها .

وكانت «ذى فيكتورى» تدور بسرعة . وظهرت على خط الأفق ، ثم
وضح أنها تتقلص . وبدأ أن توارىها الراهن أشبه ببداية غامة أجل وأروع .

ولم تستطع أن جارلاند أن تبقى إلى جانب الملاح مدة أطول، وابتعدت مسافة
مرى حجر منه حيث احتجبت عن بصره نظراً إلى تخرج سطح الهضبة الصخرية .
وكانت السفينة في هذه اللحظة بالضبط تتوارى نهائياً وهي تناضل البحر متجهة
صوب « ذى ستارت » ، وقد تناقص حجمها حتى أصبح في نسبة حجم الريشة .
وجلست آن ثانية ، وأخرجت بحركة آلية بعض « بسكويت » ، كانت قد جاءت به ،
متوقعة أن انتظارها قد يطول . ولكنها لم تستطع أن تأكل قطعة منه ، وبدا أن
الأكل لا يلائم توتر هذه اللحظة الذهني . وظلت نظرتها المتأثرة تلاحق السفينة
المضمحلة في ولاء الإبرة الثابتة الاتجاه إلى حجر مغنط ، بينما بقي كل عضو فيها
بلا حراك . وتلاشى هيكل السفينة في اليم ، ثم توارى أعلى قلاعها ، ثم أعلى
سواربها ، ولم تعد شيئاً أكثر من جناح ذبابة معلق على خيط بيت عنكبوت .
ثم توارت حتى هذه البقية الباقية . ولم تستطع أن احتمال هذه النهاية إلا بصعوبة ،
ولكنها اعترفت مع ذلك ألا تنكص على أعقابها . وغاص علم الأدميرال وراء
خط الأفق . وفي غضون دقيقة تبددت حتى أسطوانة ربط الحبال في أعلى آخر
شراع ... ومضت « ذى فيكتورى » .

وارتجفت شفة آن وهي تغمغم دون أن تتحول بعينها المبستلتين عن الأفق
الخالئ العبوس :

« أولئك الذين يركبون متن البحر على ظهور السفن . ويقومون بالعمل
في المياه الشاسعة ، ... »

وأجابها صوت رجل صادر من خلفها :

— هؤلاء يرون آيات الخالق وبعجايبه في أعماق البحار .

ودارت في سرعة فرأت جندياً يقف هناك ... وكانت عينا جون لفدى
المهمومان تحنون عليها .

وقالت محاولة أن تحتفظ بتوازنها :

— هذا ما كنت أفكر فيه .

وأجاب برفق :

— هذا ما كنت تقولينه :

. - أكنت أقوله ؟ لم أكن أعلم ذلك .

وأضافت على الفور :

- كيف أتيت إلى هنا ؟ ...

- ظلت واقفاً خلفك مدة طويلة ، ولكنك لم تتلفنى قط .

وقالت في صوت خافت :

- كنت في شغل شاغل .

- نعم ... إلى حيث كذلك لأراه وهو يمر . وقد سمعت صباح اليوم أن لورد نلسون استقل سفينة ، وعلمت في الحال إنهم سيبحرون على الفور . وستلحق « دى فيكتورى » ، و « أوربالوس » ، يباقي الأسطول في بليماوث . وقد احتشد جمع غفير لمشاهدة الأدميرال وهو يقلع بسفينته ، وهتفوا له بينما السفينة تشق طريقها ... ويقولون إنه أخذ كفته على ظهر السفينة معه .

وقالت آن وقد شجبت شجوباً قاتلاً :

- كفته ! إن شيئاً رهيباً يقصد بذلك إذن ! أرو ، لماذا قضى على يوب أن

يبحر على ظهر تلك السفينة ؟ وقد قدر لها أن تدمر هكذا منذ البداية !

وقال جون :

كان قد عقد عزمه على الإبحار تحت إمرة كابتن هاردى دون أى قائد غيره . وقد ينتظره هناك عمل يتعد حرارة ، ولكن علينا أن نؤمل خيراً .

ثم أضاف بعد أن لاحظ مبلغ شقتها :

- ولكن ألا تسمحين أن أعاونك على العودة إلى بيتك ؟ وإذا استطعت أن

تمشى إلى هوب كوف فهذا يكفي ، فإن هناك مركب « ليريت » (١) سيبحر عبر الخليج ، في غضون ساعة ، عانداً إلى الميناء في طريق بيتك . وهو مركب رجل أعرفه ، وأنا واثق من أن في استطاعتهم اصطحاب مسافر آخر .

وأدارت ظهرها إلى القنائة « دى تشانل » ، ووصلت بمعاونته إلى المكان الذى

(١) نوع من المراكب خارج بورتلاند ، وقد بنى خصيصاً ليتعمل المباب الذى يتعش على ساحل تشيذيل « تشيذيل بيتش » (شرح الأصل) .

أشار إليه . وكان القارب راسيا هناك كما قال ، ووجدت أنه ملوك للرجل الحرم
الذى كانت معه في « ذى بل » ، ويتولى ولدا ذلك الرجل الأصفران العمل به ،
وساعدها جاويش البروجي على الانتقال إليه فوق كتل الأحجار الزلقة ، ونشر
أحد الثبان سترته لتجلس عليها ، وما غادروا الشاطئ حتى صعد جون في الهضبة
ذات اللون الرمادي المائل إلى الزرقة ، وتوارى خلف قبتها ليعود إلى مقره سالكا
طريق اليابسة .

ووصلت آن إلى البلدة زهاء الساعة الثالثة ، وكانت رحلتها في مؤخرة القارب
قد أنعشتها تماما مع معاونة « البسكوت » ، الذى استطاعت أخيراً أن تأكله .
يبد أن مركبة السفر بين الميناء وأوفر كيب لم تكن لتبدأ رحلتها إلا في الساعة
الرابعة . وتحولت آن مجتازة قصر الملك إلى الضاحية إذ لم تعد تشعر باهتمام مستجد
بمهاج البلدة ، وقد عاد ذهنها ، بعدما وجدت نفسها وحيدة ، فعلق بسوء مصير
« ذى فيكتورى » ، المحتمل ، ولم تتمعل في سيرها ، إذ بقيت حتى الآن مدة نصف
ساعة أخرى على رحيل مركبة السفر ، وعرجت على ضرب ضيق لتفلك من تطلع
المارين العديدين إليها . وكان كل شيء هنا خاليا ساكنا . وجلست تحت شجرة
ضفصاف ، ونظرت شاردة الذهن إلى المنظر الطبيعي الذى بدأ يترين بالألوان
الفنية للضيف الموشك على الزوال . ولكن ذلك المنظر بدا لها كما يبدو المسرح
الخلاوى الباهت في النهار . ولم تستطع أن تحتل فوق ما احتمات ، فدفتت وجهها
في يديها ، وبكت بكاء لم تسكج بجماعه .

وكان وراءها نبع ماء صغير على بعد خطوات منها ، يحيط به حد من أحجار
مرصوة لمنع البهائم من ارتياد جوانبه وتلويثه بالقاذورات . وغشى هذا المشهد ،
بينما كانت تبكي ، سيدان لم تشعر بمجيئهما ، وسارا إلى حافة النبع ، وتوقفا
هناك ، ونظرا إليه ، ثم دارا حوله ، ثم مالا كأنما يقصدان شمه وتذوق مائه .
وكان النبع في واقع أمره كبريتيا ، وقد استكشفه أخيراً طبيب يقطن في النواحي
المجاورة ، وبدأ يجذب بعض الانتباه بعد أن نسبت إليه الشائعات المتواترة أنه
يتضمن من أنواع العلاج العجيبة ما يفوق حد المعقول .

وبعد مناقشة طويلة بين السيدين دارت على ما يبدو عن الكيفية التي يمكن بها

نحسين حوض النبع لينتفع به على نحو أفضل ، فقل أحد السيدين المتقدمى السن راجعاً ، ودد ترك الآخر وهو يسير ماء النبع بعصاه . ثم عاد ذلك الغريب الأول الذى كان يرتدى ستره زرقاء ذات أزوار مذهبة ، عاد من الجهة التى جلست فيها ، أن ، وأسرع إليها لاذ رأى جلستها الحزينة ، وقال بغتة :

— ماذا بك ؟

وأزاحت أن التى لم تلاحظ وجود السيد وهى مستغرقة فى حزنها ... أزاحت مندليها عن عينيها ، وهبت واقفة على قدميها ، وعرفت على الفور أن محدثها هو الملك .

وسألها جلالتة فى رفق :

— ماذا ، ماذا ، هل تبكين ؟ .

وقالت متخاذلة ، وهى تغض طرفها :

— كنت ... كنت فى توديع صديق عزيز يامولاي .

— آه ! ... الفراق محزن ... محزن جداً ... لنا جميعاً . ينبغي أن تؤملى فى عودة صديقك قريباً . وأين ذهب ؟ أو أين ذهبت ؟ .

— لا أدري يا صاحب الجلالة .

— لاتدرين ؟ ... كيف ذلك ؟ .

— لأنه ملاح على ظهر « ذى فيكتورى » ، .

وقال الملك فى اهتمام :

— إن له إذن مايدعوه إلى للفخر . هل هو أخوك ؟

وحاولت أن أن تشرح له من يكون ، ولكنها عجزت عن ذلك ، واحمرت خجلاً وقد توقد جسمها توقدا موجعا .

— حسناً ، حسناً ، حسناً ... وما اسمه ؟

وبرغم ارتباك أن وتضعض معنويتها ، فقد حدثتها أنوثتها الثاقبة على الفور بأنه لا يمكن أن يكون ثمة ضرر من جهرها باسم بوب . فقالت :

— اسمه روبرت لفدى يامولاي .

- لعدى ... اسم جميل . أنا لن أنساه أبداً . جفنى وجنتيك الآن ،
ولا تبكى بعد ذلك . لعدى ... روبرت لعدى .

وانحنت آن للملك ، فابتسم في بشاشة ، ودار ليلحق برفيقه الذى عرف فيما
بعد أنه الدكتور ... طيب الملك الخاص بقصر « جلوسمتر » . وكان ذلك السيد
قد ملا في هذه الأثناء قارورة من الماء الطي ، ووضعها بعناية في جيبه . وعندما
وصل إليه الملك عاداً معاً أدراجهما ، وتواريا عن الأنظار . وعلى أثر ذلك تبعت
آن نفس طريقهما ، وكانت حواسها قد تنهت تماماً ، وسارت في خطى حذرة
حتى رأتهما في آخر لحظة يستقلان عربة كانت في انتظارهما عند منحى السرب .

ونسيت تماما عربة السفر وكل ما يتعلق بركوبها إلى بيتها ، وسارت غير واعية
في الطريق ، مسرعة حتى تكاد تطير ، وعندما فطنت إلى الناحية التي هي فيها
كانت قد اقتربت من أوفركب إلى حد أن الأمر لم يعد يستحق انتظار قيام تلك
العربة . وكانت قد شجعته على هذا الإسراع في السير الجاد ، في أخريات يوم
مجدد ، أحلام عن ترقية بوب إلى رتبة أميرال ، أو رتبة باهرة مثلها ، بأمر
خاص من الملك ، على أن تكون النتيجة الرئيسية لهذه الترقية ، وفقاً للرواية
الأدبية التي نسقتها ، أن يظل في داره فلا يبحر بعد ذلك أبداً . ولكنها لم تكن
بالقناة التي تسترسل طويلاً وراء تلك الأوهام الشاطحة . وخطر ببالها ، قبل
وصولها إلى بيتها ، أن الملك يكون في هذه الأثناء ، قد نسي ، على الأغلب
متاعها واسم جيبها .

ملاح يدخل البيت

(٣٥)

انقضى الاسبوعان الباقيان من شهر سبتمبر مسجلين هبوطاً عاماً للهباج الذى صحب الصيف . وغادرت الاسرة المالكة مصيفها البحرى فى الاسبوع الاول من شهر أكتوبر . ورحلت الفرقة الألمانية مع مدفعتها فيما بين ذلك الوقت . وظلت فرقة الدراغون فى المعسكر الواقع على تخوم البلدة . وجاء جون لفتدى لأن بكل صحيفة وقعت يده عليها لا سيما ما اشتمل منها على نبذ من أبناء السفن ، وقرب ذلك بينهما كثيراً . وكثيراً ما بدأ جون مرتبكا بسبب ما يبذل من جهد غير مطلوب منه فى سبيل مداراة جبه الكبير لأن .

وقد نمت اهتماماتها نمواً كبيراً ، متجاوزة تخوم أوفر كمب ، والحياة اليومية فى البلدة التى لا تبعد عنها كثيراً ، إلى أن وسعت أوروبا حقاً . بيد أن قطرة واحدة من أبناء متعلقة بنلسون وأسطوله المرابط خارج نغرقادس لم تصل إليها ، أو إلى أحد غيرها ، خلال شهر أكتوبر بأ كله . ولم ينقطع السخر اللاذع المعتاد ببونابرت ، لا سيما بعدما ظهر من أن الجيش الفرنسى بأسره أولى بولونيا ظهره ، واتخذ طريقه إلى الرين . ثم وصلت بلاغات عن الزحف عبر ألمانيا إلى داخل النمسا ، ولكن كلمة واحدة لم ترد عن السفينة « فيكتورى » .

وفى إبان الحريف جاءها جون بأنباء أحزنتها إلى حد مفرغ ، فقد سلم الجنرال النمساوى ماك هو وجيشه بأسره ، ثم عادت الهواجس القديمة عن الغزو . وجاء فى مقال الصحيفة التى نشرت الخبر : « وبدلاً من أن تكون علينا مقاومته وقد أمه الانتظار ، أصبح علينا أن نجابه ذلك الرجل لدى مجيئه منتعشاً من ساحة النصر » .

ولكن الاسبوع الذى بدأ بمثل هذه النغمة الرهيبه كان مقدرآ أن يحتم أيامه بنغمة أخرى ، فى ذات اليوم الذى كان جيش ماك يكوم أسلحته عند قدمى قاهره ، سد لفتدى وزملائه ضربة للعدو أبادت قوته البحرية إلى الأبد . فلم تمر أربعة أيام على وصول الأبناء النمساوية حتى جاء الأونباشى توليدج ركضاً إلى دار

صاحب الطاحون ليخبره بأن الملازم «لابينوتير» وصل بالسفينة الصغيرة «بيكل» إلى فولواث في الساعة الحادية عشرة من يوم الاثنين السابق حاملاً أنباء عن الأسطول، وأنه مكتوب بالطباشير على عربات السفر التي تمر «بويسكس» عبارات «نصر كبير!» «فوز باهر!» وما مائل ذلك، وأن أهل الريف جميعاً في هياج لهفة على معرفة التفاصيل.

وفي عصر يوم الجمعة جاء جون يحمل الأنباء الوثيقة عن موقعة «الطرف الاغر»، وموت نلسون، وبقاء كابتن هاردي على قيد الحياة، ولو أن نجاة من الموت كانت من أضيق السبل. وقد أطارت رصاصة إيزيم حذاته. وأوجس الجميع خيفة من أن السفينة فيكتورى، كانت من بين السفن التي اشتبكت في المعركة مسرحاً لأبشع المذابح، ولكن لم تصدر حتى ذلك الوقت نشرات عن القتل والجرحي إلا نشرة غير نهائية عن المصابين في بعض السفن.

وكان ترقب الأنباء كبيراً إلى أقصى حد بين أفراد الأسرة الصغيرة في طاحون أفركب. وظل جون يحضر إلى هناك يوماً خلال أكثر من أسبوع، ولكن لم ترد إلى إنجلترا تفاصيل أخرى حتى نهاية ذلك الوقت. ثم ورد فقط ذلك النبأ الضئيل الذي يقول إن زوبعة هبت بعد المعركة مباشرة، وأضاعت عدداً عديداً من الأسلاب. وكان تعقيب أن على هذا كله قليلاً. واحتفظ مجيهاً بقناع من الهدوء والسكينة. ولكن يبدو أن صوتاً باطنياً كان يهمس لها بأن بوب لم يعد حياً. وركب ميلر لعدى عدة مرات إلى بوسهام ليسأل أخوات السكاكين هل تلقين أنباء أقطع من تلك البلاغات الخاطفة، ولكن تلك الأسرة لم تسمع شيئاً يمكن أن ينقش عن صاحب الطاحون جزعه. وفي النهاية ظهر في آخر نوفمبر كشف أخير محص عن القتل والجرحي أصدره الأميرال كولينجوود، ولكن هذا الكشف كان بالنسبة لأسرة لعدى مجرد صفحة من الورق لا طائل تحتها، فهو لم يشتمل - لعدة ألم تلك الأسرة - إلا على أسماء الضباط، إذ نيط في تلك الأيام القديمة الطيبة، بأصدقاء الملاحين وجنود الأسطول العاديين أن يبحثوا عن فقدوا هم أنفسهم بقدر ما وسعوا من جهد.

وإزداد اقتناع آن بفقد بوب في بدء إظلام الأيام الأولى من الشتاء. فبوب

لم يكن بالحذر الذي يتجنب التعرض للخطر الذي لا موجب له ، وقد بلغ عدد الذين قتلوا من ملاحى « دى فيكتورى » ، أو أصبحوا غير صالحين للخدمة مائة وخمسين رجلا . وكل من أجال الطرف فى غرفة آن وقتذاك كان يستطيع أن يرى أن قراءتها المفضلة كانت تتناول صلاة دفن الذين ماتوا فى البحار ، وهو الذى يبدأ بهذه العبارة « ونحن لذلك نستودع أعماق البحر جسده » . وفى هذه الأيام الأولى من ديسمبر عادت إلى الميناء سفن كثيرة من الأسطول الظافر ، ولكن السفينة فيكتورى ، لم تكن من بينها . ودار فى خلد كثيرين أن السفينة الكريمة التى أصيبت بالعجز فى المعركة ، غاصت إلى قاع البحر بفعل الجور العاصف اللاحق ، وظل الناس على هذا الاعتقاد حتى قيل فى البلدة وفى الثغر إنها شوهدت وهى تعبر المانش . ووصلت السفينة « فيكتورى » إلى بورتسهاوت بعد ذلك بيومين .

ثم بدأت رسائل من الناجين تظهر فى نشرات عامة اعتاد جون أن يحضرها لأن بانتظام . ولم يرد أى خطاب من بوب برغم أنه كان يرغب البريد فى يقظة لا تنقطع . وخطر بباله أحيانا أن أخاه قد يكون على قيد الحياة ، وبخير ، وأنه تراخى فى الكتابة عمداً وهو يرغب فى التمسك بهجر آن والحياة فى دياره وفقاً لقصده الذى عبر عنه . فإذا كان الأمر كذلك فإن بوب يكون قد نفذ فكرته معنا فى عدم التصر إلى حد كبير كما يمكن أن يبدو من ملاحظة آثار الترقب الظاهر على وجه الضحية الجميل ، وجزع أفراد الأسرة الباقين .

وفى يوم صاف من أيام ديسمبر إذ ندفت السماء على الأرض بقدر طفيف من ثلج ذلك الفصل من العام ، ولمس البياض جانباً من جوانب شجرة التفاح القائمة فى حديقة صاحب الطاحون — ولو أن قدراً قليلاً من أوراق الشجر كانت لا تزال باقية مترتبة فى أعلى الأشجار الأفضر عمراً ... فى ذلك اليوم اجتاز فناء الطاحون ملاح فضير من رجال البحرية الملكية ، وهو لم يكن بوب أو أحداً آخر من هذا القبيل... وجاء إلى الباب . وخرج إليه صاحب الطاحون مسرعاً ، واصطحبه إلى الغرفة التى كان جون والسيدة لفتى وآن جارلانداً حاضرين بها . وقال البحار :

— أنا أعلم على ظهر « السفينة فيكتورى » ، واسمى جيم كورنيك ،
وفناكم حتى وبخير ...

وغلب تنفسهم الصعداء ، وما شعروا به من فرحة ، على التعبير له عن شكرهم .
واغرورقت عينا صاحب الطاحون وهو يدور جانبا لهدى من روعه ، وإذا آن
التي هبت من كرسيا واقفة أول الأمر في انفعال جامح ، تسقط ثانية تحت
ضغط الفرح الذي لا يكاد يحتمل ، والذي تغلغل مرتجفا إلى أعضائها حتى
أطراف أناملها .

وواصل الملاح قوله :

— لقد جئت من سيبتهيد إلى بوسهام . وسأمضى الآن إلى أبي في بودماوث .
وصاح جاويش البروجي :

— آه ! . . . أنا أعرف أباك ، جيمس كورنيك الهرم .

لقد كان هو الرجل الذي نقل آن في قاربه من « بورتلاند بيل » .
وقال صاحب الطاحون :

— ألم يصب بوب بخدش ؟

وقال كورنيك :

— لم يصب بأى خدش .

ثم خرج لعدى في جلبية ليأق إلى الزائر بشى . يشربه . وانسجبت آن وعلى
وجهها حمرة خجل متوهجة ، إلى الجانب الخلفي من الغرفة حيث كانت التجسيد
الفعلى للرضا العذب وهي تميل بنفسها في رفق دون أن تتكلم . وبدا أن تيار
صغيرا من السعادة ظل يعتورها في مد وجزر وهي تنصت إلى كلمات الملاح وتحرك
رأسها على وقعها . ومضى الملاح وجون في المحادثة :

— كان على جون أن يضطلع بعمل جسم لتحسين « تعبي الجبال (١) » ، قبل
بدء المعركة ؛ وقد رضى الأميرال والكابتن كل الرضا عن الطريقة التي أدى بها
هذا العمل . وقال الكابتن لبوب كلمة أو كلمتين بينما كان الأميرال يصعد في سلم
الحيل الخاص بقطر السفينة ، ولكنى لا أعرف ماذا قال لأنى كنت أقف على أحد
الدفاع بعيدا عنهما بعض الشيء . بيد أن بوب رأى الأميرال يترنح عندما أصيب

(١) تبيان في حنايا مقدمة السفينة تجرى خلالها الجبال (شرح الأمل)

بمخرج ، وكان واحداً من أوائل الرجال الذين حلوه إلى مكان قيادة السفينة . وقد قفز بعد ذلك ، هو وبعض الفتيان ، إلى ظهر السفينة الفرنسية . وأعتقد أنه كان هناك عندما أصيب عليها . ولا أستطيع أن أروى لكم ما فعله بعد ذلك لأن الريح سكنت عندئذ ، وصار الدخان كسحابة مخيمة . ولكنهم تحدثوا عنه كثيراً . ويقال إن هناك ترقية مدخرة له .

وعند هذا الموضوع من الرواية توقف جيم كورنيك عن القول ليشرّب كأسه . وصدرت مهمة خفيفة لاشعورية من ركن أن البعيد، وكانت هذه النعمة الخافقة تصل على قدر متفاوت عندما يستأنف الملاح وأسرّة لفدى الحديث الدائر بينهم . وقال صاحب الطاحون :

— سمعنا من قبل أن السفينة ، فيكتورى ، كانت على وشك أن تتحطم إربا .
— تتحطم إربا ! . . . لو قدر لك أن تستطيع رؤيتها لأمكنك أن تقول ذلك ! يا إلهي ، كانت جوانها تهشم كقطعة القود القديمة من ذات « البنى » (١) وتبوى أشرعها ككثير من شبك الصيد التي تشد بجبل ، بينما التغذية التي أصابها لاتزال تعلق بالثقب الذي أحدثته . وقد قطعنا طول المسافة إلى وطننا ونحن نستعمل « قلاع » التحكم (٢) ، أما عن ظهرها فإنك تستطيع أن تسلمه بـ « ساخن أو بجم بارد ، ولكن يقع الدم تظل لاصقة هناك ، وستظل لاصقة هناك أبداً . ونجا السكاين بأعجوبة ، وكذلك كان شأن كثير من البانين ، وقد حلقت إحدى الطلقات البارية مفصل قدمه كفعل الموسى ، وكان سليك أن ترى وجه ذلك الرجل عند اشتعال المعركة إذ كانت ملاح وجبه كأنها سبكت من صلب .

— كنا نتوقع من باب أولى أن ترد لنا رسالة من بوب قبل ذلك .
وقال جيم كورنيك ، وعلى ثغره ابتسامة تجاوز :

— حسناً ، ينبغي أن نتساح . وحقائق الأمر أنه مشغول الآن بالذات في بورتسماوث . وشأنه في ذلك شأن عدد كثير من سائر ملاحى سفينتنا . . . إنها لفنأة لطيفة جداً ، تلك التي يغازلها . ولا شك عندى أنها ستكون له زوجة ممتازة .

(١) البنى يساوى خمسة مليات تقريباً .

(٢) اسم يطلقه الملاحون على الأشرطة المؤقتة بدلا من تلك التي انتزعت أو تحطمت .

وقالت السيدة لعدى بصوت ينطوى على تحذير :

— مغالزة .. زوجة ؟

ونظروا إلى آن بدافع غريزي . وكانت الفتاة قد جعلت كأنما رجتها يد خفية .
وبدا أن ضبابا كثيفا من الشك غامض على إدراكها . ولم يظل ذلك إلا مدة
دقيقة أو دقيقتين . ونهضت وهي شديدة الشحوب ، وتوجهت إلى الملاح رأسا .
وحاول جون أن يعترض طريقها برفق ، ولكنها حاوخته ، وقالت دون أن ينم
أقل شيء على انفعالها :

— هل تتحدث عن روبرت لعدى على أنه يغازل فتاة ليتزوجها ؟

وأجاب كورنيك وهو يدور إليها :

— أنا لم أرك يا آنسة . نعم ، لقد وقعت عين أخيك على زوجة ، وهو
يستحق ذلك ، وأمل ألا تكوني قد أكثرت الأمر ؟

وقالت وهي تضحك ضحكة مسرحية :

— أنا لم أكثرت له البتة . ولكنه يهمني بطبيعة الحال وعلى أي
نحو هي ؟

— إنها ابنة صاحب مخبز ، وهي صبية طريفة جدا يا عزيزتي . واختيار
الفق لها اختيار حكيم جدا .

— أهي شقراء أم سوداء الشعر ؟

— لون شعرها أميل إلى الشقرة .

— أنا أحب لون الشعر الأشقر . وما اسمها ؟

— اسمها كارولين . ولكن أيمكن أن تكون روائتي مؤلة لك ؟ إذا كان
الأمر كذلك

واعترض جون منزعجا :

— نعم ، نعم . إننا لانحرص على سماع مزيد من ذلك في الوقت الحاضر بالذات .

وقالت آن في شدة :

— إننا نحرص على سماع المزيد منه . أفض بكل ما عندك أيها الملاح

كارولين . . إنه اسم جميل جدا . متى يتزوجان ؟
وأجاب جيم وهو لا يكاد يدرك حتى الآن ما أحدث من تدمير في صدر
فتاة جميلة .

— أنا لا أدري على أي نحو استقر رأيهم بشأن تحديد اليوم . ولكني
أستطيع أن أقول ، من واقع السرعة التي اندفع بها غزلهم ، إن مواعده لن يطول .
وقالت آن باستخفاف وهي تنصرف :

— إذا قابلته لدى عودتك ، فأبلغه أحسن تمنياتي .

وأضافت في صرامة مهيبة :

— وقل له إنى مغتبطة لساعى أنه يفيد مثل هذه الإفادة الطيبة من الأيام
الأولى لهروبها من وادى الموت !

وخرجت وهي تعبر عد عدم اكترأها بالتغنى من بعيد بصوت مسموع .

« أنرقص » رقصة الدوران ، ، « الدوران » ،

« أنرقص » رقصة الدوران ، ؟

ولاحظ جيم كورنيك :

— لقد أثار النبأ حماسة أختك .

وغغم جون متجمها ، وهو يعرض على شفته السفلى . ويحدث بعينه
في النار .

وواصل بحار « سفينة فيكتورى » القول :

— حسنا ، وإنى لن أقول إن طريق أخيك لم تعبد بعض التعبيد ، وهذا من
حسن حظه الشديد ، فلربما كان يحدث له أن يلتقى فتاة لاتملك جزءا من قطعة
قود نحاسية . ولاشك أننا حظينا بوقت تمتع عند نزولنا إلى الأرض لقد كانت
بيتامفتح الأبواب لنا جميعاً .

وبعد أن حكم جيم عقله بضع دقائق وهو يلاحظ المشهد ، أفرغ كأسه
ونفض لينصرف .

وإذ كان صاحب الطاحون يحدثه في أمر خارج البيت ، وأن لا تكاد تكف عن الغناء في الدور العلوى . وجون يقف إلى جانب المدفئة ، والسيدة لقدى تجتاز القرفة لتلحق بابنتها التي سبب لها تصرفها بعض القلق ... ترى صوت من فوق السقف يشبه صوت سقوط جسد ثقيل . واندفعت السيدة لقدى إلى السلم وهي تقول . . آه ، كنت أخشى وقوع أمر ما !! . . واندفع جون في أثرها .

وعندما دخلا غرفة آن ، وقد كادا يدخلانها في نفس اللحظة ، وجداها راقدة على الأرض ، فاقدة الوعي ، ورفعها جاويش البروجى بين يديه ، مطبق القم على الأظباق ، ووضعها على الفراش .

وارتد بعد ذلك إلى الباب ليفسح في المكان لأمها التي كانت تنحنى على ابنتها وفي يدها بعض محلول النشادر .

ولم تلبث السيدة لقدى أن رفعت بصرها وقالت له :

— ليس ثمة إلا أنه أغمى عليها ، وقد بدأ لونها يعود إلى طبيعته ، فدعها لي الآن ، وسأهبط إلى سفلى البيت بعد دقائق ، وأخبرك كيف حالها .

وغادر جون الغرفة ، وعندما وصل إلى الدور الأرضى ، وجد أباه يقف إلى جوار المدفأة ، إذ كان الملاح قد انصرف ، وتقدم جون إلى النار ، وأمسك بطرف إطار المدفأة ، ووقف صامتاً .

وسأله أبوه في صوت يئم على التوجس :

— هل صك أذنى صوت يئنا كنت خارج البيت ؟ .

وقال جون :

— نعم إنك سمعت صوتا ، وكانت هى ، مصدره ... ولكن أمها تقول إن حالها تحسنت الآن :

ثم أضاف في تهور :

— أبى ، إن بوب أحق تافة ! ولو كان فيه أى خير لكان قد غرق منذ سنوات !

وقال صاحب الطاحون :

— جون ، جون . . . لاتبعاد في التسرع . فإن ماقلته عن أخيك قول قاس ،
وعليك أن تتجمل منه .

— حسنا ، إنه يبتليني بأشد مما أحتمل . ياإلهي الكريم ! من أى شيء يمكن
أن يخلق إنسان يتصرف مثل تصرفه ؟ لماذا لم يعد إلى بلده ، وإذا كان لم يتمكن
من الحصول على إجازة من عمله فلماذا لم يكتب إلينا ؟ إنه لتصرف فاضح منه
أن يعامل امرأة على هذا النحو !

— مهلا ، مهلا ، فقد أدى الفتى واجبه بحسبانه ملاحا . وبرغم أن علاقة
ما قد تكون بينه وبين آن فقد قالت لي أمها مرارا ، وهي تتحدثني في الأمر ،
لإنها لا تستطيع تصور زواجهما قبل أن يستقر بوب في عمله هنا في بلده ، وينبغي
أن يسمح للذين يحرزون الانتصارات ببعض الميزات . انظر إلى الأميرال نفسه
فيا يتعلق بهذا الصدد .

وظل جون يتطلع إلى الجرات الملتبته حتى إذا سمع وقع أقدام السيدة لفدى
على درجات السلم ذهب ليلتقي بها .

قالت السيدة لفدى :

— إنها أحسن حالا ، ولكنها لن تنزل إلى هنا ثانية اليوم .

ولو أتيت لجون في هذه اللحظة أن يسمع القول الذي كانت الفتاة تتأوه به
لنفسها وهي ترقد متلوية في فراشها ، لاعتوره الشك في تأكيدات أمها . . .
« لو أنه مات لاستطعت احتمال موته ، ولكني أعجز عن احتمال هذا . »

الفرص تلوح

لدرعان

(٣٦)

ومضى الملاح كورنيك في طريقه حينذاك حتى وصل إلى مفترق الطرق حيث التقي بفستوس دريمان سائراً على قدميه . واجتذب انتباهه هذا الأخير رداء الملاح ، ورؤيته مقبلاً من ناحية الطاحون . وخاض جيم في الحديث معه بقبول كثير ، وقص عليه الحكاية التي قصها في الطاحون .

وكرر فستوس قول محدثاً :

— بوب لفدى سيتزوج ؟

— يبدو أن لهذا النبأ وقع شديد عليكم جميعاً .

— لا ، فأنا لم أسمع نبأ سرني أكثر من ذلك .

وعند ذهاب كورنيك وقف فستوس عند الجسر الصغير بدلاً من أن يمضي قدماً ، وأخذ يتدبر الأمر . فإن بوب لن يستاء ، على الأرجح ، من استيلاء غيره على قلب آن ، مادام أنه يهتم اليوم بغيرها . وعلى أية حال فإنه لن يظل هناك احتمال لوقوع المباراة الماضية التي شنت عقل الفارس المتطوع منذ ولعبة الحصان ، التي جرت بينه وبين آن في البيت الواقع في ذلك السهل المقفر . وكان في رأى البطل أن ذهابه إلى الطاحون ، وعرض خطبته لأن على السيدة لفدى قبل أن يستيقظ اهتمام الفتاة بجون من جديد ، فكرة رائعة .

وكان اليوم قد بدأ يظلم قبل دخوله . وأضامات النار الهيجية ، بلونها الأحمر ، أرض الغرفة وحيطانها . واستقبلته السيدة لفدى بمفردها ، وسألته أن يتخذ له مكاناً بجوار المدفأة . وكانت لا تزال بنفسها بقية قليلة لا تنقطع من لهفتها القديمة على أن يصبح زوجاً لابنتها ... وقال لها :

— أنا خادمك أيها السيدة لفدى ! وسأفنى إليك على الفور بسبب جيئتي . وستقولين إنى نهاز للفرصة حين أخبرك أن قصدي هو التعميل بتحقيق ما صوبت

إليه طويلاً من الاقتران بابتك، وذلك لما اعتقده من أنها أصبحت حرة التصرف من جديد .

وقالت الأم مسالمة :

- أشكرك يا سيد دريمان . ولكنها مريضة الآن . وسأذكر لها ذلك عندما تحسن حالها .

- أسألها أن تبذل ما اتخذته من قرارات فاسية جداً على حساب ... على حساب حبي المهلك لها .

وأستأف فستوس قوله بعد أن اطرح لغة الصالونات ، مندفعاً وحاسته :

- وأجل الكلام فأقول لك يا سيدة لعدى إنى أريد الفتاة ، ولا بد أن أفوز بها .

وأجابت السيدة لعدى بأن قوله هذا صريح جداً :

- حسناً ، إنه كذلك ، ولكن بوب تخلى عنها ، وهو لم يقصد أن يتزوج بها قط . وسأخبرك يا سيدة لعدى بما لم أخبر به مخلوقاً من قبل . كنت أقف في بودماوت على رصيف الميناء في يوم من أيام سبتمبر الماضى ، وهو نفس اليوم الذى أبحر فيه بوب ، وسمعته يقول لآخيه جون إنه تخلى عن ابتك .

وقالت السيدة لعدى في حرارة :

- إن عبثه بها على هذا النحو كان إذن إمعاناً في سوء الأدب ... ولن

تخلى عنها ؟

وأجاب فستوس بعد تردد :

- تخلى عنها لجون .

- لجون ؟ ... كيف يمكن أن يتخلى عنها لرجل غرق من قبل إلى أذنيه في

حب تلك الممثلة ؟

- أوو ؟ .. إنك فاجأتني بهذا . أية ممثلة تقصدين ؟

- تلك المدعوة ، الآنسة جونسون . لقد أخبرتني أن أنه يجبها إلى

حد اليأس .

ونض فستوس وبدأ لدى هذا التصريح أن الآنسة جونسون اكتسبت فجأة

قيمة كبيرة بحسبانها امرأة محبوبة . فقد كان هو نفسه يشعر بميل لا يسكاد يذكر

إليها . وحذا جون حذوه . لقد شق جون طريقه متوسلاً بكل وسيلة ممكنة .
وفتح شخص الباب قبل أن يجيب الفارس المتطوع ، وسقط ضوء المدفئة على
سترة عسكرية يرتديها الرجل الذي دار حوله النقاش . وأوماً فستوس إذ عرفه ،
ومتى للسيدة لعدى مساء طيباً ، وخرج على عجل .

وأبدت السيدة لعدى لجاويش البروجي الملاحظة التالية :

— لقد أخبرك بوب إذن عند رحيله بأنه ينوى التخلي عن ابنتي آن؟ وددت

لو أُنِي عرفت ذلك من قبل .

وبدا التلق على جون لدى مجابهته بهذه التهمة فجأة ، وغمغم قائلاً إنه لا يستطيع

— كإرها . ثم غادر السيدة على عجل ، وتبع دريمان الذي رآه أمامه فوق

الجسر . وصاح

— دريمان !

وجعل فستوس وتلمت ، وقال متأطفاً :

— نعم ، يا جاويش البروجي .

وسأله جون محتدأً :

— متى تعقل إلى حد عدم الاهتمام إلا بشؤونك ، وعدم المجيء إلى هنا .

والإفشاء بأشياء سمعتها عن طريق التجسس على الناس ؟ وإذا أنت لم تتعلم أن

تسلك سلوكاً آخر فسأعطر إلى شد أذنيك ثانية بما ضربتك في ذلك اليوم !

— وأنت ، شددت أذني؟ كيف تفوه بهذه القرية بينما أنت تعلم أن شخصاً

آخر شدهما ؟

— أوو ، لا . . . لا . أنا شددت أذنيك وضربتك ضرباً هيناً .

— أنتقم على ذلك ؟ لقد كان رجلاً آخر بالتأكيد ؟

— وقع ذلك في غرفة الجلوس بالحانة ، وكان المكان يكون معتماً .

وأضاف جون بضع تفصيلات عن اللسكات الخاصة إلى حد أن صارت

دليلاً في ذاتها . وصاح فستوس وهو يتقدم إليه مبتسماً ابتساماً لطيفةً :

— أُنِي أسألك المغفرة إذن على قولي إنها كانت قرية . ولو أُنِي عرفت أنك

كنت أنت ذلك الشخص لكان في إنكارى لذلك إهانة لك .

— أكان ذلك إذن هو الذى جعلك لا تدعونى إلى المبارزة ؟

هذا هو الأمر . وإنى ما كنت لأرضى ، نظير نمن في الوجود ، أن أبحر
كرامتك الرقيقة بتركك دون أن أتحداك وأنا أعلم بتلك الحقيقة ! وأنت ترى
أنى لا أستطيع الآن لسوء الحظ ، معالجة ذلك الخطأ ، فقد مضت مدة طويلة
على الحادث إلى حد أن اتقاد غضبي قد خمد . وإنى لا أستطيع أن أوليك ذلك
الجمل ، مهما بذلت في سبيل ذلك من جهد ، لأنى يا جاويز البروجى ، لست
بالرجل الذى يذبح خصمه وهو هادىء الأعصاب . . . لا فإنا بذلك الرجل ،
ولا أنت أيضاً ، حسبما أعرفه عنك . ولذلك لا يحىص لنا عن أن نكتفى بترك
الأمر يمر سواء أرضينا بذلك أم لم نرض ، هيه ؟
وقال جون وهو يتسم ابتسامة صارمة :

— أحسب أنه لا بد لنا من ذلك . ومن عساك ظننتى تلك الليلة التى أوسعتك
فيها السكا ؟ .

وأجاب الفارس المتطوع :

— لا ، لا تضيق على الخناق . أنا لا أستطيع الجهر بذلك . فإنه ليشيننى أن
أظهر إلى أى مدى سمحت استطاعت الخمر أن تبعد بحواسى عن الحقيقة ، فلندفن
الأمر فى « مقلب نفايات (١) » ، النسيان الأبدية .

وقال جاويز البروجى متشاعنا :

— كما تشاء . ولكن إذا خطر ببالك يوماً أنك عرفت أنى كنت ذلك الرجل
فإنك تعرف بالطبع أين تجدنى ؟

ومضى لعدى إلى سبيله .

وفى لحظة رحيله هن فستوس قبضة يده ملتفتا إلى نجم السماء ، وكان ذلك
النجم يقع فى نفس الاتجاه الذى سار فيه جندى فرقة الدراغون .

وحدث نفسه ، هل ألقا الآن إلى المبارزات ، أخذنا بثأرى ؟ ليلحق بي العار
طوال حياتى فيما إذا بارزت رجلاً أدنى منى حسباً ونسباً ! وهناك وسائل علاج

(١) الأمكة الذى تلى فيه النفايات . ومن امثلة تلك النفايات الأمور التى فض أمرها ،
ووجب نسيانها . (شرح الأصل) .

أخرى يتخذها أفراد الطبقة الاسبى . . . ماتيلدا . . . إنها هي وسيتى . . .
وسار فستوس ، موسعا في خطاه ، حتى وصل إلى « هول » حيث بدا
« كرييلسترو » وهو يحدق فيه من تحت عقد البيت الذى يقطنه البواب . ودفع
دريمان باب الوشيع بعنف شديد إلى حد أن سقط صف أعواده جميعها
في الطين .

وقال كرييلسترو :

— رحماك يا سيدى فستوس ! لا شك ، أن السيد فستوس يستشيط غيظا
لأنه لم يعد هناك أمل في يحيى العدو هذا العام بعد .

وأجاب دريمان مكفهر الجبين :

— كر . . . ر . . . ريبيلسترو ! لقد أصبت بجرح في صميم قلبي .
— ولا يزال المعتدى على قيد الحياة ! وأنت تطلب « غدارات سرجك »
في الحال ؟ .. سمعا وطاعة يا سيد ف . . .

— لا ، يا كرييلسترو ، لأريد غدارتى ، ولكن ملابسى الجديدة ، وخواتمى
الذهبية الثقيلة ، وعصاى ذات المقبض الفضى ، وأبازيمى التى كلفتى قدرا من المال
لم يره في حياته . نعم ، لا بد أن أفضى بالأمر لأحد ما ، وسأفضى لك أنت به
لأنى لا أجد معنوها غيرك قريبا من هنا . . . إنه يعيشها قلبا وروحا . وهو فقير
وهى مهذبة إلى أقصى حد ، وليست غنية . وأنا غنى بالقياس إليهما . وسأغازل
عائلة المسرح الجلية وأفوز بها على مرأى منه .

— مثلة مسرح ياسيد دريمان ؟

نعم . وقد رأيتها في هذا اليوم بالذات . قابلتها مصادفة وحدثنا . وهى لا تزال
في البلدة ، ولعل السبب في ذلك يرجع إليه . وفى استطاعتى أن أقابلها في أية
ساعة من ساعات اليوم . . . ولكنى لا أتوى الزواج بها ، فلست أنا الذى يقدم
على هذا . سأغازلها لأرشفه عن نفسى ، وأضايقه . وسيكون أقتل له أنى لا أريدها .
ولعله سيقول لى عندئذ : « لقد أخذت منى نعتى الصغيرة الوحيدة » .

وهذا يعنى أنتى أنا الملك ، وهو الرجل الفقير ، وفقا لما هو وارد في أناشيد
الكنيسة . . . وسيأسأنى الرحمة . . . ويكون الآوان قد فات . . . إلا إذا كنت

في هذه الأثناء قد ملكت لعبتي الجديدة . أسرج لي الحصان يا كريبسترو غداً
في العاشرة صباحاً . .

وخرج فستوس في الميعاد المحدد ، متملئ الجوانح بذلك التصميم على معاينة
جون دون إبطاء عن طريق تحطيم حب هذا الأخير للآنسة جونسون ، وقد لبس
حناءه ومهمازه ، وانطلق بجول جولته الصباحية على ظهر جواده .

وكان على الآنسة جونسون . التي انتهى ارتباطها بالعمل في المسرح منذ زمن
طويل ، كان عليها أن تغادر المصيف الملسكي مع سائر زواره لولا أن عاقها عن
ذلك أمل في أن تزوج . ولم يكن لهذا الأمل أقل ارتباط بجون لفسدى كما قد
يتبادر إلى الذهن . وإنما كان مرتبطاً برجل بدين رزين يقوم ببناء السفن
في كوف رو بالميناء . أبدى اهتماماً كبيراً بتمثيلها على المسرح . ولسوء الحظ
لم يبد ذلك الرجل الموسر ، منذ انتهاء الموسم ، اهتماماً جدياً بها كما كانت تتوقع من
مسلكه السابق . وسر السيدة سروراً كبيراً أن ترى دريمان متكئا على جسر
الميناء ، محذفاً فيها وهي تقبل صوب ذلك المسكن بعد أن قامت بجولة حول
بيت الرجل الكبير السن ، المغرم بها .

وبدأ فستوس يقول :

— إنك ذهلت ياسيدتي فلم تخبريني لدى التقائنا آخر مرة أن نافخ النفير الذي
يرتدى السترة الزرقاء والأشرطة هو الذي وهب لك نفسه ؟

— من الذي تعنيه ؟

وكان جون لفسدى ، في نظر ما تيلدا ذات الاهتمامات العاطفية الدائمة القلب ،
شخصية مبتذلة لا فائدة فيها .

— ماذا ، إنه جاويز البروحي .

— أوو ! وما أمره ؟

— أفصحي ... إنه يجبك ، وأنت لا تجهلين ذلك ياسيدتي .

وكانت على أية حال تعلم كيف تجارى التيار عندما يفيدها ذلك . وعلى هذا
تطلعت إلى فستوس ، وأطبقت شفيتها لإطباقا ذا دلالة ، وأومأت :

— لقد أقدمت على قطع صلاتي به .

وهزت رأسها ، فالسلام لا يكون مأمون العاقبة حتى تلم بقدر من الموضوع أكبر قليلا .

وقالت فستوس وقد احمر وجهه :

— ماذا ! هل تعنين بقولك هذا أنك تفكرين فيه جديا . . . أنت التي يمكن أن تبدو أسمى منه إلى حد كبير ؟

— إن القطرات التي لا تنقطع تبل الحجر ، وكان يجدر بك أن تسمعه وهو يستعظمني ! . إن وجهه الجميل ذو تأثير ، وأخلاقه . . . أوو ، لطيفة جدا ! إنني لست غنية ، وبجمل القول أني سيدة فقيرة من أسرة أدركها الانحلال ، ولم يعد لها ما تفخر به غير حسنها ونسبها ، وهذا لا يكسو المرء . ولا يسمه من جوع . إنني أنظر إلى الدنيا حسبا هي في الواقع يا دريمانيو . . . مسرح لا بد لكل إنسان أن يلعب دورا فيه ، والدور الذي ألعبه محزن !

وأرخت بصرها مستغرقة في التفكير ، وتهدت .

وقال فستوس شديد التأثر :

— سنتحدث في هذا الشأن . . . ولنمض إلى هـ لوك — آوت ،

ولم تعترض . وقالت وهما يدوران إلى اتجاه ذلك المكان :

— ياسيد دريمان ، إنني وجدت منذ زمن طويل شيئا يتعلق بك ، ولكنه لم يحظر بيالي قط إلى الآن أن أردته إليك .

واستلت من صدرها الورقة التي سقطت من آن في الحقل حينما تلمصت من قبضة فستوس في ذلك اليوم من أيام الصيف .

وصاح فستوس عندما فكر في الأمر :

— عجبا ! .. إنني أشم رائحة لحم غض ، فالورقة مكتوبة بخط عمي ، وتتضمن العبارات التي سمعته يفتي بها يوم لم يحضر الفرنسيون ، ورأيت بعد ذلك يخطها في التراب . إنها تدل على شيء خباها عن الأعين . أعطني الورقة ، ها هو ذا شيء تعين ، إنها تساوي جنبها من الذهب !

وقالت ماتلدا في رقة :

— لتقتسم الغنم لإذن .

وأجاب فستوس ، وقد افرثفره عن ابتسامه ، لأنها بدت على أحسن ما تبدو
في هيئتها الجديدة وقد وجدت أنه من المحتمل أن يستحق الظفر به :

— نعم ، والله .. لك ما تشائين .

وصعدا في درجات الهضبة إلى قتها ، وتضاءلا وهما يقفان ورام.
صفحة السهام ؟

رد فعل

(٣٧)

ولم يرد خطاب من بوب برغم أن شهر ديسمبر قد انقضى ، وأصبح عمر العالم الجديد أسبوعين . وكانت الصحف مع ذلك ، تسجل تنقلاته تسجيلًا يكاد يكون منتظمًا ، ودأب جون على إحضار تلك الصحف التي لم تمدد أن تقرؤها . ففي خلال الأسبوع الثاني من شهر ديسمبر أبحرت السفينة « فيكتوري » إلى «شيرنيس» ، وفي اليوم التاسع من يناير التالي شيعت جنازة لورد نلسون في « سانت بول » .

ثم جاءت منه كلمة مكتوبة قصيرة موجهة إلى الأسرة عموماً ، ولم يرد بها ذكر لعلاقته العاطفية في بورتساوث . ولكنه أنبأهم أنه كان من بين الملاحين الذين ساروا اثنين وراء اثنين في موكب الجنازة ، وكان عددهم يبلغ ثمانية وأربعين بحاراً . وقد حمل كابتن هاردي علم الشعارات في هذه المناسبة عنها . وتقرر تسريح الملاحين قريباً في شاتام بعد دفع أجورهم . ورأى بوب من ثم أن يعود إلى بورتسموث ليرى صديقاً غالياً . ويقضى هناك بضعة أيام ، ثم يعود بعد ذلك إلى قريته .

ولكن أيام الربيع توالى دون أن تأتي به . وراقب جون كتابة أن وهو يزداد رغبة في القيام بعمل ما لمواسمها . وكانت مشاعره القديمة التي كبح جماحها بإيمان قوى ، قد استثيرت إلى حد التمرد ، برغم أنها لم تتكشف إلى الآن على نحو مباشر .

ولوحظ في هذه الأثناء أن صاحب الطاحون الذي لم يكن يتدخل في مثل هذه الشؤون إلا نادراً ، لوحظ أنه ينظر متعمداً ، يوماً بعد يوم ، إلى آن وجاوش البروجي . ثم حدث . شيئاً فشيئاً ، أن تحدث إلى جون على انفراد .

وكانت عباراته قصيرة نافذة إلى لب الموضوع مباشرة ... إن آن شديدة الاكتئاب ، وقد أطالت التفكير في بوب . ووضح الآن أنهم قدوم لعدة سنوات مقبلة . حسناً ، وقد شعر صاحب الطاحون دائماً بأنه يؤثر أن يتزوج جون الفتاة ، فإن جون يستطيع الآن أن يستقر هنا ، وأن ينجح فيما أخفق بوب فيه : ... وعلى

ذلك فإنك إذا استطعت يا بني أن تحملها على الإقلال من التفكير في بوب ، والإكثار من التفكير فيك ، فإن ذلك يكون أمراً طيباً بالنسبة للجميع .

وجاش في صدر جون انفعال باطنى ، ولكنه كبه وقال في حزم :

— الإخلاص لبوب فوق كل شيء .

— لأنه نسيتها ، والأمر انتهى .

— وهى لم تنس .

— حسناً ، حسناً . فكر في الأمر .

وأسفر هذا الحديث عن قيامه بكتابة خطاب إلى أخيه توسل إليه فيه أن يقرر في وضوح أكان تنازله عن آن شفهما على رصيف الميناء — كما ظن جون أولاً —

بمجرد اندفاع وقتي صادر عن الصداقة بينهما ، ومن القسوة أن يؤخذ به حرقياً ، أم أن تنازله في الواقع ، كما بدا الآن ، قد تحول من قرار متسرع إلى قصد أكيد . واضطرب بوب عليه في سبيل متعته الخاصة دون ما اهتمام بأثره في نفس آن المسكينه ؟

وانتظر جون الرد فلقاً ، ولكن لم يرد أى رد ؛ وبدأ الصمت أشد دلالة

بما يمكن أن يكون عليه أى خطاب يتضمن توكيداً بتخلي بوب عن تمسكه بدعوى تتصل منها هو نفسه في صراحة تامة . وهكذا حدث أن أخذ للحاح أبيه ، وعدم مبالاة أخيه . وخواجه هو التي انطلقت ... أخذ هذا كله يعمل عمله في اتجاه واحد سار . وتقرب جاويش البروجي إلى آن مرة أخرى على نحو ما كان يحدث في الزمن الغابر .

ولكن ذلك لم يتم قبل أن يترك آن لنفسها حصة أشهر كاملة ، فهو لم يخطبها مباشرة إلا عندما أخذت نباتات اللخنيس والجرس الأزرق الذى ازدهر في العام التالى ، أخذت تشيع ثانية ، متجلية للعين المتجولة .. وكانت تثبت بمجموعة من النباتات الطويلة المزهرة في تربة الحديقة ، ولم تجهل أنه يقف خلفها ولكنها لم تتلفت . وقد هدأت وأصبحت ذات وقار لطيف يعينها — فيما إذا راقبها أحد — على تمثيل دور صغير في رباطة جأش ظاهرة ... مختلفة في ذلك اختلافاً كبيراً عما كانت عليه من رعونة أيام افتقارها إلى التجربة .

وقال لها آخر الأمر في بشاشة :

— أئن تدورى إلى أبدأ ؟

ودارت إليه عندئذ ، ونظرت إليه دقيقة دون أن تتكلم . وكانت ريبة ماتلوح في عينيها ، وكأننا مبعثها قلقه الذى شعرت به ، وقالت :

— كم أخذ الجرو يشمرنا بأنه بجو الصيف ! أليس كذلك ؟

وأقر جون بأن الجرو أخذ يبدو بجو الصيف . وإذا انحنى بصره عليها في جد لم يترك مجالاً لآى شك في الموضوع الذى سيطرقه . واصل قوله مستخبراً :

— ألم يخطر على بالك قط ، في هذه الأسابيع الأخيرة ، كيف اعتادت أن تكون العلاقة بيننا ؟

وأجابته على عجل :

— أوو ، يا جون ، لا يجدر أن تبدأ طرق هذا الموضوع ثانية . فأنا أكاد أكون الآن امرأة أخرى !

— حسناً ، إن هذا أبعث لى على طرفه ، أليس كذلك ؟

ونظرت آن إلى الطرف الآخر من الحديقة وهى تفكر وتهز رأسها هزاً خفيفاً ، وأجابته :

— أنا لا أرى الأمر على هذا النحو تماماً .

— أنت تشعرين بأنك حرة تماماً ، أليس كذلك ؟

وقالت على الفور في وضوح جلى :

— طليقة تماماً !

وانخفض بصرها . وكررت قولها على نحو أبطأ :

— طليقة تماماً .

ثم بدا أن أفكارها تحولت في سرعة من دائرتها إلى دائرته :

— ولكنك لست كذلك ؟

— أنا لست كذلك ؟

— والآنة جونسون !

— أوو ، هذه المرأة ! أنت تعلين كما أعلم أن الأمر كله مصطنع ، وأنى لم

أفكر فيها قط لحظة واحدة .

— كانت تراودنى فكرة أنك تمثل ، ولكنى لم أكن واثقة من الأمر .
— حسناً . إن هذا لم يعد له أهمية الآن ، فأنا أريد أن أخفف من أثقال حياتك ، وأبهجك على نحو ما ، وأصلح بعض الشيء من سلوك أخى السيء . وإذا كنت لا تستطيعين أن تحيينى ، فيلك إلى يكفينى . وقد فكرت فى هذا ، مقلباً الفكر على كل وجه — وقضيت بضعة أشهر وأنا أفكر فيه — وتأكدت فى النهاية أن من الصواب أن أعرض عليك الأمر بهذه الطريقة . وأنا مقتنع كل الاقتناع بأنى لا أتعدى على بوب . فإننا نحن الاثنين ... على قدر ما يتعلق به ... طليقان . ولولا وثوقى من هذا لما طرقت الموضوع . ويريد منى أنى أن أتولى العمل فى الطاحون ، وسيبره إن يكون فى مقدورك بث قليل من الأمل فى نفسى . وستسير الأمور فى منزل الأسرة على نحو أفضل فيما إذا استطعت أن تفكرى فى .

وقالت وقد تكورت دمة كبيرة وتحدرت محتلطة بوجهها وأشرطه قبعتها :

— أنت كريم وطيب يا جون .

وقال دون أن ينظر إليها :

— أنا لست كذلك . وأخشى أن أكون على تقيضه تماماً ، فهذا كله مكسب لى . ولكنك لم تجيبى على سؤالى .

ورفعت ناظرها ، وقالت وهى تبسم ابتسامة كثيفة :

— لا أستطيع ذلك يا جون ... لا أستطيع ذلك بالتأكيد . أتعدنى وعداً ؟
— وما هو ؟

— أريد أن تعدنى أولاً ...

وأضافت فى حزن هادىء .

— نعم ، إنه مطلب غير معقول إلى حد مفرع ، ولكن أرجو أن تعدنى .

وبدا أن جون شعر حينذاك بأن الأمر بينه وبينها انتهى تماماً فى الوقت الراهن ، وقال مضمض العزيمة :

— أعدك .

وردت عليه فى إشفاق مؤثر :

— أريد ألا تحدثني في ذلك الأمر ، مهما ، طال الزمن .

وأجابها :

— حسناً جداً ، حسناً جداً . بيد أنك لا ترين يا عزيزتي أن أنى جانبت الشهامة والالطف بفتح هذا الموضوع من جديد ؟

وتطلعت أن إلى وجهه دون أن تبسم . وغنممت :

— إنك كنت طبيعياً تماماً . وأظن أنى كنت كذلك أيضاً .

وقال جون مفجوعاً :

— بيد أنك لن تتجسني أوتجسني لهذا السبب . إني لن أحنث بوعدى ، ولن أضايقتك بعد ذلك أبداً .

— أشكرك يا جون . ولم تكن بك حاجة إلى أن تقول ، لن أضايقتك ، ،

فالأمر ليس كذلك .

— حسناً ... إني شديد العمى والغباء . لقد كنت أوجع قلبك طوال هذه المدة دون أن أظن إلى ذلك . وأظن أن هذه هى قسمتى . فالرجال الذين يحبون النساء حباً أصدق يقعون فى الخطأ دائماً ، ويؤلمونهن أكثر مما يؤلمهن الرجال الأقل حباً .

وأجابت أن فى لطف وهى تضع يداً على يد ، وتنظر إليهما :

— ليس هناك من يحبني كما تحبني يا جون ، ولا أحد فى الدنيا جدير بأن يحب مثلك ، وأنا لا أستطيع . مع ذلك ، أن أحبك بحق .

وأردفت وهى ترفع عينها :

— ولكننى أميل إليك كثيراً إلى حد أنى سأبذل ما وسعنى من جهد لأفكر فيك .

وقال مبتسماً :

— حسناً ، إن هذا شيء يذكر . لقد حظرت على أن أتحدث فى هذا الأمر ثانية مهما طال الزمن ، فألى أى حد سيطول هذا الزمن ؟

وأجابت أن وهى توغل فى الحديقة ، وقد تركته بمفرده :

— إنك الآن لم تنصف .

ومر ما يقرب من أسبوع . ثم تقدم صاحب الطاحون إلى آن بعد ظهر أحد الأيام وهي داخل المنزل ، ونمت مشيته على أنه سيطرق موضوعاً ذا وزن . وبدأ يقول وعلى فمه ابتسامة المدرك الأمر :

— لقد سرني جداً يا عزيزتي أن أرى ما رأيته من نافذة الطاحون في الأسبوع الماضي .

وأوماً لإيحاء متجهة إلى ناحية الحديقة .

وسألته أن في براءة عما يكون الأمر ، فأردف بقول وهو يضع يده على كتفها ويربت عليها :

— أنت وجاهك معاً في الحديقة . إنه كان يسرني سروراً كبيراً يا فتاتي الصغيرة العزيزة لو أنك استطعت أن تميلى إليه أكثر من ميلك إلى ذلك السيد المتقلب العاطفة المسمى بوب .

وهزت آن رأسها لا بقصد النقي القاطع ، ولكن للتدليل على نوع من الحياد ... وقال صاحب الطاحون :

— ألا تستطيعين ذلك ؟ تريئي الآن .

وألقت رأسها إلى الوراء وهي تبسم ابتسامة بسيطة حزينة . وقالت محتجة :

— كم تضيقون على الخناق أتم جميعاً ! ... وهذا يشعرني بأني شريرة إلى حد كبير لعدم إطاعتكم ، ولبقائى وفيه ... وفيه ! ...

ولكنها لم تركز في هذا الجانب من الموضوع إلى الكلام ، وسألت :

— لماذا يسركم ذلك سروراً شديداً ؟ ...

— إن جون أثبت وأشد إخلاصاً من كل فتى نفخ في نفير ، وقد رأيت دائماً أنه يمكنك أن تتراحى إليه أكثر من ارتياحك إلى بوب . وإنى أقصد الآن أن ألقه بالعمل معي في الطاحون ، وتمكينه من قضاء وقت مريح بعد طول ترحاله ، ولكن الشيء الكثير يتوقف عليك إلى حد أنه ينبغي على انتظارك قليلاً حتى أرى ماتونيه بشأن ذلك المسكين . واعلمي يا عزيزتي أنى لا أريد إرغامك على شيء ، فمسل ما في الأمر أنى أسألك رأيك .

ونظرت آن متأملة إلى صاحب الطاحون من وراء جفونها الظليلة ، وكانت ،
أصابع إحدى يديها توقع على صدرها لحن ، نوبة الانصراف ، العسكرية . وأجاب
على حين نجأة :

— لست أدري ما أقوله لك .

ومضت إلى سبيلها .

ولكن هذه الأحاديث لم تعدم أثرها في ذهن آن اليقظة الضمير إلى أقصى حد .
وفضلاً عما تقدم قد أيدتها كثيراً ، حادثة وقعت في أمسية من أمسيات خريف
هذا العام إذ جاء جون لتناول الشاي . كانت آن تجلس أمام النار في مقعد وطيء
ويداها متشابكتان حول ركبتيها . وجلس جون على التو في مقعد يقع وراءها
ولا يكاد يبعد عنها وكانت السيدة لفدى تقوم بصب الشاي في الأبريق من القدر
المعلقة في المدفأة فوق رأس آن مباشرة . وأغلقت القدر مندفعة على حين نجأة .
وقفز جون من مقعده عند ذلك ، ووضع يديه في نفس الوقت فوق يدي آن .
وركبتها العالية التي تمسكها يداها ، قاصداً وقايتها من رشاش الماء الحار الذي
كان يتجه إلى ذلك الموضع . وأوقفت السيدة لفدى هذا الفيض الطارئ على
الفور ، ولكن جاويز البروجي المخلص كان قد تلقى ما تساقط منه على ظهر يديه .
وجفلت آن كمن استيقظ من سبات عميق ، وهي تكاد تكون غافلة عن
وجوده خلفها . وصاحت وهي تتطلع إلى يديه :

— ماذا صنعت بنفسك لتجذبني ذلك يا جون المسكين !

وأحمر وجه جون تأثراً لدى سماع هذه الكلمات . وأجاب وهو يجرى بأحد
أصابعه على ظهر يده وينزع بذلك جلدها .

— إنه حرق بسيط . هذا كل ما في الأمر .

— لأنه أصبت بحرق مؤلم ، وأنا لم أصب بشيء .

وتطلعت إلى وجهه الطيب على نحو لم يحدث قبل ذلك منها قط . وعندما عادت
السيدة لفدى بالزيت وغيره من أدهان الجروح ، آبت آن أن يضمم الجرح أحد
غيرها . وبدا كأن حياها كله قد تبدد ، وبعد أن بذلت كل ما في وسعها لملاجه
ظلت جالسة بالقرب منه وقالت له لدى رحيله ما لم تقبله له من قبل قط
طوال حياتها :

— لا تبطيء في العودة إلينا .

ويجمل القول إن صنيعه المنبثق بغير روية ، المنظوى على الإخلاص ، هو آخر حلقة في سلسلة الأفعال المشابهة الفحوى ، كانت القنطرة المضافة التي أدارت العجلة أخيراً . فقد أثرت أخلاق جرن فيها تأثيراً عميقاً ، واكتسب ثباته الحازم على عهد إعجابها ، لا سيما وأنها هي نفسها كانت ذلك النجم . وبدأت تسأل نفسها أكثر فأكثر كيف أمكنها أن تصر على الإعراض عن تودده إليها قبل أن يأتي بوب ليحدد ذكريات صيدانية كانت قد اضمحلت في ذلك الوقت اضمحلالاً كبيراً . ألا تستطيع ، برغم كل شيء ، أن ترضى صاحب الطاحون ، وتحاول أن تنصت إلى جون ؟ فهي بفعلها هذا تسود رجلاً يستحق التقدير ؛ ولن تكون الضحية ، على أسوأ حال ، إلا شخصها الذي لا يستحق التقدير ، والذي لم يعد مستقبه ذا قيمة . وفكرت مشمزة : « أما عن بوب ، فالمرأة التي تحبه جديرة بالرائه . وأقنعت نفسها بأن هذه المرأة ، أياً كانت ، لن تكون آن جارلانند .

وظهر بعد ذلك شيء من عدم المبالاة ، وشيء من المرح ، في سلوك الفتاة جعلها مثالا لانتصار الكبرياء والتعقل على الذكريات والعواطف . وقد تلخص موقفها في التجائها إلى العناء متحدية كلما وصل إلى عليها أن بوب غير مخلص وغير صادق . وعاد جون ، وكادت عودته تكون على الفور ، حيث أن ذلك لم يكن منه بد ، إذ جذبته إلى هناك أشعة ابتسامتها الأولى له ، وما صحب ذلك من كلمات . وقد بتيت الآن جالسة بقربه بدلا من انصرافها عنه إلى أعمالها الصغيرة في علو البيت ، أو في سفله ، أو عبر الغرفة ، أو في أركانها ، أو في أي مكان لم يتصادف وجوده فيه ، حسبما كان من عاداتها قبل ذلك . وشرعت بتجييه على ملاحظاته العامة لإجابات هامة ، وتشعره في كل مناسبة بأنه وجد آخر الأمر حظوة في عينها .

كان اليوم بدبعا ، ومضياً إلى خارج البيت حيث حارلت أن تجلس على حافة النافذة الحجرية المنحدرة . وقال جون وهو يقف مشرفا عليها ، ويبتسم تحت أشعة الشمس المنعكسة متوجهة على الحائط :

— كم أصبحت لطيفة في هذه الأيام الأخيرة ! نجيل إلى أنك بقيت في البيت بعد ظهر اليوم بسبي .

وقالت في بشاشة :

— لعل هذا صحيح ...

• لنعمل كل ما نستطيع في سبيله يا سيدق

• ولن نستطيع أن نعمل فوق ما يجب ! ،

• لانه أحد الذين ذادوا عن وطننا . .

وقد قام بأكثر من ذلك . فإنه أنقذ جلدي من سلق مفرع . إن ظهر يدك لن يشنى قبل مضي زمن طويل ، أليس كذلك يا جون ؟

وبسط يده ليتبين حالتها . وكانت الخطوة الطبيعية التالية أن يتناول يدها . وتوقد وجهه عندما فعل ذلك . لقد قطع نجمه شوطاً بعيداً صوب أوج مطافه بعد انحداره الطويل المهك . وتستطيع أقل العيون إبصاراً أن تدرك عزم أن على أن تدعه يستويه ، وقد تدعه يظفر بها في حالة اندفاعها . ومهما يكن من أمر الحزن الصامت المكتوم طى جرائحها ، فإنه قد أبعده الآن إيماناً بإبعاد عن جلوة النور .

قال وهو لا يزال يمسك بيدها :

— أريد أن أحبك إلى مكان ما فيما إذا رضيت بذلك .

— نعم ؟ ... وأين ذلك المكان ؟

وأشار إلى سفح تل بعيد بدأت بقع بيض تشوب سطحه بعد أن كان إلى الآن أخضر يانعاً . وقال :

— فوق ، هناك .

— أرى قامات بعض الرجال هناك ، فإذا يصنعون ؟

— ينحتون في أرض التل رسماً ضخماً للملك ممطياً صهوة جواده . وسيبلغ حجم رأس الملك حجم حوض طاحوننا ، وجسمه حجم هذه الحديقة ، وسيقع رسمه هو وجواده في مساحة تبلغ فداناً ... متى نذهب إلى هناك ؟

وقالت :

— وقتها تريد .

وصاحت السيدة لعدى من الباب الأمامى :

— جون ! هنا صديق جاء ليلفك .

وعرج جون على الدار ، ووجد فى انتظاره ملازم البروجى ، باك ، الذى يثق فيه . وكانت قد وردت رسالة إلى المعسكر باسم جون أثناء غيابه ، فجاء بها إليه ملازم البروجى الذى كان قد خرج للزهة . ودخل ، باك ، الطاحون ليباحث صاحبها فى تناول كأس من خمر السنة الماضية ، إذا كان ذلك ممكناً . وشرع جون فى قراءة الرسالة بينما كانت آن لا تزال وراء ركن البيت حيث تركها ، وشحب وجهه لدى تلاوة كلمات قليلة منها حتى صار فى لون الورقة البيضاء . ولكنه لم يتحرك ، وواصل قراءة المکتوب حتى آخره .

وأسد مرفقه بعد ذلك إلى الحائط ، ووضع كفه على رأسه وهو يفكر ويصمم تصميماً مؤلماً . ثم سيطر على نفسه فى حزم ، وعاد إلى حالته الطبيعية بالتدرج . ولم تلاحظ عليه أن أى شىء غير طبيعى عندما فارقها ليعود إلى منزله مع باك . وفى تلك الليلة قرأ الرسالة ثانية فى المعسكر . وكانت من بوب . وفيما يلى محتواها الملقى :

عزيرى جون :

لقد أمسكت عن الكتابة إلى اليوم لأنى لم أكن قد تبينت حقيقة مشاعرى . بيد أنى تبينتها أخيراً . وأصبحت أستطيع أن أقول ، دون أن يعثور قولى أى شك ، لى أنوى ، على أية حال ، أن أخلص لعزيرى آن . والأمر يا جون أنى وقعت فى مأزق صغير ، ولدى سر خاص بذلك أفضى به إليك (ويبلغى لذلك السر ألا يتعدانا نحن الاثنين مجال من الأحوال .) لقد صادفت فتاة لدى نزولى إلى البر فى الحريف الماضى ، وتحسس كل منا للآخر كما يفعل الناس . وبجمل القول أن كلامنا مال للآخر ميلاً كافياً فى فترة من الزمن . ولكنى خضت معها فى ماء ضحل ، ووجدت أنها خداعة رهيبه . وهى عاطلة من كل ميزة ، فلا إدراك ، ولا لطف . وكل ما فيها مشاكسة وطبل أجوف برغم أنها بدت فى أول الأمر ياجون بارعة إلى حد خطير . وعلى ذلك عاد قلبي إلى مراساته القديمة . وآمل ألا يحدث ارتدادى إلى سبيل الأمانة أى أثر فى نفسك .

ولكن نظرا لما أبديته لي بنظراتك يوم افتراقنا من أنك لم تقبل ما عرضته عليك من تنازلي عنها - ذلك التنازل الذي تسرعت فيه كثيرا كما تبينت فيما بعد - فإني أشعر بأنك لن تعبا بعودتي إلى طريق الشرف . ولست أجسر بعد على الكتابة إلى آن ، وأرجو ألا تدعها تعلم كلمة واحدة عن تلك الفتاة وإلا كان على أن أؤذى حسابا عسيرا . وسوف أحضر إلى الدار إن شاء الله ، وأصحح الأمور كلها وإذا أحطت آن أبناء ذلك بعين الرعاية الأخوية ، وحملاها على أن ترتد بخواطرها إلى فإني سأعد ذلك تفضلا منك يا جون . وسأموت غما إذا ما استثارها أحد على ، لأن آمالي أخذت تتعقد عليها من جديد ، قوية كل القوة ... وإذا أمل أن تكون مرحا كما كنت في العهود السابقة ، فإني لك الاخ الصادق الود .

روبرت

وعندما سقط ضوء النهار البادد على وجه جون ، بينما هو يرتدى ملابسه في الصباح التالي ، كان التجمد الذي بدأ يظهر على جبينه أمس ، قد أصبح محضورا هناك على نحو دائم . وفي سبيل أخيه الوحيد الذي ربه وهو طفل ، وعله وهو غلام ، وأحاطه دائما بحبه ورعايته ، اعترزم في الوقت الحاضر أن يريث في تصرفاته ويمتنع ، على الأقل ، عن صنع أى شئ يعوق بوب عن استرداد حظوته ، فيما إذا كان هناك حب حقيقي لا يزال يربط هذا الأخير بآن ، حتى برغم ما اعتور هذا الحب من خمود مؤقت . ولكن جون بدأ خلال ذلك اليوم ، يسلك طريقه ، كان قد اتفق مع آن على أن يصطحبها لمشاهدة رسم الملك المنحوت ، وكأنما لم يقع شئ . يعوق مجرى حبه الممهد .

موقف دقيق

(٣٨)

ما وصل حتى قالت له أن :

— أنا مستعدة للذهاب .

وتوقف وكأنما أخذ باستعدادها ، وأجاب وهو شديد التردد :

— ألا يكون . . . أليس من الأفضل أن نرجى الذهاب إلى وقت تكون

فيه الشمس أقل اتقادا ؟

وبدا عليها أقل أثر يمكن من الدهشة وهي تجيب :

— ولكن الجرق قد يتبدل ، أو لعل من الأفضل ألا نذهب أبدا ؟

— أوو ، لا إله إلا الله ليس إلا خاطر خطرى . لنمض على الفور .

وسارا على طول الوادى . وحافظ جون أثناء المسير على الابتعاد عن يمينها

مسافة خطوة تقريبا . وعندما اجتازا الحقل الثالث وصلا إلى حيث يلعب ستة

أطفال . وقال أكبرهم وأوقحهم :

— لماذا لا يضمها إلى جنبه كما يفعل الرجل ؟

ورد الأطفال الوقحاء الأصغر سنا فى نفس واحد :

— لماذا لا يضمها إلى جنبه كما يفعل الرجل ؟

ودار جاويش البروجى ، واستطاع بعد شئ من الركض ، أن يضرب اثنين

منهم بعصاه ، وعاد إلى آن مهور الأنفاس ، وقال وقد احمر خجلا لما حل بها :

— يخجلنى أن يكونوا قد أهانوك على هذا النحو .

وأجابت بلهجة تأنيب :

— لأنهم لم يقولوا شئنا يسىء إلى ، هؤلاء الصبية المساكين .

وأخرس جون المسكين إدراكه لتصددها فهذا التليح اللطيف الذى كان قرينا

أن يجيب عليه متلهفا قبل مضى يوم واحد قريب ، أصبح الآن كالنار تكوى جرحه

ووصلا أخيرا إلى أحجار قائمة عبر جدول للبرور عليها . واجتازها جون

أولاً دون أن يدور برأسه ، واجتازتها آن وراءه وهى ترفع فقط طرف نوبها .
ولدى وصولها إلى الضفة الأخرى اقتربت لإحدى القرويات وأحد الرعاة من
حافة الجدول لعبوره ، وتوقفت آن وراقبتهما ، وأمسك الراعى كل يد من يدي
الفتاة بإحدى يديه ، ومشى بظهره فوق الأحجار وهو يواجه الفتاة ويمسكها
على أن تنصب قامتها ، واستغرقا في الضحك وهما يسيران على هذا النحو .

وسأل جون :

— ما الذى يدعوك إلى الوقوف يا آنسة جارلانده ؟

وقالت فى هدوء :

— كنت أفكر فى مبلغ سعادتهما .

ودارت وهى تحيل بصرها عن الرقيقين الرقيقين ، وتبعته دون أن تعلم أن
الصوت الذى بدا كأنه طنين نحلة كبيرة عابرة كان أنه مكتومة صادرة من جون .

ووجد لدى وصولها إلى التل أربعين عاملاً من عمال الحفر منهمكين فى إزالة
التربة السمرام بقصد كشف الطبقة الطباشيرية الكامنة تحتها . ولم يكد الوجه الباسل
الذى عملت معاً ولحم على تكوينه ، لم يكد يتضح لجون وآن وقد أصبحت الآن
على مقربة منه ، وقالت آن ، بعد أن تنقلت من رأس الحصان إلى صدره ، ثم
إلى حافره ! وارتدت من ناحية يد الملك المسكك بالجام ، وعبرت جسر أنفه ،
وتفانلت إلى قبعة المنمقة ، قالت إنها نالت كفايتها من الفرجة ، وخطت إلى
خارج الأرض الطباشيرية ، ماسحة قدميها فى الحشائش . وكان جاويش البروجي
قد ظل طوال الوقت واقفاً وقفة مكتئبة عند حد المماز الأيمن لصاحب الجلالة

وقالت آن وهما يعود أن أدراجهما ثانية :

— لقد جدد الطباشير على حدائى .

وسحبت ذيل نوبها لتنظر لإلهما وأردفت :

— كيف أتوصل إلى تنظيفه ؟

وقال جون مشيراً إلى بقعة من الأرض كانت عيدان حشائشها طويلة كثيفة .

— تستطيعين ذلك إذا مسحته فى الحشائش الطويلة هناك .

ومشى بعد أن قال ذلك في ثبات وروع .

ومسحت أن قدمها الصغيرتين من ناحيتهما اليمنى ، ومن ناحيتهما اليسرى ،
ومن إبهامها ، وكعبها ، ولكن الطباشير العتيد ظل ثابتاً في مكانه . واستسلمت
للأس يعد أن لمشت بما بذلت من جهد ولحقت برفيقها في نهاية الأمر .

وقال جون وهو ينظر برفق من فوق كنفه :

— أرجو أن يكون هذاؤك قد نظف الآن .

فقال :

— أبداً ! بالتأكيد . كنت أحتاج إلى معاونة . . . إلى أحد يحفظ توازنى .
فمن العسير جداً أن يقف المرء على أحد قدميه ، وينظف الأخرى دون عون .
لقد كنت معرضة لخطر الوقوع ، فأقلعت عن المحاولة .

وخطر على بال الفتى المسكين هذا الخاطر ، بينما هي تنتظر معاونته : « يا نجوم
السعد الرحيمة ، يا لها من فرصة ! ، ولكن شفتيه ظللتا مطبقتين ، وواصلت
الفتاة سيرها وهي تبسم ابتسامة مكظومة .

— يبدو أنك في عجلة شديدة ! فلم كل هذه العجلة . . . أبعد كل العبارات
الظريفة التي قلتها عن . . . عن اهتمامك الشديد بى . . . وما إلى ذلك ، تأتي
التوقف لأى سبب من الأسباب ! . . .

وكان ذلك فوق ما يطيقه جون بكثير . فبدأ يقول :

— قسما بحياتى وجنانى ، يا عزيز

وعندئذ خشخت رسالة بوب في جيب صدره منذرة وهو يضع يده على
صدره تأكيداً لقسمة . وأصبح قيد البكم والتجهم فجأة على نحو ما كان من قبل .
وغاصت أن وقد أنهكتها الرحلة ، في مقعد قائم خارج باب بيتها . وكان أول
ما بدر منها أن حاولت خلع حذاءها . . . وكانت العملية شاقة . ولكن جون
وقف يضرب بعصاه أوراق الشجر المتساق على الحائط .

وصاحت الفتاة آخر الأمر بصوت عال :

— أمي . . . ديفيد . . . موالى . . . أو أى شخص آخر ! . ألا يعاونى
أحد فى أى أمر ! .

وقال جون فادماً لـ إليها فى بطء غير مصدق ، وفى هيئة تم على هم يحل
عن الوصف .

— أنا آسف جدا .

وأجابت بينما كان الرجل الهرم يتقدم ويخلع لها حذاءها الشائه فى غمضة عين:

— لا ، أنا أستطيع خلعه دون معاوتتك . ديفيد أقدر على ذلك .

وأدهش أن ذلك التحول فجائى من الإخلاص إلى الإهمال الجاف .

وأسرعت إلى المرأة ، لى دخولها غرفتها ، وهى تكاد تتوقع أن ترى

تغييراً كبيراً طراً على حياها الجميل لجعله لا يطلق أبداً . ولكنها وجدته ، إذا كان

ثمة تغير طراً عليه ، أشد نضارة من المعتاد ، نظراً للرياضة التى قامت بها . وقالت

لنفسها وهى ترجع بذكريتها إلى الوراثة وحسناً ! . فلقد شجعت هذا الأسبوع

لأول مرة منذ عرف أحدهما الآخر . وأظهر هو ، لأول مرة ، أن هذا التشجيع

عديم الجدوى . وأضافت هادئة النفس : « لعله لم يفهم الأمر فى وضوح ، » .

وعندما جاء فى المرة التالية أدهشها أن يكون مجيئه بقصد إحضار بعض

الصحف إليها بعد أن كف عن ذلك وقتاً ما . وما وقعت عينها على تلك الصحف

حتى قالت :

— أنا لا أهتم بالصحف .

— إن أخبار تنقلات الصحف كثيرة اليوم ومستفيضة ، برغم أن حروف

طباعتها دقيقة .

فأجابت فى وقار جاف :

— أنا لم أعد أهتم بأخبار تنقلات السفن .

كانت تجلس وراء المنضدة ، بالقرب من النافذة ، ومن ثم لم يكذب يسهل عليها

أن تهض وتنادر الغرفة عندما نشر الصحيفة فى حزم ، برغم إنكارها ذلك ،

وأخذ يقرأ بياناً عن الأسطول الملكى . وواصل القراءة ، حازم السياء ، حتى

آخر البلاغ ، ذاكرة اسم سفينة بوب فى قوة هائلة .

وقالت له في النهاية :

— لا ، لن أستمع إلى أكثر من هذا .. دعني أقرأ أنا لك .
وجلس جاويش البروجي . وعرجت آن على الأنباء العسكرية ، وقرأت
تفصيلاتها جميعاً في حماسة شديدة ظاهرة ، وقالت متحمسة :
— هذا هو الموضوع الذي أميل إليه ، أنا .
— ولكن .. ولكن بوب يعمل في الأسطول الآن ، وأغلب الظن أنه
سيرقى إلى رتبة ضابط ، وعندئذ ...
وقاطعته قائلة :

— وهل هناك شيء يضارع الجيش ؟ إن الملاحين لا ينحلون بأى حدق ،
فهم يتبخثرون تبختر البط ولا يخوضون إلا غمار معارك سخيفة لا يستطيع الإنسان
تكوين رأى عنها . فالمعارك البحرية لا تقوم على علم أو فن قيادي ... فهي
لا تزيد عما نراه من كبشين يتناطحان في الميدان ليصرع أحدهما الآخر ، ولكن
المعارك العسكرية تنطوى على فن أى فن ، وبهاء ، أى بهاء ، والرجال فيها يارعون
أى براعة ، لا سيما الجنود الفرسان ، أوو ، أنى لن أنسى كم بدوتم رجالاً ظرفاء
جميعاً حين جتم ونصبتم خيامكم فوق الهضبة ! وإنى أميل إلى الفرسان ... أكثر
من ميلى إلى أى شيء آخر أعرفه . وه الدراغون ، أحسن فرق الفرسان ... ورجال
البروجي أحسن رجال الدراغون !

وتأوه جون غاطباً نفسه : ه أوو ، لو بدر ذلك منها قبل الآن بقليل . . .
وأجاب فور استرداده جأشه :

— إنى معتبط لوجود بوب آخر الأمر فى الأسطول الحربى ... فهو لائق
له أكثر مما هو لائق للبحرية التجارية ... إنه شجاع جداً بطبيعته ، مستعد لأى
عمل جرى . وقد سمعت الشيء الكثير المتزايد عن أفعاله على ظهر السفينة
« فيكتورى » ، وقد لاحظ السكابتين هاردى ملاحظة خاصة عندما ...
وقالت آن وقد نفذ صبرها :

— لا أريد أن أسمع شيئاً أكثر من ذلك . إن الملاحين يحاربون بالطبع ،
فليس لهم مناص من ذلك على ظهر السفينة ما داموا لا يستطيعون الهرب !
ولا فرق هناك بين أن تحارب وتموت ، أو أن تموت دون أن تحارب .

وبدافع جون عن أخيه :

— إن من خلقه ، مع ذلك ، ألا يهتم بنفسه حينما يتعلق الأمر بشرف بلاده . ولو أنك عرفته فقط وهو صبي لسلت بذلك ، فقد كان يجازف دائماً بحياته لينقذ حياة أى شخص آخر . وحدث مرة أن اقتحم كوخاً في الدرب ، اشتعلت فيه النار ، لينقذ طفلاً ، برغم أنه كان لا يزال هو نفسه صيماً ، ولم ينتج يومئذ إلا بمجزة . ونحن نحفظ الآن بقبعته التي أحدثت النار بها ثقباً ، فهل أحضرها وأريك أياها ؟

— لا ، أنا لا أربغ في ذلك ، فهذا أمر لا شأن لي به .

ولكنه واصل سيره صوب الباب ، فأضافت قولها :

— آه ! أنت تتأدر الفرقة لاني أعوق سبيلك ، فأنت تريد الاختلاء بنفسك أثناء قراءة الصحيفة ... سأنصرف على الفور . أنا لم أفطن إلى أنى كنت أعكر عليك صفوك .

ونفضت كأنما تمهم بالخروج :

— لا ، لا ! لاني أوثر أن تكوني . أنت ، التي تعكر صعوى على ...
أور ، معذرة يا آنسة جارلاندا ! سأتحادث إلى أنى في الطاحون بما أنى هنا الآن .

إنه لا يكاد يكون ضرورياً أن نقرر أن آن (التي تردد خلال سياق هذه القصة مراراً ، وفي إصرار ، ذكر حسبها الأكيد البارز بين الأوساط المتضعة المحيطة بها .) كانت عادة تقيض المرأة التي شيمتها الخضوع ، ولكن حدث أنها لم تدع جون يخرج سواء أكان ذلك بسبب تألمها من سلوكه ، أو تشبها العنيد بحظة صممت عليها دون روية ، أو بسبب مكابدة الدلال التي هي رد فعل لحزنها الذي طال أمده ، أو بسبب أى شيء آخر .

قالت تستدعيه :

— يا جاويش البروجى .

فأجاب خجلاً :

— نعم

— إن رباطة شريط قبعتي قد انحلّت ، أليس كذلك ؟

ودارت فصوصت إليه نظرتها الساحرة .

وكان الرباط المحلول فوق جيئنها مباشرة ، أو كان ، بتعبير أدق ، عند الوضع الذي يمتزج فيه جهاز التشبيّه ، بجهاز الإحسان ، طبقاً لنظرية « جول » ، في علم معرفة قوى النفس بالنظر إلى الجمجمة وشكلها (فريولوجيا) (١) .

وحاول جون ، الذي أعيد على هذا النحو ، أن ينظر إلى الرباط في سرعة الحجر المسطح حين يقذف به أفقياً في الماء ، حتى يتحاشى التغلغل بنظرته إلى حيث تلتقي بسطح عين الفتاة المتسائلة .

وقال وهو يتراجع قليلاً :

— إنه منحل .

وازدادت منه قرباً ، وسألته :

— هل تعقده لى ؟ . . . أرجوك . . .

ولالم يكن من الأمر بد ، فقد أهاب بشجاعته وأذعن . وإذا لم يصل رأسها إلا إلى ارتفاع زرسترته الرابع اضطرت أن تنظر إلى أعلى لتمهد له الأمر . وبدأت يد جون تحوم حول الرباط . وبرغم بذله ما يستطيع من جهد ، فقد استحال عليه أن يلبس الشريط دون أن تختلط أطراف أصابعه بمجذائل الشعر فوق جبهتها .

قالت له .

— إن يدك ترتجف . . . آه . . . لقد كنت تسرع في المسير .

— نعم . . . نعم .

وانجهدت بنظرها ، متسائلة ، إلى أعلى من خلال أصابعه :

— هل كدت تنتهي من عقد الرباط ؟

(١) صاحب هذه النظرية هو فرانز جول (١٧٥٨ — ١٨٢٨) مؤسس علم القوى العقلية . وقد حاضر في هذا الموضوع في فيينا (١٧٩٦ — ١٨٠٢) حتى حظرت عليه الحكومة ذلك . وحاول أيضاً أن يحاضر في لندن . (شرح الأصل) .

وتاعثم وهو يتهدج تهدجاً دافئاً لذيداً ، وخفق قلبه كدقة الحنطة :

- لالم أنه بعد .

- أرجوك إذن أن تسرع .

- نعم سأفعل ذلك يا آنسة جارلاندا ! . . . ب . . . ب . . . بوب

فنى طيب > . . .

وقاطعته .

- لاندكر لى اسم ذلك الرجل .

وصمت جون على الفور ولم يعد شيء يسمع غير حفيف الشريط وظل الأمر كذلك حتى ضلت يده ثانية بين جدائلها ، ثم لمست جبهتها . فتمتم جاويش البروجى

فى همس :

- أوو ، يا إلهى الرحيم !

وارتد فى سرعة إلى ركن الصوان ، وأسند رأسه إلى يده .

وقالت له :

- ما الأمر يا جون ؟

- أنا لا أستطيع القيام بذلك !

- ماذا ؟

- بربط شريط قبعتك .

- ولماذا ؟

- لأنك على قدر كبير من . . . لاني أرعن : ولا أستطيع ربط عقدة أبدا

وأجابت آن :

- أنت أرعن بالتأكيد .

وابتعدت عنه .

وشعرت بعد ذلك بأنها أوديت فى كرامتها ، فقد بدا أن ما بدر منه يدل على أنه يضع سعادة بوب فوق سعادتها فى تقديره مادام أنه ينشبت فى تفكيره بإتاحة فرصة أخرى لبوب بينما أظهرت هى أنها ترغب فى غير ذلك ، فهل للآنسة جونسون أى دخل فى تشبه هذا ؟ ولاحظ لما بعد بضعة أيام فرصة اختباره فى هذا الصدد ، فقد كانت فى القرية . وقابلت جون عند باب الطاحون :

— أسمعت النبأ؛ ستزوج ماتيلدا جونسون بدريمان الأصغر .
وكانت آن تقف وظهرها إلى الشمس ، فتبدت ملامح لعينها المقتبتين وهو
بواجهها ، ولم يطرأ على تلك الملامح أى تغيير إلا أن يكون ثمة شعاع معين من
الاهتمام انبثق لأمر سؤاها ، ثم تحول إلى عدم الكرات واضح شامل .

وقال فى فتور يصعب أن يكون فتور محب :

— حسنا . فإدام الزمن يمضى ، فهذه زيجة لا بأس لها بالنسبة لها
وبدأ جون يدرك من ناحيته أن هذه الإغراآت أفتدح مما يستطيع احتمالها
ولكن وجود معسكره قريبا إلى هذا الحد من بيت أبيه جعل من غير الطبيعي
ألا يقوم بزيارته ، لاسيا وأن فرقته قد توتر فى أبه لحظة بالرحيل إلى الخارج ،
ويعقب ذلك فراق سنوات طويلة . ومادام أنه يذهب إلى هناك فلا مفر له
من رؤيتها .

وتغير لون فصول العام من أخضر إلى ذهبي ، ومن ذهبي إلى رمادى ، ولكن
التغير الذى طرأ على بيت لفتدى كان ضئيلا . وكانت الأنباء ترد عن بوب عرضا ،
خلال الاثنى عشر شهرا الأخيرة ، بأنه يصون شرف بلاده فى الدنمارك ، وجزائر
الهند الغربية ، وجبل طارق ، ومالطة وغيرها من بلاد تقع فى أرجاء الكرة
الأرضية وظل الأمر كذلك حتى تلقت الأسرة رسالة قصيرة تشير إلى أنه وصل
ثانية إلى بور تساوٲ . وبدا أن بوب ميال للبقاء فى تلك المدينة ، فإن هذا الشهم
المهذب لم يظهر قط فى أوفر كيب مع أن بعض الوقت قد مر دون أن ترد أنباء
جديدة ثم علم جون فجأة أن ترقية بوب التى طال الحديث عنها . نظير الخدمات
المعروفة التى أداها ، قد أصبحت واقعة محققة . وسار جاوئش البروجى ، على
ذلك إلى أوفر كيب ووصل إلى القرية إبان العصر . ولم يكن فى البيت أحد من أفراد
الأسرة وقتذاك فواصل جون طوافه فوق التل صوب كاستربريدج دون أن يتبصر
الاتجاه الذى يسير فيه ، وظل كذلك حتى رأى ، وهو يرفع عينيه ، أن جارلاند
تتجول هناك . حاملة على ذراعها سلة صغيرة .

واحمر وجه جون أول الأمر لاغتباطه بهذه الرؤيا اللطيفة ، ولكن ضميره أهاب
به ، فأهدر احمرار التنبطة فجأة وقضى عليه ، وبحث عن وسيلة للانسحاب ولكن

الحقل كان مكشوقا ، والجندی لا يخفى على العين . فليس هناك منها مهرب .

وقالت وعلى ثغرها ابتسامة جذابة :

— كان شيئا لطيفا منك أن تحضر .

فأجاب وهو يضحك ضحكة تدل على عدم المبالاة :

— وكان حضوري إلى هنا محض مصادفة ، وقد ظننتك في البيت .

واحر وجه آن ، ولاذت بالصمت . ومضيا يتجولان معا . وقام وسط الحقل

جزء من سور حجري على هيئة « جملون » وهو يعرف باسم « فانتجون روين » (١)

وتوقف جون ، عندما وصلا إليها ، وسألها في أدب هل تعبت بمض الشيء إذ

قطعت هذه المسافة الطويلة . ولم ترد عليه الفتاة بقول معين ، ولكنهما توقفا

سويا ، وجلست آن على حجر كان قد سقط من الأقباض على الأرض .. ولاحظ

جون بلهجة تقريرية :

— كانت هنا كنيسة في يوم من الأيام .

فأجابت :

— نعم . وكثيرا ما كنت أصورها في ذهني . ولا بد أن هيكلها كان هنا

حيث أجلس .

— هذا صحيح ، وذلك الجزء الباقى من السور كان طرف الهيكل .

وكانت آن تجمع دراساتها القليلة عن خلق جاويز البروجي ، وأدهشها أن

يجد كيف أن لإشراق خلقه يرداد في عينيها عند كل اختبار . ونمى بين جوانحها من

جديد شعور رقيق لطيف . فهنا رجل باسل يكابد الإهمال . وهو إذ أحبا إلى

حد تبديل فكره ، قضى على نفسه معتمداً أن بلوذ بظل مشج لينفادى حتى الظهور

بمظهر الوقوف عقبه في طريق أخيه .

وقالت في حزم هادى . وهى تقذف بحجر صغير إلى بقعة تبعد حوالى خطوة

إلى الغرب :

(١) أى «أهائس فانجتون» ، وهى بقايا كنيسة «وبنريون كين» القرب من درويستر .

(شرح الأصل)

— إذا كان هذا هو موقع الميكل فإن مئات من الناس يكونون قد زوجوا في الأزمنة الخالية هنا بالضبط .

وكنتم جون انطلاقة عاطفياً آخر ، وأجاب :

— نعم ، وكان هذا الحقل في الماضي قرية مأهولة . وجدى كان يستطيع أن يذكر الاوان الذي كانت تقوم فيه المنازل هنا . ولكن سيد هذه المقاطعة هدمها جميعاً لأن منظر الفقراء كان قذى في عينيه .

واستأنفت القول وهي تدور بعينها إليه دون أن تقبل انحرافه عن الموضوع :

— أتذكر يا جون ما سألتني يوماً أن أفعله ؟

— في أى ناحية من النواحي !

— في أمر حياتي المستقبلية ، وحياتك .

— أخشى أن أكون غير متذكر .

— يا جون لعدى !

وأولاهها ظهره لحظة لا ترى وجهه . وقال آخر الأمر بصوت يابس ضئيل

مكبوت :

— آه ! ... إلى أتذكر .

— حسناً . هل أنا في حاجة إلى أن أقول أكثر مما قلت؟ أليس ماقلته لك كافياً؟

وأجاب الرجل العس :

— لأنه يجدر أن يكون كافياً ، ولكن ...

ورفعت إليه بصرها وهي تبسم ابتسامة عتاب وواصلت القول .

— إنك سألتني خلال ذلك الصيف عشر مرات إذا كنت قد سألتني مرة من

المرات . وأنا اليوم أكبر سناً ، وأقرب إلى أن أكون امرأة كما ترى . وقد تغير رأيي في بعض الناس ، لا سيما في واحد منهم .

وانفجر بقوله :

— أوو ، آن .. آن !

واختطف يدها بينما كان يترنخ بين الشرف والرغبة . وفي الدقيقة التالية سقطت

يدها ثقيلة على حجرها ، فقد تركها كلية وهي في منتصف طريقها إلى شفتيه .
وقال في هدوء لجأني غير طبعي :

— كنت أفكر أخيراً في أن الرجال الذين اتخذوا العسكرية حرفة لهم يبدئي ،
ألا يتز ... أعني يبدئي أن يظلووا كالقديس بول .
وقالت عابسة :

— خست يا جون وأنت تدعى التقى ! إن الأمر ليس كذلك ، ولكنه بوب !
وصاح جاويش البروجي الشقي :

— نعم . وقد تلقيت منه رسالة اليوم .

وزرع ورقة من تحت صدره ، وأردف :

— ها هي ذى . وقد فاز بالترقية ... وأصبح ملازماً ، وألحن بالعمل على
ظهر سفينة ذات شراع واحد لا تمخر العباب إلا حول شواطئنا . وعلى ذلك
سيقتضى نصف وقته في اجازة ، مقبياً في بيته ، وسيصبح في يوم من الأيام سيداً ،
وجديراً بك .

وألقى بالرسالة في حجرها . وعاد أدراجه إلى الناحية الأخرى من السور
ذى السطح الهرمى . وقفزت آن من مقعدها ، وقذفت بالرسالة دون أن تنظر
إليها ، ومضت إلى سبيلها بسرعة . ولم يحاول جون اللحاق بها ، ومشى في أثرها
بعد أن التقط الرسالة ، مبتعداً عنها مسافة مائة خطوة .

ولكن آن ، رغم انصرافها عنه على مثل هذا الوجه من السرعة ، لم ترفعه
في تقديرها قط طوال حياتها كما فعلت بعد خمس دقائق من مغادرته عندما هدأ
انفعالها الوقتي . لقد وضع لها الأمر كله جلياً ... وأثرت فيها تضحيته بنفسه تأثيراً
كبيراً إلى حد أن الأثر الذي تركته تلك التضحية كان تقيض ما توخه الفتاة . فهو
كلما ازداد دفاعاً عن بوب ازدادت مروءتها المتمردة عليه دفاعاً عنه . وقد
وقعت الأزمة اليوم ... ولم تستطع الفتاة أن تتوقع ما ستسفر عنه من نتائج .

وما أن وصل جاويش البروجي إلى أقرب دواة وقلم حتى ارتدى على مقعد ،
وكتب ما يأتي إلى بوب وهو في حالة عصبية :

عزيزى روبرت :

أكتب إليك هذه الاسطر القليلة لاجبرك أنه إذا كنت تريد أن جار لاند
- فلا بد من مجيئك حالا ..، لا بد من مجيئك على الفور ، وبأسرع ما تستطيع ...
- وإلا أفلتت من يدك افهنك شخص آخر يريد ما وهى تريده .. هذه هى فرصتك
الآخيرة فى رأى أخيك الوفى الذى يبنى لك الخير .

. جون .

حاشية : أسعدنى أن أسمع عن ترفيتك ، خبرنى عن يوم مجيئك حتى أنتظر
عربة السفر .

بوب لفدى يخطر

صعوداً وهبوطاً

(٣٩)

وفى ذات ليلة ، بعد مرور أسبوع ، كان رجلان يسريان فى الظلام ، سالكين طريق « بوابة المكوس » إلى أوغركب ؛ وفى يد أحدهما حقيبة .

قال أطول الرجلين ، وكان استواء أعلى كتفيه يدل على أنه يحمل فوقهما درماتة ، السترة العسكرية :

— الآن ينبغي أن تساعد نفسك بقدر ما تستطيع يا بوب فقد قت أنا بقدر ما استطعت .. ويمكننى أن أقول لك إنك اجتثت ما بنيت .

وقال الآخر فى لهجة تدل على توبة صادقة :

— أنا ما كنت لأقدم على هذه المجازفة مقابل شيء فى الدنيا ، ولكنك ترى يا جاك أنه لم يخطر ببالى أن هناك خطراً ما ، لعلنى بأنك تمنى بها ، وتحافظ على مكاتنى راسحة فى نفسها . فأنا لم أتعجل العودة ، هذا صحيح ، ولكنى اعتقدت أنى متى حصلت على الترقية ، فإنهم سيعدوننى بمنحى لإجازة ، وهذا طبعى ، وعندئذ سأحضر وأرى الجميع . وأقسم أنى ما كنت لأحضر إلى هنا الآن لولا رسالتك !
وقال له أخوه :

— أنت تصغر من شأن المخاطرة التى أقدمت عليها . ومع ذلك حاول أن تموض الوقت الذى فاتك .

— حسناً . ومهما يكن أمر ما ستفعله ، لا تذكر كلمة عن تلك الفتاة الأخرى ... بحقاً لها ! ... وإنى لأعلم أنى كنت أحقاً كبيراً ، ومع كل اتئبى ذلك الآن ، وعاد إلى صوابى . وأظن أن نفحة من ريح ذلك النبأ لم تصل إلى أن؟
وقال جون فى جد :

— إنها تعلم عن الأمر كل شيء .

وقال بوب وقد وقف في الطريقتين جامداً كالصنم، وكأنه قصد أن يظل هناك
ليئته بطولها :

- تعلم؟ .. أقسم لإذن أني هلكت!

وأجاب جون وهو على نفس هدوئه السابق:

- هذا هو ما عنيته بقول إن المعركة أمامك ستكون عنيفة.

وتهد بوب، وواصل سيره، وصاح مهتاج العاطفة، ضاربا ضلوعه الثلاثة
العايا بقبضة يده:

- أنا غير أهل لتلك المرأة!

ولاحظ جون بحفاء يكاد يكون صارماً:

- إنى كذلك أرى هذا الرأي، ولكن الأمر يتوقف على كيفية تصرفك
في المستقبل.

وقال بوب وهو يتناول يد أخيه:

- جون! سأصبح إنساناً جديداً. أقسم بنصبة المسافات هذه، أقسم غير
حانت بهذه النصبة الأبدية التي تمدق في، أنى لن أتطلع أبداً إلى امرأة أخرى
بقصد زواجها ما دامت هذه العريزة غير متزوجة... لاحتى ولو كانت حورية
بحرية من نور!.. وإنه لمن حسن حظى أنى مرقت إلى السفينة الحربية العريضة.
فقد يعينى ذلك عندها، هيه؟

- قد يعينك ذلك عند أمها ولكنى لا أحسب أن اخلاقاً كبيراً يترتب
عليه عند أن، وهو بعد أمر طيب، وأرجو أن تصبح في يوم ما ريانا
لسفينة كبيرة.

وهز بوب رأسه:

- الضباط نادرون، ولكنى أخشى ألا يصل بي حظى حتى تلك الناية.

- ألم تحبرك قط أنها ذكرت للبلك اسمك؟

ووقف الملاح جاهداً مرة أخرى، وقال:

- أبداً! كيف حدث مثل ذلك، بحق السماء؟

وشرح جون تفاصيل الأمر ، ثم سارا مسترسلين في الحدس والتخمين .
وعلى أثر دخولهما البيت قوبل الضابط البحري العائد إلى بلده بتهلين من
أبيه وديفيد ، وبارتياح رقيق من السيدة لفدى ، ولم تقابله آن قط ، إذ كانت
هذه الفتاة الفطنة قد حرصت على أن تأوى إلى غرفتها في ساعة مبكرة من المساء ،
ولم يجرؤ بوب على السؤال عنها بأية طريقة جازمة ، فاكتفى بالسؤال عن صحتها ،
ولم يزد على ذلك .

وقال صاحب الطاحون محملاً :

— عجبا ! ماذا جرى لوجهك يا ولدى ؟ ديفيد ! هات لى ضوءاً هنا .
وجيء بشمعة دفع بها تجاه وجنة جون حيث ظهر بها خط محفور مثلوم كأنه
أشلاء جيولوجية لسرطان بحرى .

— أوو . . . هذا من أثر القنبلة اليدوية الفرنسية الخبيثة التي انطلقت من
السفينة ، ريدوتابل ، وأصابتنى حسباً ذكرت لك فى خطابى .

— أنت لم تذكر عن ذلك كلمة !

— ماذا ، ألم أخبرك ؟ آه ، لا . لقد كنت أنوى ذلك ، ولكنى نسيت .

وقال صاحب الطاحون وهو يضع أصبعه فى شق محفور بمجمعة بوب :

— وما هو ذا أيضاً ما يشبه أثر ضربة فى جبينك ، فاذا يعنى ذلك يا ولدى ؟
— حدث ذلك فى جزائر الهند . نعم ، وكان الجرح متعباً نوعاً . . . وقد
أحدثه سيف قصير ، وكنت سأحدثك عنه ، ولكنى وجدت ذلك سيظليل رسالتى
جداً فأرجأت الأمر ، ثم أرجأته ثانية . . . وأخيراً لم يستحق إضاعة الوقت
فى الكتابة عنه .

ولم يلبث جون أن وقف ليستأذن فى الرحيل .

وقال له بوب خارج البيت :

— لقد انتهى الأمر بينى وبينها كما ترى ، فهى لن تقدم حتى على رؤيتى .

وقال جاويز البروجى :

— تمهل قليلاً .

كان من السهل كثيرا على آن يوم وصول بوب ، ووسط الانفعال وتدفق الدم حاراً ، أن تثبت في تجنب بوب لفدى ، ولكن العزم جدير في الصباح أن يهن ، وتحقق قواعد انشاكسة يصبح أشد صعوبة ، ويستولى على الروح الرقيقة شعور بأن على الإنسان أن يحجى . ويدع غيره يحجى . ولم تكن آن تنوى حتى أن تجلس مع بوب إلى مائدة إفطار واحدة . ولكنها دخلت الغرفة عندما اجتمع بها سائر أفراد الأسرة وتناولوا بعضاً من الوجبة الدسمة التي قدمت اليهم هذه الساعة في بيت صاحب الطاحون . جاءت كالشبح ، صامته ، مسيلة لتعنين ، شاحبة الوجنتين . وطالت عليها المسافة من الباب إلى المائدة ، وغصها بوب لحصاً كاملاً وهي تذهب إلى أقصى ركن تنفذ إليه أشعة الصباح مباشرة ، وهناك جلست خرساء .

وكان اللقاء يختلف كل الاختلاف عما توقعت ، فها هي ذى التي لم ترتكب شيئاً تشعر بالارتباك كله بينما بوب الذى ارتكب الخطأ يبدو شاعراً بالراحة تماماً .

وقال صاحب الطاحون بعد فترة صمت :

— ستقولين شيئاً لبوب ، أليس كذلك يا عزيزتى ؟

فإن مقابلتها لبوب على هذا النحو بعد غيبته بدت في عينيه غير طبيعية .

وأجابت متجهة إلى صاحب الطاحون على نحو حال دون انحراف أى جزء ، أو قطعة ، أو شعاع من نظرتها ، واتجاهه على مقربة من الرجل الذى تدور حوله الملاحظة :

— سأفعل إذا أراد منى ذلك .

وقالت الام على نفس المنوال :

— اعلمى يا عزيزتى أنه ملازم ، وقد أصيب بجراح رهيبه .

وقالت آن وهي تنحرف قليلاً إلى عكس الاتجاه :

— أوه ؟

وشعر بوب عندئذ أن الأوان قد آن ليتدخل معبراً عن نفسه ، فقال

منسكراً :

— أنا سعيد برؤيتك ، وكيف حذلك ؟

— حالى حسنة جدا . أشكرك .

ومديده ، وأجازت له أن يتناول يدها ولكن بمقدار قيراط ضئيل منها فقط ، أو ما يقرب من ذلك . وفى نفس اللحظة رفعت بصرها إليه ، عندما تلاقى أعينهما ، ثم رددته عنه ثانية .

وهذا الموقف المعقد بين عضوى الأسرة الأصغر من أفضى لئلى جعل جلسة الإفطار ثقيلة . وقد اكتأب بوب لمسلكتها غير المتساح إلى حد أنه لم يستطع أن يلقي ذلك اللآلاء على حكاياته التى تحتاج بطبيعة الحال إليه . ومضى الجميع إلى مشاغلهم المختلفة ، وقد شابه هذان الاثنان « الأخوين دروميوس » (١) فى عدم وجودهما معا قط ، أو وجودهما نادرا فى نفس المكان والزمان ، وذلك بفضل حيل آن الحاذقة .

وقد تكرر هذا النوع من التمثيل عدة أيام إلى أن عثر بوب أخيراً على خطة جديدة بعد أن تعقب الفتاة فى كل مكان ، متكئاً وهو مجمد الجبين على قوائم الأبواب ، ومسترقاً النظر إلى الغرفة التى تكون فيها ، وملتقطاً لها كرات خيوط الصوف دون أن يتلقى على ذلك شكراً ، وواضعا على مائدتها شظية من السفينة فيكتورى ، وعدة رصاصات من السفينة « ردوتابل » ، وقطعة قماش من العلم ، وغير ذلك من الآثار التى كان يرفق بها بيانات مكتوبة بعناية ، ولا يسمع عنها أكثر مما كان يسمعه لو أنها حصى ملتقطه من أقرب جدول . وكانت الفتاة تجلس غالباً إلى نافذة فى الدور العلوى ، مظلة على الحديقة ، لتتجنب لقاءه ، فارتدى الملازم لعدى بعناية حلة جديدة أوصى بإرسالها منذ بضعة أيام ليخطف بها بصر بعض الأصدقاء المعجبين به ، ولكنه لم يظهر بها أمام المآل إلى الآن ، ولم يذكر شيئاً عنها مخلوق . ودخل الحديقة المشمسة بعد ارتدائها ، وتمشى بخطوات بطيئة رائحا غاديا على نحو ما كان يرى نلسون وكابتن هاردى يمشان على ظهر سفينة

(١) هما الأخوان الترومان اللذان يعملان خادمين فى مسرحية شيكسبير « كوميديا

الأخفاء » (شرح الأصل) .

القيادة . ولكنه ظل يتجه بكتفه اليسرى ، على قدر الإمكان ، إلى ناحية نافذة
آن وهذه الكتف هي التي يحمل عليها رمانته العسكرية الوحيدة .

ولكن لم يظهر لها أثر برغم أنه لم يكن هناك أدنى شك في أنها رآته . ودخل
البيت بعد نصف ساعة ، وخلع ملابسه ، واسترسل في شكوكه ، وفي تدخين أجود
الطبايق صنفا .

وكرر تنفيذ نفس البرنامج بعد ظهر اليوم التالي ، ثم بعد ظهر اليوم الذي
يليه دون أن يذكر كلمة في البيت عن أفعاله ، أو عن ملاحظاته .

ولكن النتائج التي حدثت في غرفة آن ، خلال ذلك ، لم تكن غير ذات بال .
فقد كانت تطل على الحديقة من أول يوم وداهمت على الفور لرقية ضابط بحري
في حلتها الحربية الكاملة يتنزّه في المر . وإذا وجدته بوب غادرت النافذة وقد
خالجها شعور بأن المشهد لم يكن لها ، ثم اختلست النظر من وراء ستر النافذة
مدفوعة بدافع الفضول ليس إلا . وسلت بأن منظره كان جميلا وقد أظهرت
حسن شكله كثيفة من سياج شمس مشذب يتسلقه نبات الحرف في غزارة .
مفرطة . ولو استطاعت آن أن تهتم به مثقال ذرة ، وهي لا تستطيع ذلك ، لأمكن
أن يكون شكله موضع دراسة لطيفة ، ولفاق في الأهمية حتى أبهته في اليوم المشهود .
الذي ذهب فيه إلى مسرح البلدة . . . ونادت أمها فجاءت السيدة لفتدى على الفور .
وقالت آن دون مبالاة :

— أوو ، لا شيء هناك إلا أن بوب يرتدى حلة الحربية .

وأطلت السيدة لفتدى ، ورفعت يديها في اغتباط :

— وهو لم يفه لنا بكلمه عنها ! ياها من رمانه بديعة ، لا بد أن أنادى أباه .

— لا ، أبدا ، فما دمت لا أهتم بأمره فأننا لن أدع الناس يدخلون غرفتي

للإعجاب بمنظره .

وقالت أمها :

— حسنا ، فقد ناديتني أنا .

— كان ذلك لأنني ظننتك تعجبين بالملابس البديعة ، وهي مالا أهتم به أنا .

وبرغم هذا التأكيد عادت فأطلت على بوب ثانية بعد ظهر اليوم التالي عندما خشخش وقع أقدامه على الحصباء ، وامتحننت هيئته من زواياها المختلفة . وهي معرضة لضوء الشمس ، وكأنما لم تكن الملابس والحلل العسكرية مسألة لا تهمها بالمرّة كما زعمت . ولا شك أنه كان من قه رأسه إلى إخصص قدمه ملاحا . رائعا مهذبا شهما . ولكن ما هي بعد قيمة المظهر الجسور ، والرتبة العسكرية البحرية ، وآثار الجروح ذات الدلالة إذا كان الرجل متقلب العاطفة ؟ وبرغم ذلك ظلت تطل خفية حتى اليوم الرابع ، ثم لم تعد تطل بعد ذلك . كانت النافذة مفتوحة ، وكانت هي ترسل طرفها إلى خارج النافذة جهراً ، وعلم بوب أن الطعم بدأ يجتذب الفريسة أخيراً . ولمس لها قبعته محبياً ، وظل يحرص على تقديم كتفه اليمنى ناحيتها ، وقال وعلى نغره ابتسامة :

— سعدت صباحاً يا آنسة جارلانـد .

وأجابت آن في وقار كئيب :

— سعدت صباحاً .

وأدى إحياء علاقة المعرفة بينهما من جديد على هذا النحو إلى تبادلها بضع كلمات على مائدة العشاء ، وحينذاك أوامت السيدة لغدى لإيماءة رضى . ولكن آن عنيت عنابه خاصة بالأنا تقيح له الاختلاء بها أبداً ، ولم تنقطع مهارتها عن مزاولته تدريبها لتكفل لها ذلك . ولكن كانت هناك زوايا وحنايا عديدة في دار صاحب الطاحون المنفصلة الأجزاء إلى حد أن آن لم تكن تستطيع أن تثق أبداً من أنه لن يظهر على بعد قدم منها ، لا سيما وأن حذاءه الدقيق لا يكاد يحدث صوتاً .

وفي عصر يوم رائق صحبت موللى في البحث عن حب الختان (١) بقصد صنع نبيذ منه للأسرة تشربه السيدة لغدى وأن وكل من لا يحتمل شرب الخمر الأشد قوة وعنفاً التي يقدمها صاحب الطاحون ، وبعد أن قطعنا من كئيب الرمل مسافة بعيدة نوعاً وصاننا إلى منخفض معشوشب به دغل يبدو فيه نبات الختان مسكوناً من فرعين أو ثلاثة ، صاعداً من جسر غير مستو ، متدللاً بأعاليه صوب

(١) حب كالتوت .

الجنوب ، مسودا مقلبا بما يحمل من عنقايد الثمر . . . وإبتهاج الفتيات بجمع الثمار يزداد في حالة جمعهن حب الختان لما تتميز به أوراقه وأغصانه والحما جذوعه من نعومة لا تؤذي ، ولأن ذلك يجعل التعلفل بين أفرعه سهلا لطيفا لأقل جامعيه اهتماما بالآمر . ولم تلبث آن وموللي أن جمعتا منه ملء سلة . وإذا أرسلت آن الخادم بالسلة الممتلئة إلى البيت بقيت هي في الدغل مسترسلة في جمع العناقيد ، وإلقائها على الحشائش عنقودا بعد عنقود . واستغرقت فيما كانت تضطلع به من جذب الأفرع إليها ، وملا حفيف الأرواق سمعها إلى حد أنها فوجئت مفاجأة كبرى عندما دارت برأسها وشعرت بحركة عائرة لحركتها تجرى بين أفرع الدغل المجاور .

ظنت أول الأمر أن الذي قلقها هو اتصال من بعض النواحي بأفرع شجر دغلها ، ولكن وجه روبرت لقدى لاح بعد لحظة من بين الأشجار على بعد خطوة منها تقريبا . ونظمت آن في حق كلمة « حسنا ! » المقتضية ، واستعادت رابطة جاشها ، واستمرت في قطف الثمر . وأخذ بوب ، عندئذ ، يقطف الثمر مثلها . وقال الملازم آخر الأمر في ذلة :

— إنني أقطف لأمك حب الختان .

— هذا ما أراه .

— واتفق إنني جئت إلى الدغل المجاور لك .

— هذا ما أراه ، ولكني لا أرى سببه .

وكانت آن وقتئذ عند الأفرع الواقعة في أقصى الدغل غربا ، بينما كان بوب ، وهو يقطف الثمار ، ينحني على الأفرع الواقعة في غرب دغلها ، ويميل صوب أن ، متقدما حينها ، ومرتدا حينها آخر . وقال إذ مال مرة ميلا أشد من العادة جعله يكاد يلامسها :

— أستميحك عذرا .

— لماذا فعلتها إذن ؟

— الريح تهب الأغصان ، والأغصان تهزني .

وعبرت بنظرة عن رأيها فيما قوره وهي تواجه أرق نسيم . وواصل

بوب قوله :

لوايل القنابل . وقد بدا لي أني أراك وسط الدخان ، وتساءلت ماذا تراها تصنع لو ابتلعني المحيط ؟

— إن ذلك لم يخطر ببالك عندما نزلت بأرض الوطن بعد موقعة الطرف الأغر .
وقال الملازم في لهجة تعقل :

— حسناً ، ولكن ذلك الأمر كان شيئاً عجباً ، ولعله من الصعب أن تصدقيه .
ولكن الرجل إذا ابتعد عن أحب امرأة إليه في أحد الثغور . . . أقصد في العالم كله . . . فيمكن له أن يشعر لغيرها بعاطفة مؤقته دون أن يقلق عاطفته القديمة التي تظل تتدفق أبداً كما كانت .
— لا أستطيع أن أصدق ذلك ، ولن أصدقك .

وظهرت مولى عندئذ وهي تحمل السلة الفارغة ، وعادت آن معها إلى البيت بعد أن ملأت السلة بكومة الثمر اللقاة على الحشائش ، وودعت لعدى وداعاً فآثراً واقترح صاحب الطاحون في نفس تلك الليلة ، بينما كان بوب متعباً ، أن يصعد ثلاثتهم إلى نافذة البيت العليا حتى يطول مرمى نظرم فيروا بعض صواربخ الزينة التي سيجرى عرضها في البلدة وفي الميناء تكريماً للملك الذي عاد هذا العام كعادته . وعلى ذلك صعدوا إلى الدور العلوى الخالي ، ووضعوا مقاعد تجاه النافذة وأطفأوا النور . وقد جلست آن في الوسط ، وأمها إلى جانبها ، وجلس صاحب الطاحون إلى الخلف وهو يداخن . ولم تعد إلى الآن علامة تدل على ظهور أى عرض لصواربخ الزينة في سماء الميناء . وأزجت السيدة لعدى الوقت بالتحدث إلى صاحب الطاحون الذي كان يجيبها في اقتضاب شديد . وخيل إلى آن بينما كان ذلك يحدث ، أنها سمعت أحداً يقترب ، ولم تلبث أن تيقنت من أن بوب يدنو منها وسط الظلة المحيطة بها ولكنها لم تفه بكلمة إذ لم يلاحظ الآخر أن شيئاً .

وعلى حين فجأة تبدد الغيش الممتد في السماء الجنوبية بتور عدة صواربخ انطلقت معا إلى أعلى من السفن الراسية في المرافئ . وانسلت حول يد آن ، في نفس اللحظة ، يد داثة خفية ، وضمها يرفق .

وقالت آن في فزع مبالغت :

— آه ، ياربني !

وقالت السيدة لعدى :

— كم أنت عصبية يا ابنتي حتى تفرعك ألعاب نارية على مثل هذا البعد!

وغضمت آن ، وقد أفاق من دهشتها :

— أنا لم أر صواريخ من قبل .

ولم تايك السيدة لعدى أن عادت الكلام :

— إني لأتساءل ماذا حدث لبوب ؟

ولم تجب آن لانهما كما في محاولة تخليص يدها من اليد التي تقبض عليها .
وأيا كان ما خطر ببال صاحب الطاحون فقد احتفظ به لنفسه . ذلك أن الكلام
كان يعكر عليه صفو تدخينه .

وانطلق عدد آخر من الصواريخ إلى أعلى . وقالت آن في صوت شبه مكتوم ،
وإثابة من مقعدها :

— أوو ، أنا لم أرها قط !

فقد وثبت يد أخرى متلفة حول خصرها وقتها انطلقت الصواريخ .

وقالت السيدة لعدى :

— لا بد أنك تمانين الإرهاق من المنظر إلى هذا الحد أيها الابنة المسكينة .

وغضمت الابنة المطيعة .

— أحسب أن ذلك لا بد حدث لي .

ولم يحدث شيء آخر يعكر هدوء آن مدة بضع دقائق . ثم تصاعدت من ظلام

الفرقة منحنحة بطيئة هادئة . وسألت السيدة لعدى :

— ماذا ؟ بوب ؟ منذ متى أنت هنا ؟

وقال الملازم دون الاكرات :

— منذ قليل . سمعت أنكم هنا جميعاً فدلقت إليكم في هدوء حتى لا أزعجكم .

— لماذا لا تتنعل حذاء ذا كعب كما يفعل المسيحيون المؤمنون بدلاً من أن

تجومي زاحفاً هكذا كالتقطط ؟

— حسناً ، إن المشى بحذاء لا نعل له يحفظ لك نظافة أرض بيتك .

— هذا صحيح .

وكانت آن ، خلال ذلك ، تحاول في لطف ، ولكن في حزم أيضاً ، أن تفرع

يد بوب من حول خصرها . والمشكلة الاليمية التي عانتها هي أن يدها كانت تقع في أسره حين تنجح في تخليص خصرها . ونهضت إذ وجدت ذلك الصراع غير مجد نظراً لحفاه خصمها ، ورغبتها في إبقاء طبيعة الصراع سرا على الآخرين . وتحسست طريقها إلى سفل الدار إذ قالت إنها لا تحرص على متابعة المشاهدة . وتبعها بوب تاركا لعدى وزوجته لنفسهما .

وبدأ يقول لها عندما نزل ورآها على ضوء شمعته الغرفة الكبيرة :

- يا عزيزتي آن .

ولكنها مرتت بلباقة من الباب الآخر ، فأخذ عندئذ شمعته مضاء وتبعها إلى الغرفة الصغيرة ، وكرر قوله بمجرد أن كشف الضوء وجهها :

- يا عزيزتي آن ، أرجو أن تدعيني أتكلم .

ولكنها انتقلت إلى غرفة الحيازة قبل أن يزيد كلمة على ما قال ، ومن ثم حذا حذوها في مثابة ، وأخذ تبحث عنها فيما حوله فلجها في أقصى الغرفة حيث لم تكن هناك وسيلة للخروج .

وأنا يقول من جديد وهو يضع الشمعة :

- يا عزيزتي آن ، لا بد أن تحاولي الصبح عني . لا بد من ذلك حتماً . إن حبّي لك يفوق حب أي مخلوق في العالم الفسيح . حاولي أن تصفحي عني . هيا !

وتناول يدها وهو يتوسل إليها .

وأخذ صدر آن يعلو وينخفض كأنه مد صغير ، وظل بصرها مسمراً في الأرض . وظلت كذلك حتى انفجرت باكية عندما جذبها إليه لعدى جذباً خفيفاً . وصاحت تقول فجأة بين الزفرات :

- أنا لا أميل إليك يا لعدى ، أنا لا أميل إليك ! وقد ملت إليك مرة ، ولكني لا أميل إليك الآن . أنا لا أستطيع الميل إليك ، لا أستطيع ذلك . إنك فسوت على قسوة شديدة .

ودارت عنه في عنف وهي تبكي .

وأجاب بوب وقد أصابه حزنها بتأييب الضمير :

— لقد كنت ... لقد كنت سيئاً إلى حد شنيع . أنا لا أجهل ذلك ، ولكن إذا كان في وسعك أن تصفحني عنى فقط ... فأني أعدك ألا أرتكب شيئاً بحزنك بعد ذلك . أتصفحين عنى يا آن ؟

ولم تجبه أن إلا بالبكاء وهز رأسها .

— دعينا نصلح . هيا قولى يا عزيزتى إننا اصطالحنا .

وسحبت يدها وقالت وهى لا تزال تدفن عيذها فى منديلها :

— لا .

وصاح بوب فى حزم مفاجىء :

— حسناً إذن ... لقد عرفت قسمى الآن وأياً كان ما تسمين أنه وقع لى .

فاذكرى أيتها الفتاة القاسية أنك أنت سبب هذا كله !

وإذا قال ذلك أوسع فى خطاه مسرعاً عبر العرقة إلى الممر ، ثم خرج إلى

الباب مسرعاً وصفقه وراه صفقاً مدوياً .

ورفعت آن بصرها عن المنديل فجأة ، وحلقت فى الباب الذى خرج منه

بعينين مبتلتين ، وشفقتين منفرجتين . وبعد أن ظلت على هذا النحو ، معلقة

الأنفاس بضع دقائق ، دازت ومالت برأسها على المائدة ، وانفجرت باكياً من

جديد بكاء أشد من بكائها السابق ثلاثة أضعاف . وبدا حتماً كأن حزنها سيتغلب

عليها إذ أن جميع العواطف التى كانت مكتومة ومخزنة ومخفاة منذ مجيء بوب ،

وجدت آخر الأمر متنفساً لها .

ولكن مثل هذه الأمور لها نهايتها . وأخذت آن تهدأ فى المسكن القديم

الواسع الخالى شيئاً فشيئاً إلى أن سكنت فى النهاية . وتناولت الشمعة بعد لآى ،

وصعدت إلى مخدعها ، وغسلت عينيها ، ونظرت فى المرأة ترى هل أحالت نفسها

إلى شيء مفرع . ووجدت أنها لم تصبح قبيحة كما توقع . ونزلت إلى سفلى

البيت من جديد .

ولم يكن هناك أحد . وتساءلت ، بعد أن جلست ، عن حقيقة ما عناه بوب

بما قال . وكان ما يفزع فرعاً شديداً أن يخطر ببالها أنه قصد الذهاب لركوب

البحر مباشرة دون أن يراها . وانتظرت عودته مضطربة بعد أن أخافها .

ما ارتكبت .

زيارة

في مهمة

(٤٠)

قطع عليها حيرتها طرق خفيف جداً على الباب، ثم سمع خفيف يد ترحف على سطحه وكأنها تبحث في الظلام عن المزلاج. وفتح الباب مقدار بضعة قراريط، وظهر من الفتحة وجه العم بنجي المرمرى.

— أوو، يا سيد بنجي، إنك تخيفني!

وسألها هامساً:

— أتجلسين وحدك؟

— أوى والسيد لقدى في مكان ما بالبيت.

قال وهو يتقدم:

— هذا يقى بالعرض. إني منتقل من الحياة، وقد فكرت فيك ثانية... أنت ذاتك يا عزيزتى آن، لا صاحب الطاحون. آه لو أنك تأخذين هذا، وتوصدين عليه مدة بضعة أيام حتى أستطيع أن أجد له مكاناً أميناً آخر. آه لو أنك ترضين بذلك.

ووضع صندوقه الصفيح، مبهور الأنفاس، على المائدة.

— ما الذى حملك على أن تحضر وتخرجه من القبو؟

— بلى؛ إن ابن أخى أخذ يتشمم مكانه... ولا أدرى كيف حدث ذلك! ولكنه هو وامرأة التي بها، يبحثان في كل مكان. وقد بذلت جهداً وساحب الأسلاك، لأنزع من مخبئه، وأبتعد به بينا هما يجرفان أرض القبو المجاور. والآن، أين نستطعمين حفظه يا عزيزتى؟ إنه لا يشتمل إلا على بضعة مستندات وعلى وصيتى، وما شابه ذلك كما تعلمين. مسكين أنا، فقد أنهكتى الجرى والفرع.

قالت وهي ترفع الصندوق:

— سأحفظ به هنا حتى أستطيع أن أمتدى إلى مكان أفضل. عجباً

كم هو ثقيل الوزن!

وقال العم بنجي على عجل .

— نعم ، نعم . فهو من حديد كآثرين . واحرصى عليه ، مع ذلك ، لأنى .
سأجزيك على حرصك جزاء مجدياً . آه ، إنك فتاة طيبة يا آن . وأتمنى لو أنك
كنت ابنتى !

ونظرت آن إلى العم بنجي ، وكانت تعلم منذ بعض الوقت أنها حصلت على
محبه التي اضطر أن يخلمها عليها .

وقالت فى بساطة :

— لماذا تمنى ذلك ؟

— والآن ، لاجمادلىنى . أين ستضعين الصندوق ؟

وقالت آن وهى توجه إلى قاعدة النافذة البارزة كلدان محبس ، المقفلة على فراغ
تحتهما بجوف الصندوق وفقاً لقواعد كثير من نوافذ البيوت القديمة :
— هنا .

فقال مرتاباً :

— هذا يصلح جداً مؤقتاً .

وأسقطا الصندوق هناك بينما أرتجت آن اللسان ، وأعطته المفتاح . وواصل
الكلام قائلاً :

— لست أريد منك أن تبتى الآن إلى جانبي دون مقابل . وأنا لم أفعل
ذلك قط ، أليس كذلك ؟ أجبى الآن . خذى ، هذا لك .

وناولها رزمة مغلقة بورق جعلت آن تقلبها وتنظر إليها فى استغراب .
واستطرد العم بنجي فى قوله وهو يمدق فى الرزمة المطروحة بين يديها وتهد :

— كنت أنوى دائماً أن أفعل ذلك هيا ، افتحها يا عزيزتى . . . كنت أنوى
دائماً أن أفعل ذلك .

وفضت الغلاف ووجدت مبلغ عشرين جنيهاً محروما فى عناية . وقال
متنبهاً من جديد :

— نعم ، إنه لك .. كنت أنوى دائماً أن أفعل ذلك !

وأجابت آن وهي تمسك بالنقود :

— ولكنك غير مدين لى فى شىء !

وصاح العم بنجى وهو يحجب عينيه بيديه :

— لا تقولى ذلك . خبيثها . حسنا ، إذا كنت لا تريدنها . . . ولكن

خبيثها يا عزيزتى آن . إنها لك لأنك نفذت نصيحتى . طاب مساؤك . نعم ،
..إنها لك .

وخطا بضع خطوات ، ولكنه عاد وأضاف فى لهفة :

— إنك لن تنفقها فى شراء ملابس ، أو تبديدها فى شراء هدايا أو حلل من

أى نوع يا فتاتى العزيزة ؟

وقالت آن :

— لن أفعل ذلك .. وأود لو أنك تأخذها .

وقال العم بنجى ، مندفعاً لينجس من إغراء تألقها :

— لا ، لا .

ولكنه لم يصل إلى المر حتى ارتد عائداً إليها :

— وأنت لن ترضيها أحداً ، ولن تودعها مصرفاً ... فليس هناك مصرف

مؤمن فى مثل هذه الأيام المضطربة ؟ ولو أننى فى مكانك لتركها تماماً ، كما هى ،

دون أن أنفقها بأية حال . هل أحفظ لك بها فى صندوق المغلق ؟

فقالت :

— بالتأكيد .

ورفع المزارع قاعدة النافذة على عجل ، وفتح الصندوق ، ثم أغلقه

عليها : وقال فى ارتياح شديد وهو يعيد المفاتيح إلى جيبه :

— هذه الخطة أفضل من غيرها كثيراً . فالنقود ستظل هناك فى مأمن كما

ترين ، وأنت لن تتعرضى للإغراء .

وبعد أن مرت بضع دقائق على انصراف الرجل الهرم دخل صاحب الطاحون

وزوجته دون أن يدروا شيئاً قط عما حدث . وعاد قلق آن على بوب إلى أشده

الآن ، ولم تقل إلا الأقل عن زيارة دريمان دون ذكر شىء عما تركه . وكانت

تتود أن تسألها هل يعرفان أين يوجد بوب ، ولكنها أحجمت لأنها لم تشأ

أن تخبرهما عن القطيعة التي حدثت وقد اضطرت أن تسلم ، بينها وبين نفسها ، أنها أجهدت صبره ، وأن من المعروف عن الرجال السريعي التأثر أنهم يتقدمون في مثل هذه الأحوال على إيناء أنفسهم .

وجلسوا إلى مائدة العشاء ، وأسرعت الساعة في دقائقها ، وقال صاحب الطاحون آخر الأمر :

— تأخر بوب في عودته عن العادة ، فأين يمكن أن يكون ؟

وإذ نظر كلاهما إليها عجزت عن الاحتفاظ بالسر أكثر من ذلك ، وصاحت :

— الخطأ خطي ، فأنا دفعته إلى الرحيل ، ماذا أستطيع أن أفعل ؟

وحزر الأكيبران طبيعة المشاحنة على الفور ، ولم يزيدا كلمة على ما قيل . ونهضت آن ، وتوجهت إلى الباب الأمامي حيث أنصتت ، خافقة القلب ، إلى كل نائمة . ثم دخلت . ثم عادت فخرجت . وأتيح لها مرة أن تسمع صاحب الطاحون يقول :

— إنني لأتساءل عما جرى بين بوب وآن ! أرجو أن يعود القتي إلى البيت . وفي هذا الوقت بالذات التقطت الآذان صوت أقدام تتردد في الخارج ، ودب بوب بقدميه مخترقا المرمر . وتبعته آن إلى الغرفة ، وكانت قد وقفت في الظلام إلى الخلف أثناء مروره ، وهناك كان صاحب الطاحون وزوجته يهمان أن يأتيا إلى مضجعهما ، وفي يد أحدهما شمعة .

وبدأ بوب يقول مبتهجا بادياً كأنه لا يذكر أقل شيء عن انصرافه الفاجع من المنزل :

— أخشى أن أكون قد أسهرتكما ، ولكن حقيقة الأمر أنني قابلت فستوس دريمان في « ديوك أوف يورك » بعد انصرافي من هنا . وظللنا نلعب هناك ، منذ ذلك الحين ، لعبة « بوت » (١) ، دون أن نشعر بمرور الوقت . وقد مرت سنوات بعد سنوات لم يجر لي مع هذا القتي خلالها حديث طويل ، وإنه في الحق رفيق طيب للغاية ، دائم الإخلاص ! . وقد أسىء إلى هذا المسكين ، وأنا لم أسمع

(١) لعبة ورق قديمة تشبه لعبة « ناب » وبأخذ كل لاعب فيها ثلاث ورقات . ويرجم الفضل في الأمام بلعبة « هاوس » التي مارسها جنود جورج الخامس في الخنادق إلى جنود جورج الثالث .

حقيقة حكايته قط إلا الآن ، ولكن يبدو أن العم الهرم يسى * معاملة على نحو عجول ، فقد أخفى ماله حتى لا يتال منه ، فس ، المسكين قرشاً . وظلت الحال كذلك حتى تحول الشاب في النهاية إلى دودة منقبة كسائر الدود ، واعتزم الآن أن يستصحي الأمر ليعرف ماذا صنع بذلك المال . ولم يكن لدى الفتى مال موفور حتى أفرضته جنين ... وهذا ما لم أفعله في حياتي وأنا أشد رضى ، ولكن الرجل كان شريفاً جداً ، فقال : لا ، لا ، لا تدعى أحرمك من مالك . ، إنه سيزوج . فما دافعه إلى ذلك في زعمكم ؟

قالت أم آن :

— الحب ، على ما أرجو .

وقال صاحب الطاحون :

— أحسب أنه المال ، ما دام المال يعوزه .

وقال بوب :

— لا ، بل ، الخنى ، لقد أسامت إليه امرأة ... أسامت إليه إساءة مفرطة . إلى لم أسمع بحالة أشد قسوة في حياتي . والفتى المسكين لم يبيع بأسماء ، ولكن يبدو أن تلك الفتاة عبثت به متوسلة بكل الطرق القاسية ... دفعت به إلى النهر ... وحاولت سرقة حصانه وقتها دعاه داعى الدفاع عن الوطن ... وبجمل القول لأنه عومل معاملة منكرة . ولذلك منحه الجنين وقلت له : « لنشرب الآن نخب سقوط الفاجرة ! »

وقالت آن ، وقد اقتربت من خلفه .

— أوو !

والنفت بوب فرأها ، وانسحب السيد والسيدة لفتى آنذاك خفية من الباب

الخنق ... وقال لها في رقة :

— هل تم الصلح بيننا ؟

وقالت مهتمة :

— أوو نعم . أنا ... لم أقصد أن أحلك على الفظن بأنى لا قلب لى .

وعندئذ دار بوب بوجهه إليها ، فقالت مبتسمة من خلال دموعين آخذتين

في الظهور ، بينما هى تتراجع :

— لا ، فإن عليك أن تبدى السلوك الحسن مدة ستة أشهر ، وينبغي أن تعدنى بأنك لن تخيفنى مرة ثانية بانطلاقك عندما ... أبدى لك إلى أى حد أسأت معاملتى .

وصاح بوب :

— إنى مطيع لك فى كل شىء . ولكن ، هل صفحت عنى ؟

إن الشباب أحق . وهل اعتادت المرأة ، فى مثل هذه الأحوال ، أن يقف لىثاؤها عقلاً للرجل الأفضل ، فى وجه تشبثها المستمر بالرجل الأقل فضلاً ؟ وغنممت بعض العبارات الرقيقة التى انتهت بقولها :

— هل تبت .؟

ومن نقابة القول أن ننقل رد بوب .

وسمع وقع أقدام فى الخارج . وقال بوب :

— أوو ، قسا بالله لقد نسيت ، إنه ينتظر هناك ناراً لإشعال غليونه .

— من ؟

— صديقى دريمان .

— ولكن لا بد أن أشرح لك الأمر يا بوب .

بيد أن فستوس دخل فى هذه اللحظة المنمر ، وتوارت آن مساعدة إلى علو

الدار بعد أن قالت على عجلى :

— تخاص منه على الفور !

وانتظرت هناك ، وطال انتظارها ، ولكن لم يبد أن فستوس يميل إلى الانصراف . وفى النهاية ، إذ توجست تضارب للمصالح من صداقة بوب الأخيرة لهذا الرجل ، دلفت إلى المخزن الذى يقع فوق الغرفة التى توجه إليها لعدى فستوس . وكان من السهل الإشراف من ثقب صغير بأرض ذلك المخزن على منظر من الغرفة الواقعة أسفله من خلال الدعائم والعوارض ، نظراً إلى أن الغرفة كانت غير مسقوفة .

وكان فستوس قد جلس على قاعدة النافذة المجرقة ، وأخذ يواصل ذكر أخطائه . وفكرت آن متوجسة : لو أنه علم فقط أى شىء يجلس عليه ! إذن لاستطاع فى سهولة كبيرة أن يحطم لسان قاعدة النافذة ، والقفل وكل شىء ، بذراعه القوية ! وأن يستولى على ما يملكه العم بنجى المسكين ! ولكن لم يبد عليه أنه يعلم ذلك إلا إذا كان يمثل دوراً ، وهذا ممكن تماماً . وقام بعد برهة ، وانجبه

إلى المنضدة ، ورفع الشمعة ليشعل غليونه . وقتها أخذت النار تفوس في جوف الغليون ، انفتح الباب في سكون ، ومرقت قامة إنسان عبر الفرقة إلى قاعدة النافذة ، وفتحت قفلها على عجل ، وأخذت الصندوق ، وارتدت منسجبة . وتبينت أن في لحظة أن الذي اقتحم الفرقة كالشبح هو عم فستوس دريمان . ووضع فستوس الشمعة في مكانها ، ودار قبل أن يتمكن عمه من الخروج ، وضحك في صخب :

— ماذا ! ... عن بنجي ... ها ، ها ، أنت هنا في هذه الساعة من الليل ؟
وشلت عينا العم بنجي عن الحركة . وأخذه يفتح ويقفل كقم الضفدع عند العطش ، دون أن يحدث صوتا
— ما هذا الذي معك هناك ؟ صندوق من صفيح ؟ .. صندوق الصناديق ؟
كيف هذا ، إني سأحمله لك يا عمي ؟ .. فأنا عائد إلى البيت .
وقال مالك الأرض لاهنا .
— ل ... لا ... لا ، شكر يا فستوس . إنه ليس ... ، ... ثقيل أبدا ، .. شكرا .

وقال فستوس وهو يجذب الصندوق

— أو ، ولكن لا بد لي من حمله .

وصاحت آن المنفصلة من خلال ثقب الثقف :

— لاتدعه يأخذ الصندوق يا بوب !

وصاح العم :

— لاتدعه يأخذه ؟ .. ، إنها خطة مرسومة ، فهناك امرأة تنتظر بالقرب

من النافذة لتعاونه .

وطارت آن ببصرها إلى النافذة ، ورأت وجه ماتيلدا ماتصقا بلوح الزجاج .

وبرغم أن بوب لم يدرك من أين صدر أمر أن فقد أطاعه في نشاط ، وجذب

الصندوق من أيدي العم وابن أخيه ، ووضع على المنضدة بالقرب منه ، وقال :

— خبراني الآن أيها المتحمسان ، مامعنى هذا ؟

وصاح الرجل الهرم :

— إنه يحاول سرقة كل ما أملك ! ويبدو أن أوتار قلبي تتمزق ممقعة !

ودخل صاحب الطاحون الغرفة وقتذاك دون سترة أو صدار ، إذ كان قد وصل إلى هذا الشوط في خلع ملابسه عندما سمع الضجيج . ودار بوب وفتسوس إليه ليشرحا الأمر ، وعندما انتهى هذا الأخير من الإفشاء بما كان عليه أن يقول له ، أضاف بوب مايلي :

— حسنا ، كل ما أعرفه هو أن هذا الصندوق . . .

وهنا مد يده ليضعها على غطاء الصندوق بقصد توكيد قوله . ولكنه دار إذ لم تقابل يده إلا الهواء الخفيف حيث كان الصندوق موضوعا ، ووجد أن مايشير إليه لم يعد له وجود ، وقد توارى العم بنجى أيضا .

وأسرع فتسوس إلى الباب وهو يسب ويلعن ، ولكن لم يظهر للزراع دريمان ولمحله أثر يرغم أن الليلة لم تكن معتمة . والتقى فتسوس على الجسر بامرأة على هيئة ظل ، وسارا في الطريق معا ، وتبعهما بوب على بعد خشية أن يقابلا الرجل الهرم ويؤذيها ولكن حيطته لم تكن ضرورية ، فلم يبد في أية ناحية من الطريق أثر مال للزراع دريمان ، أو للصندوق المختص به . وكانت آن والسيدة لغدى قد انضمتا إلى صاحب الطاحون في سفلى الدار عندما دخل بوب البيت ثانية . ثم عرف هذا الأخير ، لأول مرة ، من تكون بطله قصة فتسوس المحزنة ، وكذلك تفصيل سيرة هذا الفارس المتطوع ، وكان لا يعرف عنها شيئا قبل ذلك . وأقسم أنه لن يخاطب هذا الحائن ثانية . وأوى أفراد الأسرة إلى مضاجعهم .

إن فرار السيد دريمان الهرم من مضايقات ابن أخيه لم يصادفه التوفيق في تلك الليلة فحسب ، بل في الليلة التالية . . . وإلى الأبد . وفي اليوم التالي ، عقب الفجر مباشرة ، رأى أحد الأجراء ، وهو ماض إلى عمله ، رأى ذلك المزارع الهرم المسالك للأرض يتكئ على حاجز في أحد المروج القرية من منزله مشتغلا على ما يبدو ، بتأمل الماء الجاري في جدول باد أمامه . وحادثه الرجل عند اقترابه منه ، ولكن العم بنجى لم يحبه . كان رأسه يتدلى على نحو عجيب ، والذي أمان على بقائه في ذلك الوضع المنتصب هو وجود الحاجز تحت كل من لإبطيه . وقد ظهر من فحص العم بنجى بعد ذلك أن قلبه الذابل المسكين تصدع وتوقفت ضرباته بفعل الأضرار التي ابتلتها استنارات حياته ، لاسيما استنارات الليلة السابقة . ولم ترد جثته الفاقدة الوعي عن قشرة خاوية جفت وتجردت من اللحم

بجثة بلشون ميت وجدوها بأرض سبخة في زهمير شهر يناير .
ولكن لم يجد أحد الصندوق معه أو في مكان قريب منه ودار البحث عنه
طوال الأسبوع ، وطوال الشهر ، فحرفوا الماء من حوض الطاحون ، وفتشوا
الحاجر وسلكوا دروب الغابات ، وعرضوا المكافآت ، ولكن ذهب ذلك
كله سدى .

وأخيرا ، في يوم من أيام الربيع ، بينما هم يشرعون في تنظيف بيت الطاحون
تنظيفا شاملا . . . اقتضى الأمر لإزالة لوح من مدخنة غرفة أن كان يغطي
مدفئة مفتوحة ، وفي شق وراءه بدا صندوق وثائق المزارع دريمان المفقود .

وكثر الحدس والتخمين عن كيفية وصول الصندوق الى ذلك المكان ، ثم
تذكرت أن أنها وهي تأوى إلى فراشها . ليلة الاصطدام بين فستوس وعمه في الغرفة
السفلى ، رأت بعض الطين عالقا ببساط غرفتها . وتذكر صاحب الطاحون أنه
رأى آثار أقدام على السلم الخلفي . وبدا أن حل سر العم بنجى الفقيده ، هو أن
هذا الأخير عاد ثانية بعد خروجه من الباب الأمامى ، وبدلا من أن يغادر
بصندوقه البيت ركضنا دخله من الباب الخلفي ، ووضع صندوقه في غرفة أن
حيث وجدوه أخيرا ، ثم واصل سيره إلى بيته على مهل في أعقاب فستوس ،
ناويا أن يخبر أن بجيلته في اليوم التالى . . . وكانت نية أطاحت بها ضربة الموت
إلى الأبد .

كان محامى السيد دريمان رجلا من كاستربريدج ، وقد وضعت آن الصندوق بين
يديه . ووجدت وصية العم بنجى داخل ذلك الصندوق . وكان صديق آن القديم
العجيب أقامها منفذة وحيدة لوصيته المذكورة . كذلك أوصى لها وورثها بالملكية
العينية والشخصية لضيعة . ولم يستثن من توريثها ما يملك إلا خمسة منازل صغيرة
في شارع خلفي ببلدة بور سماوث ، فقد ورثها فستوس ، ابن أخيه ، لتكون له
ملكاً يدر عليه دخلا يحفظ كرامته دون أن يتجاوز ذلك حدود العيشة الحالية
من البنسخ ، أما أو كسويل هول ، بساحته المربعة المملوءة طينا ، وديواكيه ،
ونوافذه ذات الفواصل ، وأسواره المصدعة ، وحديقته المشوية بالحشائش ؛ فقد
آلت ملكيته ، مع غيره من مال المتوفى ، إلى آن .

جون يمضى إلى

جوف الليل

(٤١)

لم يكن جون لفدى ، خلال ذلك الوقت المثير ، يحضر إلى الطاحون لإلنادرا ، أو لم يكن يحضر إطلاقا . وقد بدا أن مهمته تمت ، باستدعاء بوب ، وكان هو القائم الوحيد بهذه المهمة .

وفى ظهيرة يوم من الأيام ، قبل أن تدخل أن أى تغيير على سبل حياتها بعد الإرث الذى فازت به دون توقع ، حضر الملازم بوب ، وكان حضوره لجأة نوعا ما ، فقد جاء من بودماوث ، وأعلن للأسرة التى استحوذ على حواسها أن الأمر صدر لفرقة الدراغون رقم . . . بالانضمام إلى جيش سير آرثر ويلزلى فى شبه الجزيرة ، وقد أحدث هذا النبأ تأثيراً شديداً وقع على أفراد الأسرة ، فإن جون أقام فى جوارهم مدة طويلة جداً ، سواء فى المعسكر أو فى الكنكات ، إلى حد أنهم كادوا ينسون احتمال إبعاده . وأخذوا الآن يفكرون فى غرابة ندرة زياراتهم منذ عودة أخيه . ولم يكن هناك ، مع ذلك ، متسع من الوقت للتفكير فيما إذا أرادوا الإفادة ، بقدر الاستطاعة ، من زيارة جون لوداعهم . فهو سيقوم بها فى ذلك المساء نفسه نظرا إلى أنه قد تقرو رحيل فرقته فى اليوم التالى . وأعدوا عشاء وداع ، أثناء العصر ، على عجل . ووصل جون بعد ذلك بقليل .

وبدا أكثر استغراقا فى التفكير من ذى قبل ، وازداد شغوبه قليلا ، ولكنه لم يبد أى علامة من علامات التجهم علاوة على تلك الآثار التى قد ترجع إلى فعل الزمن . وقد وقع له فى ذلك الصباح نفسه ، بينما كان يجتاز البلدة ، حادث صغير غريب . كان يمر بإحدى الكنائس وقتها خرجت منها جماعة تحتفل بعرس ، وإذا العروسان ماتيلدا وفستوس دريمان . وعندما رأى الفارس المتطوع ، جالوش البوجى ، سدد إليه نظرة انتصار . وغرزت له ماتيلدا فى خبث ، وكأنما أرادت أن تقول . . . ولكن الله وحده يعرف ما عنته . ولم يزعج

جاويش البروجي نفسه بالتفكير في هذا . ومردون أن يجيبها على علامة الثقة التي خصته بها .

وعلى أثر وصول جون إلى الطاحون جاء كثيرون من أصدقائه لنفس الغرض ، وهو توديعه . وكان أغلبهم من الرجال الذين استضيفوا فيما مضى بمناسبة مجيء فرقته وعسكرتها في التل ، وقد جاملتهم آن وأما عند ذاك باشترا كلها السامى في الحفل . وكان الجنود المدربون المهذبو السلوك على خلق جعلهم حينذاك ، كما كانوا في كل وقت ، زوارا يثيرون الاهتمام . ذلك لأن الجوالخيالى العاطفي لم يكن قد تقلص عن الحياة العسكرية تقلصا كبيرا كما هو الواقع هذه الأيام التي قصرت فيها مدة الخدمة ، واختلط فيها الجند غير متجانسين ، وأصبحت حملاتها العسكرية قصيرة عابرة . كانت روح الجندية وقتذاك قوية ، والخبرة الطويلة تطبع حتى الجنود العاديين بطابع ذى خصائص عسكرية جديدة بالتنويه ، بينما امتاز زوار صاحب الطاحون بميزة إضافية وهي أنهم كانوا رجالا مختارين .

ولم يستطع أولئك الزوار أن يكتبوا هذه الليلة مدة طويلة كما مكثوا في ذلك الحفل الأسبق ذى المناسبة الأكثر بهجة . وتبدلت عبارات الوداع الأخيرة في ساعة مبكرة . ولم يكونوا لدى رحيلهم مجرد عاشقين على نحو ما كانوا عليه عندما ذهبوا إلى ثكنات لا كزنيورى ، وطالت مصالحة بعضهم لبعض جميعاً في حرارة . وقال بوب لأن التي لم تأت لهذا الغرض كالباقين :

— ألا تودعين أولئك القوم المساكين ؟ فهم سينصرفون ويودون أن تسيبهم بكلمة طيبة .

وتقدمت عندئذ خجلى ، وشعر كل رجل منهم بأن عليه ، وهو يصالحها ، أن يلقي بضع كلمات لطيفة .

وقال الجاويش بريت :

— استودعك الله ! يمكنك أن تذكرنا ما دام ذلك يساعدك ، وأن نسينا

وقتما يحزنك .

وقال الباشجاويش ويلز ، وهو يتناول يدها من بريت :

— مساء الخير ! آتمنى لك الصحة والرخاء وطول العمر !

وقال جندي البروجي بوك :

— أأمل أن أراك ثانية وأنت زوجة رجل كبير القدر .

وقال الجايش السروجي جوزو وهو يرفع يدها إلى شفتيه :

— فسفر ب نخبك دائماً خلال غزوتنا ، وعلى ذلك أستودعك الله .

وتبع هؤلاء ثلاثة آخرون تمنوا لها تمنيات مماثلة ، وأجابت أن على كل منها بأحسن ما استطاعت ، مصطبغة الوجه خجلا ، متمنية لهم بدورها رحلة موفقة ، وانتصاراً سهلاً ، وعوداً سريعاً .

ولكن ، أسفاً على ذلك المعارك والمناوشات ، والكرواقر ، والأمراض والمتاعب أثرت تأثيراً بليغاً في أصدقاء أن الأفاضل خلال السنوات التالية . فن بين الرجال السبعة الذين خصتهم آن بتلك التمنيات ، مات خمسة كان جاويش البروجي واحداً منهم ، وذلك خلال السنوات القليلة التالية ، وتركت عظامهم لتتخثر في أرض المعارك التي خاضوها .

وتريت جون متخلفاً عن الباقيين عندما خرجوا ، بعد أن أفضى بمبارات وداعه الأخير لأبيه ولبوب والسيدة لفتدي ، جاء إلى أن التي ظلت في الداخل .

قالت له في رقة :

— ولكنني ظننتك ستظل علينا ثانية قبل رحيلك ؟

— لا ، فأنا أجد ذلك غير ممكن . أستودعك الله !

وقالت آن وهي تمسك يده بكلتي يديها :

— جون ! هناك شيء لا بد أن أفضى به إليك . لقد كنت حكيماً حين لم تعيدني بكلتي في ذلك اليوم ، فإني لم أكن مدركة لحقيقة شعوري . ففران الجليل ليس حياً برغم أني أردت أن أجعله كذلك بمرور الزمن . وأنت لن تصفي بالطيش لما أقدمت عليه ؟

فقال جون وهو أميل إلى البشاشة منه إلى الصدق :

— يا عزيزتي آن ، لا تسلي نفسك إلى الكدر ، فالذي حدث هو الأوفق .

إن قلب الجندي ينتقل كل يوم من مكان إلى مكان . ومن يدريك أنك لن تسمعي عن اهتمامي بفتاة أسبانية قبل مرور شهر واحد ؟ إن هذه هي طريقتنا كما تعلمين

نقلب الجندى غير جدير بأن يطارد أسبوعا .. ها ، ها ، وداعا ، وداعا !
وشعرت آن بتدبير هذا الأسلوب ، وقبالت تصنعه على أنه حقيقى ، وأجابته
مبتسمة دون أن تعلم أن هذا الوداع هو الاخير . ثم خطا إلى خارج البيت وفى
عينه دمة . وودع هناك صاحب الطاحون ، والسيدة لفسدى ، وبوب الذى
قال له :

— لا بأس يا جاك ، يا صديق العزيز . فبعد مغازلات كانت كافية للفوز
بثلاث فتيات إنجليزيات عاديات ، وخمس فرانسيات وعشر خلاسيات (١) ،
رضيت بى زوجا فى نهاية ستة أشهر . وداعا يا جاك ، وداعا !

وألقت الشمعة على جون وسرته العسكرية نورها المرتعش وهى فى يد أبيه ،
بينما كان ذلك الجندى يدور مغادرا عتبة الباب ، وعلى ثغره ابتسامه وداع ، وقام
ظلام الليل من ورائه ، وبعد مرور دقيقة أخرى غاص فى الظلام ، وأخذ رنين
خطواته النشطة يتبدد فوق الجسر وهو يلحق بزملاته فى السلاح .. ومضى لينفخ
فى نفيره حتى صمت إلى الأبد فى إحدى المعارك الدامية فى إسبانيا .

{ تم } {

الناشر
دار الفكر العربي

Bibliotheca Alexandrina



0694863

مطبعة الاستقلال الكبرى
٨ ش نجيب الريحاني ت : ٤٧٤٨٦